تاريخ العرب والإسلام

منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد

الدكتور
سهيل زكار

دار الفكر
بيروت

الطبعة الثالثة
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

تاريخ العرب والاسلام

مقدمة

قام منذ عدة سنوات الدكتور عبد العزيز الدوري بزيارة لمدينة دمشق لإلقاء بعض المحاضرات على طلاب قسم التاريخ في كلية آداب جامعة دمشق، وهناك تعرفت إليه للمرة الأولى ، وجرى خلال اقامته في دمشق ، أكثر من لقاء تبودلت فيه الأحاديث حول التاريخ الاسلامي ومصادره والجديد من الأبحاث حوله ، وكان كتاب Cambridge History of Islam من جملة الكتب التي أتي على ذكرها ، فذكر الدكتور الدوري أن هذا الكتاب الحديث الصدور ما هو إلاّ مؤشر على بداية غروب شمس الاستشراق ، ذلك أنه لا يفي بالغرض ولا يرقى إلى مستوى الحاجة العصرية ، وهنا قلت : أما آن الأوان للعرب أن يشرعوا في العمل على كتابة تاريخهم ، ذلك أن الأمة العربية تحوي بين صفوفها عدداً كبيراً من الاختصاصيين الذين يمكنهم تحمل أعباء مثل هذا العمل ، ثم إنه بالامكان الحصول على ما يحتاج إليه من مصادر سواء المطبوع منها أو المخطوط ؟ ! .

يضاف إلى هذا أن كتابة التاريخ العربي هي ضرورة قومية وانسانية حضارية، وقبل الاستطراد في هذا المجال وافق الدكتور الدوري والحضور على أهمية الفكرة، وقال الدكتور الدوري إنه قبل البحث في خطط العمل ومخططاته ينبغي تأمين المورد المالي لنفقات المشروع فبدون ذلك لا يمكن القيام بأي عمل، وهنا انبرى الدكتور محمد خير فارس – وكيل جامعة دمشق – فقال إنه يستطيع أن يسعى لتأمين النفقات من وزارة الدفاع ، فوزير الدفاع – اللواء مصطفى طلاس – معروف بشدة حماسه للثقافة والتاريخ وهو بلا شك سيتبنى المشروع والانفاق عليه .

وبعد أيام التقيت بأحد المسؤولين وعرضت عليه المسألة ، فكان جوابه : ألا ترى في هذه المسألة بعضاً من الخيال وأنه « بكير على الأمة العربية حتى تقوم بمثل هذا العمل » ؟ فأجبته : إننا إذا نظرنا إلى المسألة من الواقع القطري ففي قولك بعض الصحة ، أما على صعيد الأمة العربية فقد حان الوقت .

وكان الدكتور الدوري الذي أبدى استعداده للتفرغ للعمل بالمشروع قد غادر دمشق ، ونامت الفكرة بسفره ولم يتم عرضها على وزير الدفاع أو سواه، والحق أنها ظلت حية في خاطري ، يقظة في نفسي ، إلى أن كان عام ١٩٧٣ حيث ذكر لي الزميل الدكتور ابراهيم بيضون المدرس في كلية الآداب بالجامعة اللبنانية ببيروت بأن قسم التاريخ أقرّ تدريس مادة جديدة تكون بمثابة « مدخل إلى تاريخ العرب العام » وأن تدريس المادة سيوكل إليه ، وهو في حيرة من أمره في اختيار مرجع اساسي يحيل عليه الطلبة .

وبدلا من أن أقترح عليه اسم كتاب اقترحت بأن نعمل معاً على صنع كتاب جديد يتناول الجانب السياسي من تاريخ العرب منذ ما قبل الاسلام وحتى سقوط بغداد ، وبالفعل قمنا معاً بتنفيذ ذلك ، وصدر « كتاب تاريخ العرب السياسي » ولاقى من القارىء العربي قبولا جيداً وتشجيعاً ، حتى كادت الكمية المطبوعة أن تنفذ في عدة أشهر .

وقد جعلني هذا ، مع ضرورة تطوير البحث التاريخي وتعميقه أقرر أن علينا الشروع في العمل على اعادة النظر في الكتاب تقويماً وتطويراً ، وتنفيذاً لهذا وجدت عندما قرأت الكتاب مجدداً أن عليّ إعادة تأليف الكتاب ، والذي دفعني إلى هذا بشكل أساسي حتمية ضرورة اعادة العمل بالبحث التاريخي دائماً على ضوء المعطيات الفكرية العصرية وأهم من هذا على ضوء ما يتعرف إليه الباحث من مصادر جديدة .

وقضت ضرورات الأحوال والظروف أن أتحمل وحدي أعباء العمل ، فكان أن قمت بإعادة كتابة الكتاب، وأضفت إليه أبحاثاً جديدة وخاصة فيما يتعلق بتاريخ المغرب العربي والأندلس .

وفي كل ما كتبته وبحثته جهدت قدر طاقتي أن أقدم للقارىء زبدة الأفكار وأحسن المعرفة مع الالتزام الجدي بالحياد والأخذ بمبادىء العلم ومناهج العلماء ، وليس لي أن أدعي الكمال ، ولا القول بأنني وصلت الغاية ، فبيني وبين الكمال ما بين كل انسان وبينه ، ثم أن الغاية أبعد من إن تُدرك أو يتوصل إليها انسان في مجال البحث التاريخي مهما كان اونه أو نوعه .

ورغم هذا فرجائي عظيم وأملي كبير بأن يجد القارىء العربي — بشكل خاص — الفائدة في الاطلاع على أبحاث الكتاب ، وأن يرى في هذه الأبحاث حافزاً نحو زيادة المعرفة ، وعميق البحث العلمي الناقد للتوصل إلى الصورة الأصح للماضي العربي .

وسأظل متابعاً البحث على تطوير هذا الكتاب وجعله أكثر شمولا ، وخطتي المرحلية الآن العمل على إكمال أبحاثه بمجلد جديد يغطي الفترة الفاصلة ما بين سقوط بغداد وسقوط الامبراطورية العثمانية ، ومن ثم محاولة الكتابة في الجوانب غير السياسية مثل الاقتصادية والحضارية والعسكرية إلى غير ذلك .

ولا يسعني الآن إلا أن أتقدم بشكري للدكتور بيضون ، ثم للسادة أصحاب مكتبة دار الفكر لعنايتهم بنشر الكتاب وايصاله للقارىء العربي في كل مكان ، وأخيراً لكن ليس آخراً إلى جميع الزملاء والأصدقاء الذين لقيت منهم التشجيع والعون ، وكذا الذين واجهوني بالتحدي المثبط ، ذلك أن التحدي من الأمور الحافزة .

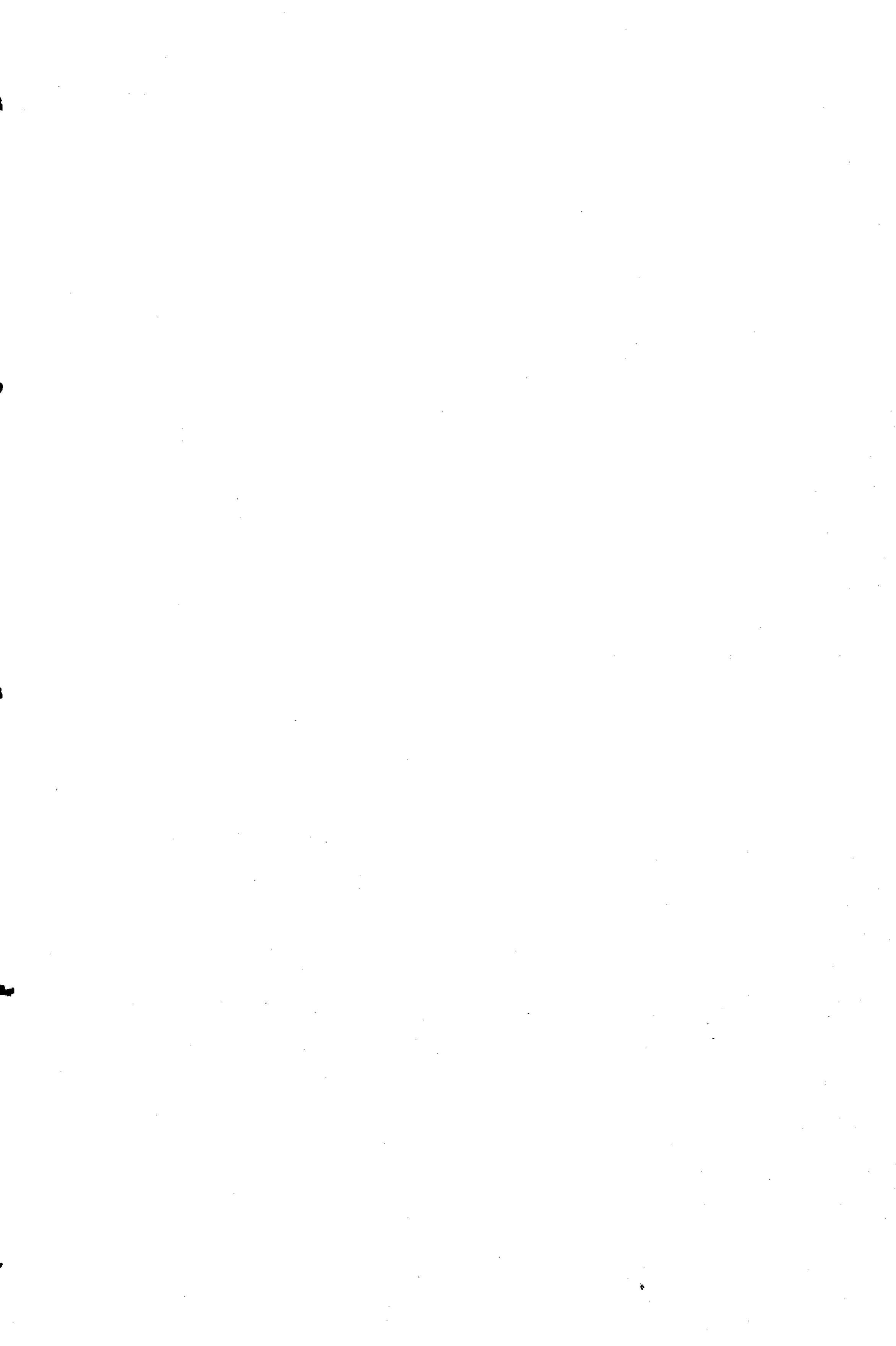
والحمد لله وحده والصلاة والسلام على مثلي الأعلى
سيد العرب والبشر نبينا محمد بن عبد الله .

سهيل زكار

دمشق في ١٣ — ٥ — ١٩٧٥ .

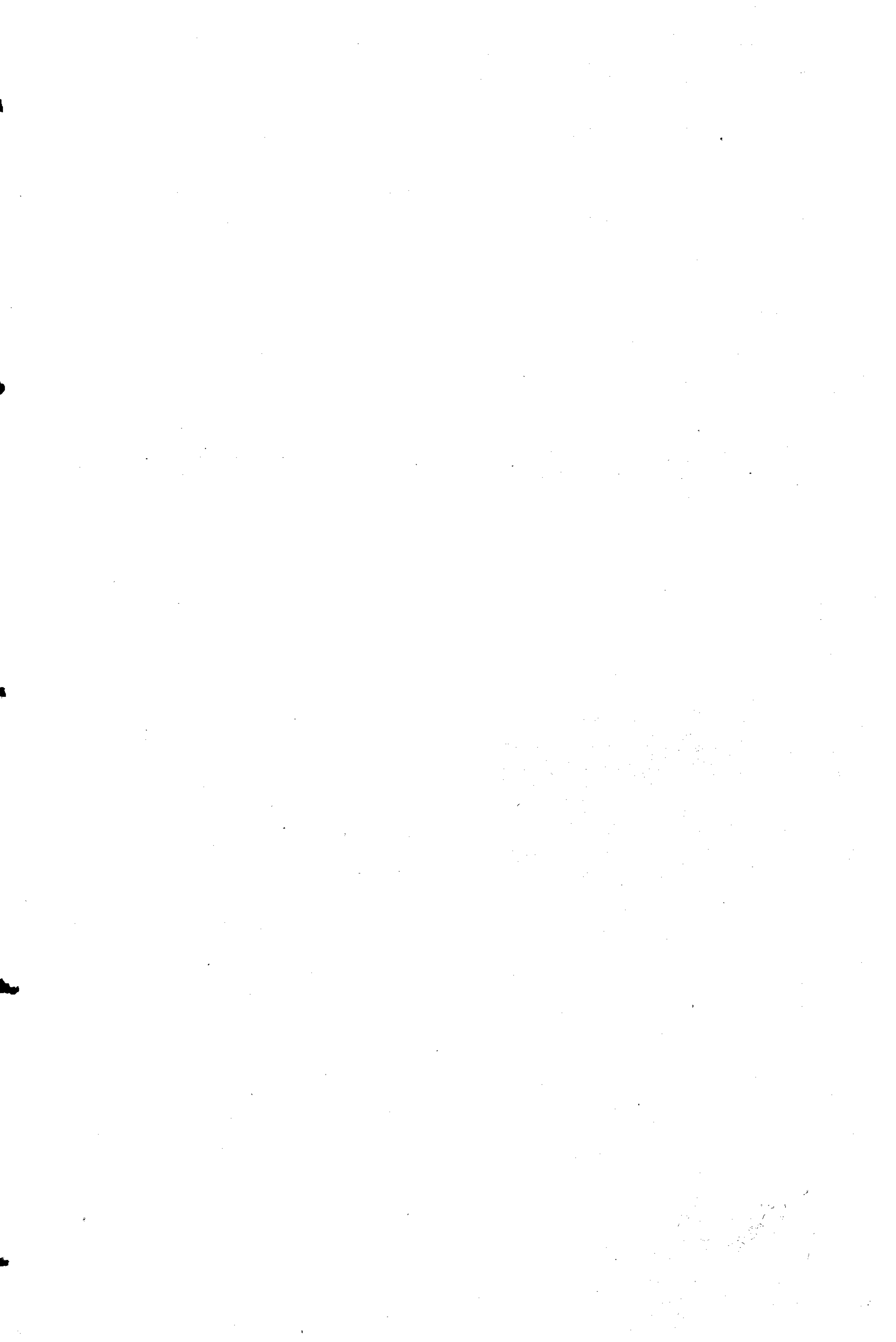
الباب الاول

عصر النبوة والخلفاء الراشدين



الفصل الأول

العرب في العصر الجاهلي



بسم الله الرحمن الرحيم

لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

(القرآن – سورة قريش)

كثيراً ما يسمع انسان عالمنا المعاصر في مختلف أصقاع دنياه وفي مناسبات مختلفة لفظة « عرب » وهي ممزوجة بمعظم مناحي الحياة ومجالاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية والحضارية ، وأمام هذا الحال كثيراً ما يطرح السؤال التالي : من هم العرب ، ومتى وجدوا ، ثم ما الذي أنتجوه وشغلوه خلال تاريخ الانسانية الطويل ؟

إن الإجابة على هذا السؤال مستطاعة ، إنما تنفيذها ليس هيناً ولا سهلا البتة ، ذلك أنها تحتاج وقتاً مديداً ، ومصادر عديدة مع امكانات مادية كافية . وهذا كله غير متوفر للباحث العربي المعاصر ، لأنه لا يملك وقتاً ليوقفه على البحث الطويل الدؤوب ، وليس تحت تصرفه جزء مما يحتاجه من المصادر وأدوات البحث ، وليس هناك حاجة للحديث عن الامكانات المادية ؛ فعلى الرغم من ثراء العرب المادي العظيم ، فان الباحث العربي يعاني من ضنك العيش بقدر ما يعاني – إن لم يكن أكثر – من الإضطهاد الفكري والملاحقة .

لذا لعله – وهذا أضعف الايمان – يكفي الآن القول بأن عرب العصر الحاضر هم مواطنوا مجموعة الدول العربية (١) ، وهم – رغم أن ما من واحد منهم قد دوّن على تذكرة هويته أو جواز سفره عبارة«عربية»وذلك أمام لفظة « الجنسية » – يشكلون أمة تسكن أرضاً ذات امتداد جغرافي واحد متصل

---

١ – هناك أعداد كبيرة من العرب يعيشون داخل دول غير عربية مغتصبة لبعض الأراضي العربية ، كما هي الحال في ايران وتركيا وفلسطين المحتلة .

ومتكامل بنفس الوقت ، وهي أمة متجانسة الأفراد لغة وحضارة وتاريخاً ، وهي ايضاً ذات عقائد ، وآمال ، ومشاكل ، وآلام متشابهة ، وأهداف متجانسة ، ونضال في سبيل غايات متفق عليها غير مختلف .

ولقد وجد أصل هذه الأمة مذ وجد التاريخ ، وهي قد تكونت خلال حقبه وفتراته ، وقد أقامت جماعات منها حضارات مزدهرة أسهمت في تقدم الانسان ورقيه اسهاماً كبيراً ومؤثراً ، كل هذا على الرغم من أن أقدم إشارة تاريخية مدونة ورد فيها كلمة عربي يعود تاريخها فقط إلى سنة ٨٥٣ ق. م. حيث وردت في نص آشوري َدوَّن أحد انتصارات الملك الآشوري شلمنصر الثالث .

لكن من المعروف أن صفحات الكتاب المقدس تحوي إشارات واضحة وصريحة لكثير من اسماء الأفراد والاماكن العربية وهي إشارات أقدم من شلمنصر الثالث سواء من ناحية الرواية أو المصدر ، وبعد هذين المصدرين نجد أن اعمال الكتّاب الكلاسيكيين تحوي معلومات مفيدة عن العرب ، وهذه المعلومات جميعاً قد توضحت واتسعت وتدعمت بالاكتشافات الأثرية ، لكن ــ كما أسلفت ــ إن خوض غمار تفاصيل هذا البحث غير ممكن الآن ، يضاف إلى ذلك أن النتائج المباشرة التي يمكن تحصيلها قد لا تكون ذات قيمة كبيرة مؤثرة مباشرة ، ذلك أن العرب قد دخلوا التاريخ من بابه العريض بشكل فعال ومؤثر مع ظهور محمد وانتشار الاسلام ؛ وما جاء به محمد رغم جذوره التاريخية البعيدة ، وأصوله الأولى ، جاء جديداً بروحه ، مجدداً لحياة العرب ، خلاقاً وموجداً بشكل عملي لما ندعوه الآن بالأمة العربية .

إن البحث في حياة محمد واعماله يحتاج قبل كل شيء الى التعرف إلى طبيعة البيئة التي ولد فيها ونشأ وبشّر ثم عاش مع أصحابه الذين آمنوا به واتبعوه ، وذلك من كافة الجوانب البشرية والثقافية والعقائدية والاقتصادية والسياسية والحربية وغير ذلك على الأخص تاريخها القريب المباشر .

ولد محمد في مدينة مكة التي هي إحدى كبريات مدن شبه جزيرة العرب ،

أو بالحري « جزيرة العرب » وهي البلاد التي تمتد جنوباً إلى شواطىء اليمن وشمالا إلى بلاد الشام ، وغرباً إلى خليج العقبة فسواحل البحر الأحمر ، وشرقاً إلى اطراف عُمان والبحرين فالبصرة وشط العرب ، وهي على هذا تسمى « جزيرة العرب » « لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها » .

ولقد قسم العرب القدماء جزيرتهم هذه إلى خمسة أقسام هي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتتكون تهامة من السهل الساحلي المنخفض ، ويفصل هذا المنخفض عن الداخل سلسلة جبال السَراة ، وقد دعيت هذه السلسلة باسم الحجاز لقيامها بعملية الحجز والفصل هذه ، وتدعى المنطقة الداخلية باسم نجد لأنها تتكون من هضبة ، والنجد في اللغة ما ارتفع من الأرض . ويشمل قسم العروض اليمامة والبحرين ، وتضم اليمن أخصب أراضي الجزيرة ، ومن الخصب جاء اسم اليمن الى العربية وترجم الى اللغات الكلاسيكية « بلاد العرب السعيدة » (١) Arabia Felix

ولقد دلت الأبحاث الجيولوجية التي قامت في الجزيرة مع رحلات البحث الجغرافية التاريخية بأن الجزيرة قد كانت في احدى الفترات السحيقة بلاداً خصبة . ثم تعرضت لجفاف ربما حدث تدريجياً خلال فترات طويلة من التاريخ ، وقد تعاون هذا الجفاف مع ازدياد السكان فنجم عنه دفع أعداد كبيرة منهم للهجرة غالباً إلى الشمال ؛ الى اطراف الجزيرة ثم إلى خارجها حيث بلاد الهلال الخصيب وأحياناً إلى الجنوب فأفريقية وكان بعض المهاجرين الى بلاد الهلال الخصيب يتابع طريقه إلى مصر .

وقد فرضت الطبيعة المتقلبة للجزيرة العربية مع شح الأمطار وقلة المياه على سكانها نموذجاً من الحياة اتسم بصفة عامة بعدم الاستقرار ، وطبعتهم بطبائع وأخلاق خاصة ، لهذا فان أكثرهم بادية يعتمدون على المال السارح وهم « حسنة أخلاقهم ، جميلة هيئتهم ، سهل عيشهم ... ولهم نفاذ في التجارة

---

١ – صفة الجزيرة : ١ – ٤٩ .

والاخذ والاعطاء ، وملاءمة للمذاهب الجميلة والمعالي والرياسات » (١) .

ولقد كان التحرك البشري الدائم وعدم الاستقرار في الموطن داخل الجزيرة إحدى سمات الحياة فيها ، وكان بداة الجزيرة يتدفقون بشكل مستمر على بلاد الشام والرافدين ذواتا الحياة المدنية والخصب والمياه والاستقرار ، وكان هذا التدفق يتم إما على شكل أفراد أو أسر ، أو على شكل جماعات متفاوتة الحجوم بلغ بعضها من الضخامة ما جعل المؤرخين يشبهونها بأمواج البحر .

وفي تاريخ هجرة العرب من شبه الجزيرة هناك عدد من الأمواج ، تدفق أولاها – حسب ما لدينا من معلومات – في منتصف الألف الرابع ق. م ، وقد تبع هذه الموجة عدد آخر من الأمواج دعيت « اصطلاحاً » باسم « الهجرات السامية » ، ولقد كان أهم هذه الهجرات وأبعدها أثراً تلك التي تمت في القرن السابع للميلاد بسبب قيام الاسلام وبغية نشر دعوته ، ولم تتوقف الهجرة من الجزيرة إلا اخيراً بعد اكتشاف النفط في شبه الجزيرة وقيام حياة فيها مال ورفاه وبالتالي خطط بناء وأعمال استقرار .

وقد صبغت هذه الهجرات منذ ما قبل قيام الاسلام بلاد الهلال الخصيب – ومصر إلى حد كبير ثم شمال أفريقية – بالصبغة العربية ، ولقد تأكدت هذه الصبغة وثبتت بعد انتشار الاسلام وقيام الدولة العربية الكبرى .

وعلى الرغم من أن الطبيعة البدوية قد سيطرت على غالبية سكان الجزيرة فقد عرفت أجزاء من الجزيرة خاصة على الأطراف – حيث تتساقط كميات كافية من الأمطار للزراعة – الحياة المستقرة وقامت فيها مدن ودول ذات حضارات زراعية تجارية صناعية ، وأشهر المناطق التي عرفت هذا النموذج من الحياة وأعرقها فيه هي اليمن في الطرف الجنوبي للجزيرة .

---

١ – صفة الجزيرة : ٣٧ .

أحوال الجنوب

تميزت اليمن بتاريخها الطويل المديد القدم ، وبشخصيتها المتباينة عن بقية أجزاء الجزيرة التي لا تزال معلوماتنا التاريخية عنها قليلة مغلفة بالاسطورة والخيال ، ففي اليمن وجدت منذ عهود مبكرة قبل الميلاد مجتمعات متحضرة اعتمدت الزراعة والصناعة والتجارة ، وأقامت مدناً فيها المعابد والأسواق والقصور وبيوت السكنى ؛ وعرفت في الريف نظاماً زراعياً متقدماً على الأخص بجوانب السقاية والري حيث تم جر المياه وأقيم العديد من السدود ، وتحوي اليمن الآن خرائب الكثير من السدود بينها سد مأرب الذي هو أشهر سد في التاريخ .

إن بقايا حضارة اليمن المتقدمة منتشرة الآن في كافة أجزاء اليمن وهي ما تزال تنتظر أعمال البحث والتنقيب لتبوح بالكثير الكثير من المعلومات عن تاريخ دول مثل :

دولة معين

التي قامت في شمال اليمن في منطقة الجوف ، ودعيت عاصمتها باسم قرنا و(اسمها اليوم معين) ، وقد كانت هذه العاصمة في البداية محطة للقوافل ثم غدت سوقاً ذا نشـــاط محلي فنشاط خارجي ومحلي في نفس الوقت ، وقد امتد النشاط الخارجي لتجار معين حتى شمالي الحجاز أو أبعد من ذلك ، وعاشت دولة معين بازدهار ونماء — حسب بعض التقديرات — طيلة الفترة الممتدة ما بين القرن الثامن والقرن الثالث ق. م. وعندما دب الضعف في أوصال دولة معين استولى على أملاكها دولة يمنية أخرى هي :

دولة سبأ

التي اتخذت من مدينة مأرب عاصمة لهـــا ، ولسبأ في الأدب العربي شهرة واسعة لا تضاهيها شهرة ، ومرد ذلك لما تمتعت به هذه الدولة من تقـــدم وحضارة وقوة ونفوذ ، ثم لورود ذكرها في الكتاب المقدس الذي تحدث

عن زيارة ملكتها للنبي سليمان وعن جنبها له هدايا ثمينة فيها ذهب ومجوهرات وتوابـل ؛ وقصة الكتاب المقدس هذه قد أوردهـا القرآن الكريم في سورة النمل [الآيات ١٩ — ٤٤] لكن من فحص قصتي الكتاب المقدس والقرآن الكريم يمكن الاستنتاج ان سبأ التي زارت ملكتها النبي سليمـان هي غير سبأ اليمن ،وهي لربما كانت عبارة عن قبيلة أو جماعة من الجماعات التي كانت تسكن طرفاً من أطراف فلسطين ،ربما القريبة من مصر والمتأثرة بها من ناحية العقائد التي احتلت فيها الشمس مكاناً عليا .

ومرة اخرى تحدث القرآن الكريم عن سبأ في سورة تحمل اسمها (سورة سبأ الآيات ١٤ — ٢١) ويبدو هنا من وصفها ووصف بعض ما حدث فيها أن سبأ هذه السورة هي سبأ اليمن التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية الكلاسيكية وفي سواها ، وسبأ اليمن قطعاً لم يمتد نفوذ النبي سليمان إليها ، ذلك أن حدود دولته لم تتجاوز جزءاً من فلسطين الحالية ؛ وكانت هذه الدولة من التأخر والضعف بمكان إلى حد أنه لم يوجد فيها من يستطيع القيام ببناء معبد عزم على بنائه ، فجلب عدداً من البنائين من لبنان ، وهؤلاء جلبوا معهم خشب لبنان وعاداته وعقائده المغايرة لعقائد سليمان وأثبتوها في المعبد .

ولقد أتت المصادر الكلاسيكية على ذكر دولة سبأ اليمن وتحدثت عنها في أكثر من مناسبة خاصة عندما عزمت روما على احتلالها والحاقها بامبراطوريتها في عهد أغسطس فأرسلت في « ٢٥ — ٢٤ » ق. م ضدها حملة بقيادة أليوس جللوس ، وكان نصيب هذه الحملة الاخفاق بسبب أحوال الأرض التي قاتلت فيها ولبعد هذه الأرض عن القواعد الرومانية وأخيراً ، لكن ليس آخراً ، للمقاومة التي أبداها السبأيون الذين كانوا آنئذ يعيشون في ذروة قوتهم وعظمتهم.

وضعف بعد هذا بفترة طويلة شأن سبأ ، وكان هذا الضعف واحداً من النتائج التي نجمت عن انهيار روما وانتشار المسيحية في الغرب ، وسنعلل هذا الأمر بعد قليل وسنشرحه . وقد نجم عن انهيار سبأ نتائج كبيرة للغاية ومؤثرة أشد التأثير على شبه جزيرة العرب وعلى سكانها .

وبعد انهيار روما ورثتها القسطنطينية التي كانت احدى بلدان امبراطوريتها ، وهكذا حل محل روما امبراطورية بيزنطة المسيحية ، وأيضاً في اليمن ورث دولة سبأ احدى قبائلها القوية وهي قبيلة حمير ، وكما يمكن للباحث القول بأن روما في الغرب زالت لتحل محلها روما في الشرق التي هي استمرار لها فإن دولة حمير هي استمرار لدولة سبأ ، هذا وتتحدث الروايات العربية كثيراً عن:

دولة حمير

التي يبدو أنها لم تتمتع بقوة سبأ ولم تصل الى نفس المكانـة التي وصلتها سبأ حضارة واستقراراً ورفاهاً ، لكن مثلها مثل سبأ تعرضت دولة حمير لضغط الامبراطورية الرومانية الشرقية ولتهديدها ، واعتمدت بيزنطة المسيحية في سبيل بسط نفوذها على اليمن على الضغط الاقتصادي والتهديد السياسي وعلى جيش من المبشرين والرهبان ورجال الكنيسة ؛ وعلى دولة الحبشة النصرانية . ومنذ النصف الثاني للقرن الرابع للميلاد نشط المبشرون النصارى نشاطاً كبيراً في جنوب شبه الجزيرة وغيرها من المناطق ، وكان معظمهم مـن السريان ، وقد حقق هؤلاء المبشرون أعظم نجاحاتهم بين قبائل أطراف اليمن في نجران وما جاورها وفي داخل اليمن نفسها ، وجاء في المصادر السريانية أنه «في حدود سنة ٣٥٤ م بعث القيصر قسطنطيوس الآريوسي الى البلاط الحميري وفـداً برئاسة تاوفيلس السيلاني الهندي فنصَّر الملك وبنى في بلاد حمير ثلاث بيع ».

هذا من جهة ومن جهة أخرى تفيد المصادر العربية بأن أحد أمراء حمير الذين تحولوا الى النصرانية ويدعى عبد كاليل أو (عبد كلال) قام في حوالي النصف الثاني من القرن بثورة دينية نصرانية، واستطاع الاستيلاء على العرش ، ويبدو أن جميع الذين خلفوه على الحكم في اليمن حتى الربع الأول من القرن السادس قد دانوا مثله بالنصرانية .

ويبدو أن الجزيرة العربية كانت مسرحاً لنشاط جميع فئات النصارى ولا يستبعد انها كانت ملاذاً للفئات المتطرفة التي آمنت بناسوت المسيح ورفضت

روايات الصلب وعقائد التأليه، وسيظهر أثر ـ مع صدى ـ افكار مثل هذه الفئات جلياً فيما بعد في روايات القرآن الكريم عن المسيح ، لكن المبشرين النصارى لم يكونوا وحدهم النشطين في اليمن وبقية أجزاء الجزيرة بل سبقهم للعمل هناك اليهود . وكان اليهود قد حققوا قبل قيام المسيحية بعض المكاسب وعلى الأخص في منطقة مدينة يثرب ووادي القرى ، وقام صراع حاد بين اليهودية والنصرانية في شبه الجزيرة حفظت لنا المصادر العربية والسريانية بعض أخباره، ففي المصادر العربية أن بعض خلفاء عبد كاليل قد قام بعدد من الحملات العسكرية ضد يهود المدينة بغية القضاء عليهم لكن كان ما حققوه نجاحاً جزئياً فقط .

واستمر الصراع بين النصرانية واليهودية ؛ ونظراً للإرتباط العام للنصرانية ومبشريها بمصالح بيزنطه التي كانت تطمح وتعمل للسيطرة على اليمن فقد ولّد هذا ردات فعل وصلت إلى حد دفع بعض نبلاء اليمن الحميريين الى اعتناق اليهودية ، وقام أحد هؤلاء واسمه ذونواس باحداث انقلاب ضد ملك اليمن ، وكان هذا في الربع الأول من القرن السادس للميلاد ، وأخذ ذونواس بعد استيلائه على السلطة يتصدى للنصرانية في بلاد اليمن ، فمارس ضد النصارى ضغطاً وتنكيلا شديداً بلغ ذروته في مذابح نجران التي تعرف باسم مذابح الأخدود الوارد ذكرها في القرآن والتي حفظ الأدب السرياني لنا تفاصيل وقائعها ، ونجم عن هذا كله ان وجدت بيزنطه حافزاً جديداً وسبباً مسوغاً لغزو اليمن ، فأرادت ارسال حملة لاحتلالها ، لكن لما كانت بيزنطة عاجزة عن القيام بمثل هذه الحملة ، ثم ربما لأنها اتعظت بمصير حملة أليوس جللوس فقد طلبت من دولة الحبشة النصرانية توجيه حملة ضد اليمن وقدمت لها بعض تسهيلات النقل البحري ، واستطاع الأحباش فتح اليمن والقضاء على ذي نواس وأسرته اليهودية ، ثم حاول الأحباش بعد ذلك مد نفوذهم السياسي والديني على أجزاء أخرى من الجزيرة فحققوا بعض النجاح لكنهم أخفقوا أخيراً في حملة الفيل ضد مكة في سنة ـ ٥٧٠ م ـ السنة التي يروى بأن محمداً نبي الاسلام قد ولد فيها بمكة .

واستطاع اليمنيون بعد هذا بوقت قصير التخلص من الأحباش بمساعدة الامبراطورية الساسانية الفارسية ، وعندما قام الاسلام كانت اليمن خاضعة لنفوذ فارسي ضعيف وكانت تعيش فترة من التمزق السياسي والفوضى ، وقد سهل هذا دخولها في الإسلام الأمر الذي سنذكره في حينه (١) .

* * *

لقد كانت الحياة في اليمن تعرف الزراعة بمختلف أنواعها المروية والبعلية وتعتمدها ، وكانت أراضي اليمن تنتج أنواعاً كثيرة من المزروعات للاستهلاك المحلي والبعض الآخر للتصدير الخارجي ، وعلى الرغم من وجود زراعة متقدمة وصناعة متطورة في اليمن فإن الحياة فيها قد ازدهرت وتقدمت ثم بالتالي تأخرت بسبب التجارة ، خاصة التجارة الخارجية ، وكانت التوابل والبخور والأفاوية مع الأخشاب الثمينة كالصندل وغيره والأحجار الكريمة والمسك والعنبر والذهب أهم بضائع هذه التجارة الخارجية ، وكان بعض هذه البضائع ينتج في اليمن ، والبعض الآخر يستورد من الصومال القريبة أو حتى من الهند والشرق الأقصى ، ومرّ وقت طويل كانت فيه عمليات الابحار في المحيط الهندي حكراً على اليمنيين ؛ وكانت البضائع تسافر من اليمن صوب أوربة عبر طريقين واحد بري يقطع الجزيرة شمالا إلى وادي الاردن فسورية ، والآخر كان بحرياً نهرياً برياً ، تنقل البضائع فيه . خاصة تلك القادمة من الهند والشرق الأقصى – إلى الخليج العربي ومن هناك تصعد في الفرات إلى أحد ثغور الجزيرة ومن ثم إلى داخل سورية وشواطىء البحر الأبيض المتوسط ، أو تتابع سيرها نحو آسية الصغرى فبيزنطة فأوروبة ، وكثيراً ما كانت هذه البضائع تنقل في البحر الأحمر إلى ميناء القُلزم (السويس

---

١ – القرآن : سورة الفيل وسورة البروج الآيات : ٤ – ٩ . التيجان في ملوك حمير ٢٩٩– ٣٠١ . كتاب الشهداء الحميريون العرب . التاريخ العربي القديم : ٣٠٠ – ٣٠٥ . البحرين عبر التاريخ : ١/٨٠ . اليمن حاضرها وماضيها : ٥٤ – ٥٨ .

Dictionary of the bible, sheba. short history of the Arabs P P. 12-15

حالياً) ومنه براً على ظهور الجمال إلى الاسكندرية ومن هناك بحراً إلى أوروبة، وقد تأثر استخدام الطرق المـائية بأحوال مصر الداخلية وبسياسة الإمبراطورية الفارسية الضرائبية وعلاقاتها مع الإمبراطورية الرومانية في الغرب ثم في الشرق فيما بعد ، وعندمـا كان يخف استخدام الطرق المـائية كان ذلك يفيد الطريق البري .

ولقد وجد على الطرق البرية عدد من محطات القوافل التي بدأت هكذا ثم تطورت إلى أسواق محلية فأسواق تشارك في التجارة العالمية ، وأشهر هذه المحطات كانت البتراء ثم تدمر في بلاد الشام وأخيراً مكة في داخل الجزيرة ، وتأثرت كل من البتراء وتدمر بتغير الطرق في بلاد الشام والعراق ومصر ؛ لكن مكة لم تحافظ فقط على مكانتها بل استفادت من ذلك فازدادت مكانتها وأثرها وأثر سكانها ، وكانت كل من مكة والبتراء وتدمر بلداناً عربية ، لغة أهلها العربية ، ولقد استخدم الأنباط اللغة الآرامية كلغة رسمية واستعملوا فيما بعد أبجدية وخطاً حروفه مستمدة من الآرامية ، وعن الأنباط أخذ أهل الحيرة هذا الخط ومن أهل الحيرة استعاره أهل مكة وشمال الجزيرة فاستعملوه وطوروه لما ندعوه الآن باسم الأبجدية العربية ذات أصل الخط الذي نستعمله (١) .

وفي العصور الكلاسيكية كانت روما الوثنية قبل انهيارها أهم مستهلك لبضائع التجارة اليمنية خاصة مـادة البخور ، فالكميات التي كانت تحرقها روما من هذه المادة المرتفعة الثمن كانت كبيرة للغاية وذلك بسبب طقوس الدفن لدى الرومان التي كانت تقضي بحرق جثث الموتى على مرأى من الناس ومشهد عام ، ولقتل الروائح الناجمة عن عملية الحرق ، كانت الجثة تحاط بكميات كبيرة من البخور تحرق معها ، لكن عندما انتصرت النصرانية على الوثنية الرومانية انخفض استهلاك البخور بشكل كبير للغاية لأن هذه الديانة

---

١ - تاريخ اللغات السامية : ١٩٦ - ٢٠٤ .

A short history of the Arabs P. 15.

قضت بدفن جثث الموتى وآثرت عدم إحراقها ، وترافق انتشار المسيحية مع انهيار الامبراطورية الرومـانية في الغرب ، وسبّب إنخفاض إستعمال البخور وتدهور روما تدهوراً مدمراً للحياة الإقتصادية في اليمن ، وأدى هذا إلى الفوضى وانهيار النظام والحياة المتحضرة في اليمن ؛ وعندما حلت هذه الحال أهملت شؤون الزراعة والري فانهارت بعض السدود وضعف سلطان الدولة وانهارت أسرة سبأ . ولقد قادت هذه الأحوال عدداً كبيراً من أهل اليمن إلى الهجرة إلى خـارجها ، كما مكنت قبـائل أطراف اليمن من الإنفلات والتحرك،وأيضاً شجعت بعض قبائل الجزيرة ودفعتها للتحرك نحو اليمن للنهب واستلاب بعض الأراضي الخصبة لجعلها مراعي .

لقد كان أثر هذا الإنهيار عظيماً للغاية وصداه مدويـاً واسعاً وطويلا رددت أخباره الأجيال ، فغلفته بالأوهام والخيـال حتى غدا نوعـاً من الأسطورة ، وتفاصيل هذه الأسطورة مروية في المصادر العربية : الأدبية والتاريخية ، وتجمع هذه المصادر على ان الله تعالى قد غضب على سبأ التي كانت تحكم من قبل ملك اسمه عمرو بن مالك مزيقيا ، وكان في بلاد هذا الملك سداً هائلا بين جبل مأرب وجبل الأبلق يحجز خلفه مياه سبعين نهراً كباراً وذلك بالإضافة إلى مياه عدد كبير من الأودية والسيول ، وكان ما يحبسه هذا السد من الماء يكفي لري أراضي اليمن « من الحول إلى الحول » . ووقعت زمن هذا الملك إرادة الله وغضبه على اليمن فأرسل جرذاً يبحث برجليه ويقلب الصخرة بيديه التي لا يقلبها أربعون رجلا ، فكان أن تهدم السد وتهدمت معه الحياة وتفرق اليمنيون « أيدي سبأ » في كل مكان .

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آيـة جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بـلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثلٍ وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهـل نجزي إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا

فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (سورة سبأ : ١٥ – ١٩) .

إن هذه الآيات لا تشير إلى خراب سد من السدود بعينه بل تروي خبر سيل عرم – أي شديد – أصاب أراضي سبأ ، وقد أحدث هذا السيل أضراراً ازدادت استفحالا مع مرور الأيام مما أدى إلى تمزق أهالي سبأ كل ممزق (١) ، إنما الحياة في اليمن استمرت ولم تنهار كلياً ، ولقد سبق بنا القول بأن حمير قد ورثت دولة سبأ ؛ ويستفاد من نقوش هذه الدولة التي تعود بتاريخها إلى القرن الرابع وما بعده أن ملوك حمير قاموا بإصلاح شبكات الري في البلاد ورمموا سد مأرب أكثر من مرة بعد ما أتلفته الفيضانات ولعل آخر هذه الإصلاحات قبل دخول اليمن في الإسلام ذلك الذي قام به أبرهة الحبشي ، ففي نقش دوّن فيه أبرهة الحبشي بعض أعماله ذكر أنــه في عامي ٥٤٢ – ٥٤٣ م. رمم سد مأرب الذي كان يبلغ نحو ٤٥ ذراعاً طولا و ٣٥ إرتفاعاً و ١٤ عرضاً ، وقد وصف هذا النقش الاحتفال الذي أقيم بمناسبة إنتهاء العمل في ترميم السد ، حيث حضره مندوب عن نجاشي الحبشة وآخر عن إمبراطور بيزنطة وثالث عن الإمبراطورية الفارسية، وآخرون يمثلون أمراء العرب في دولتي غسان والمناذرة (٢) .

على هذا لم يكن السد العظيم الذي انهار في اليمن ، فانهارت معه الحضارة هو سد مأرب بل سد السلطة القوية لحكومة سبأ ، هذه السلطة التي كانت ذات نفوذ كبير وسلطان ليس بين أهالي اليمن فحسب بل بين قبائل أطراف اليمن وربما قبائل داخل الجزيرة،ولقد انهارت هذه السلطة بسبب ما لحق اليمن من

---

١ – التيجان في ملوك حمير : ٢٦٢ – ٢٦٩ . البدء والتاريخ : ١٩٥/٣ – ١٩٦ . مجمع الامثال : ٢٧٥/١ .

٢ – التاريخ العربي القديم : ٣٠٣ – ٣٠٤ .

تدهور في اقتصادها المعتمد على التجارة الخارجية المتخصصة ، وتدهور الإقتصاد أفقر الحكومة فأدى إلى انهيار الحضارة وأدى انهيار الحضارة إلى الفوضى داخل البلاد فنجم عن ذلك إهمال لشؤون الري والزراعة وعودة نحو البداوة مما دفع العديد من السكان إلى الهجرة ، ويبدو أن هذه الهجرة كانت كبيرة الحجم ، وقد حفظ المؤرخون العرب ورجال الأنساب والأدب شيئاً من ذكريات أخبار هذه الهجرة .

وادعت هذه المصادر بأن المهاجرين كانوا جميعاً رجال قبيلة إسمها الأزد ، وأن هذه القبيلة تركت اليمن واتجهت شمالا فاصطدمت أثناء سيرها بكثير من قبائل شبه الجزيرة فامتزجت معها أو جرفتها أمامها ، وأثناء ذلك تمكن قسم من المهاجرين من احتلال مكة بعد انتزاعها من سكانها من قبيلة جُرهم ، وكوّن هذا القسم قبيلة عرفت بإسم خُزاعة ، هذا في حين استقر قسم آخر من المهاجرين حول مدينة يثرب التي كانت بحوزة قبائل تدين باليهودية ، وشكل هذا القسم قبيلتين عرفتا باسم الأوس والخزرج ، كما تابع قسم آخر من المهاجرين سيره نحوالشام فأقام فيه دولة الغساسنة ووصل قسم إلى العراق فأسهم في إقامة دولة المناذرة ، ويبدو أن أقساماً أخرى قد استقرت في نجد وسواها من مناطق الجزيرة ، ولم يوقف قيام دولة حمير الهجرة نحو الشمال بل استمر ذلك حتى ما بعد قيام الإسلام .

لقد جاء هؤلاء المهاجرون من بلاد عرفت الحضارة والنظام وعاشت لفترة طويلة من الزمن – ثم استمرت تعيش – الصراع بين اليهودية والنصرانية من أجل تحويلها إلى إحدى هاتين الديانتين ، فكان لا بد أنهم حملوا معهم عند هجرتهم إلى قبائل بقية شبه الجزيرة – وتابع الذين لحقوهم حمل – بعض مفاهيم هاتين الديانتين ، خاصة فيما يتعلق بمفهوم التوحيد وصفات الخالق وقدراته وسوى ذلك من المفاهيم التي أثرت على الوثنية العربية ، وساعد هذا استمرار نشاط المبشرين من اليهود والنصارى ، ويمكن اعتبار انتشارها كمقدمة نحو ظهور الإسلام فيما بعد .

كما أن هذه الهجرة لا بد وأنها قد سببت تمازج قبائـــل شبه الجزيرة بشرياً وإجتماعياً ، وإذا صح هذا فإن هذا التمازج ساعد على إزالة الفوارق بين لهجات القبائل وسعى نحو توحيدها ومن ثم السير نحو لهجة عربية واحدة ستتجلى فيما بعد بلغة القرآن ، ويبدو أن انهيار سلطان اليمن وقيام الهجرة هذه قد أزال – أو قلل من – نفوذ حروف الأبجدية اليمنية وطرق كتابتها [المسند] وأتاح الفرصة أمام حرف الشمال الذي استُعير من الأنبـــاط للظهور وشمول الإستعمال فيما بعد ، ولقد كان كل هذا مما هيـــأ السبل أمام إحدى لهجات الشمال للظهور ثم الإنتصار .

* * *

ويبدو أن الذين هاجروا من اليمن لم يكونوا من قبائـــل الأزد فقط بـــل كانت هناك فئات كبيرة من قبائل أخرى شتى ، ويظهر أن الجزيرة العربية بكاملها قد عاشت منذ القرن الرابع للميلاد فترة فوران بشرية دفعت بأعداد كبيرة من قبائلها للتحرك شمالا نحو بلاد الهلال الخصيب ، أو من الشمال نحو أراضي اليمن السعيد ، واستمرت حركة الفوران والتدفق هذه حتى بلغت ذروتها في القرن السابع بعد قيام الإسلام ؛ ومنذ بدء قيام هذه الحالة استغلت بعض من قبائل اليمن وأطرافها الظروف التي مرت بالجزيرة فحاولت إقامة تحالفات بين بعضها البعض أو إقامة دول تحكم الجزيرة ككل أو بعض ، وكان أشهر هذه المحاولات وأبعدها أثراً تلك التي قامت بها قبيلة كِنْدَة التي هاجرت من أطراف اليمن شمالا فوصلت حتى هضبة نجـــد ولعلها حاولت استغلال ضعف سلطة الحميريين وحالة الجزيرة المشجعة لإقامة دولة ، ولعل الحميريين قد شجعوا في نفس الوقت كِندَة على القيام وساعدوها في بعض الحالات ، محتذين بذلك حـــذو بيزنطه وفـــارس تجاه دولتي المناذرة والغساسنة في بلاد الهلال الخصيب فقد وقفت كندة حاجزاً أمام قبائل الشمال وحالت دونها ودون الدخول إلى اليمن .

ومعلوماتنا عن **دولة كندة** ضئيلة يكتنفها التلفيق والوهم والأسطورة وهي

متناثرة في كتب الأدب والأخبار والأنساب ، كما أن بعض نقوش اليمن المكتشفة ، فيها ما يشير إليها ، ويستخلص من هذه المصادر أن أول من أقام صرح كِنْدة حقاً ومد سلطانها فعلاً هو حجر بن الحارث بن عمرو ، وقد جاء حجر بعد عدد من الأمراء سبقوه شهرة ، لكنه فاقهم وبزهم جميعاً قوة وسلطاناً ، ويعرف حجر بإسم آكل المرار « وإنما سمي آكل المرار لأنه غضب غضبة فجعل يأكل المرار – وهو نبات شديد المرارة – ولا يحس به من غضبه ، وقيل إنما سمي بذلك لكبره ، والمتكبر كأنه مقلص الشفة ... وقيل – إنما سمي بذلك لأنه كان أفوه » .

ويعتبر حجر أعظم ملوك كندة لأنه أول من حكم منهم من نجد ومدّ سلطانه إلى حدود اليمن وأطراف الشام والعراق ، ويبدو أن ملكه قد استغرق الربع الثاني للقرن الخامس ميلادي (١) .

وبعد وفاة حجر خلفه ابنه عمرو المقصور الذي قصرت رقعة ملكه عن رقعة ملك أبيه ، ويبدو أن قبائل شمالي الجزيرة حاولت في زمنه التخلص من حكمه ، حيث نجحت في توحيد أنفسها تحت زعامة كليب وائل ، أحد رجالات قبيلة تغلب ، فقامت بمحاربته ، وقام هو فتحالف مع ملك اليمن الحميري وصاهره ، ونتيجة لذلك وقفت قبائل يمنية عديدة أمام تحالف قبائل الشمال وزحفها نحو الجنوب ، وقد استطاعت قبائل الشمال الإنتصار على اليمنيين في يوم خزازي ؛ وكان لهذا النصر آثاراً بعيدة جداً على أوضاع شبه الجزيرة خاصة من الناحية اللغوية ، فمن المعتقد أن هذا النصر قد مكّن لهجات الشمال من التوحد والإنتصار على لغة الجنوب والتحرر منها ، ونحن نجد أن كتب الأدب تحوي من الأخبار ما يفيد أنه قد برز بعد هذا اليوم عدد من شعراء الشمال ، وكان أول هؤلاء عدي (أو امرؤ القيس) بن ربيعة أخو كليب

---

١ – ادب الخواص : ٩٢و٠ مجمع الأمثال : ٢٤٥/٢ . اليعقوبي : ٢١٦/١ . حمزه الاصفهاني : ١١٧ . الكامل في التاريخ : ٢٤٣/١ . ابن خلدون : ٥٦٩/٢ – ٥٧٧ . المحبر : ٣٦٨ . عاقل : ٢٠٨ . البحرين عبر التاريخ : ٧٩/١ .

ابن وائل ، فهو قد عرف باسم المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر ، ولعل معنى ذلك أنه أول من نظم الشعر محرراً من سيطرة لغة الجنوب .

ولم يطل عمر دولة **كليب** بن وائل حيث قتله جساس بن مرة الذي كان قريباً له فقامت إثر ذلك حرب أهلية دعيت بالبسوس ، ويروى بأنها دامت أربعين عاماً ، ومقتل كليب وقيام حرب البسوس مزق تحالف قبائل الشمال ومكن كِنْدَة من إعادة سيطرتها على أجزاء شمالي الجزيرة ، وتم هذا النجاح في عهد الحارث بن عمرو الذي خلف أباه ، والذي يعتبر من دهاة ملوك كندة وأعظمهم ، فقد متّن قبضته على قبائل الشمال باستخدام مختلف الوسائل ، ومدّ سلطانه خارج الجزيرة فاستطاع السيطرة على الحيرة عاصمة المناذرة لفترة قصيرة من الزمن ، وقد قتل الحارث هذا في صراعه ضد المناذرة ، ومن بعده أخذ أمر كِنْدَة يضمحل ، وكان آخر أمراء كِندة امرؤ القيس الشاعر المشهور .

وبعد انحسار سلطان كِنْدة عن شمال الجزيرة عادت قبائل الشمال إلى فرقتها ودخلت في صراعات وتحالفات خاصة ، وقد أتاح هذا الحال الفرصة أمام بعض القوى للظهور ، ومن ثم التزعم – ولو رمزياً – على جميع القبائل التي ملت الفوضى ومجت الحروب الأهلية ونشدت الإستقرار والنظام والأمن والعيش بدون استغلال وظلم وطغيان .

ولعل أهم التطورات التي لحقت بالجزيرة وأهلها زمن كِنْدَة هي تمازج قبائل الشمال مع قبائل الجنوب ، وانتشار لهجة موحدة للشمال ، وشيوع التأثيرات التوحيدية للديانات السماوية ، وفي عهد كِنْدَة ، وربما قبل ذلك ، تعرضت قبائل الجزيرة لنشاط وتأثير الديانة الزرداشتية في قشبها القديمة وقشبها الجديدة وخاصة بعد انتشار المزدكية وانتصارها لفترة قصيرة من الزمن ، ويذكر الاخباريون العرب بأن الحارث بن عمرو نفسه قد اعتنق المزدكية ، ولا يبعد أن امرىء القيس كان نصرانياً أو متأثراً بها ، وهذا يعلل دوافع سفره إلى بيزنطة ،

وتتحدث المصادر العربية عن شخصيات ذات صفات غريبة تدعوها بإسم كهان العرب ، وتوحي دراسة حياة هؤلاء الكهان بأنهم كانوا من رجالات الدين الزرداشت (١) .

هذا وقد سبق أن أسلفنا القول بأن قسماً من المهاجرين بعد سقوط سبأ وصل الشام فأسس فيها **دولة الغساسنة** ، وقسماً آخر وصل العراق فأسس فيها **دولة المناذرة** ، ولقد شجعت كل من فارس وبيزنطة – كل على حدة – على قيام هاتين الدولتين وقدمتا لهما المساعدات ، وكانتا تتدخلان في شؤونهما بشكل مباشر أو غير مباشر ، وهاتان الدولتان أسستا كدول حاجزة لبدو الجزيـــرة ومانعة لهم من الهجرة إلى بلاد الهلال الخصيب إن أمكن ، أو على الأقل التخفيف من مخاطر ومضار بدو الصحراء والحد من غاراتهم على أراضي الشام والعراق ، ولقد تورطت هاتان الدولتان – كل على انفراد – في سياسة الامبراطورية التي تبعتها وعلى الأخص في مشاكل النزاع بين فارس وبيزنطة ، ودخل المناذرة مع الغساسنة في حروب كثيرة أضعفتهما وحدّت من إمكاناتهما للقيام بوظيفة حارس الحدود ، لذا لم يتوقف تدفق البداة فاجتاحت إياد أسفل منطقة الفرات واجتاحت طيء أعالي أراضي ما بين النهرين (الجزيرة) .

ووقع الغساسنة والمناذرة تحت تأثير الدعاية النصرانية إلى حد القيام باعتناقها والمشاركة في الصراع بين كنائسها ، وكان للغساسنة والمناذرة روابط قوية ووشائج مع قبائل قلب الجزيرة وكانت هذه الروابط سياسية وثقافية وتجارية

---

١ – المحبر : ٣٦٨ – ٣٧٠ . التيجان في ملوك حمير : ٢٩٩ . اليعقوبي : ٢١٦/١ – ٢٢٠ . حمزة الاصفهاني: ١١٧ . البدء والتاريخ: ١٩٩/٣ . ابن الاثير ٢٥٦/١ . فصل المقال: ٣٨٥ . أدب الخواص : ١٠٠ – ظ . مجمع الامثال : ٣٧٤/١ ، ١٩/٢ ، ٤٢ . معجم البلدان : (مادة خزازي) . ابن خلدون : ٥٦٩/٢ – ٥٧٧ . العقد الفريد : ٧٨/٦ . الاغاني ٨٧/٩ – ٨٨ . الشعر والشعراء : ٣٧/١ – ٥٧ . التاريخ العربي القديم : ٣٠٣ – ٣٠٤ . عاقل : ٢٢١– ٢٢٢ . البحرين عبر التاريخ : ٨٠ – ٨٥ .
The Dawn and Twilight of Zoroastrianism P. 163.

ودينية ، وقد أثر اعتناقهما للنصرانية على عدد كبير من قبائل الجزيرة والهلال الخصيب ودفعها إلى اقتفاء أثرهما(١) .

وهكذا مهدت السُّبل أمام النصرانية للانتشار في الجزيرة وباتت جميع الفرص في النصف الأول من القرن السادس كلها مواتية ومبشرة بنجاح هذه الديانة في الجزيرة ، لكن عدم استقرار مفاهيم هذه الديانة وشدة الصراع الداخلي بين كنائسها وانفراط عقد وحدتها وعدم احتوائها لبرامج اصلاحية اقتصادية واجتماعية ملائمة ، جعلها عاجزة عن تقديم حلول لمشاكل عرب الجزيرة ، وجعلها لا تفي بالحاجة والغرض ، ودفع هذه القبائل الى التطلع نحو عقيدة جديدة ونحو مصلح يبشر بهذه العقيدة، ومعلوم أن الحاجة والفراغ يعدان الأمة لتلقي العقيدة الجديدة. كما يهيء الأجواء والمناخ المناسب لنجاحها واستمرار هذا النجاح.

ولقد عمت الجزيرة في القرن السادس، نبوءات تتحدث عن أن نبياً جديداً قد دنا زمانه، فهو سيظهر قريباً وسيأتي بدين جديد مجدد، وربما جاءت فكرة هذه النبوءات عن طريق اليهودية والنصرانية والزرادشتية، ولقفها العرب بلهفة، ولما كانوا هم الذين بحاجة الى هذا النبي الجديد، فقد

---

١ – حوت كتابات العرب التاريخية والادبية مادة اخبارية واسعة عن المناذرة والغساسنة ، كما ان المصادر البيزنطية فيها مادة مفيدة ، واعتماداً على هذه المادة قامت بعض الدراسات الحديثة ، ومن الكتب المفيدة التي ينصح بالرجوع اليها في هذا الباب :

تاريخ الطبري . المحبر . مروج الذهب . التنبيه والاشراف . تاريخ حمزة الاصفهاني . ديوان حسان بن ثابت . مجمع الامثال . كتب أيام العرب وكتب الانساب . ديوان النابغة . الأغاني . تاريخ اليعقوبي . تاريخ يهوا العمودي (مترجم عن السريانية الى الانكليزية) .

تاريخ العرب قبل الاسلام . محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام . تاريخ سورية ولبنان . أمراء غسان . البحرين عبر التاريخ – الشهداء الحميريون .

كان النبي المنتظر منهم[1]●

أحوال الشمال

لقد تحكم الموقع الجغرافي مع التركيب الجيولوجي لشبه الجزيرة تحكماً شديداً في تاريخها وتاريخ سكانها مع طبيعة حياتهم ، فهذه البلاد التي تشمل رقعة واسعة من الأرض ممتدة بين قارتين ومحاطة بالبحار والماء من كافة جهاتها كانت في العصور القديمة شبه معزولة ومن الصعب الوصول إليها وبالتالي السيطرة عليها ، لأنه على الرغم من طول شواطئها فإن هذه الشواطىء تكاد تكون خالية من ميناء طبيعي جيد اللهم إلاّ ميناء عدن،وهي ليس فيها أية أنواع من الأنهار الصالحة للملاحة ، ذلك أن طابع الجفاف هو الطابع المميز فيها ، فالجزيرة بأراضيها الواسعة عبارة عن صحراء لا تتلقى الأمطار إلا نادراً وبكميات ضئيلة ، وهناك على الطرف الجنوبي لهذه الصحراء قطعة من الأرض خصبة وصالحة للزراعة وفيما عدا ذلك لا يوجد في بقية الأرض إلا بعض الواحات المتناثرة التي لا يمكن زراعة شيء فيها سوى النخل وأنواع محدودة جداً من النباتات .

لقد تميزت الحياة في الشريط الجنوبي الخصب ، عنها في بقية أراضي الجزيرة ، وهذا التمييز فرض على سكان الجزيرة نمطين من المعيشة ، واحداً مستقراً وآخر بدوياً ، وتحكم هذا التمايز في تاريخ الجزيرة والمناطق المجاورة لها بشرياً وعقائدياً وسياسياً ونظماً .

فعلى أساس هذا التمايز قال العرب سكان الجزيرة بأنهم منحدرون من أبوين : واحد اسمه قحطان وقد عاش في الجنوب وآخر اسمه عدنان قد عاش

---

١ – سيظهر أثر هذا جلياً فيما بعد في القرآن الكريم وفي الفكر الاسلامي . انظر دلائل النبوة لابي نعيم : ٩– ٢٤ .

في الشمال ، ولقد سبق بنا القول عن حياة وحضارة الجنوب وبقي علينا الآن أن نتحدث عن الشمال وسكانه حيث أن الاسلام قد وجد أول ما وجد في الشمال ومن الشمال انتشر وعم الأرض .

لهذا إن أول ما يتبادر إلى الذهن أن نمط الحياة البدوية الذي ساد في شمال شبه الجزيرة هو الذي خلق الإسلام وصاغه وصاغ مفاهيمه ، وعلى هـــذا فالإسلام ما هو إلا دين بدوي يصلح للحياة البدوية فقط .

إن هذا التصور غير صحيح ذلك أنه على الرغم من طغيان طابع البداوة على الشمال فإنه قد وُجِد فيه عدد من المدن قامت فيها حياة مدنية ، وأشهر هذه المدن كانت مدينتي مكة ويثرب ، وفي أولى هاتين المدينتين ولد الإسلام ، وفي الثانية تكامل نموّه ومنها انتشر إلى بقاع الأرض ؛ والذين حملوا مشعـــل الإسلام في كافة مراحل تاريخه كانوا من سكان المدن أو ممن اعتادوا الحياة المدنية ونظمها .

وعلى هذا الأساس نحن نحتاج عند دراسة أحوال شمال الجزيرة قبل الإسلام إلى التعرف بشكل رئيسي إلى الحياة في كل من مكة ويثرب ، وبشكل فرعي إلى الحياة في بقية أجزاء الشمال .

لقد دعا العرب الفترة التاريخية من حياتهم التي سبقت قيام الإسلام باسم الجاهلية ؛ ويبدو أن هذه التسمية قد اشتقت من جهل العرب بالتوحيد وضلالتهم في عدم إتباع شرائع الأنبياء ومن العنجهية وسرعة الغضب وحدة الطبع ، وتاريخ شمال شبه الجزيرة في الجاهلية شبه مجهول وصلتنا أخباره بشكـــل أسطوري ، وأوضح أقسامه ، تلك المتعلقة بمكة وهي أهم الأقسام : ومعلوماتنا عن مكة فيها الكثير من الغموض فلعل إسمها قد اشتق من لفظة معبد ، وهذه المدينة تدين بظهورها إلى موقعها الهام على طريق القوافل الذي كان يصل اليمن ببلاد الشام .

وتحدثنا المصادر العربية بأن النبي إبراهيم جاء إلى مكة فترك فيها زوجته هاجر مع إبنها إسماعيل ونشأ إسماعيل بين سكان مكة ، وكانوا من قبيلة تدعى

جرُهم ، ولقد تزوج إسماعيل من هذه القبيلة وأنجب أولاداً تحدر منهم أجداد قبائل العرب ، وبشر إبراهيم مع إبنه بديانة التوحيد في منطقة مكة وابتنيا في مكة معبداً عرُف باسم الكعبة أخذ الناس بالحج إليه .

هذا ملخص ما جاء في المصادر عن ابراهيم واسماعيل ، ويمكننا الآن أن نرى استنتاجاً بأن النبي ابراهيم الذي كان يتخذ من أطراف الجزيرة الشمالية مقراً له ولعشيرته قد جاء إلى قاب الجزيرة العربية مبشراً بدينه ، فكان أن زار منطقة مكة التي كان يوجد فيها نبع ماء مع أشجار وفيرة ، والتي كان يعيش فيها ما تدعوهم مصادرنا باسم قبيلة جرُهم ، ومكث ابراهيم عند جرُهم فترة من الزمن صرفها في التبشير ولعله تزوج أثناء اقامته امرأة من هذه القبيلة أنجبت له ابنه إسماعيل ، وكان ذلك الزواج على طريقة زواج المتعة ، وهدف من ورائه تقوية مركزه وعلاقاته مع أفراد القبيلة إلى أمور أخرى .

وقام ابراهيم أثناء هذا كله كما هي عادة المبشرين ببناء معبد ، وتم بناء هذا المعبد على الطريقة الشرقية لذلك العصر ، حيث تألف المعبد من غرفة غالباً ما كانت مربعة الشكل مرتفعة الجدران ، وكانت هذه الغرفة توقف للآلهة إذا كانوا متعددين أو لإله واحد ، وكان يوضع في هذه الغرفة مذبح للأضحيات ، ولا يجوز دخولها ولا يسمح به إلاّ للكهنة — أو كما يقال بالعربية السدنه —

وحول هذه الغرفة كانت تترك ساحة كبيرة تكون بمثابة أرض حرام مقدسة يزاول بها المتعبدون طقوسهم ويؤدون بها صلواتهم ويطوفون عليها حول بيت الإله أو الآلهة ، وكانت الأرض الحرام هذه تحدد بسور ، وغالباً ما كان ينصب على جدران وبقاع هذا السور نصب تخلد بعض شخصيات المدينة مع الشخصيات والأشياء المقدسة .

وجاء في المصادر أن ابراهيم قام بتطوير بناء معبده مع ابنه اسماعيل ، وأن ابراهيم قام بالعودة إلى مقر قومه لكنه زار مكة أكثر من مرة حيث تفقد ولده الذي صار فيما بعد خليفته ونبياً يبشر بالعقيدة نفسها ، هذا ومن المعلوم أن الكعبة تدعى باسم بيت الله وتدعى المنطقة المحيطة بها باسم الحرم .

ولعل الحجر الأسود هو حجر المذبح سابقاً ، كما أن رواياتنا تحفل بوصف وتعداد النصب التي كانت مقامة حول الكعبة قبل الاسلام .

هذا ومن المفيد التذكير بأن إقامة معبد ابراهيم هذا هو الذي منح مكة اسمها الأصيل الذي تطور عنه الاسم الحالي .

وازدهرت مع الأيام أحوال مكة مما أدى إلى الصراع حولها حيث انتزعتها قبيلة خُزاعة من جُرهم ،وبعد زمن مديد قامت قبيلة قريش بزعامة قُصي بن كلاب بطرد خزاعة من مكة ، ويبدو أن هذا قد حدث في النصف الثاني للقرن الخامس(١) . ونظم قصي شؤون مكة فأوجد فيها نوعاً من الجمهوريات التي تحكم من قبل التجار ،ومنذ أيام قصي أخذ القرشيون يمارسون التجارة بشكل نشط للغاية ، وكانت تجارتهم محلية وعالمية ، فقد كانت الأسواق تعقد قرب مكة، وهي: عكاظ، وذو المجنة ، وذو المجاز ، وكانت هذه الأسواق تعقد منذ أول شوال في كل عام وتنتهي مع أول أيام الحج وهذه الأسواق رغّبت الناس بزيارة مكة ؛ وكانت مواسم للبيع والشراء ، والتبشير والدعاية وحل الخصومات وإقامة التحالفات ، وإنشاد القصائد والتمتع بالسماع والجواري وشرب الخمر ، ولقد مكنت هذه الأسواق « قريش » من السيطرة الإقتصادية على شمال شبه الجزيرة وساعدت على توحيد اللهجة العربية الشمالية التي ستتدعم بظهور الإسلام وبنزول القرآن بها، واضطر نمو أحوال قريش الإقتصادية أهل مكة إلى استعارة الأبجدية النبطية وتبنيها مع خطها وستنتشر هذه الأبجدية فيما بعد لتصبح أصل الأبجدية العربية التي نستعملها بالكتابة اليوم .

ونشط المكيون كثيراً في سبيل تنمية تجارتهم ، فكانوا يسافرون إلى كافة أنحاء العالم المحيط بهم ، ولقد عقدوا مع سادة البلدان والمناطق في الجزيرة وخارجها معاهدات تجارية دعيت بإسم الإيلاف ، وكان للمكيين رحلتان

---

١ ـ الروض الانف : ١٣٦/١ ـ ١٤٢ . القرآن البقرة : ١٢٤ ـ ١٢٧ ، الحج : ٢٦ ـ ٢٨ . (أنصح القارىء برؤية الهيكل المجسم لمعبد بل في تدمر مع الدراسات المقامة حوله) .

تجاريتان رئيسيتان كل عام واحدة من مكة إلى اليمن والأخرى من مكة إلى الشام ، وكانت القوافل المكية ضخمة للغاية تمثل المدينة كلها ، ويقودها أكثر أهل المدينة مالا وبضاعة وشجاعة وخبرة ومكانة (١) .

ويستخلص من كتب الأخبار أن ثلاثة من الذكور من أولاد قصي قد عاشوا وهم : عبد الدار ، عبد مناف ، عبد العزى . وكان عبد مناف أبرز أخـوانه وأكثرهم ثروة ، وقام قصي بتوريث وظائفه في مكة لولده عبد الدار ، وبعد وفاة قصي بفترة نازع آل عبد مناف آل عبد الدار السيادة على مكة وانشقت قريش إلى قسمين واحد أيد آل عبد مناف بزعامة عبد شمس ابنه ودعي هذا القسم بإسم حلف المطيبين ، وقسم ثان أيد آل عبد الدار وعرف هذا القسم بإسم حلف لعقة الدم أو حلف الأحلاف ، وكادت الحرب أن تقع بين الحلفين لولا أن توسط البعض وتمت تسوية تقاسم بها زعماء الحلفين وظائف السيادة في مكة. لكن هذه التسوية لم تنهِ الصراع الداخلي في مكة ، فلقد ازدادت مع الأيام ثروة آل عبد شمس وازداد شرههم وطغيانهم مما سبب انشقاقاً في حلف المطيبين حيث طرد منه آل عبد شمس وأصحاب البنوك من قريش،وصنع حلف جديد دعي بإسم حلف الفضول ، وكان النبي محمد ممن شهد عقد الحلف ، وكـان لمناقشاته وقراراته أثر كبيرٌ في نفسه ، ويعتبر قيام هذا الحلف إحدى المقدمات المباشرة لقيام ثورة الإسلام الإصلاحية . ولقد قال محمد ذاكراً هذا الحلف : « لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » . ولقد استمر هذا الحلف سبباً ونتيجة مؤثراً إلى أبعد الحدود في صنع التاريخ الإسلامي (٢) .

---

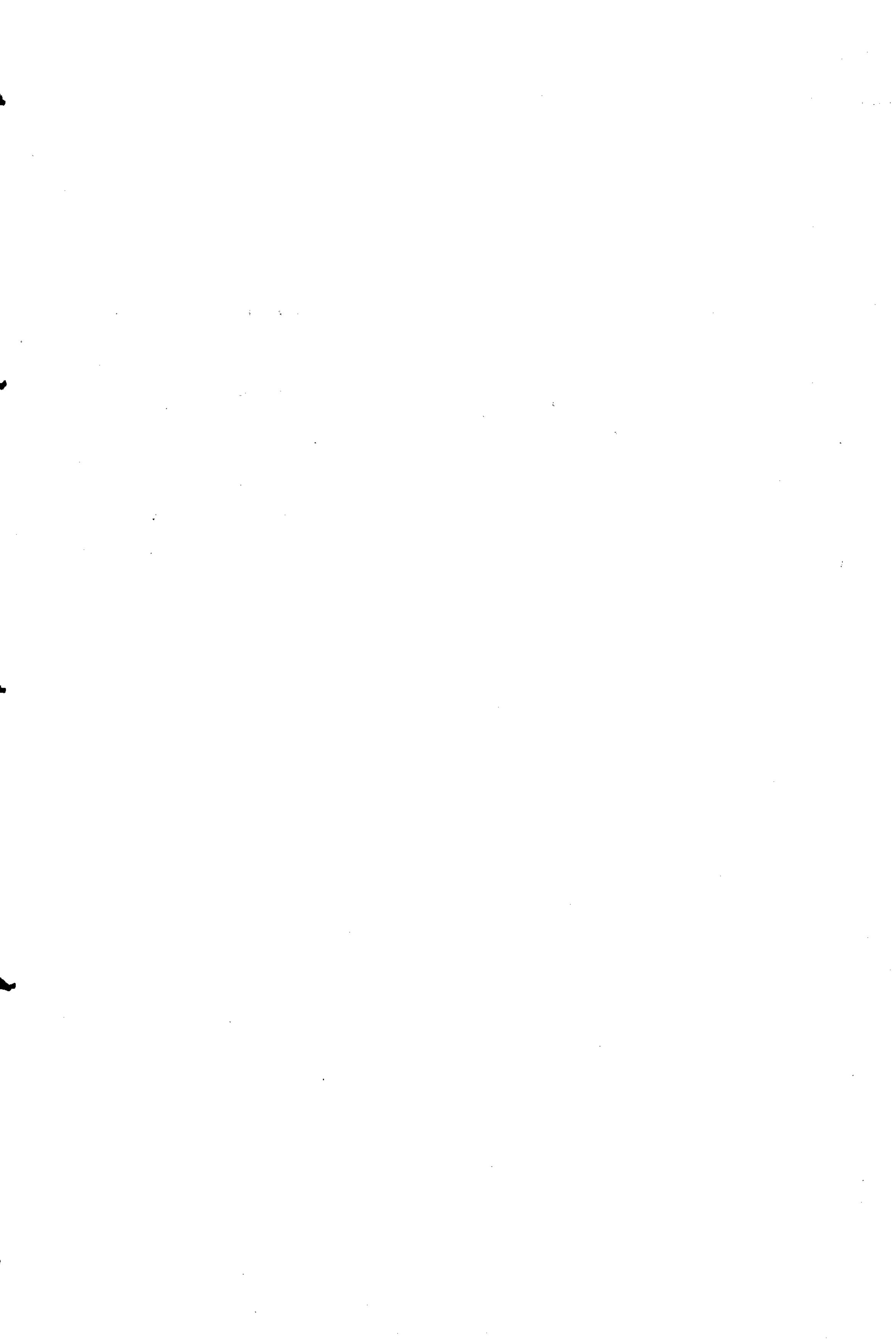
١ – الاصنام : ٢٨ – ٣٠ . المحبر : ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٦٣ – ٢٦٨ ، ٣١٥ – ٣١٨ . الازرقي : ١/١١٢ – ١١٣ . ابن هشام : ١/٧٦ – ٨٨ .

٢ – المحبر ١٦٦ – ١٦٧ . ابن هشام : ١/١٣٠ – ١٣٨ . الازرقي : ١/٦٥ – ٦٨ .

الفصل الثاني

محمد

الانسان – النبي – رجل الدولة



محمـــد الانسان

في جو الصراع بين الظلم والإستغلال من جهة والفقر والعدالة والحاجة من جهة أخرى إزدادت حاجة مجتمع مكة مع مجتمع الجزيرة إلى زعيم له شرف المحتد وشرف معاناة الفقر والتشريد والجوع والحرمان ، ليقود ثورة إجتماعية دينية سياسية كبرى ، فكان أن ولد هذا الزعيم سنة ٥٧١ م . في مكة ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، وأمه آمنة بنت وهب ، وعندما ولد محمد كان أبوه متوفياً ، لذا نجده قد ولد يتيم الأب . فرعاه جده وأعطاه لبدوية من بني سعد اسمها حليمة كي ترضعه وتربيه في البادية حيث الهواء النظيف واللغة والعادات القويمة ، وبقي محمد عند حليمة مدة عامين حيث فطمته وجلبته إلى مكة لزيارة أمه ثم أعادته معها حيث بقي عندها حتى أتم الخامسة من عمره فردته إلى أمه وجده .

وسافرت به أمه بعد عودته إليها بقرابة سنة إلى يثرب لزيارة أخوال جده ، وفي طريق العودة توفيت ، فأصبح محمد يتيم الأبوين يرعاه جده ويسهر على تربيته . ولما بلغ محمد الثامنة من عمره توفي جده عبد المطلب ، وهكذا أصبح يتيم الأبوين والجد ، وأمام هذا الحال إن يكن من المستحيل الحديث عن تأثير أمه عليه أو حتى تأثير جده على نشأته وتكوينه لا بد أن فقدانه لجده ومن قبل لوالديه ثم ما آل إليه أمره بعدهم قد أثر عليه كثيراً .

وفي القرآن قول الله « ألم يجدك يتيماً فآوى » (الضحى : ٦) وكان المأوى الآن بيت أسن أعمامه أبي طالب الذي صار شيخ بني هاشم بعد وفاة أبيه ، وكان أبو طالب فقير الحال معيلا لأسرة كبيرة وكان بين اخوانه من هو أغنى منه مثل العباس ومثل أبي لهب الذي « ما أغنى عنه ماله وما كسب » (المسد : ٢)

لكن ما من واحد من هؤلاء مد يد العون إلى محمد اليتيم أو إلى أبي طالب ، وكان أبو طالب يكافح في سبيل لقمة العيش ويسافر أجيراً برفقة القوافل ، واضطر لفقره أن يستعين بابن أخيه محمد ، فاصطحبه أثناء عمله داخل مكة وخارجها ، ولقد زار محمد برفقة عمه الشام وربما غيرها من البلدان ؛ فنال بذلك خبرة ومعرفة وثقافة ، وعرف كيف يكافح من أجل العيش ، وعانى من الاستغلال ؛ وهكذا عاش مشاكل عصره وأمته فرأى جشع الاثرياء ونهمهم ، وأمضى وقتاً طويلا مع الشقاء والحرمان والاستغلال والتعاسة (انظر سورة الضحى : ٨ وسورة الشرح : ١-٣) فكان هكذا خريج مدرسة الحياة ، ولقد منحه هذا المقدرة على الجلد والصبر وتحمل المشاق ، وزوده بنفس عصامية مرهفة الاحساس ، جياشة بالعاطفة ، صلبة المبنى ، واضحة الرؤى ، عملية ، ايجابية ، تعتمد الخلق الكريم ، وتتألم لآلام الآخرين وتسعى بكل جهد لازالتها.

وعندما بلغ سن الشباب أخذ يشارك في نشاطات مكة التجارية والمدنية والحربية، وبرزت شخصيته ولمع نجمه واشتهر بالاستقامة والأمانة والكفاءة (١).

ولقد لفتت شخصية محمد بمواهبها وطاقاتها وصفاتها أنظار المكيين إليه وكان من بين هؤلاء خديجة بنت خويلد التي كانت « امرأة تاجرة ؛ ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه » . وقد بعثت خديجة إلى محمد وعرضت عليه أن يخرج بمالها إلى الشام ، ففعل وربح في تجارته ربحاً وفيراً ؛ وشجع هذا خديجة على استمرار التعامل معه ، ونمت بينها وبينه ثقة شجعته على أن خطبها لنفسه وتزوجها ، وكان سنه حين فعل ذلك الخامسة والعشرين ، وكانت خديجة أرملة ربما تقاربه في السن أو أكبر منه قليلا ، وذلك على الرغم من أن المصادر العربية تذكر بأنها كانت في الأربعين من عمرها ، فهذا أمر لا يعقل ، خاصة وانها أنجبت لمحمد بعد زواجها منه سبعة أولاد .

---

١ - ابن اسحق : ٢ - ٧ . ابن هشام : ١/١٣٧ - ١٩٩ . البدء والتاريخ : ١٣٧/٤ . المعمرون : ٦٩ - ٧٠ . ابن سعد : ١/٨٨ - ١٢٩ . الطبري : ٢/٢٧٧ - ٢٨٠ .

وكان لحادث زواج محمد من خديجة أثر كبير ومحول على حياته ، فقد وضع هذا الزواج حداً لشقائه وفقره وأمن له الاستقرار وسعة العيش ، ونجد صدى هذا في القرآن في قوله تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » [الضحى : ٨] وقوله : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ». [الشرح : ١ — ٣] . ويبدو أن محمداً بعد زواجه أصبح مسؤولاً عن أعمال خديجة التجارية والمالية ، وهذه المسؤولية هيأت له فرصاً جديدة للتعرف عن كثب إلى ما كان يجري في مكة وسواها .

وأحب محمد زوجته الهادئة الرزينة وتعلق بها تعلقاً شديداً، وبادلته هي نفس المشاعر ، وكانت تفهمه وتثق به (١) وكانت علاقتها به فيها هدوء واستقرار ؛ وقد منحه هذا ، الوقت والطمأنينة ثم مكنه من الانقطاع طويلا للنظر في أمور الكون ، وللعمل في سبيل اعداد نفسه ، والتهيؤ لتحمل رسالة يسعى بها لاسعاد البشر ورفع الظلم والحيف والضلال عنهم .

ويؤخذ من روايات المؤرخين وبعض الآيات القرآنية أن مكة التي كانت أسواقها تشهد كل يوم شتى أنواع المضاربات المالية والمشاحنات والصراعات التجارية ، كانت عقول رجالاتها وأفراد مجتمعها تعيش أنواعاً أخرى من المضاربات والمشاحنات العقائدية والثقافية ، ولقد أثر هذا تأثيراً كبيراً ومباشراً على عقيدة البلد الوثنية ، فرأى القائمون عليها ضرورة احداث بعض التغييرات ، فأعيد بناء الكعبة وعدل شكلها ، وشارك محمد في عمليات إعادة البناء هذه كما تم تهذيب بعض ممارسات أعمال الحج وطقوسه ، لكن كل هذا لم يؤد إلى حل المشكلة لأنه ابتغي منه في الأساس زيادة ارباح الأثرياء وتقوية مراكز طبقتهم، لذا تكوّن في مكة وسرى بين صفوف أهلها تيار ينقد بقسوة وثنية قريش — ويرفضها ويفتش عن بديل لها يصلح جميع جوانب المجتمع ويغير العقيدة ويهذب العبادات .

---

١ — ابن اسحق : ٧ — ٨ . ابن هشام : ١/١٨٧ — ١٩٢ . البدء والتاريخ : ٤/١٣٨ — ١٣٩ . ابن سعد : ١/١٣١ — ١٣٤ . الطبري : ٢/٢٨٠ — ٢٨٢ .

وحاولت ديانات العصر وخاصة المسيحية أن تكون البديل ، فأخفقت ، وكل ما فعلته أنها ساعدت على قيام – او إحياء – مفهوم مفاده أن الجد الأعلى لعرب الشمال وأهل الكتاب هو ابراهيم ، وأن الديانة الحق هي ديانة ابراهيم الجد الأعلى ، وهي النبع الذي جاءت منه اليهودية والنصرانية ، وأن الخلاف الواقع بين أتباع اليهودية ثم أتباع الكنائس يعني أن زيفاً قد أصاب اليهودية والنصرانية لذا يحسن العودة إلى الأصل الابراهيمي ودعيت ديانة إبراهيم باسم الحنيفية ؛ وأخذ عدد من رجالات قريش يلتمسون الحنيفية في كل مكان ، فكان أن رفضوا عبادة الأوثان وأكل ما ذبح لها وكان احد وجوه إلتماسهم لدين إبراهيم الانفراد والتعبد .

ولقد تأثر محمد بهذا التيار ، وأخذ يبحث عن دين إبراهيم ؛ فكان يخلو بنفسه للتعبد في غار في جبل حراء خارج مكة ، ويدعو المؤرخون هذه الخلوات باسم التحنث والتحنف ، وهذا يعني الخروج من حنث الضلالة وإثمها إلى حنيفية إبراهيم ،واستمر محمد يفعل هذا حتى إذا بلغ الأربعين من عمره جاءه الوحي برسالة من الله فيها أنه رسول الله وخاتم أنبيائه وأن دينه هو ديـــن الحنيفية عقيدة إبراهيم ذلك أنه « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً » . [آل عمران : ٦٧] (١) .

محمد النبي

ولقد صقلت الخلوات هذه نفس محمد واعدته روحياً لتلقي الوحي وفي شهر رمضان من السنة التي بلغ فيها الأربعين وبينما كان نائماً في غار حراء جاءه الوحي ، وتحدث محمد عن هذا فقال : « جاءني وأنا نائم فقال : اقرأ ، فقلت : وما أقرأ ؟ حتى ظننت أنه الموت ثم كشطه عني فقال : إقرأ ، فقلت : وما

---

١ – ابن اسحق : ٣٢ – ٣٥ . ابن هشام : ٢٤٣/١ – ٢٣٥ . الأزرقي : ٤٢٧/١ . البدء والتاريخ : ١٤١/٤ . الطبري : ٢-٢٨٣ – ٢٩٧ . ابن سعد : ١٤٥/١ – ١٩٦ . اللسان (حنث وحنف) .

أقرأ فعاد لي بمثل ذلك ثم قال : اقرأ ، فقلت : وما أقرأ ؟ وما أقولها إلا تنجياً أن يعود لي بمثل الذي صنع بي ، فقال : « إقرأ بسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . » [العلق : ١ — ٥] ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي وكأنما صور في قلبي كتاب ، ولم يكن في خلق الله عز وجل أحداً أبغض إلي من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أنظر إليهما ، فقلت : إن الأبعد — يعني نفسه صلى الله عليه وسلم — لشاعر أو مجنون ، ثم قلت : لا تحدث قريش عني بهذا أبداً؛ لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ، فخرجت ما أريد غير ذلك ، فبينا أنا عامد لذلك سمعت منادياً ينادي من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ، وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدماه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه ، وشغلني عن ذلك وعما أريد، فوقفت ما أقدر على أن أتقدم ولا أتأخر ولا أصرف وجهي في ناحية من السماء الا رأيته فيها ، فما زلت واقفاً لا أتقدم ولا أتأخر حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي » (١) .

وفي القرآن في سورة النجم ذكر لمجيء الوحي إلى النبي فيه شبه كبير بما جاء في هذه الرواية فقد جاء : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . » [النجم : ١ — ١٠]

وعاد محمد بعدما رأى ما رأى إلى بيته فأخبر زوجته بما حدث معه ، فصدقته وآمنت به بعد أن تيقنت أن الذي أتى زوجها كان وحياً ورسولا من عند الله وليس شيطاناً ، وأخذ الوحي بعد هذا يتردد على محمد يبلغه رسالات ربه وذلك بأشكال عدة ، وكان محمد دائماً يقدر على التمييز بين كلامه الخاص وبين ما كان يوحى إليه .

---

١ — ابن اسحق : ٣٦ . الطبري : ٢/٣٠٠ .

وبعد أن اعتاد محمد على الوحي وترسخت معالم النبوة في نفسه أخذ يبشر بما جاءه من عند الله فآمن به عدد من الناس من أصدقاء وأقرباء وكان تبشيره هذا شبه سري وظل هكذا قرابة الثلاث سنوات حيث أمر بنقل الدعوة من السرية إلى العلنية بقوله تعالى « فاصدع بما تؤمر » [الحجر : ٩٤] ، وطلب منه أن يبدأ أولا بأسرته وأقاربه بقوله « وأنذر عشيرتك الأقربين » [الشعراء : ٢١٤] وتردد محمد وتهيب ذلك أولا فجاءه جبريل « فقال : يا محمد إن لم تفعل ما أمرت عذبك ربك » فأمر عندها علياً بن أبي طالب وكان عنده يربيه ويرعاه مساعدة لعمه المعيل ورداً لعرفانه ومعروفه السابق — أمره أن يعد طعاماً ثم يدعو أعمامه كلهم ففعــل ، وحضر الجميع وعندما فرغوا من الطعام منعه أبو لهب من دعوتهم إلى دينه واتهمه بالسحر ، ومرة ثانية حاول محمد أن يقنع أعمامه برسالته بقوله : « يا بني عبد المطلب والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة » ولكن عمه أبا لهب اتهمه مرة ثانية بالسحر وسبب له الاخفاق (١) .

ولم يوقف هذا الاخفاق محمداً فأخذ يبشر برسالته علناً في مكة وأخذ يدعو الناس للايمان بها وكانت خلاصة ما بشر به وما دعا الناس إليه هو : نبذ عبادة الاوثان وترك الشرك والإيمان بإله واحد أحد ، لا ولد له ولا شريك ، خلق الناس والكائنات وهو يميتهم وهو سيبعثهم مرة ثانية فيحاسبهم ويجزي كل واحد حسب عقيدته وعمله، والجزاء إن كان خيراً فهو الجنة وإن كان شراً فهو النار ،وفي الجنة سيعيش الناس في نعيم دائم ، وسيعيش المعاقبون في النار في عذاب دائم أيضاً ، وحتى يدخل الناس الجنة عليهم الايمان بالله وحده ، وأن يصاحب هذا الايمان بالشكر والحمد الدائم والعرفان لله الخالق القادر، وأن يرفق بالخير والاحسان والعمل الطيب لبني الانسان جميعاً دون تفريق بين عرق ولون وفقر وغنى ، والله كريم يطلب من الأغنياء أن يكونوا أيضا كرماء وأن يساعدوا ذوي الحاجة ويكفوا عن استغلال الفقراء ، ذلك أن الربا حرام ، ولا

---

١ — ابن اسحق : ٥٥ — ٥٦ .

يجوز الغش ، وكل مؤمن عليه أن يعترف بأن محمداً رسول الله وخاتم لأنبيائه .

وعندما كانت دعوة محمد في البداية دعوة دينية محضة لم يلاق معارضة منظمة من قريش لعدم وجود كهنة ورجال دين في مجتمع مكة ، لكن عندما بدأ ينادي باصلاحاته الاجتماعية وهاجم أصحاب المال والمرابين ثارت زعامة قريش وأخذت تضطهده وتعذب كل من آمن به ، وبقدر المعارضة وشدتها كانت ردات الفعل عند محمد وحملاته ، فهذا عمه أبو لهب المرابي الكبير الذي برز لمناوأته وراح يفسد عليه عمله ، ويؤلب الناس عليه أنزل عليه اللعنة وعلى زوجته وأثبتها في القرآن بقول الله « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » [المسد: ١ ــ ٥] وعندما تعرض له زعيم آخر من الأثرياء هو الوليد ابن المغيرة واتهمه بالسحر نزل به : « ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً. سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر. ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر ». [المدثر : ١١ ــ ٢٩] ونزل به : « ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة » . [الهمزة : ١ ــ ٦] . وأعلن محمد حرباً لاهوادة فيها على الذين ألهاهم التكاثر [التكاثر] فتهافتوا على حطام الدنيا وتكالبوا على جمع المال بمختلف الوسائل فقال لهم : «كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً » ووعد طبقة التجار والمرابين ناراً محرقة وعذاباً دائماً لأنهم كانوا « إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » [المطففون : ٢ ــ ٣]

وأخذ محمد يتصل بالأعراب وسواهم أيام المواسم ويعرض عليهم دينه وعقيدته فانتشر ذكره في بلاد العرب وعم بين قبائلها .

وأصاب زعماء قريش الرعب فتحركوا ضده لكنهم لم يستطيعوا النيل منه لحماية عمه أبي طالب ، فاتصلوا بأبي طالب وأغروه وتهددوه ، فرفض خذلان ابن أخيه ، هنا أعلن زعماء قريش الحرب على محمد وأسرته من بني هاشم وعلى جميع من آمن برسالته . وكانت حرباً سياسية اجتماعية اقتصادية ، في غاية العنف والقسوة ، وصمد محمد وأتباعه لهذه الحرب ، وعندما زاد الضغط أمر محمد بعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة ، ففعلوا ؛ ونحن لا ندري لماذا اختيرت الحبشة دون سواها من البلدان ، وأقام المسلمون في الحبشة ولقوا فيها الحماية والمأوى ، وأخفقت قريش في ردهم إلى مكة ، وأخذ محمد يخطط للخروج من مكة ، فبدأ يعرض نفسه على القبائل عله يجد من يحالفه ويحميه ذلك أنه كان قد فقد عمه وفقد زوجته خديجة (١) . ولم يجد تشجيعاً كبيراً من زعماء القبائل وأخفق في نيل نصرة أهل الطائف من ثقيف ، لذلك تطلع بعيداً إلى يثرب ، وانصرف نحوها فاتصل بالقادمين منها إلى مكة واستطاع أخيراً أن يعقد معهم اتفاقاً كان له أثره العظيم على مستقبل محمد والعرب والعالم قاطبة .

المدينة والهجرة اليها

وتقع يثرب ضمن واحة زراعية تعتمد على النخيل بالدرجة الأولى ، وهي تبعد عن مكة أكثر من مائتي ميل إلى الشمال منها ، وكانت ذات موقع ملائم للدعوة الاسلامية ولخططها في تحطيم الاقتصاد القرشي ، فهي قد كانت قريبة من طرق القوافل الذاهبة إلى الشام والآيبة منه ، كما أنه كان من الممكن لسكانها الاعتماد على مواردهم الخاصة في حال الحصار الاقتصادي والحربي .

وسكنت يثرب من قبل نوعين من السكان : عرب ويهود ربما تحدر غالبيتهم من أصل عربي ، وكان اليهود تجاراً وصناعاً يمارسون الربا ، ويمتلكون الكثير من أراضي يثرب والمناطق المجاورة لها ، وكانوا يستغلون الآخرين استغلالاً

---

١ – ابن اسحق : ٥٩ – ٦٩ . ابن هشام : ٣١٧/١ – ٣٨١ . الطبري : ٢٩٨/٢ – ٣٨٧ . ابن سعد : ١٩٩/١ – ٢١٦ .

سيئاً للغاية ويبتزونهم ، وذلك في حين كان العرب مزارعين أجراء فقراء ، عضهم الظلم ، وعنف بهم استغلال المرابين وكبار الملاك ، في نفوسهم الاستعداد الثوري ، وفي طبيعتهم شيء من شره المزارع إلى مال التاجر وثرواته ، وكان عيون هؤلاء تتطلع نحو المنقذ .

وكان هناك صراع بين العرب واليهود على السيادة في يثرب ، وكثيراً ما كان اليهود يهددون العرب بقرب ظهور نبي سيحالفونه في حرب يفنون بها عرب المدينة ، ولقد رغب هؤلاء العرب في التحالف مع النبي المنتظر قبل أن يفعل اليهود ذلك .

هذا وقد تأثر عرب يثرب ببعض تعاليم الديانة اليهودية ، إنما لم يؤمنوا بها ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا وثنيين إنما ليس عندهم كعبة خاصة بهم أو أماكن مقدسة أو رهبان وسدنة ورجال دين ، وهذا كله مما سهل مهمة النبي والدعوة الاسلامية .

وكانت غالبية عرب المدينة تتألف من قبيلتين هما الأوس والخزرج ، وكانتا في صراع شديد من أجل السيادة على المدينة ، وقد أنهك هذا الصراع قواهم ، وجعلهم يلتمسون مخرجاً ، وهيأهم لقبول زعامة رجل غير مدني يأتي المخرج على يديه ، وكان هذا مما شجع محمداً في البداية للقيام بالاتصال بحجاج المدينة ليؤمنوا به ، وشجعه أيضاً معرفته بأهمية المدينة وأن الصراع الداخلي قد أنهك قوى أهلها ، لكنه خلق طبقة مدربة على القتال ، وجعل الأسلحة تتوفر في المدينة ، وبعد اتصالات عدة واجتماعات عرفت ببيعتي العقبة تعاقد النبي مع ممثلي المدينة على أن يهاجر إلى مدينتهم مع من آمن به وتبعه من المكيين وغيرهم .

محمد رجل الدولة

وتمت الهجرة في سنة ٦٢٢ م ، وكان هذا الحدث من الخطورة بمكان ، لذلك لا غرابة أن اتخذه المسلمون فيما بعد منطلقاً لتقويم خاص بهم ، وتم في المدينة صنع انجازات كبيرة للغاية ، كان أولاها إيجاد التفاهم وصنع الانسجام

بين المهاجرين من مكة وعرب المدينة وذلك بعـــد اقرار السلام بين قبيلتي المدنيين وايقاف الحروب بينهما .

وتمت عملية دمج المهاجرين بالمدنيين على شكل مؤاخاة ، وهذه المؤاخاة ، كانت منهجاً جديداً في حياة العرب، وذلك أنها أحلت رابطة العقيدة محل رابطة الدم ، وعلى أساس العقيدة تم إنشاء نواة أمة جديدة ستتطور لتصبح أمة عظمى .

وفي كتب السيرة نص وثيقة معاهدة يروى بأنها كتبت بعد قدوم محمد إلى المدينة مباشرة فيها تنظيم وتحديد لقواعد التعامل بين أفراد الأمة الجديـــدة وواجباتهم تجاه بعضهم البعض ثم تحديد لعلاقات الأمة الجديدة بغيرها من الجماعات غير المسلمة ، خاصة يهود المدينة ، وهكذا فقد نظمت هذه الوثيقة العلاقات الداخلية ونظمها للأمة والعلاقات الخارجية (الدبلوماسية) لها .

وأثناء تنظيم الأمة الجديدة انتشر الاسلام بين صفوف سكان يثْرب العرب واعتنق معظمهم هذا الدين عن رغبة وطواعية واعتنقه البعض الآخر بالظاهر فقط ، وظل اليهود كما هم على دينهم ، لذلك أصبح الآن في يثْرب ثلاثة قوى : المسلمون ، العرب المتظاهرون بالاسلام وأطلق عليهم اسم المنافقين ، واليهود . وأصبح محمد سيد الأمة الاسلامية الجديدة ، وعنت سيادته هذه معاني كبيرة فيها بون شاسع بين ما كان عليه أثناء وجوده في مكة وما أصبح عليه الآن ، ففي مكة كان محمد داعية إلى دين جديد تعارضه السلطة القائمـــة وتضطهـده وتنكل بأتباعه ، أما الآن فقد انتهت مرحلة الاضطهاد والملاحقة وأصبح محمد سيد أمة جديدة وذلك بالاضافة لكونه نبياً داعياً إلى عقيدة جديدة . وتطلبت منه وظيفته الجديدة مجهودات أكبر للتنظيم والحكم والتنمية ورد العدوان ومتابعة نشر الدعوة ، وتولي محمد للسيادة الزمنية مع صفات النبوة فيه جعل المفهوم الديني ممزوجاً بالمفهوم الدنيوي في الاسلام ، وهذه ناحية تفرد بها هذا الدين ، وحين تولى النبي سيادة الأمة الجديدة بقي محافظاً على صفته الأساسية ، في أنه نبي مرسل لا يملك الحق في التشريع لأن المشرع هو الله ، وكان كل ما عليه

تبليغ ما كان يأمره الله بتبليغه ، والسهر على تنفيذ الأوامر الالهية ، وعلى هذا فالدولة التي أقامها محمد كانت دولة السيد فيها هو الله ، والله وحده هو الحاكم الذي يحتكر جميع الصلاحيات والمناصب .

وناصبته قريش العداء كما ناصبه يهود المدينة وأطرافها والتقى الأعداء فجمعتهم مصالحهم الاقتصادية رغم تباينهم الديني والعرقي فتحالفوا ضده ، وقامت بينه وبين اليهود معارك سياسية وعقائدية نجد صداها الواسع في آيات القرآن وسوره وفي كتب السيرة والتاريخ ؛ ولم يكن الاستقرار في المدينة بالنسبة لمحمد إلا نقطة انطلاق وتأسيس قاعدة لمتابعة نشر الإسلام في الجزيرة وخارجها ولقد أدرك أن النجاح لن يحالفه ما لم يخضع مكة ، وأن أفضل سبيل لاخضاعها هو اثارة الحرب الاقتصادية ضدها وضرب مصالح أهلها المالية والتجارية .

فما أن استقر به المقام في المدينة حتى بدأ يخطط لحملات عسكرية ضد القوافل المكية المسافرة من وإلى مكة، فكان بذلك أول نبي يستخدم ما يدعوه معاصرونا بوسيلة العنف الثوري . ففي شهره السابع في المدينة أرسل قوة بقيادة عمه حمزة توجهت نحو شواطىء البحر الأحمر لتعترض قافلة لقريش كانت قادمة من الشام ، وبعد هذا بفترة وجيزة أرسل قوة جديدة تعترض قافلة جديدة لأهالي مكة ، وفي شهره الحادي عشر قاد بنفسه قوة عسكرية أراد بها اعتراض قافلة قرشية .

واستمر محمد في تنفيذ هذه الخطة فقامت بينه وبين قريش عدد من الوقائع العسكرية كانت نتائج معظمها لصالحه وحققت الغرض منها فعطلت التجارة القرشية وضربت مصالح المكيين المالية وأجبرتهم أخيراً على الخضوع للاسلام ، وكان من أشهر الوقائع ضد المكيين ، معركة بدر الكبرى ، ومعركة أحد ، وغزوة الخندق ، وأخيراً فتح مكة واخضاع قريش للاسلام . وبهذا الفتح هزمت الارستقراطية المالية القرشية ، لكنها ما لبثت أن تحينت الفرص لتركب تيار ثورة الاسلام فتحوله لخدمة مصالحها ومطامحها ، وقد نجحت في هذا بعد وفاة النبي ببضع سنوات .

وأثناء الصراع ضد قريش نمت الأمة الجديدة وكبر عددها ، وعقد محمد تحالفات مع سادة القبائل في شمال الجزيرة ثم استطاع بعد ذلك اخضاع جميع القبائل لسلطانه وأخذ الناس يدخلون في الاسلام أفواجاً .

ولم تكن الجزيرة وأمر إخضاعها شغله الشاغل ، بل نجده يهتم بايصال الاسلام إلى البلدان المجاورة ، فقام محمد بمراسلة ملوك وحكام عصره في أطراف الجزيرة واليمن والشام ومصر والحبشه وفارس ، كما جرد عدداً من الحملات قاد بعضها بنفسه ضد بلاد الشام التي كانت تحت الحكم البيزنطي .

ولقد تتوجت أعمال محمد وحياته بفتح مكة واخضاع مدينة الطائف ، واعتراف جميع أنحاء الجزيرة العربية به واتباعهم له وإيمانهم برسالته ودينه . ولا تقاس أهمية محمد وعظمته بالانجازات التي تمت في عصره فقط لكن بما نتج عن هذه الانجازات ، وما تحقق بعده ، بقيام الفتوحات العربية الكبرى ، وتأسيس الدولة العربية العظمى الممتدة من داخل الصين حتى خليج عُمان، ومن شواطىء المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسا وأسوار روما .

ولقد كان أثر هذا كبيراً للغاية على البشر وحضارتهم ، وثقافاتهم ، وأوضاعهم الاجتماعية والعقائدية والعرقية أيضاً .

وتأتي أهمية محمد في كونه قد نفذ جميع البرامج التي وضعها ، ووفى بجميع وعوده ، فعندما أصبح سيد الأمة الجديدة حقق ما دعا إليه من اصلاح اجتماعي ، فأوجد الإخاء ، واحل العدل القائم على الشريعة الواضحة محل الظلم والاعتباط ، وحرر المرأة ، وقضى على الفوضى ، وأوجد النظام ، ورفع من مكانة الأرقاء وأوجد سبلا كثيرة لتحرير الرق، ومحاربة الشقاء والفقر ،وحض على العمل الدؤوب المخلص .

لقد أوجد محمد امة جديدة ككل وكأفراد ، فعظمة محمد تظهر جلية في براعته في صنع القادة العظام من رجال كانوا عاديين قبله ، لقد اوجد محمد الانسان العربي المتحضر بعقله وايمانه وحسن أخلاقه ومثله وأمانته ، وسهر منذ بداية

الدعوة على نشر الثقافة والقراءة والكتابة بين صفوف أتباعه ، فهيأ طبقة من الناس ستتمكن من إدارة الدولة الكبرى التي ستقام بعد وفاته .

وبفضل ما جاء به من نظم شملت جميع جوانب الحياة ، وما شرعه من قوانين اقتصادية ، ومالية ، واجتماعية ، وسياسية ، وقضائية ، وإدارية ، ثم بفضل ايجاده لفكرة الجهاد واحلال الحرب المقدسة محل الحروب الداخلية واعمال الغزو ، استطاع العرب بعد وفاته بفترة وجيزة فتح معظم اجزاء بلاد العالم الوسيط ، ولم يحدث للعرب ما حدث للمغول بعد القرن الثاني عشر ، فلم تمتصهم حضارات الأمم المفتوحة، لقد جاؤوهم بمنطلقات حضارية جديدة، واستطاعوا فهم الحضارات القديمة وقاموا بصهرها جميعاً في بوتقة عربية ، واخرجوها للناس حضارة جديدة ، ثم قام العرب بتطوير هذه الحضارة وتنميتها ، وإضافة جوانب مبدعة كثيرة عليها .

ولقد كان محمد اول نبي في التاريخ استخدم القوة المسلحة كأداة من ادوات نشر العقيدة ، ولقد حققت القوة المسلحة ما أراده واوصلته إلى ما صبا إليه ، فكان الاسلام اول دين في التاريخ لم يحتج اثناء انتشاره إلى دولة أو قوة قائمة تتبناه وتفرضه ، وتنشره ، فهو قد ملك قوة ذاتية أوجدت دولا وحطمت وأزالت أخرى .

وكان لاستخدام القوة العسكرية في نشر الاسلام آثاراً ايجابية كبيرة في البداية ثم كان لها آثاراً سلبية كبرى ، خاصة عندما لم يحسن استخدامها ؛ وتم تجاوز اسسها ؛ ومراعاة احتياجاتها والتساهل في تطبيق نظمها ومراقبتها ، وسيمر معنا في المستقبل كيف ثار الجند على عثمان الخليفة الراشدي الثالث فقتلوه ، وكيف قادوا الأمة إلى حروب أهلية طويلة ذات نتائج خطيرة .

ومما يثير الدهشة أنه بعدما أسيء استخدام القوة العسكرية صرفت معظم طاقات المسلمين العسكرية في الداخل ، وما من ثورة قامت في الاسلام حاولت التوسع الخارجي بل كلها توجهت نحو القلب في الداخل ، وكان من المفترض

أن يؤدي هذا إلى انهيار الاسلام والمسلمين كما حدث في تاريخ روما وغيرها ، لكن ذلك لم يحدث ولعل السبب في هذا طبيعة مصادر السلطة والتشريع في الاسلام ، فطالما أن الله هو الحاكم وهو مصدر السلطات والتشريع ، لم تتجرأ أية قوة اسلامية تحركت وتوجهت نحو الداخل أن تنازع الله هذه الصلاحيات بشكل مباشر ، وأخفقت المحاولات غير المباشرة، وهكذا ظل المحرك الحياتي للأمة حياً ، وبتدفقه بالحياة منع الأمة الاسلامية من الانهيار وأبقاها حية وحررها لتتحرك بين آونة وأخرى نحو الخارج .

ووقع محمد في السنة العاشرة لهجرته إلى المدينة مريضاً وطال مرضه وعظم ، فلزم بيته وفراشه ، وأثناء اقامته في بيته أوكل إلى أبي بكر صاحبه القديم القيام بقيادة الصلوات الخمس . ويبدو أن بعض المشاكل قد وقعت اثناء مرضه مما اجبره على حمل نفسه واجبارها على دخول المسجد ومخاطبة المسلمين ووعظهم.

ويبدو انه شعر بأن منيته قد دنت ، وانه لن ينجو من مرضه هذه المرة ، ويظهر ان هذا الشعور خالج قلوب اهالي المدينة وغيرها من اجزاء شبه الجزيرة ولربما دفع هذا الكثيرين للتفكير فيما سيكون عليه الحال بعد الوفاة ، ومثل هذا الافتراض يفسر جميع الأعمال التي حدثت عقب وفاة النبي مباشرة .

ويمكن تقسيم عرب الجزيرة من حيث التفكير والتخطيط اثناء مرض النبي وعقب وفاته مباشرة إلى الفئات التالية :

١ ــ فئة مسلمة كان إيمانها خالصاً ومحضاً ، آمنت بأن الاسلام رسالة ينبغي ان تستمر وتدوم وتنتشر في كل بقاع العالم ، لذلك وضعوا خططهم من أجل تنفيذ هذا الغرض واستعدوا لكل طارىء ، وراقبوا الفئات الأخرى ؛ورصدوا تحركاتها؛ ومثّل هذه الفئة ، أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح .

٢ ــ فئة مسلمة ، ربما كانت متضايقة من فقدانها لنفوذها وسيطرتها على مدينتها ، خططت للعودة بالأمور السياسية إلى ما كانت عليه قبل الهجــرة

والاسلام ؛ ومثّل هذه الفئة سكان يثرب من الأوس والخزرج الذين عرفوا باسم الأنصار ، وتجلت خططهم هذه واستعداداتهم في اجتماع سقيفة بني ساعدة بعد حدوث وفاة النبي مباشرة .

٣ ـ فئة مسلمة كان إيمانها صافياً لا تشوبه شائبة ضمت أسرة النبي وآله ، شغلها مرض النبي عن كل شيء ومنعها عن التحرك ، والتخطيط ؛ ولربما كانت تعتقد بأن ما من شيء سيتم بالسرعة التي تمت فيها الأمور بعد الوفاة ، وأن المسلمين لن يقدموا على عمل دون مشاركتهم لهم وأخذهم بالاعتبار .

٤ ـ فئة حديثة الاسلام رأت أن من صالحها بقاء الاسلام واستمراره ، ورأت في وفاة النبي فرصة يمكن أن تستغل ويستفاد منها في ركوب تيار الأحداث وتوجيهه فيما بعد لمصالحها ، ومثل هذه الفئة سكان مكة والطائف من قريش وثقيف ، خاصة رجال المال والتجارة منهم ، وسنرى كيف نجح رجال هذه الفئة أخيراً فسيطروا على الاسلام ودياره ، وحولوا ثورته وقوته لصالحهم وصالح طبقتهم ، وذلك بقيام الدولة الأموية ، ثم بحلول الدولة العباسية محلها .

٥ ـ فئة ضمت قبائل البادية وأعرابها التي دانت غالبيتها بالطاعة مكرهة لمحمد ، وكانت طاعتها له طاعة لزعيم ولم تكن طاعة لدولة عقائدية ذات نظام مركزي ؛ لذلك ما أن توفي هذا الزعيم حتى شعرت بانحلال كل روابطها بجماعته ، يضاف إلى هذا أن كثيرين من زعماء القبائل ، وحتى بعض النساء الطموحات ، رأوا في النبوة ظاهرة « موده » يمكن تقليدها واستخدامها كوسيلة للزعامة والسيادة ، لذلك كثر بين العرب من ادعى النبوة في الأيام الأخيرة لمحمد وبرزت دعواهم إلى الوجود بشكل ظاهر بعيد وفاته .

***

الفصل الثالث

الدولة الراشدية

خلافة ابو بكر

ذكرنا قبل صفحات قليلة بأن الرسول وقع في السنة العاشرة لهجرته إلى المدينة مريضاً ، وطال مرضه وعظم ، فلزم بيته وفراشه ، ولم يعد يمكنه إمامة المسلمين في الصلوات لذلك استخلف صاحبه الوفي القديم أبا بكر وأوكل إليه القيام بقيادة الصلوات الخمس ، ويبدو أن مرض الرسول واشتداده خلق في المدينة جواً من القلق والتوجس حيث طرح الكثير من المسلمين أسئلة كثيرة حول مستقبل الاسلام والمسلمين بعد النبي ، وأثاروا مسألة قيادة الأمة بعد النبي ، ويبدو أن صدى هذه الأمور كانت تنقل إلى النبي فقد جاء في مصنف عبد الرزاق وصحيح البخاري عن ابن عباس قوله : « لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إئتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً » . فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) : قوموا . وجاء أيضاً في هذين المصدرين ومصادر أخرى « أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس : يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أصبح بحمد

---

١ - مصنف عبد الرزاق ٥/٤٣٨ - ٤٣٩ ؛ صحيح البخاري ٥/١٣٧ .

الله بارئاً ، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا ، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوف يتوفى من وجعه هذا ، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت إذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلنسأله فيمن هذا الأمر ، إن كان فينا علمنا ذلك ؛ وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا ، فقال عليّ : إنا والله لئن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإني والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

وفي أثناء هذا كله توفي النبي ، وما أن عم خبر وفاته وتيقن الناس منه حتى أخذت كل فئة منهم تتحرك في اتجاه رسمته لنفسها من قبل وذلك نحو غاية وهدف محددين ، ولعله من الممكن القول بأن مسلمي المدينة انقسموا يومئذ إلى ثلاث فئات :

١ ــ فئة من المهاجرين من أقرباء النبي وأهله فيهم علي بن أبي طالب ، والزبير ابن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، تجمعوا أولاً في بيت فاطمة بنت النبي ثم تحولوا إلى حيث توفي النبي فانشغلوا بأمر غسله وتجهيزه .

٢ ــ فئة ضمت معظم الأنصار ، واجتمع هذا القسم فور سماع الخبر في سقيفة لبني ساعدة وقرر انتخاب سعد بن عبادة حاكماً للمدينة .

٣ ــ فئة من المهاجرين ضمت أبا بكر ، وعمر ، وأبا عبيدة ، وتحركت هذه الفئة بسرعة وذكاء ، فأحدثت انقلاباً عاجلا في المدينة ، ونجح هذا الانقلاب بسبب عوامل داخلية وخارجية ، وحين تحرك رجال هذه الفئة ، كانوا يعرفون أنه لا يوجد خطر سريع يخشى من المهاجرين الذين شغلوا انفسهم بتجهيز النبي ، بل الخطر يكمن في تحرك الأنصار ، لكن التحرك الأنصاري من الممكن تقويضه بإثارة بعض النعرات ، وبعث بعض التناقضات بين الأوس والخزرج ، ذلك أن

---

١ ــ مصنف عبد الرزاق ٥/٤٣٥ ــ ٤٣٦ ؛ صحيح البخاري ٥/١٤٠ ــ ١٤١ .

الزعيم الذي سينتخبه الأنصار سيكون فرداً من إحدى القبيلتين ، وآنئذ يمكن اثارة القبيلة الثانية ودفعها للمعارضة ، وهذا ما كان ، يضاف الى هذا أن هذه الفئة كانت تدرك جيداً أن المدينة تحولت بعد الهجرة إليها من مدينة يثرب موطن الأوس والخزرج ويهود إلى مدينة رسول الله منزل الاسلام والمسلمين من مهاجرين وأنصار ، ذلك أن المهاجرين كانوا قد غدوا من الكثرة والقوة والغنى بمنزلة تفوق في كثير من الأوجه منزلة الأنصار . وكان عناصر هذه الفئة يخشون الفتنة ، ويكرهون سفك الدماء وتفتيت صفوف الأمة ، كما كانوا يعرفون أنهم أكثر من سواهم بامكانهم استحواذ رضى وتأييد سواد عناصر المسلمين خاصة من جماعة المهاجرين والمكيين ، لأنهم كانوا من زعماء قريش وذوي الثراء فيها قبل الاسلام ، ثم لدخولهم الاسلام عن قناعة كاملة ولاخلاصهم وتفانيهم في سبيله ارتفعت مكانتهم عن ذي قبل ، لقد كانوا مثل جماعات الوسط الذكية في عصرنا ، مكنتهم طول تجاربهم ومرونتهم من جعل النجاح حليفهم دون سواهم ، لكن غالباً ما كان تسلم الوسط للسلطة إلا مقدمة لغلبة اليمين واستبداده بالسلطة ، وهذا ما حصل في تاريخ الاسلام .

فحين سمع رجال هذه الفئة خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة تحركوا نحوها رغم بعض التحذيرات من مخاطر ذلك ، وعندما وصلوا مكان الإجتماع وجدوا سعد بن عبادة أحد زعماء قبيلة الخزرج ، قد أعد لينصب أميراً ، يخلف النبي في حكم المدينة ، وكان سعد آنذاك مريضاً لا يقوى على التحرك ورفع صوته ، لذا عندما أخذ في الكلام قام أحد أهله بترديد كلامه وإسماعه للمجتمعين ؛ وأوضح سعد في كلمته بأن محمداً ما كان لينجح لولا مناصرة الأنصار له ولذلك فأمر الحكم بعده خليق بهم وحقيق ، وختم كلمته بقوله مخاطباً قومه : « استبدوا بهذا الأمر فإنه لكم دون الناس » .

ويبدو ان وصول أبي بكر وصاحبيه الى مكان الإجتماع كان مصادفاً مع ختم سعد لكلمته ، وأحدث وصولهم بعض المفاجأة ، لذلك بادر أحد الأنصار بطرح السؤال التالي : « فإن أبت مهاجرة قريش ، فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة

رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ؛ فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ! فقالت طائفة من الأنصار مجيبة له : فإنا نقول إذاً : منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً . فقال سعد بن عبادة حين سمع هذا : « هذا أول الوهن » .

وتفجرت عندها ضجة كبيرة وجدل طويل وهنا وقف أبو بكر خطيباً فبين أن القضية هي ليست مشكلة انتخاب أمير للمدينة ، بل مشكلة مستقبل الإسلام وضرورة انتخاب حاكم للأمة كلها ، ترتضيه غالبيتها ومعظم أفرادها والمسلمون لا يرتضون إلا أحد أفراد قريش .

وأثارت خطبة أبو بكر هذه ردة فعل بين المجتمعين ، وقام أحد الأنصار فتهدد المهاجرين بقبول ما يقرره الأنصار طوعاً أو كرهاً ، فرد عليه عمر رداً عنيفاً ، وفي ذروة الجدل هذه تخلى بعض أقرباء سعد بن عبادة عنه لأمور في نفوسهم ، وتهامس زعماء الأوس بين بعضهم البعض فقالوا « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً » . وهنا قام أبو بكر فقال : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » .

وفي هذه اللحظة « كثر اللغط ، وارتفعت الأصوات » وفقد النظام بين المجتمعين ، وانهار مؤتمر الأنصار وأخفقت خططهم ، وعندما حصل هذا وقبل أن تتفرق الجموع وقف عمر بقامته المديدة وصرخ بالقوم ثم تقدم من أبي بكر قائلا : « أبسط يدك يا أبا بكر ؛ فبسط يده » ، فبايعه قائداً جديداً للأمة ، وتقدم بعض الموجودين فقلدوا عمر بما فعله ، وتقدم عمر من سعد بن عبادة يريد ضربه وهو يقول : « أقتلوه قتله الله » ، وتنبه أبو بكر لهذا فقال : «مهلا يا عمر ، الرفق ها هنا أبلغ ، فأعرض عنه عمر » وانسحب سعد إلى داخل بيته ؛ وارفض الإجتماع ، وتفرق الناس ، ولربما لم يأخذ معظمهم ما حدث من بيعة لأبي بكر مأخذ الجد، لكن تلاحق الأحداث أنجح الإنقلاب، لأن ما حدث

كاد أن يكون « فلتة كفلتات الجاهلية » (١) .

---

١ – تحوي مصادرنا روايات كثيرة تصف بيعة أبي بكر ، لعل من أوفاها وأحسنها وأقدمها الرواية التي ذكرها الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١ م) في مغازيه التي رواها عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ/٨٢٦ م) في مصنفـــه (٥/ ٣١٤ – ٤٩٢) ، وتحوي هذه الرواية وصف عمر بن الخطاب ما حصل ، ذلك أنه قال في احدى خطبه التي ألقاها في أواخر حياته «....إنه بلغني أن فلاناً منكم يقول : إنه لو قد مات أمير المؤمنين قد بايعت فلانا ، فلا يغرن امرءاً أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، وقد كانت كذلك ، إلا أن الله وقى شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر ، إنه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن علياً والزبير ومن معه تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت عنا الأنصار بأسرها في سقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر رحمه الله ، فقلت يا أبا بكر انطلق بنا إلى اخواننا مـــن الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم فلقينا رجلين صالحين من الأنصار قد شهدا بدراً ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا : نريد اخواننا هؤلاء من الأنصار ، قالا : فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم ، قال : قلت : فامضوا لنأتينهم ، فأتيناهم فإذا هم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا سعد بن عبادة ، قلت : وما شأنه ؟ قالوا : هو وجع .

قال : فقام خطيب الأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد فنحـــن الأنصار ، وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهط منا ، وقد دفت (أي جاءت) إلينا دافة (أي جماعة قليلة) منكم ، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويحضونا مـــن الأمر .

وكنت قد رويت في نفسي ، وكنت أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري من أبي بكر بعض الحد ، وكان هو أوقر مني وأجل ، فلما أردت الكلام قال : عـــلى رسلك ، فكرهت أن أعصيه ، فحمد الله أبو بكر رضي الله عنه ، وأثنى عليه بما هو أهلـــه ثم قال ، والله ما ترك كلمة كنت رويتها في نفسي إلا جاء بها ، أو بأحسن منها في بديهته ، ثم قال : أما بعد ، فما ذكرتم فيكم من خير يا معشر الأنصار ، فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا الحي من قريش ، فهم أوسط العرب داراً ونسباً ، وإني قد رضيت لكم هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم .

قال : فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح ، قال : فوالله ما كرهت مما قال شيئاً إلا هذه الكلمة ، كنت لأن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم أحب إلي من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر ،فلما قضى أبو بكر مقالته قام رجل من الأنصار فقال : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش ، وإلا أجلبنا الحرب فيما بيننا وبينكم جذعاً ... (فقال عمر بن الخطاب : لا يصلح سيفان في غمد واحد ، ولكن منا الأمراء ومنكم الوزراء) ...

←

وبعد ارفضاض اجتماع السقيفة عاد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة إلى المسجد فصعد أبو بكر المنبر ، ووقف عمر إلى جانب المنبر فتحدث معلناً ما حدث في اجتماع السقيفة وشارحاً لما تم فيه من انتخاب أبي بكر ثم ختم كلمته بقوله : « إن الله قد جمع أمركم على خيركم ؛ صاحب رسول الله — ﷺ — ثاني اثنين إذ هما في الغار فقوموا فبايعوه » فاستجاب الناس وبايعوا أبا بكر ، وعقب البيعة وقف أبو بكر فأعلن في بيان قصير سياسته وخططه ، وبيّن أنه سينفذ أوامر الله ورسوله دونما تجاوز .

واستنفذت هذه الأعمال ما كان قد بقي من النهار الذي توفي فيه النبي ﷺ وسحابة اليوم الثاني ، ويبدو أن المدينة عاشت ذلك الوقت حالة من الفوضى والإضطراب شغلت الناس عن أمر النبي وقضية دفنه ، وتروي مصادرنا بأن النبي قد دفن في الليلة الثانية لوفاته ، وقد تم دفنه بعد أن جهز من قبل أقربائه وآله ، في المكان الذي توفي فيه ، وتروي مصادرنا أن سبب دفنه حيث توفي يعود إلى أن العادة قد جرت بدفن الأنبياء حيث يقبضون ، وهذا قد لا يعدو مجرد تسويغ متأخر ، ولعل السبب الحقيقي لدفنه حيث قبض استمرار أمور المدينة في الإضطراب وانشغال الناس ، ثم طبيعة المناخ التي أجبرت أهله على دفنه حيث توفي ، وحيث لم يعد يجدي التأخير ويروى بأن العباس خاطب آنذاك الناس قائلاً : « خلوا بيننا وبين صاحبنا فإنه يأسن كما يأسن الناس » .

←

فارتفعت الأصوات بيننا وكثر اللغط حتى أشفقت الاختلاف ، فقلت يا أبا بكر ، ابسط يدك أبايعك ، قال : فبسط يده فبايعته ، فبايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار ، قال : ونزونا على سعد حين قال قائل : قتلتم سعداً ، قال : قلت : قتل الله سعداً .

وإنا والله ما رأينا فيما حضرنا من أمرنا أمراً كان أقوى من مبايعة أبي بكر ، خشينا إن فارقنا القوم أن يحدثوا بيعة بعدنا ، فإما نبايعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساداً ، فلا يغرن امرءاً أن يقول إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فقد كانت كذلك ، غير أن الله وقى شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر ، فمن بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين فإنه لا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة (أي خشية) أن يقتلا . المصنف ٥/٤٤١ — ٤٤٥ .

ولقد اختلف في سنه يوم توفي فقدّر ما بين ستين سنة إلى خمس وستين (١).

* * *

مؤسسة الخلافة

لقد كان اللقب الذي عرف به أبو بكر بعد تسلمه لزمام السلطة لقب خليفة كما أنه تبعاً لذلك عرفت المؤسسة التي قامت إثر ذلك بمؤسسة الخلافة ، فمن أين جاءت هذه التسمية التي لم تذكر أثناء مناقشات السقيفة حيث أن الألفاظ التي استخدمت كانت لفظتا : أمير ووزير ، ثم بعد هذا ما هي صلاحيات الخليفة في البداية وكيف تطورت هذه الصلاحيات مع مرور الزمن ؟ لعل من الضروري البحث في هذه المسائل قبل الاستطراد في الحديث عن أحداث عصر أبي بكر الصديق .

والحقيقة ليس من الممكن أبداً البحث في مسألة الخلافة وتطور أسسها ثم التحول في مفاهيمها السياسية والعقائدية دون التعرف أولاً إلى المنطلقات السياسية لأصول الإدارة والسلطة عند العرب قبل الاسلام ، ثم تطور هذه الأصول وتبدلها بمنطلقات جديدة بعد قيام الاسلام وتحقيق انتصاراته الأولى وتأسيس دولته .

ولا بد لنا ، عند الشروع بمثل هذا العمل أن نجد أنفسنا ملزمين بالعودة نحو مكة للتعرف إلى أحوال الحكم والسياسة فيها بشكل أساسي ثم أحوال بقية شبه جزيرة العرب حاضرها وباديها .

لم تعرف مكة قبل قيام الاسلام الحكومة المنظمة بأي شكل من أشكالها وحدود سلطاتها ، بل أديرت شؤونها من قبل كبار التجار وممثلي كبار

---

١ – ابن هشام : ١/٤٦٧ حتى نهاية الكتاب . مغازي الواقدي . ابن سعد : ١/٢٢٥ – ٥٠٣ . تاريخ خليفه : ١/١٣ – ٧٦ . الطبري : ٢/٣٩٥ – ٦٥٧ ، ٣/٩–٢٢٣ . مصنف عبد الرزاق ٥/٤٣٣ – ٤٣٥ .

الأسر القرشية ، ودعي هؤلاء باسم الملأ ، وكان الملأ يعقد اجتماعات عندما تدعو الحاجة في دار مخصصة دعيت باسم دار الندوة ، وكان لمكة عدد من الشعب « الوظائفية » وزعت كل واحدة منها على أسرة من أسر قريش البارزة ، دون أن يكونَ هنالك أية هيئة حاكمة ، أو وظيفية ثابتة ومحددة ، تتمتع بصفة من صفات الشرعية . كما أن مكة لم تعرف أي نوع من أنواع الكهنة ورجال الدين الذين يمارسون فض القضايا وادارة الأمور ، كذلك لم تعرف هذه المدينة أي نوع من أنواع القوة المسلحة والشرط ، وصحيح أن زعماءها كانوا يجتمعون أحياناً للتداول في القضايا والمشاكل في دار الندوة أو مكان آخر ، غير أن القرارات التي كانت تتخذ لم يكن لها صفة الالزام ، إنما كان الأخذ بها اختيارياً وفردياً ، هذا وكان اجماع زعماء مكة على أمر من الأمور شيئاً متعذراً في كثير من الأحيان ، وكثيراً ما كانت المدينة تنقسم في مواقفها من القضايا ، فتعقد التحالفات المتضادة داخلها ، وفي النهاية كان النصر غالباً للحلف الأقوى أو للتسوية والمصالحة .

وفي كتب الأخبار والسيرة أحاديث طويلة حول بعض القضايا التي واجهها مجتمع مكة وحول أحلاف هذا المجتمع ، وكنا قد أشرنا إلى ذلك من قبل ، ويستفاد من بعض الأخبار أنه وجد لدى المكيين مفهوم واحد للشرعية الواجب الالتزام بأوامرها مهما كانت ، وارتبط هذا المفهوم بالكعبة التى كانت موضع اجلالهم وقداستهم ، فعندما كان يجمع غالبية الزعماء المكيون على أمر من الأمور كانوا يدونون ما أجمعوا عليه في صحيفة ويقومون بتعليقها في جوف الكعبة ، وهنا يأخذ الأمر صفة الشرعية ، ومن أوضح الأمثلة حول هذا ما عمله المكيون حين أعلنوا صحيفة مقاطعة بني هاشم التي اضطرت هؤلاء إلى الالتزام بها ، فتركوا مكة وأقاموا محصورين في شعب أبي طالب ، وعاشوا في ظل المقاطعة حتى مزقت الصحيفة (١) .

---

١ – سيرة ابن اسحق ٦٢ – ٧٠ . سيرة ابن هشام ١/٣٥٠ – ٣٧٧ . طبقات ابن سعد ١/٢٠٨ – ٢١٠ . تاريخ الطبري ٢/٢٣٥ – ٢٤٣ . البدء والتاريخ ٤/١٥٣–١٥٤ . هذا وقد استمرت عادة تعليق صحف المعاهدات والوصايا وغيرها في جوف الكعبة ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما فعله هرون الرشيد حين قام بتولية أولاده العهد من بعده .

إن أمر الالتزام بشرعية الأوامر المعلقة في جوف الكعبة مرتبط بقدسيتها حيث اعتبرها القرشيون بيت الله ، وهكذا فالأمر المعلق في جوفها تصبح له صفات الهية ، وهذه مسألة في غاية الأهمية ، بالنسبة لأصول فكرة الشرعية والحكم في الاسلام .

ومع قيام الاسلام وبعد التبشير به لم يحدث تغيير جوهري فيما كان سائداً في مكة ، ذلك أن النبي لم يمارس أية سلطات في هذه المدينة حتى لربما على الذين آمنوا به وبرسالته ، ولم يعدو ذلك أنه كان مسموع الكلمة ، محترماً ، ومتبع الرأي بينهم .

وقد تبدل هذا الحال كلياً بانقضاء الفترة المكية ، وهجرة المسلمين إلى المدينة حيث عمل النبي الذي أصبح بالاضافة إلى صفة النبوة يتحلى بصفة زعيم أمة وحاكمها المطلق النابعة أحكامه من ارادة الله ، عمل هذا النبي على انشاء أمة جديدة ، ذات تقاليد وقواعد جديدة ، فلأول مرة في حياة مجتمع شمالي شبه الجزيرة ، لا بل في مجتمع الجزيرة كله ، قامت تجربة جديدة للحكم ، مركزية السلطة ، لها قانون وشرعة ، حاكمها يملك وحده — لأنه نبي الله ورسوله لا ينطق عن الهوى — الحق في التشريع ، وفي نفس الوقت يقع على عاتقه واجب تنفيذ الأحكام ، ولم يكن تطبيق هذا والقبول به من قبل العرب من الأمور السهلة ، لكن النبي نجح إلى أبعد الحدود في ارساء قواعد لحكم الأمة الجديدة التي أقامها ، وإن كان لم يأت بنظرية للحكم ذات أسس ومنطلقات ثابتة واضحة .

هذا وقد تناول بعض الناس هذه القضية حيث يرون بأن النبي قد أتى بنظرية خاصة في الحكم والسياسة ، هي نظرية الشورى ، معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم من آيات فيها « وأمرهم شورى بينهم » و« شاورهم بالأمر » ، ومع الاقرار بما ترمي إليه هذه الآيات ، فإن القرآن لم يبين قواعد الشورى هذه وحدودها وطرق تطبيقها ، كما لم يبين إلى أي حد كان على النبي الأخذ برأي أصحابه وأتباعه .

وعندما يعود المرء إلى كتب السيرة والسنن والمغازي يجد أن مفهوم هذه القضية لم يكن واضحاً عند أحد من الصحابة ، كما لم تتوضح معالمه في الممارسات زمن النبي ، فحينما كان النبي يستشير أحد أصحابه أو بعضاً منهم كان الجواب الأول « الله ورسوله أعلم » وعندما يلح النبي في السؤال كان جوابه سؤالاً عما عند الوحي في ذلك ، أو عما عنده هو شخصياً في ذلك حتى يأتي الجواب منسجماً ، أو منطلقاً من ايحاءات السؤال ومناحيه .

لقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة من تشريع وقضاء وإدارة وجباية وأعمال حربية ، وذلك بالاضافة إلى صفته الأساسية وهي النبوة ، وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية في الاسلام ، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات زمنياً ودينياً ، ولم تعرف دولة النبي التوظيف والموظفين الدائمين ، بل كان النبي ينتدب أحياناً بعض أصحابه فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد عن المدينة أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام مثل جباية الصدقات أو تفقيه الناس بالاسلام وإمامتهم بالصلوات أو تنفيذ مهمات عسكرية ، وكان الذي ينوب عن النبي في امامة الصلوات يدعى خليفة النبي ، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى أمير ، ولما كانت القوات التي يقودها هذا الأخير قواتاً مؤمنة تقوم بتنفيذ مهمة ضد جماعات غير مؤمنة فقد كان القادة العسكريين يميزون عن قادة الأعداء بلفظة أمير المؤمنين (١) .

وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة كما يؤديها النبي دونما زيادة أو نقصان ، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الأصيل الملتزم كلياً بما عهد إليه من أوامر وتعاليم ، وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة ، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب الطاعة المبرمة وتعطي القائد فرص التصرف وابداع الحلول واصدار ما يراه ضرورياً من أوامر وتعليمات ، ففي حين حرم الخليفة من صلاحيات التشريع منح ذلك للأمير وتمتع به .

---

١ – التراتيب الادارية ١/٢ – ٨ .

ومع اتساع رقعة الدولة الجديدة ، وتحقيق المزيد من الانتصارات تعاظمت مسؤوليات الحكم ، ورافق هذا تقدم النبي بالسن فأخذت آثار المرض وما عاناه خلال حياته تظهر عليه جلية ، وهنا — كما سبق وبيّنا — أخذ بعض المسلمين يفكرون في مستقبل العقيدة وفي شؤون الحكم في الدولة ، ومع مرض النبي الأخير أصبحت هذه المسألة هاجساً جثم على صدور المسلمين ، وأثيرت هذه القضية قبل موت النبي ، ويبدو من بعض الأخبار أنه حاول وضع الحل لهذه المسألة ، ولكن مرضه وأموراً أخرى حالت بينه وبين ذلك ، هذا ويرى البعض أنه ما كان بإمكان النبي أن يوصي بالحكم لشخص محدد بعده أو يبين شكل الحكومة بصورة مفصلة ، لأن مرضه وظروف العرب السياسية ومفاهيمهم مع تركيبهم الاجتماعي ما كان ليسهل تنفيذ أية وصية ، يضاف إلى هذا أن في الوصية تحديد تأباه الأيام وتطور العصور ، كما أن في تسمية ولي للعهد كان فيه اسباغ الشرعية والقدسية الأبدية وفيه اقامة اسرة مالكة ذات حق إلهي ، وهذا قطعاً يتعارض مع مبادىء الاسلام وعقائد النبي ، كما يرفضه تطور التاريخ ، وكلنا يعلم الحدود التي استغلت فيها بعض الاشارات العرضية مثل استخلاف النبي أبي بكر على الصلاة ومثل حادثة غديرخُم ، ويكفي لتبيان هذا استعراض بعض كتب السنة والشيعة في مسائل الامامة والخلافة ومشاكل الخلاف بينهما .

وعندما اشتد المرض بالنبي في أخريات حياته وألزمه الفراش قال «مروا أبا بكر فليصل بالناس (١) » ، وبهذا الأمر صار أبوبكر « خليفة رسول الله » على الصلوات ، ولعله شهر بهذا اللقب ، فكان عندما توفي النبي وبعدما تسلم السلطة أن ظل يعرف بهذا اللقب ، وإذا صح هذا ففيه تبيان لأصل لقب الخلافة وجواب للتساؤل الذي طرح في مطلع هذا البحث ، وبتسلم أبي بكر لمقاليد الحكم أصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسمياً وأساسياً في الحياة السياسية للأمة الاسلامية ، بينما لم تكن له في البداية أية هوية واضحة المعالم والأسس .

---

١ — مصنف عبد الرزاق ٤٣٢/٥ — ٤٣٣ . ابن هشام ٦٥٢/٢ — ٦٥٣ . ابن سعد ٢١٥/٢ — ٢٢٤ . صحيح البخاري ١٣٧/٥ . الطبري ١٩٦/٢ — ١٩٧ .

وحاول أبو بكر ، في أول خطبة له بعد بيعته ، تحديد معالم منصبه الجديد منطلقاً من مفهوم كلمة «الخلافة» اللغوي ومن قاعدة الاستخلاف على الصلاة، أي أن الخليفة نائب ملتزم كل الالتزام بأوامر المنيب وأفعاله وشكل تصرفاته، وظهر هذا في قوله : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » (١) وظل أبو بكر يعرف طيلة حكمه بخليفة رسول الله، ذلك أنه لم يحتج إلى تبديل لقبه ، لأن مدة حكمه كانت قصيرة ، لم تحدث فيها مشاكل جديدة تحتاج إلى تشريع ، وهكذا مكث أبو بكر طيلة عهده يعتبر نفسه نائباً عن النبي منفذاً لكل ما جاء به، ويرى نفسه أنه لا يملك أية صلاحيات تشريعية ، كما لا يملك اجبار المسلمين على ركوب خطة لم يحدد معالمها النبي والقرآن الكريم .

ومات أبو بكر والحالة مـــن حيث الجوهر كما هي ، سوى أن رقعة الدولة قد اتسعت فشملت أراضي خارج شبه الجزيرة ، كما أنه تجمع في الأقاليم المفتوحة قوات عربية مسلحة لا ريب أنها أخذت تتطلع نحو اسماع صوتها ورأيها في السلطة وشكل الحكم ، وقبيل وفاته قام أبو بكر بتعيين عمر بن الخطاب لتولي شؤون الحكم من بعده ، وقبل الناس بهذا التعيين الأمر الذي يدل على حدوث تغييرات في مفاهيم الناس السياسية ، هذا وسنقوم في بحث هذا الأمر أثناء معالجة أحداث خلافة عمر بن الخطاب .

أهم أحداث عصر أبي بكر

وصفت عائشة أم المؤمنين بداية عهد أبي بكر بقولها: « توفي رسول الله ﷺ فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي بكر لـهَاضَهَا ، اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدّت العرب » .

ويبدو ان ارتداد العرب حين انتشر خبر وفاة الرسول بينهم كان مما ساعد على نجاح انقلاب السقيفة وتقوية مركز ابي بكر وقبوله بشكل شرعي ، وقبل

---

١ – الطبري ٢/٢٢٤ .

أن يتوفى النبي كان قد أعدّ جيشاً بقيادة اسامة بن زيد لغزو بلاد الشام ؛ وحدث أن مرض النبي وتوقف الجيش عن المسير ، وبعـد أن توفي النبي واستُخلف أبو بكر كتب أسامة إلى أبي بكر « انه قد حدث أعظم الحدث وما أرى العرب إلا ستكفر ، ومعي وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وحدهم فإن رأيت أن نقيم ، فكتب إليه أبو بكر فقال : ما كنت لأستفتح بشيء أوّل من رد أمر رسول الله ﷺ ، وأمر أسامة أن ينفذ ببعثة ، فمضى لوجهته فتغيب أربعين يوماً ، وكان حادث زحف أسامة بجيشه ضد بلاد الشام مما قوى مركز أبي بكر وزرع الشك في قلوب رجال القبائل في قلب الجزيرة ، إذ رأوا في إنفاذ هذا الجيش دليل قوة لا دليل ضعف .

حروب الردة

وعندما انتشر خبر وفاة النبي واستخلاف أبي بكر بين صفوف القبـائل ، قطعت غالبية هذه القبائل صلتها بالمدينة ، ذلك انها كانت تعتبر نفسها مرتبطة بسيد المدينة لا بنظام قائم بذاته ودولة مركزية ؛ وعندما طولبت هذه القبائل بالاعتراف بأبي بكر وبدفع ما كانت تدفعه من ضرائب للنبي رفضت ، واعتبرت جماعة المدينة رفضها هذا ردة عن الإسلام ، ورأى أبو بكر أن واجبه الأول هو إعادة إخضاع شبه الجزيرة ، ولقد قام بعض زعماء القبائل فادعوا النبوة واتخذوها وسيلة للزعامة ، وأداة ضد دولة المدينة ، ووسيلة تمنحهم حق الاستقلال .

ولقد كان لدى أبي بكر أداة عسكرية جبارة لا نظير لها في شبه الجزيرة ، وهذه الأداة صنعت من قبل النبي ، وتدرب رجالاتها على يديه لمدة عشر سنوات وخلال معارك كثيرة ، وكانت هذه الأداة حسنة التسليح ، جيدة النظام ، قوية العقيدة ، تحسن فنون القتال الصاعق السريع ، ولقد كان أبرز قادة القوات الإسلامية واكثرهم كفاءة خالد بن الوليد ، لذلك ما ان سمع أبو بكر بأخبار ردة القبائل حتى خرج إلى ظاهر المدينة حيث اخذ ينظم الجيوش ويرسلها ضد المرتدين ؛ وكان اول جيش ارسله بقيادة خالد بن الوليد ، وشن

خالد ضد المرتدين حرباً شعواء في غاية العنف،فاستطاع مع غيره من قادة أبي بكر القضاء على الردة ومعظم قادة وزعماء المرتدين في اقل من سنة واحدة (١).

الفتوحات

وبعد الفراغ من الردة أخذ أبو بكر يوجه قواته وقوات قبائل الجزيرة نحو أطراف الجزيرة وما جاورها من دول كفارس وبيزنطة ، ولقد استطاعت هذه القوات في فترة قصيرة تحقيق معجزة التاريخ الانساني الكبرى ومعضلته المحيرة التي يصعب حل جميع ألغازها ، وهي الفتوحات العربية وإقامة الدولة العربية العظمى . وتقوم مشكلة الفتوحات العربية على عدة مسائل أهمها :

١ ــ كيف استطاعت جموع غالبيتها من بدو الصحراء في شبه الجزيرة العربية ، لا تتقن إلاّ مبادىء بدائية في القتال ، وليس لديها سابق تجربة في خوض معارك عظمى ضد جيوش نظامية مدربة ، ثم هي لا تملك إلا بعض الاسلحة الخفيفة ، غير جيدة الصنع ، قهر الجيوش النظامية لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك ؟

٢ ــ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري إلى احتلال دائم مرج الأرض ومن عليها ، وغير معالم الانسان في الزمان والمكان وجاء بإنسان جديد أبدع الحضارة العربية ؟

٣ ــ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة وهدف معلوم أم جاء ذلك بمحض الصدفة ونجح وتطور بعامل الزمن ؟

٤ ــ ما هو المحرك الذي دفع إلى الفتح وساعد عليه وأبقى حركته حيّة فيها حرارة وتدفق مستمران ؟

وفي محاولة للاجابة على مجموع هذه الأسئلة وغيرها نجد أن مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين ومسيحيين ــ وغالبيتهم كتب في ظل مدرسة التفسير الغيبي

---

١ ــ تاريخ خليفه : ١/٧٨ ــ ٩٩ . الطبري : ٣/٢٢٣ ــ ٣٤٢ .

الإلهي للتاريخ ــ عزوا أمر نجاح العرب في فتوحاتهم وأرجعوا سرّه إلى قوى غيبية ، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقاً لإرادة الله حين بعث نبيه محمداً رحمة للعالمين وهادياً للبشر أجمعين من كل جنس ولون ، في كل بقاع الأرض ، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر والنجاح وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل أمم الأرض ، ورأى المؤرخ غير المسلم ان سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم .

ولقد اعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى ان الذي حرك العرب ودفعهم في سبيل الفتح ومكنهم من تحويل القهر إلى احتلال دائم غير الانسان والمكان هو الاسلام ، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمداً ، وعلى هذا كانت اعمال الفتح جهاداً في سبيل الله ، وكان هدف الفتح اعلاء كلمة الله واحلال التوحيد محل الشرك ، والايمان محل الكفر ، ويرى هؤلاء ان محمداً وضع خطة واضحة للفتوح ، ويُدلّلون على ذلك بما جاء في القرآن وفي أقواله ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام وجيش اسامة بن زيد آخر جيوشه الذي انطلق في مهمته بعد وفاة النبي .

ولقد رفض المؤرخ الحديث هذه التعليلات وبات يفتش عن أسباب اخرى، وتمت امور الرفض والتفتيش هذه اول ما تمت في اوربة الغربية وعلى ايدي باحثين غربيين ثم قلدت في المشرق العربي والبلاد الاسلامية ، ولم تَعْدُ آراء المشارقة التقليد الممسوخ لما تم في الغرب .

وكانت اعمال البحث في التاريخ الاسلامي قد بدأت مع تطور النهضة في اوربة ، وهذه النهضة مرت بمراحل كانت اولاها اعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان ، ثم تبع ذلك قيام القوميات الأوربية ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في اوربة مع مدارس التفسير الاقتصادي . لهذا رفضت اول الأبحاث الأوربية العامل الديني ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الاسلامية ، وعزت انتصار العرب إلى ضعف بيزنطه وفارس من حروبهما المستمرة ، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الاسلامية وقيام الدولة العربية

ما كانت إلاّ ثمرات تحرك القومية العربية على يد محمد موحد العرب الأول وقائدهم القومي الأعلى ، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام ، وإننا لنرى في كتابات كايتاني ثم فلهوزن وبعد ذلك ، كاهن ، وكابريلي ولويس وباليف امثلة شاهدة على هذا التطور .

والعيب المميت في ابحاث كل هؤلاء – رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة – هو ان اصحابها بحثوا في تاريخ الفتوحات العربية وتاريخ الاسلام لا لاستكشاف حقيقة ما حصل كما تروي أخباره المادة التاريخية ، وإنما للبرهنة على صحة صورة مسبقة قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث ومدارس التفسير ؛ ومثل هذا التطبيق هو انحراف عن الواقع وتشويه وتزوير . فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد تاريخية عن اعمال الفتوح العربية لوجدناها خالية من اخبار تتحدث عن اية ازمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن محمد وزمن أبي بكر ، ثم ان محمداً كان نبياً للاسلام وليس نبياً بعث للعرب فقط ، نبياً وحّد العرب من اجل حاجتهم لذلك ومن أجل نشر الاسلام ، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله واعلاء كلمته وليس غير ذلك .

ونحن حين نفحص اخبار الفتوح نجدها قد تمت على أيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، فكان كل واحد منهم يقول : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لجسمك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه » . ولعل سر نجاح العرب العظيم يكمن في العمل على الأرض والقلب مشدود إلى السماء ، لقد استطاع عرب الفتوح ان يعملوا في سبيل دنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، وكان هذا العمل الدنيوي عملا في سبيل الآخرة كأن صاحبه سيموت غداً ، فالاسلام اول عقيدة مزجت المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني فكان كل عمل يقوم به الإنسان حتّى متعته الفردية عملا تعبدياً يمكن ان يتقرب به الى الله سبحانه .

على هذا لقد تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها أعلى من

بعض ويتبعون عدة غايات بعضها ارفع من بعض ، باعثهم الأول العقيدة وغايتهم المثلى نشرها لكن هذا النشر من اجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر ، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله والقرار في الجنة حيث الهناء الأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء .

ولنبدأ الآن بالحديث عن اشهر اعمال الفتوح وسنسوق هذه الأخبار جملة لا بتسلسل عهود الخلفاء ، ولما كانت الفتوحات قد تمت في البداية على جبهتين : واحدة شامية والأخرى عراقية ، فاننا سنعالج اخبار كل جبهة على حدة ، وسنبدأ بالحديث اولا عن جبهة العراق لأسباب جغرافية ولأن الأعمال العسكرية بدأت فيها اولا .

جبهة العراق

كانت منطقة العراق خاضعة للإمبراطورية الساسانية الفارسية ، وكانت هذه الإمبراطورية قد ساعدت في عصور سابقة على قيام إمارة عربية في منطقة الحيرة ، لكن عند قيام الفتوحات العربية كانت إمارة الحيرة ليست موجودة فعلاً ، كما أن الامبراطورية الساسانية كانت في القرن السابع تعاني من مشاكل داخلية سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ، إنما رغم كل ذلك كانت ما تزال على درجة كبيرة من القوة ولديها جيوش كبيرة جيدة التسليح والتدريب ، وكانت منطقة وادي الرافدين مرتعاً للقبائل العربية منذ فترات طويلة سبقت القرن السابع ، كما أن سكان العراق وخاصة سواد الشعب في الأرياف والمدن كانوا من أصل ممتزج بالعرب ، وكانوا يكرهون الفرس وعلى استعداد للتعاون مع اية قوة تنقذهم منهم ، ولقد كانت القبائل العربية في صراع دائم مع جيوش الامبراطورية الفارسية ، وعندما كان محمد يبشر بالإسلام حققت هذه القبائل نصراً كبيراً على الفرس في معركة ذي قار . وكانت قبائل بكر بن وائل أعظم قبائل العرب المعادية للفرس ، وعندما عم الإسلام شبه الجزيرة تأثرت هذه القبائل بالإسلام وتبناه عدد كبير من افرادها .

ومع قيام خلافة أبي بكر كان أحد زعماء قبيلة شيبان من بكر بن وائل وهو المثنى بن حارثة قد اخذ لنفسه زمام مبادرة العمل العسكري ضد الفرس ، وعندما قُضي على حركة الردة امر ابو بكر خالد بن الوليد بالتوجه نحو العراق والتعاون مع المثنى وكان هذا سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م ، وسبق للمثنى قبل وصول خالد إليه أن زار المدينة واجتمع بأبي بكر ، فكتب له الخليفة عهداً فوض له بموجبه العمل لصالح المسلمين ضد الأراضي الفارسية .

وفي خلال أقل من عام واحد إستطاع خالد يعاونه المثنى تحقيق عـــدد من الإنتصارات على حاميات الحدود الفارسية مع القوات التي جاءت لنجدتها ، وتتوج عملهما بحصار مدينة الحيرة حاضرة المناذرة والإستيلاء عليها صلحاً، وقام ابو بكر بإمداد خالد بقوات جديدة وجعله قائداً أعلى لجميع القـوات العربية في جبهة العراق . لكن مكوث خالد لم يطل في العراق حيث جاءتـه أوامر الخليفة بالتحول إلى بلاد الشام حيث سيقوم بجليل اعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة .

وبعد تحول خالد إلى الشام حل المثنى محله في قيادة قوات الجبهـة العراقية، وبقي المثنى في منصبه حتى توفي ابو بكر ، واثناء ولايته استطاع صد جميع المحاولات الفارسية التي ابتغت استعادة العراق وطرد العرب إلى جزيرتهم ؛ وبعد وفاة ابي بكر في سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ ــ ٦٣٥ م . استخلف عمر بن الخطاب وكان اول عمل عسكري قام به هو عزل كل من المثنى عن قيادة الجبهة العراقية، وخالد بن الوليد عن قيادة جبهة الشام .

وانتدب عمر لقيادة الجبهة العراقية أبا عبيد الثقفي ،وكانت اول اعمال ابي عبيد انتكاسة كبيرة للعرب كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات ، وذلك في معركة الجسر في منطقة قس الناطف على الفرات ، وقتل في هذه المعركة جمع كبير من القوات العربية كان من بينهم أبو عبيد نفسه ، ولقد استطاع المثنى بفضل حنكته وإقدامه تخليص العرب من الفناء والإنسحاب بهم ، وقد جرح المثنى في هذه المعركة .

وأثرت هزيمة الجسر تأثيراً كبيراً على معنويات الجند العربي ، وظهر هذا عندما أخذ عمر يندب الناس للذهاب إلى العراق « فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه » ثم تمكن من تجنيد قوة صغيرة من قبائل الأزد وقبائل بجيلة ، وعندما وصلت هذه القوات العراق مكنت المثنى من الإنتقام لهزيمة الجسر وذلك في معركة البُويب . وبعد نصر البويب توفي المثنى متأثراً بجراحه التي أصابته في الجسر ، ولقد حدث كل هذا سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ — ٦٣٥ م السنة الأولى لحكم عمر بن الخطاب . ويعتبر المثنى من أبرز أبطال الفتوحات العربية ، وهو بحق مؤسس العراق العربي وموجده .

وشجع نصر البُويب العرب ، فأخذت قواتهم تتدفق من جديد على الجبهة العراقية وأخذت هذه القوات تضغط بشدة على الامبراطورية الساسانية ، مما دفع هذه الامبراطورية إلى تجنيد جميع طاقاتها لصد العرب ، فجمعت جيشا لجباً أوكلت قيادته لأعظم قادتها وضباطها وكان على رأسهم رستم ، وفعلت فارس ذلك بعد أن حلت معظم مشاكلها السياسية .

وأثر زحف القوات الفارسية على قوات العراق العربية فأخذت تنسحب من مواقعها المتقدمة إلى مواقع تلتقي فيها ، ووصلت عمر اخبار العراق المقلقة ، ففكر في تجييش قوة يقودها بنفسه ، لكنه قرر اخيراً تعيين سعد بن أبي وقاص وتسييره إلى العراق . والتقت القوات العربية بالقوات الفارسية في أرض القادسية ؛ وكانت القوات الفارسية تبلغ ما لا يقل عن خمسة اضعاف القوات العربية ، وكانت أفضل تسليحاً حيث اصطحبت عدداً كبيراً من الفيلة ، واشتبكت قوات الطرفين في معركة ضارية للغاية استمرت ثلاثة أيام بلياليها ؛ وقد أسفرت المعركة عن سحق القوات الفارسية ، وأدى هذا إلى سحق الامبراطورية الفارسية ومن ثم إزالتها من الوجود ، وقد تمت هذه المعركة على الأرجح سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ — ٦٣٧ م .

وقد منح انتصار القادسية العرب غنائم كثيرة كان على رأسها العراق ، وفتح هذا النصر الطريق أمامهم نحو المدائن ، فاستولوا عليها ، وأخذت بقايا

القوات الفارسية تنسحب محاولة تجميع نفسها ومن ثم إيقاف الزحف العربي نحو تصفية الامبراطورية الفارسية واستغرق ذلك عدة سنوات وقعت خلالها عدة معارك كان آخرها وأشهرها معركة نهاوند وذلك سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م .

وتم اثناء عمليات التصفية تنظيم أحوال مقاطعات الامبراطورية المقهورة ، وتكوين إدارة عربية لها ، وزاد تدفق العرب من شبه الجزيرة على العراق ، وأقام العرب معسكرات دائمة لقواتهم في العراق ، وكان أبرز هذه المعسكرات اثنين هما : البصرة والكوفة، وتحول هذان المعسكران مع الأيام إلى مدن ثابتة وكبيرة(١) .

وقد نجم عن انهيار الامبراطورية الفارسية والاستيلاء على أراضيها مشاكل كبيرة للغاية كان على الخليفة عمر بن الخطاب مواجهتها وايجاد حلول للتغلب عليها ، وهذه المشاكل تعلقت بالجند الذين تحملوا أعباء الفتح ، وإدارة الأراضي التي استولوا عليها وقضايا استملاكها ، ثم تعلقت بشعوب الامبراطورية المنهارة إجتماعياً ، وسياسياً ، وإقتصادياً ، ودينياً .

ومواجهة هذه المشاكل أجبرت عمر بن الخطاب على القيام بأعمال تشريعية ، واعطاء نفسه صلاحيات التشريع ، الأمر الذي لم يفعله أبو بكر قبله .

ولعل من أهم الأمور التي عالجها عمر مشكلة تقسيم أراضي العراق المفتوحة وهي تعرف بقضية سواد العراق ، فهذه الأرض قد فتحت عنوة ، فآلت بسبب ذلك إلى نوع من أنواع الغنائم الحربية ، وفي الإسلام تشريع خاص يتعلق بالغنائم من حيث النوع وطريقة تقسيمها ، وعلى العموم كانت أربعة أخماس الغنائم توزع بين المقاتلين ، وكان الخمس الباقي يوزع حسب ما ورد في « الآية ٤١ من سورة الأنفال » وعلى هذا الأساس كان من المفترض توزيع

---

١ — تاريخ خليفه : ١/١٠٠ — ١٤٣ . فتوح البلدان : ١/٢٤٢ — ٣١١ . الاخبار الطوال : ١١٣ — ١٣٣ . الطبري : ٣/٣٤٣ — ٦٢٣ ، ٤/٥ — ١٤٥ . اليعقوبي : ٢/١٢٧ — ١٥٧ . مروج الذهب : ٢ — ٣١٥ — ٣٣١ .

أراضي سواد العراق وغيرها من الأراضي التي استولى المسلمون عليها عنوة، لكن عمر لاعتبارات كثيرة عطل عملية التقسيم ، وهو بفعله ذلك وبأفعال أخرى مشابهة أعطى نفسه صلاحيات تشريعية وذلك حسب مقتضيات المصلحة وضرورات الزمن (١) . هذا وسنبحث هذه المسألة بمزيد من التفصيل عند الحديث عن خلافة عمر .

* * *

جبهة الشام

وحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس كانت تعمل أيضاً ضد الدولة البيزنطية وقواتها في بلاد الشام والجزيرة ثم في مصر وغيرها من المناطق، ولقد بدأت الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام منذ عهد الرسول ، وكانت آخر قوة جهزها قبل وفاته أراد إرسالها ضد بلاد الشام ثم توفي ، فكانت أول الجيوش التي تحركت زمن أبي بكر ، وعلى الرغم من هذا فإن حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطة في الشام لفترة وجيزة من الزمن ، وبعد القضاء على الردة بدأت الأعمال العسكرية هناك لكن بعد أن بدأت في العراق بعدة أشهر .

ففي سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م . استنفر أبو بكر العرب في بقاع الجزيرة وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف ثم أمدها إلى أن وصلت إلى السبعة، وجعل على رأس هذه الجيوش يزيد بن أبي سفيان ، وشُرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وأرفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير المسلمين والصحابة مثل أبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ويبدو ان مهمة أبا عبيدة كانت العمل كضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة ؛ وصلة وصل لها بالخلافة، ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة، وإنما جاء تحركها على دفعات

---

١ – تحفل كتب الفقه في شرح قضية قسمة الغنائم ، ولعل أفضل الكتب التي عالجت قضية السواد هي : الخراج ليحيى بن آدم . الاموال لابي عبيد القاسم بن سلام . والخراج لابي يوسف القاضي، فلينظر فيها .

كل دفعة ذهبت في اتجاه معين ، ويرى البعض أن سبب ذلك يعود إلى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش : فتح أم أعمال غارة ؟ وان أبا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة فيدفعها نحو بلاد الشام تخلصاً منها وحتى ترى حظها ، وكان يستجيب لتطورات الأحوال .

والذي يبدو ان واقع الحال لم يكن هكذا أبداً فأبو بكر مثله مثل بقية القرشيين كان يعرف الشام وبلدانها وأحوالها بشكل جيد ، وكانت هناك دائماً آمال مع خطط لفتح الشام وتحريره من سيطرة بيزنطة ، وكان مما يشجع على ذلك أحوال بلاد الشام البشرية حيث أنها كانت عربية المشاعر وعربية الجنس الطاغي والأعراق ، يضاف إلى هذا أحوالها الإجتماعية والدينية والإقتصادية مع ما كانت تعانيه بيزنطة من مشاكل وانقسامات سياسية وكنسية .

ولم يدفع أبو بكر القوات تخلصاً منها إنما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة قامت على العقيدة الحربية لعرب الصحراء . وهذه العقيدة أخذت في اعتباراتها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال مع طرق القتال ، وأيضاً طبيعة القوات البيزنطية من كافة النواحي .

لقد جنّد أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة ، وافراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة ، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم ، وكانت اسلحتهم خفيفة ومؤنهم قليلة للغاية ، وبكلمة موجزة كانت قوات ابي بكر قواتاً غير نظامية محترفة عليها ان تقاتل جيوشاً نظامية لاحدى اعرق الامبراطوريات في معرفة الفنون القتالية ؛ ولذلك كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات البيزنطية ، ثم انهاك هذه القوات واضعاف معنوياتها واخيراً انزال ضربة قاصمة وسريعة بها ، وكان هذا ما حصل .

ارسل ابو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها ، ولتجبر قوات بيزنطه على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة ،

وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة واخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية ، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في اكثر من معركة كبيرة كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك .

ويبدو أن جيش عمر بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق المـوازي لشاطيء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها ، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة – تبوك – معان ، فوادي الاردن ، وكانت مهمة شُرحبيل العمل في منطقة الاردن ، ومهمة يزيد دمشق ومنطقتها ، واصطدمت هذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها ، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص ، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية وأنباء انتصاراتها وهزائم قواته حرك قواتاً ضخمة بقيادة أخيه تيودور ، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي هذه إلى العرب فكتب أبو عبيدة يخبرها إلى أبي بكر فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : « أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق ، وخلّف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك » .

واستجاب خالد للأوامر وتحرك نحو الشام فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة ، وكان عبوره إلى الشام من أعظم الأعمال العسكرية وأكثرها مغامرة وشجاعة ، وقد نتج عن هذا العبور نتائج كبيرة ، فقد ظهر بشكل مفاجيء في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام ، فهاجم بصرى وهزم حاميتها ثم صالح أهلها فأصبح سيد منطقة حوران ، وأربك ظهور خالد المفاجيء هذا تيودور وكان سبب اخفاق مهمته ، وبعثت أعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية ، ومـن حوران راسل خالد أمراء الجيوش العربية وطلب منهم أن يلاقوه جميعاً في منطقة أجنادين ليس بعيداً عن الرمله .

وفي أجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمس والعشرين

الفاً مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور ، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عدداً وعِدداً ، وهزم خالد البيزنطيين وألحق بتيودور العار وجعله يفر نحو أخيه ، فسبب رحيله عن حمص نحو انطاكية لجمع جيش جديد وإرساله ضد العرب لمنعهم من التقدم شمالا .

وسقط حاكم فلسطين البيزنطي بين القتلى في أجنادين ، ولقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي وأعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة ؛ وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق . وحدثت هذه الأحداث كلها سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م في اواخر حياة أبي بكر .

وبعد أجنادين أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للتحرك نحو دمشق ، وقبيل مشارف دمشق هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين عنيفتين للغاية في مرج الصُفَّر وفحل ، ووصلوا أسوار دمشق وأخذوا في حصارها .

وفي هذه الأثناء وصلتهم أخبار وفاة أبي بكر واستخلاف عمر ، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام ، وأحل أبا عبيدة بن الجراح محله ، ولم يحدث هذا العزل الذي عُزي لأسباب كثيرة شخصية بحتة وعامة تتعلق بمصالح الأمة ، لم يحدث تأثيراً كبيراً على وضع القوات العربية إذ بقي خالد القائد المؤثر والفعال حيث أن أبا عبيدة كان لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة خالد ثم بعد ذلك كان يوكل إليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه .

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة سقطت بعدها سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م ، وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالا فتجاوزت منطقة مدينة حماه واستمرت شمالا . وأخذوا يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام ويطهرونها من الجيوب البيزنطية ، ويعملون في سبيل اعادة تنظيمها ، لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات ، فجند هرقل

جيشاً عظيماً للغاية ضم جنسيات الامبراطورية ، يونان وسوريين وغساسنة وأرمن ، وزحفت القوات البيزنطية جنوباً تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم ، ووصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى أبي عبيدة وكان في منطقة حمص ، فعقد مجلساً حربياً ضم كبار قادة قواته وتباحث معهم في الأمر فقر رأيهم على الانسحاب إلى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام ومن التراجع نحو شبه‌الجزيرة وقرروا ايضاً الكتابة الى عمر بوصف حالهم وبطلب المدد .

وانسحبت القوات العربية جنوباً متخلية عن جميع المدن والأراضي التي اخذتها ، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك ، وكان لهذا الإنسحاب اثره على القوات البيزنطية ، حيث ولد الغرور في نفوس قادتها ، كما دفعهم إلى انزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب ، مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين . والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك بالقرب من بحيرة طبرية في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد ، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن ، وفي الأمام كان الجيش البيزنطي ، ونشط خالد بن الوليد في إعداد خطط العرب نشاطاً واسعاً تجلت فيه عبقريته العسكرية ، وطبق خالد خططه بوعي وشجاعة فسبب تحطيم القوات البيزنطية وكان ذلك في صيف سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م . ولا ريب ان القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين الفاً .

ومما لا شك فيه ان معركة اليرموك كانت إحدى معارك التاريخ الانساني الكبرى ، لما نجم عنها من نتائج ، فبعد هذه المعركة عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل وتابعوا زحفهم شمالا حتى جبال طوروس ، وفر هرقل نحو القسطنطينية وهو يردد: « وداعاً يا سورية وداعاً لا لقاء بعده » ، فقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي .

وبعد اليرموك استولى العرب على القدس ونظفوا الشام كله من الجيوب

البيزنطية واستولوا على قيسارية واخذوا يعدون العدة للتحرك نحو مصر، وعندما احتل العرب جميع اجزاء بلاد الشام توجهت قواتهم نحو الجزيرة لتحريرها ولكي تلتقي قوات العراق مع قوات الشام ، وبعد احتلال الجزيرة دخلت القوات العربية أرمينية واستولت على غالبيتها ، وعندما خضعت الشام والجزيرة للعرب جعلوا الشام ولاية منفردة وجعلوا من الجزيرة ايضاً ولاية اخرى، وقاموا بتقسيم الشام إلى أربع مناطق عسكرية دُعيت كل واحدة منها بإسم جند ، وهذه الأقسام هي : جند فلسطين ، جند الأردن ، جند دمشق، جند حمص(١).

* * *

جبهة مصر وشمال افريقية

ولم تكد بلاد الشام تخلص للعرب حتى قرر الخليفة عمر بن الخطاب توجيه جيوشه نحو مصر ، فأصدر امره سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م إلى عمرو بن العاص قائد جيش فلسطين بالسير نحو مصر ، وكانت قوات عمرو تقل عن الأربعة آلاف مقاتل ، وبعد سيره بفترة وتوغله في أراضي مصر أمده عمر بقوات قدرت بين عشرة آلاف إلى إثني عشر ألفاً بقيادة الزبير بن العوام .

ولقد كانت اوضاع مصر الداخلية تشجع على محاولة فتحها واستخلاصها من بيزنطة ، ذلك لأن المصريين كانوا يكرهون الحكم البيزنطي لأسباب مالية اقتصادية ضرائبية ؛ وبسبب سوء الإدارة البيزنطية وصلفها واكثر من هذا كله بسبب اختلافات مصر الدينية مع الكنيسة الرسمية لبيزنطة .

ولقد كانت الصلات بين مصر ككنيسة وبين العرب المسلمين قديمة

---

١ – فتوح الشام للازدي : ١ – ٢٨٣ . تاريخ خليفه : ١٠٣/١ – ١٣٤ . البلاذري : ١١٥– ١٥٦، ١٧٦ – ١٨٨ ، ١٩٧ – ٢١٣ . الطبري : ٣٩٣/٣ – ٦١٣ ، ٥٠/٤ – ٦٨ . اليعقوبي ٢ – ١٣٢ – ١٥٠ . مروج الذهب : ٣٠٩/٢ – ٣١٥ . ابن عساكر : ٤٢٩/١ – ٥٩٨ .
وقد عدل هذا التقسيم في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان حيث قسم جند حمص إلى قسمين دعيا بجند حمص وجند قنسرين .

منذ عهد النبي الذي كان قد راسل مقوقس مصر ودعاه إلى الإسلام ؛ فأجابه بإرسال هدية له ، وفي عهد أبي بكر قام هذا الخليفة ببعث حاطب بن أبي بلتعة إلى مصر فاتصل مع المقوقس وعمل معه عهداً لا نعرف الكثير عن فحواه ومضمونه ، وبقي هذا العهد سارياً حتى قام عمرو بن العاص زمن الخليفة عمر بالهجوم على مصر .

ولم يكلف فتح مصر العرب جهداً كبيراً ، ولم يستغرق وقتاً طويلاً ، وكان عدد القتلى العرب في اعمال فتوح مصر قليلا إذا قيس بخسائرهم التي فقدوها في ساحات الفتوح الأخرى .

وكانت أعمال فتح مصر أن ظهر عمرو بن العاص أولا في منطقة الدلتا فاحتل الدلتا ، وزحف نحو باب أليون على رأس الدلتا قرب القاهرة حالياً ، وبزحفه هذا تجنب عمرو مدينة الاسكندرية ، واستطاع عمرو اقتحام باب أليون ، ثم اصطدمت قواته بقوات بيزنطية في حصن قريب ، وسلمت هذه القوات الى عمرو بن العاص ، وقام عمرو ببناء مدينة الفسطاط ، وزحف بعد هذا على الاسكندرية فاستولى عليها بعد جهد ، وهكذا أصبحت مصر مقاطعة جديدة من مقاطعات الدولة العربية الناشئة .

وبعد فتح الاسكندرية تابعت قوات عمرو بن العاص زحفها نحو برقة وشمال أفريقية ، وتم احتلال أراضي شمال أفريقية على مراحل استغرقت وقتاً طويلا ، وعندما فرغ العرب من شمال أفريقية عبروا البحر الى شبه الجزيرة الايبيرية فاحتلوها ووصلوا الى جنوب فرنسا وإلى داخل الاراضي الايطالية (١).

هذا وسنبحث في هذه الفتوحات في القسم المخصص لتاريخ المغرب والاندلس .

* * *

---

١ – تاريخ خليفه : ١/١٣٦ – ١٤٩ . فتوح البلدان : ٢١٤ – ٢٢٧ . الطبري : ٤/١٠٤ – ١١٢ . ابن عبد الحكم : ٥٤ – ٨٤ .

وبعد هذا الاستعراض السريع لأخبار الفتوحات العربية نعود الى المدينة لاستعراض أخبار الحكم فيها ؛ أي مسألة الخلافة وتطور مؤسستها وأخذها شكلها النظري والعملي ، فلقد مكنت حروب الردة أبو بكر من تثبيت وضعه في منصبه والقضاء على جميع المعارضات . ولقد شغل أبو بكر منصبه لمدة عامين ، حدثت خلالهما تطورات كبيرة ، وتبدلات خطيرة ، على كافة مستويات الحياة لدى المسلمين وشملت جميع جوانبها . ففي عهد أبي بكر حقق العرب نجاحاتهم الاولى في الفتح ، ودرت هذه الفتوحات مرابح كبيرة عليهم ، وتدفق العرب الى خارج الجزيرة بجماعات كبيرة ، وأدى هذا الى تغيير البنية البشرية لمنطقة الشرق الاوسط وذلك بالإضافة الى البنية الدينية ، واصطدم الاسلام وجهاً لوجه بمشاكل جديدة لم تكن مطروحة من قبل ، كما اصطدم بديانات وعقائد الشرق الاوسط المختلفة .

ومرض ابو بكر المرض الذي توفي فيه ... وقبل وفاته عين عمر بن الخطاب ولياً لعهده بموجب وصية ، فكان أول خليفة أقدم على ذلك في تاريخ الاسلام ، وبوصية أبي بكر يمكننا القول بأن ذلك كان بداية تحول في الفكر السياسي لدى العرب وفي استعداداتهم ، وسيتطور هذا التحول مع الايام الى درجة القبول بفكرة الملكية الوراثية .

وعقب وفاة ابي بكر تسلم عمر بن الخطاب مهام الخلافة بلا معارضة ، وفي عهد عمر حقق العرب نجاحاتهم الكبرى في الفتوح ، وواجهت الدولة مشاكل خطيرة للغاية استطاع عمر بما أوتيه من طاقات أن يحلها جميعاً ، ونظم عمر إدارة الدولة وراقب موظفيه وعماله مراقبة شديدة حالت بينهم وبين استغلال مناصبهم للظلم والثراء غير المشروع . وتنبه عمر لقضية الجند ، فراقب كبار القادة ومنعهم من التجرؤ على التدخل في شؤون السلطة السياسية أو مجرد التفكير بذلك ، ولعل عزله لخالد بن الوليد فيه دليل على هذا ، كما أنه بنفس الوقت قام برعاية مصالح الجند فأوجد ديواناً خاصاً بهم وفرض لهم العطاء ،

وكان بين آونة وأخرى يقوم بزيارة البقاع المفتوحة ، كما أنه كان على اتصال مستمر بواسطة البريد بكافة ولاته يعرف جميع ما يجري في دولته .

ومعلوم أن عمر حين استلم السلطة كانت الدولة الاسلامية الناشئة تجتاز مرحلة حاسمة وتواجه مشاكل خطيرة جديدة تحتاج إلى حلول ، وتطلبت مثل هذه الحلول ممارسة الخليفة حق التشريع ، وكان أن يمنح انسان مثل هـذه الصلاحيات بعد وفاة النبي بفترة وجيزة من الأمور الخطيرة ، ولكن أما والكثير من المشاكل كان جديداً ليس له نظير بين مشاكل العصر النبوي، كان لا بد من عمل ما ، وهنا تبرز صورة واضحة لفهم عمر ورجال عصره للاسلام كما تبرز عظمة عمر ومقدرته الادارية وعبقريته التنظيمية .

ومن هذه المشاكل – على سبيل المثال لا الحصر – قضيتا السواد ونصارى تغلب ، حيث قضت الأحكام الاسلامية بتقسيم الغنائم التي يحصل عليها المسلمون وفقاً لقواعد حددها القرآن ، كما قضى الاسلام بأن يدفع أهل الذمة من نصارى وسواهم من غير المسلمين الجزية دونما استثناء .

فبعد الاستيلاء على سواد العراق ، وفتح الجزيرة اقتضت الأحكام تقسيم أرض السواد بين المقاتلة ، ودفع قبيلة تغلب العربية للجزية أسوة ببقية سكان الجزيرة النصارى ، لكن هؤلاء رفضوا دفع الجزية وأنفوا من ذلك ، كما أدرك عمر ما يمكن أن يلحقه تقسيم السواد من مضار على حاضر العرب ومستقبلهم الاقتصادي والاجتماعي والعسكري ، فما كان منه إلاّ أن ترك قسمته ، ولجأ إلى إسقاط الجزية عن تغلب مقابل مضاعفة الصدقة على نصارى القبيلة أي بدفع ضريبة من نفس النوع الذي يدفعه المسلم إنما الكمية مضاعفة (١) .

إن في اقدام عمر على مثل هذا العمل يعني أنه قد منح نفسه صلاحيات تشريعية أوقفت الحكم بقوانين سابقة وأحلت محلها قوانين جدد ، وهذا أمر لم يفعله

---

١ – خراج أبي يوسف : ٢٨ – ٤٧ .

أبو بكر ، ولذلك لم يعد عمر والحال هكذا خليفة بمعنى النائب بل تصرف كتصرف أمير الجيش (١) ، الذي رسم له قائده خطة وأعطاه تعليمات خاصة ، لكنه في ساحة المعركة وأثناء التطبيق وجد من الضروري تعديل هذه الخطة ومخالفة بعض تفاصيل التعليمات إنما دون المساس بالجوهر والغايات الأساسية .

ولعله لقيام هذا الحال تخلى عمر عن لقب خليفة ليكتسب لقب «أمير المؤمنين» وفي هذا التعبير مؤشرات تدل على تبدل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية ، خاصة وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب فتركت بعض التأثير .

ومع امتداد الأيام واتساع رقعة الدولة وبروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر تقبلاً لاعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع ، ولا ريب أن عمراً كان متنبهاً لذلك سلباً وايجاباً ، لذلك بحث عن قاعدة ليرتكز عليها في المستقبل ، غير أن اغتياله المفاجىء جاء ليمنعه من اتمام هذا الأمر .

فقد كان عمر قوي البنية مهاباً ، رقيق المشاعر والأحاسيس ، مؤمناً بالاسلام وساعياً نحو تطبيق مبادئه بشكل مثالي رائع . وتضايق من مثالية عمر كثير من الصحابة وسواهم وتمنوا الخلاص منه ، كما كره عمر زعماء الأمم المقهورة وسعوا للتخلص منه أيضاً .

ففي أواخر سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م طعن عمر بن الخطاب من قبل أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، ويرجح أن أبا لؤلؤة كان نصرانياً من أهل العراق وأنه اغتال عمر لسبب شخصي بحت ، هذا وهناك من يرى في اغتيال عمر مؤامرة كبيرة تعدد مخططوها وأن أبا لؤلؤة كان أداة التنفيذ ، وكان هذا ما شعر به عبيدالله بن عمر ، حين استل سيفه عقب وفاة أبيه فقتل الهرمزان وأراد قتل غيره من أعاجم المدينة ، وبعد أن تولى عثمان الخلافة لم تجر محاكمة لعبيد الله بن عمر ،

---

١ – يرى فلهوزن في كتابه تاريخ الدولة العربية ص ٢٤ – ٢٦ ، بأن الجماعة الاسلامية تحولت زمن عمر الى جيش تحولا تاماً وأن الجيش صار هو الأمة ذاتها .

وهكذا حفظت قضية اغتيال عمر خاصة إذا عرفنا بأن أبا لؤلؤة قتل نفسه عقب طعنه لعمر .

وعاش عمر عقب طعنه بضعة أيام قام أثناءها ، وهو على فراش الموت يعاني من آلام جراحه ، ببحث مستقبل منصب الخلافة بعده ، ونظر عمر حوله فوجد أن أبا عبيدة بن الجراح رجل انقلاب السقيفة الثالث قد توفي قبل عدة سنوات ، ووجد سبعة من أصحاب النبي العشرة المبشرين بالجنة أحياء وهم : علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن ابي وقاص ، طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام ، وسعيد بن زيد ، فأوصى بأن يجتمع ستة من هؤلاء — ذلك أنه أبعد سعيد بن زيد لانه كان ابن عمه — كي يختاروا من بينهم خليفة جديداً .

وحصر عمر لحق الخلافة في هؤلاء الستة الباقين من العشرة يعني أنه قد نشأ — أو تطور — في عهده مفهوم فيه منح مكانة خاصة لبعض الصحابة الذين كانوا مقربين من النبي أكثر من سواهم ، ولقد كان هؤلاء العشرة يمثلون غالبية أسر قريش وبيوتها لذلك برزوا زمن ابي بكر وعمر وصارت لهم صفة شرعية رشحتهم لمنصب الخلافة .

وكان علي بن أبي طالب واحداً من اثنين من أبرز هؤلاء الستة ، ذلك أنه كان ممثل بني هاشم ، أسرة النبي ، آل البيت في الاسلام ، وأبرز أسر الزعامة القرشية في مكة قبل الاسلام ، يضاف إلى ذلك ما كان يتمتع به من شخصية متميزة ، ثم لشدة إيمانه وسابقته في الاسلام وقرابته من الرسول وصلته الخاصة به ، وهذه الامتيازات الشخصية كانت من بواعث الخصومة لعلي عند الآخرين ، ذلك ان الناس الذين ملوا حكم عمر ومثاليته لم يكونوا على استعداد لقبول رجل يحكمهم بمثالية أشد وأرفع .

وكان عثمان بن عفان الرجل الثاني بين الستة في مواجهة علي ، فهو قد اعتبر ممثل أسرة بني أمية ، أسرة المال والزعامة المكية الارستقراطية الأولى قبل

الاسلام ، والي رغم أنها هزمت هزيمة ساحقة يوم فتح مكة ، تسلم العديد من أفرادها أخطر مناصب الولايات والادارات بعد سقوط مكة للاسلام وأيام الفتوحات الكبرى زمن أبي بكر وعمر نفسه ، وكان عثمان من أوائل المسلمين ، إنما كان شيخاً مسالماً ضعيف الشخصية ، كريم النفس محباً لأسرته وآله ، وكان ما تمتع به من صفات يرضي اتجاه كثيرين من سكان المدينة وخاصة الأعيان منهم الذين نشدوا الثروة واستغلال حركة الفتوح وأرادوا التعويض عن فترة حجرهم أيام عمر .

ويبدو من كثير من الروايات المحايدة (المصنف ٤٤٥/٥ ـ ٤٤٧) أن عمر أراد تعيين علي ، لكنه لم يفعل ذلك لأنه رأى في هذا التعيين مقدمة لقيام حكم الأسرة المقدسة ، ولم يعين عثمان لأنه رأى في تعيينه تمهيداً لتمكين بني أمية وآل أبي العاص من رقاب الناس والتسلط الكلي على الدولة وتسييرها بعقلية الأرستقراطية التجارية .

لهذا آثر عمر عدم تحمل مسؤولية تسمية الحاكم بعده ، فترك ذلك لستة من السبعة الباقين من أصحاب النبي العشرة ، وأمرهم بأن يختاروا أحدهم في مدة محدودة .

وتوفي عمر وانتهى بذلك عصر من عصور الاسلام ، ومر التاريخ الاسلامي بعده في مرحلة انتقالية نحو تسلم الأرستقراطية القرشية للسلطة ممثلة أولاً ببني أمية وثانياً ببني العباس .

واجتمع الصحابة الستة فوضحت منذ البداية معالم الصراع ، حيث أعلن أربعة من المرشحين عزفهم عن ترشيح أنفسهم مع احتفاظهم بحق التصويت ، وبذلك انحصرت المعركة بين علي وعثمان ـ أي عادت الأيام سيرتها الأولى للصراع بين بني هاشم وبني أمية ـ وأوكلت الأمور إلى عبد الرحمن بن عوف لاختيار واحد منهما ، وقام هذا الأخير باستطلاع آراء الناس ، فكان أن واجه تيارين : أحدهما مل قسوة نظام عمر ورقابته المركزية الشديدة وعدم تساهله ،

ورأى في استلام علي للحكم استمراراً ، لا بل تطويراً لنظام الخليفة الراحل ، وتطبيقاً أشد لقوانين الاسلام ، ذلك أن علياً ذاق في حياته طعم الفقر الشديد وعاش معه ردحاً طويلاً من الزمن ، كما أنه كان ابن الاسلام وربيب البيت النبوي ، وكان عارفاً بأمور الدين وقضايا الاسلام أكثر من سواه ، فقد شرب من ينابيعه الأولى منذ البداية وحتى نهاية حياة النبي بلا انقطاع أو توقف . يضاف إلى هذا أنه كان شاباً قادراً على ترجمة الأقوال إلى أفعال ، ويروى بأن المغيرة بن شعبة قال مرة لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ، إنك والله ما تدري ما قدر أجلك، فهلا حددت للناس حداً، أو علمت لهم علماً يبهتون إليه.. استخلف ، قال [أي عمر] : من ؟ قلت [أي المغيرة] : عثمان ، قال : أخشى عقده (١) وأثرته ، قال : قلت : عبد الرحمن بن عوف ، قال : مؤمن ضعيف ، قال : قلت : فالزبير ، قال : ضرس (٢) ، قال : قلت : طلحة بن عبيد الله ، قال : رضائه رضاء مؤمن وغضبه غضب كافر ، أما إني لو وليتها إياه لجعل خاتمه في يد امرأته ، قال : قلت : فعلي ؟ قال : أما إنه أحراهم ، إن كان ، أن يقيمهم على سنة نبيهم » (٣) .

هذا ويبدو أن أتباع هذا الرأي رأوا في استلام علي للسلطة انتصاراً دائماً للتيار الهاشمي الذي ظهر في حلف الفضول وانتصر بنجاح النبي ، ثم طعن يوم السقيفة ، ومع أن أتباع هذا الرأي كانوا أقل قوة من أتباع التيار الآخر ، غير أنهم كانوا أكثر تنظيماً ومرونة ، وأوسع دهاء ، وأقل مثالية ، وأبرع في اعداد الانقلابات ، وخلق المواقف المحرجة .

جاء في تاريخ الطبري أن عبد الرحمن بن عوف بعث في صبيحة اليوم الثالث لوفاة عمر « إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار ، وإلى أمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله فقال : أيها الناس ، إن

---

١ – أي عقد الألوية والرايات للولاة والعمال .
٢ – الضرس ككتف الصعب السيء الخلق .
٣ – مصنف عبد الرزاق ٥/٤٤٦ – ٤٤٩ .

الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم ، فقال سعيد بن زيد : إنا نراك لها أهلا ، فقال : أشيروا علي بغير هذا ، فقال عمار : إن أردت ألا يختلف **المسلمون** فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا .

قال : فقال ابن أبي سرح : إن أردت ألا تختلف **قريش** فبايع عثمان ، فقال عبدالله بن أبي ربيعة : صدق إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشتم عمار ابن أبي سرح وقال : متى كنت تنصح المسلمين .

فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ، فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدوت طورك يا ابن سمية ، وما أنت وتأمير **قريش** لأنفسها ، فقال سعد بن أبي وقاص : يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن : إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ، ودعا علياً فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال : أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ؛ ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال : نعم ، فبايعه ، فقال علي : حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن ، فقال عبد الرحمن : يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان ، فخرج علي وهو يقول : « سيبلغ الكتاب أجله » فقال المقداد : يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون ، فقال : يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين ، فقال المقداد : ما رأيت مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيهم ، إني لأعجب من قريش ، إنهم تركوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل ، فقال عبد الرحمن : يا مقداد إتق الله فإني خائف عليك الفتنة ، فقال علي : إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول :

إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم »(١) .

لقد رفض علي القبول بشروط عبد الرحمن بن عوف، وأصر على أن يعمل بمبلغ علمه وطاقته ، ذلك أنه اتسم بالعلم والمعرفة الواسعة بالاسلام ، وإلى هذه الناحية الأساسية أشار المقداد بن الأسود ، واتسام علي بالعلم والمعرفة صار فيما بعد ، أي بعد نشوء الحزب الشيعي وتطوره ، حجر أساس في العقيدة الشيعية .

وهكذا صار عثمان بن عفان خليفة جديداً (٢) ، فتمهد السبيل أمام بني أمية للسيطرة على مقاليد السلطة للأمة الجديدة ، والتحكم بها ، وآذن هذا بنهاية مرحلة من أهم مراحل تاريخ العرب والاسلام ، أنهى مرحلة التطبيق الأمثل المخلص لمبادىء الاسلام ، لقد أنهى ذلك عصر الخلفاء الراشدين ، وجاء بفترة انتقال نحو استرداد الأرستقراطية القرشية التي هزمت يوم فتح مكة لزعامتها وتسلطها ، على أن ذلك لم يحدث دون ردات فعل شديدة ، ودونما ثمن باهظ للغاية ، فكان أولاً على عثمان أن يدفعه بدمه ، وجاءت خلافة علي فكانت « إيماضة الخمود ، كما يقع في الذُبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء » (٣) .

* * *

من عثمان إلى معاوية

عندما سيرت الجيوش من المدينة لفتح بلاد الشام كان أحدها تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان ، وقد ضم جيش يزيد فيما ضم أخاه معاوية ، وفي أيام عمر عندما استكمل فتح بلاد الشام جعل حكمها لأبي عبيدة بن الجراح مع يزيد بن

---

١ – الطبري : ٢٣٢/٤ – ٢٣٣

٢ – تاريخ خليفه : ١٥١/١ – ١٦٠ . الطبري : ١٩٠/٤ – ٢٤١ . الأخبار الطوال : ١٣٩ . اليعقوبي : ١٥٩/٢ – ١٦٠ . مروج الذهب : ٣٢٩/٢ – ٣٣٠ .

٣ – مقدمة ابن خلدون ط . بيروت ١٩٦١ : ٥٢١/١ .

أبي سفيان، لكن هذين القائدين ماتا معاً في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ/٦٣٩م ، فقام عمر باستخلاف معاوية مكان يزيد ، وعندما مات عمر كان أمر الشام بيد معاوية وعمير بن سعد الأنصاري ، وبعدما استخلف عثمان « عزل عميراً وترك الشام لمعاوية » (١) ، ثم أضاف له فيما بعد حكم الجزيرة .

ومنذ اللحظة التي صار معاوية فيها سيد دمشق أخذ يخطط ليجعل من نفسه سيد أهل الاسلام مثلما كان والده سيد أهل الجاهلية ، فقد جاء في أنساب الأشراف أن معاوية قدم«من الشام على عمر وقد حج عمر ،فدخل عليه معاوية، فقال لـه عمر : متى قدمت ؟ قال : الآن وبدأت بك ، قال : فأتِ أبويك وابدأ بهند ، فانصرف معاوية فبدأ بهند ، فقالت له : يا بني إنه والله قل ما ولدت حرة مثلك،وقد استنهضكم هذا الرجل فاعملوا بما يوافقه واجتنبوا مـا يكرهه ، وقال له أبو سفيان : « إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم، وقصر بنا تخلفنا ، وصاروا قادة وصرنا أتباعاً، وقد ولوكم جسيماًمن أمرهم فلا تخالفوهم ، وإنك تجري إلى أمد لم تبلغه وستبلغه»(٢).

وتسلم عثمان منصب الخلافة ، ومرّ حكمه في البداية بسلام ، لكنه ما لبث أن أخذ يواجه العديد من المشاكل والقضايا ، فعجز عن ابداع الحل ، ولم يعد يستطيع تحمل أعباء حكم الدولة ، فانفلت زمام الأمور من يديه ، وآل ذلك للثورة عليه، وقتله ، وبعد مقتله صار علي بن أبي طالب خليفة جديداً، وقد ملئت فترة حكمه بالحروب الأهلية وتميزت بعدم الاستقرار ، فجاءت مثل الحشرجة النهائية ، حيث لفظت الخلافة أنفاسها ، فحل محلها على الصعيد الرسمي والعملي حكم الأسرة الأموية الملكي الوراثي ، وعلى صعيد المعارضة الامامة .

لن أتابع الآن الحديث عن هذا التطور مع تبيان الفوارق بين الامامة والخلافة

---

١ – مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٥٥ – ٤٥٦ . تاريخ خليفه : ١/١٣٠ . الطبري : ٤/٦٠.
٢ – أنساب الأشراف ٤/١/٨ – ١٠ .

بل سأسعى للتأريخ لحكم عثمان ثم علي بن أبي طالب ، أي اعطاء بعض التفاصيل الشارحة لهذه المقدمات .

خلافة عثمان

ابتدأ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي كتابه الفتوح بقوله : « لما صار الأمر إلى عثمان بن عفان، واجتمع إليه الناس ، أرسل إلى عمال عمر بن الخطاب ، فأقرهم على أعمالهم التي هم عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم إنه بعث إليهم فعزلهم عن الأعمال ، وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية ، فولاهم الولايات ، ... ثم كثر المال عليه فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطاء ، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم.

قال : ثم قدم عليه عبدالله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم ، ثم بعث إلى الحكم بن أبي العاص فرده إلى المدينة وهو طريد رسول الله ﷺ ، ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين ، وجعل له خمس إفريقية ، وجعل ابنه الحارث ابن الحكم على سوق المدينة ، ووصل ابنه بمال جليل ، فكبر ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، وكرهوا ذلك من فعله ، ثم إنهم دخلوا على عبد الرحمن بن عوف فشكوا إليه أمر عثمان وقالوا : يا ابن عوف هذا من فعالك بنا ولسنا نلزم هذه اللائمة أحداً سواك ، فقال عبد الرحمن : يا هؤلاء إني كنت أخذت لكم بالوثيقة ولم أعلم بما يكون ، والآن فالأمر إليكم ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهكذا يجب أن يكون ، فقال : يا أبا الحسن إنه لم يكن عندي علم هذا ، والآن فخذ سيفك وآخذ سيفي .

قال : وبلغ الخبر إلى عثمان أن عبد الرحمن بن عوف قد قال كذا وكذا ، فقال عثمان : عبد الرحمن رجل منافق لا يبالي بما قال ، ويهون عليه أن يشيط بدمي » (١) .

---

١ – الفتوح : ٢/١ – و ، ظ .

يبدو لنا من هذا النص أن استلام عثمان لمنصب الخلافة ، وهو أحد كبار البيت الأموي قد فتح الباب على مصراعيه أمام أفراد هذه الأسرة للاستئثار بالسلطة ومناصب الدولة ومواردها ، وذلك على الرغم من كل العهود والمواثيق التي أخذت عليه قبل استخلافه وبعد ذلك ، واستئثار أفراد الأسرة الأموية بالسلطة زمن عثمان ، واستبدادهم بموارد الأمة جاء نتيجة لعاملين هما ضعف عثمان المسن ولينه تجاه آله ، والنزعة الاستبدادية التي سيطرت عليه ، وسرعة غضبه عند تعرضه للوعظ والنقد البريء المسؤول ، ثم لتصوره أنه بوساطة أفراد أسرته يستطيع أن يطبق برنامجا يحل به مشاكل الدولة ، وكان أهم هذه المشاكل يتعلق بقضايا الغنائم ، وطبيعة إدارة الدولة وسياستها العامة ، ففي احدى المرات عندما « كثرت الشكايات إلى عثمان من عماله من جميع البلاد ... أرسل عثمان إلى جميع عماله ، فأشخصهم إليه من جميع البلاد ، ثم أقبل عليهم فقال : يا هؤلاء إنه قد كثرت شكايات الناس منكم فأما القريب فقد بادهني ، وأما البعيد فما يألوا جهداً ، فماذا عندكم من الرأي ؟ قال : فتكلم عبدالله بن عامر بن كريز وقال : يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلاّ ما أسخطهم عليك ، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال ، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ، ولا يشكوكَ أحد بعد ذلك .

قال : ثم تكلم عبدالله بن سعد بن أبي سرح فقال : يا أمير المؤمنين إن لك على الناس حقاً في كتاب الله ، ولهم عليك مثل ذلك ، فادفع إليهم حقوقهم واستوفي منهم حقك ، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين : أبا بكر ، وعمر ، فسارا بسيرة فسر بسيرتهما واستسن بسنتهما ، واعمل بعملهما يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد .

قال : ثم تكلم سعيد بن العاص فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما دعا الناس أن نقموا عليك إلا الحمام والفراغ من الحروب ، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل ، وتحدثت بالاحاديث ، فأشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم إذا رجع إلى منزله وقد أهمته نفسه ، ولا يتفرغ لعيب الأمراء .

قال : ثم تكلم معاوية فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد جمعتنا وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا ، وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتاداً في الأرض ، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى يكفيك ما قبله ، ولا يكون هاهنا شكاية أحد ، ولا ينقم أحد عليك .

قال : فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية ، فعزم على أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم ، ثم أوصاهم وعهد إليهم ، وحذرهم الشكايات ، فرجع معاوية إلى الشام ، وعبدالله بن عامر إلى البصرة ، وسعيد بن العاص إلى الكوفة ، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح إلى مصر ، فلم يزدادوا على الناس إلا غلظة ، وجنفاً ، وجوراً في الأحكام ، وعدولاً عن السنة» (١) .

وهكذا أخفقت سياسة عثمان وخططه ، وولد هذا سخطاً شديداً عليه وأوجد ضده معارضة قوية خاصة بين أفراد الجند غير الشامي ، او ما اصطلح على تسميتهم بعرب الامصار ، ذلك أن هؤلاء قد وجدوا أنفسهم ــ وهم أصحاب الفضل فيما حققته الدولة من فتوحات عظيمة ــ مبعدين عن مراكز السلطة ومحرومين من خيرات الحكم .

ومع الأيام صار عثمان عاجزاً عن رد موجة التذمر التي تفشت في أوساط المسلمين الذين رفعوا أصواتهم بالثورة على واقع لم يكن بالفعل كله من صنع عثمان وحده ، وإنما امتدت جذوره الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، ووجدت أسبابه الأولى في استخدام القوة الحربية ، كأداة لنشر العقيدة ، لكن عمراً بشخصيته القوية وظروف عصره كان لديه المقدرة على الحيلولة دون تفجر الغضب الى ثورة كما حدث لعثمان ، فهو ــ أي عمر ــ أحدث دواوين الجند ، وكان يقوم بين آونة وأخرى بزيارة المعسكرات خارج الجزيرة لتفقد الأحوال ، لكن عثماناً لم يكن بطبعه وأحواله ليستطيع أن يفعل فعل عمر ، فاستغل هذا الولاة ، وازدادت المشاكل تعقيداً ، ويروى بأن عثمان قال يوماً

---

١ ــ الفتوح : ١/١٠ و .

لعمرو بن العاص: « والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت، ولكنني لنت لك فاجترأت علي » (١) .

واجتمعت عناصر السخط في أوساط الجند ضد عثمان ووصلت رياح النقمة الى المدينة نفسها فاندرج فيها بشكل غير مباشر عدد من كبار الصحابة حيث أخذوا يتعاطفون ضمناً مع الثوار ويباركون تحركاتهم ويراقبونها باهتمام .

وكانت أول أعمال العنف الشديدة والعصيان لأوامر عثمان تلك التي حدثت سنة ٣٤ هـ / ٦٥٤ م في الكوفة ، ففي هذه السنة رد عثمان « سعيد بن العاص أميراً على الكوفة ، فخرج أهل الكوفة عليه بالسلاح فتلقوه فردوه ، وقالوا : لا والله لا يلي علينا حكماً ما حملنا سيوفنا » وكان الأشتر النخعي مالك بن الحارث على رأس الذين تصدوا لسعيد ومنعوه من دخول الكوفة ، ورضخ عثمان لمطالب الكوفيين فعزل سعيداً بن العاص وأقر تعيين أبي موسى الأشعري والياً على الكوفة بعد أن اختاره أهلها ، وقد كان قبول عثمان لمطالب الكوفيين أول مجابهة عملية بين الخلافة والعناصر الثائرة ، وقد جرّت هذه المجابهة وراءها أحداثاً أكثر جسامة تجلت في تحدي أوامر الخليفة كل حين والتفكير بخلعه .

والمشاكل التي أدت إلى الثورة في الكوفة حدث ما يماثلها من حيث الجوهر في مصر ، وثار جند مصر ، وحمل وفد منهم احتجاجاتهم في عريضة عابوا فيها على الخليفة سياسته اللينة ، وتسلط أقاربه على رقاب الناس مع تبديد الأموال ، وهددوا باستعمال القوة والسلاح إن لم يستجب عثمان لمطالبهم ويحدث الاصلاح والتغيير المطلوب .

ولقد حال وجود معاوية في الشام دون انفجار للموقف مثل بقية الأمصار ، والواقع ان معاوية لم يحل فقط دون الثورة في أرضه ، بل استفاد مما حدث واستغل ظروفه التي وجد فيها الفرص السانحة لتثبيت اركانه ودعائم حكمه في

---

١ – الطبري : ٣٥٦/٤ .

الشام ، وتطلع نحو الانفراد بالحكم اعتماداً على قوة الجند الشامي الذي كونه بنفسه ، ثم عرف كيف يغرس في قلوب افراده الحب والولاء له قبل سواه ، ثم الايمان بقضيته والدفاع عنها ، والتفاني في سبيلها ، ولقد حقق معاوية كل ذلك بفضل ما أوتيه من حنكة ومقدرة وبعد نظر ، ومطامح عرف كيف يخطط لتحقيقها .

وتجمع ثوار مصر مع ثوار الكوفة في المدينة ، وهناك لاقوا مساندة معتبرة من معظم سكان المدينة وعلى رأسهم بعض كبار الصحابة مثل الزبير وطلحة وعائشة أرملة النبي ، وعندما أدرك عثمان عظم الثورة وحسن تنظيمها وأحقية مطالب رجالاتها ، اضطر إلى الانصياع ، وحاول عثمان ايجاد مخرج يقيه ويقي سلطته « فأرسل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فدعاه فقال : يا أبا الحسن أنت لهؤلاء القوم ، فادعوهم إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ، واكفني مما يكرهون ، فقال له علي : إن أعطيتني عهد الله وميثاقه أنك تفي لهم بكل ما أعطيهم فعلت ذلك ، فقال عثمان : نعم يا أبا الحسن اضمن لهم عني جميع ما يريدون ؛ قال : فأخذ عليّ عليه عهداً غليظاً وميثاقاً مؤكداً ، ثم خرج من عنده فأقبل نحو القوم ، فلما دنا منهم قالوا : ما وراءك يا أبا الحسن ، فإننا نجلك ؟ فقال : إنكم تعطون ما تريدون ، وتعافون من كل ما أسخطكم ، ويولى عليكم من تحبون ، ويعزل عنكم من تكرهون ، فقالوا : ومن يضمن لنا ذلك ؟ قال علي : أنا أضمن لكم ذلك ، فقالوا : رضينا ...

فأقبل علي إلى عثمان ومعه وجوه القوم وأشرافهم ، فلما دخلوا عليه عاتبوه فأعتبهم من كل ما كرهوا ، فقالوا : اكتب لنا بذلك كتاباً ، وأدخل لنا في هذا الضمان علياً بالوفاء لنا بما في كتابنا فقال عثمان : اكتبوا بما أحببتم ، وأدخلوا في هذا الضمان من أردتم . قال : فكتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا كتاب من عبدالله عثمان بن عفان أمير المؤمنين لجميع من نقم عليه

من أهل البصرة والكوفة وأهل مصر ، إن لكم عليّ أن أعمل فيكم بكتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه محمداً ﷺ ، وإن المحروم يُعطى ، والخائف يُؤمن ، والمنفي يُردّ ، وإن المال يُردّ على أهل الحقوق ، وأن يُعزل عبد الله بن سعد ابن أبي سرح عن أهل مصر ، ويُولى عليهم من يرضون. قال : فقال أهل مصر : نريد أن تولي علينا محمد بن أبي بكر ، فقال عثمان : لكم ذلك ، ثم أثبتوا في الكتاب » : وإن علي بن أبي طالب ضمين للمؤمنين بالوفاء لهم بما في هذا الكتاب.

شهد على ذلك : الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسهل بن حُنيف ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، وكتب في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين» (١) .

وبعد صنع هذه التسوية خيل للثوار بأنهم حققوا مطالبهم ، فانصرفوا عائدين نحـــو أمصارهم ، ولكن حدث أن اكتشفوا وهم في طريقهم أنهم خدعـــوا ، وأن التسوية ما كانت إلا مناورة هدفت نحو ابعادهم عن المدينة للتخلص منهم بعد ذلك ، ، لذلك انصرفوا عائدين نحو المدينة ، وهناك اكتشفوا أو بالاحرى تيقنوا من معرفة ، أن عثمان ما كان إلاّ حاكماً اسمياً ، وأنه كان فريس أجهزته من بني أمية ، وهنا حاصروا عثمان في بيته ومنعوه من الخروج منه ، وحاولوا اجباره على التنازل عن الخلافة فأخفقوا ، لذلك قاموا أخيراً بقتله .

لقد كان عثمان آنذاك حاكم أكبر دولة في العالم وأقواها ، ومع ذلك لم يكن عنده حرس خاص ، ولم يكن له بلاطه ولا قصره ، بل كان كل ماملكه للدفاع عن نفسه بالاضافة إلى عياله بعضاً من العبيد والموالي ، وعاش هؤلاء معه داخل داره التي يبدو أنها كانت كبيرة عالية الجدران متينة الأبواب ، واستمر الحصار أربعين يوماً شارك فيه كثير من أهل المدينة من مهاجرين وأنصار ، وكان كبار القوم يحرضون أثناء ذلك على قتل عثمان ، فهذه عائشة أرملـــة النبي كانت تقول : « أيها الناس ، هذا قميص رسول الله ﷺ لم يُبلى وبُليت

---

١ - الفتوح : ١٤/١ و - ظ .

سنته ، اقتلوا نعثلاً ، قتل الله نعثلاً » ، واشتد الحصار بعثمان وحاول علي بن أبي طالب صنع شيء للحيلولة دون سفك الدفاء فاخفق .

وأقبل أثناء ذلك « سعيد بن العاص على عثمان فقال : يا أمير المؤمنين أرى لك من الرأي أن تخرج على القوم وأنت ملبي كأنك تريد الحج ، فإني أرجو أن لا يتعرضوا لك إذا نظروا إليك ملبياً ، ثم تأتي مكة ، فإذا أتيتها لم يقدم عليك أحد بما تكرهه ، فقال عثمان : لا والله لا أختار على هذه المدينة التي اختارها الله تعالى لرسوله محمد ﷺ. قال : فقال له عثمان بن العاص الثقفي : يا أمير المؤمنين ، فإني أخيرك بثلاث خصال فاختر واحدة ، قال عثمان : وما ذلك ؟ قال : إما أن تقاتل القوم وتجاهدهم فنقاتل معك حتى نفني أرواحنا ، قال عثمان : ما أريد ذلك ، قال : فتركب نجائبك حتى تأتي الشام ، فإن بها معاوية وهو ابن عمك ، وبها شيعتك وأنصارك ، قال عثمان : والله لا أريد ذلك ، قال : فأقلك على نجائبي حتى أقدم بك البصرة ، فإن بها قوم من الأزد، وفيهم معروف لي ، وهم لي شاكرون، فتنزل بين أظهرهم فيمنعوك، فقال عثمان : لا والله لا خرجت من المدينة كائناً في ذلك ما كان »(١) .

ورفض عثمان هذه الاقتراحات لكنه في نفس الوقت كتب إلى كل من عبدالله بن عامر واليه على البصرة ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام يقول : « أما بعد فإن أهل البغي والسفه والجهل والعدوان من أهل الكوفة وأهل مصر وأهل المدينة قد أحاطوا بداري ، ولم يرضيهم شيء دون قتلي أو خلعي سربالاً سربلينه ربي ، ألا وإني ملاق ربي فأعني برجال ذوي نجدة ورأي ، فلعل ربي يدفع بهم عني بغي هؤلاء الظالمين الباغين علي ، والسلام » . وعندما وصل هذا الكتاب إلى عبدالله حاول انجاده فأخفق ، وأما معاوية فوجد أن الفرصة قد دنت فتهيأ لقطاف الثمرات ، ودافع الأيام متظاهراً باعداد نجدة حتى أتاه خبر مصرع عثمان .

---

١ – الفتوح : ١٨/١ و – ١٩ ظ .

وفي أثناء هذا تجمعت بعض المقاومة للثورة وبلغ الثوار خبر مراسلة عثمان معاوية وعبدالله بن عامر ، فخشوا مغبة ذلك ، فلحوا في حصاره ، ومنعوه الماء ، ثم قاموا بحرق باب داره ، ودخلوا عليه الدار فقتلوه (١) ، ولقد حدث ذلك كله عام ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، وكان مصرع عثمان هذا حدثاً جللاً ، تم في فترة تحول عصيبة من فترات التاريخ الاسلامي ، فترة التحول الأولى في حياة المجتمع العربي من الوثنية واللامركزية البدوية ، إلى الاستقرار والتحكم الامبراطوري ، وصنع أسس السياسة والحكم للأمة العظمى ، ويبدو أن الناس لم يدركوا كنه العصر الذي كانوا يعيشونه ، ومدى خطورة نتائج كل خطوة كانوا يقدمون عليها ،ولهذا فإن مقتل عثمان حوّل مجرى التاريخ الاسلامي كله ، وأثر فيه أبعد التأثير وما يزال الاسلام والمسلمون يعيشون حتى الآن في اخطبوط نتائجه ، ويروى ان عثمان قال اثناء حصاره : « فوالله لئن قتلوني لا يتحابون بعدي أبداً ولا يصلون بعدي جميعاً ابداً ، ولا يقاتلون بعدي عدواً جميعاً ابداً » (٢) .

ومن المدهش حقاً ان مصرع عثمان لم يوصل الثوار الى تحقيق أغراضهم، بل عجل في انهيار نظام الشورى للخلافة الراشدة ومن ثم التحول بسرعة نحو الملكية المطلقة وذلك على يد معاوية الذي كان أول الملوك في الاسلام .

خلافة علي

وبعد مصرع عثمان خلا منصب الخلافة من صاحبه وظل خالياً لعدة أيام أراد فيها الثوار مع بقية سكان المدينة ، تعيين خليفة جديد ، ولم يكن أمامهم غير علي بن أبي طالب بسبب شخصيته ومركزه في الاسلام وسابقته فيه ، مع

---

١ – الفتوح : ١٦/١ و – ١٧ ظ .
٢ – الفتوح : ١٩/١ و – ٢٥ ظ . تاريخ خليفه : ١٨١/١ – ١٩٣ . الطبري : ٤ / ٣٣٠ – ٤٢٦ . الاخبار الطوال : ١٣٩ – ١٤٠ . اليعقوبي : ١٧٢/٢ – ١٧٧ .

قرابته مع النبي وعلاقته به ، ولقد كان علي مرشحاً لخلافة رسول الله منذ لحظة وفاته ، لكن ظروفاً كثيرة وأحوالا كبيرة حالت بينه وبين تسلم مسؤولية الحكم وقيادة الأمة ، والآن بعد مصرع عثمان لم يكن هناك من هو أجدر منه بالخلافة ، ومن الجدير بالملاحظة أن علياً بدأ يمارس بعض أعمال الخلافة مثل قيادة الصلوات وحل بعض القضايا قبلما يقتل عثمان ، أثناء الحصار الذي فرض عليه ، وتسلم علي الخلافة بعد تردد وبعدما بايعه كبار الصحابة ورجالات الاسلام في المدينة .

وكانت مهمة علي على جانب كبير من الخطورة والصعوبة ، فهو لم يكن يتمتع رغم كل شيء ، بثقة جميع الأحزاب والقوى داخل الأرض الاسلامية ، وكان عليه أن يمكن سلطته ويوجد حلا لجميع المشاكل التي أودت بعثمان ، وتمكين السلطة كان يعني القضاء على قوى كثيرة كان على رأسها عدد من كبار الصحابة ورجال الاسلام الذين أثروا زمن عثمان وسببوا له المشاكل وحرضوا عليه وعلى قتله ، ويضاف إليهم رجالات بني أمية آل عثمان الذين استغلوا هدر دمه بشكل ممتاز لصالح اسرتهم ، وكان على رأسهم معاوية الذي أعلن أنه ولي الخليفة المهدور دمه وطالب بالاقتصاص من قتلته .

واتخذ علي المدينة عاصمة له ، مع أن مقتل عثمان برهن على فقدانها لمكانتها السياسية المؤثرة ، ومن المدينة باشر علي أول أعماله وأخطرها وهي عزل من بقي من ولاة الأقاليم من أقارب عثمان وأعوانه الذين كانوا موضع السخط وأسباب النقمة ومن ثم استبدالهم بأعوان جدد يتمتعون بثقته وينسجمون مع سياسته ، وبعدما وجد علي أن الثوار قد عزلوا كبار ولاة عثمان استطاع هو عزل كل من أراد عزله ممن بقي من ولاة عثمان إلاّ معاوية بن أبي سفيان فإنه رفض أوامر العزل بعدما رفض الاعتراف بعلي خليفة جديداً .

وعندما قتل عثمان وتولى علي الخلافة كانت أكبر قوى الدولة الاسلامية متمركزة في ثلاثة معسكرات هي : الكوفة . البصرة . الشام (الجابية) ، وكان

جند الكوفة من أبرز الثوار على عثمان وهم جاءوا بعلي كخليفة جديد ، ويبدو أن كل واحد من هذه المعسكرات الثلاث أراد الاستبداد بسلطة الدولة لذا تحتم الاقتتال بينها ، وجلب رجال البصرة إلى معسكرهم كل من طلحة والزبير وعائشة مع عدد من القرشيين الذين كانوا قد حرضوا على قتل عثمان ثم بايعوا علياً لكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن بيعتهم وأعلنوا الخروج للمطالبة بدم عثمان ، ذلك أنهم خافوا من سياسة علي ، وخشوا مغبة نجاحه .

وأخذ جند الكوفة علياً معهم إلى معسكرهم ، وهكذا أنهوا فعلا الخلافة الراشدة وأتوا على عاصمتها التي بدأت تتحول إلى مدينة ذات مركز ديني وحضاري بحت . وكثرت الاتهامات بين جماعة البصرة والكوفة وجرت محاولات جادة لايجاد تسوية لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح والتقى المعسكران في سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م في معركة دعيت باسم معركة الجمل نسبة إلى جمل كانت تمتطيه عائشة ، وانتهت هذه المعركة بهزيمة البصرة ومصرع طلحة ثم الزبير وأسر عائشة التي أرجعت إلى الحجاز . ومعركة الجمل من الأهمية بمكان لأنها أول معركة في الاسلام قادها الخليفة بنفسه ضد اخوان له في العقيدة ولم يكن ذلك بالهين فاقتحامه كان بالنسبة لعلي الشديد الايمان والتمسك بالاسلام من أصعب القرارات ، واستدعى منه ذلك إيجاد تشريع خاص عرف فيما بعد بتشريع قتال أهل القبلة وذلك حين أمر جنده بقوله : « لا تتبعوا مولياً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تنتهبوا مالا ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن . ومن أغلق بابه فهو آمن ... ليس على الموحدين سبي . ولا يغنم من أموالهم إلاّ ما قاتلوا به وعليه » (١) .

---

١ – الفتوح : ١/٢٨ و – ٤٤ و. مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٥٧ . تاريخ خليفه : ١/ ١٩٩ – ١٠٧ . الطبري : ٤/٤٢٧ – ٥٤٣ . اليعقوبي : ٢/١٧٨ – ١٨٤ . الاخبار الطوال : ١٤٤ – ١٥٤ . لقد لفت نشاط عائشة السياسي انتباه الكثير من الباحثين قديماً وحديثاً ومن أشهر معاصرينا ممن كتب عن عائشة بالعربية سعيد الأفغاني ، استاذ العربية سابقاً في جامعة دمشق ، كتب كتاباً دعاه «عائشة والسياسة» والدكتوره زاهية قدوره عميدة كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ، حيث عالجت حياة عائشة ونشاطها في رسالة قدمتها في مصر لنيل شهادة الماستر ، وقامت بعد ذلك بتطوير هذه الدراسة ونشرها ، وينصح القارىء بالرجوع إليها والاستفادة منها .

ولقد أنهت معركة الجمل قوة البصرة والقرشيين الذين وضعوا على رأسها ، وأصبحت الكوفة عاصمة الخلافة الاسلامية ، ولقد اعترفت معظم أمصار العالم الاسلامي بهذه الخلافة ودانت لها اللهم إلاّ بلاد الشام ، والآن وقد خرج معسكر البصرة من حلبة الصراع فقد بات أمر اللقاء على أرض المعركة بين معسكري الكوفة والشام أمراً محتماً وتشاء الظروف أن يكون على رأس معسكر الكوفة علي بن أبي طالب ، وهو آنذاك رأس بني هاشم ، وعلى رأس معسكر الشام معاوية بن أبي سفيان ، وقديماً كان النزاع قبل الاسلام على النفوذ والسيطرة في مكة بين بني هاشم وبني أمية ، واستمر هذا النزاع بظهور الاسلام فقد تزعم أبو سفيان مكة ضد محمد الهاشمي ، وأصبح النزاع الآن بين وريثي محمد وأبي سفيان ، ولقد كان لدى معاوية جيشاً منظماً ومطيعاً له ، يتزعمه منذ قرابة العشرين سنة أي منذ أن انتظم حال هذا الجيش واستقرت أموره في الشام. ولم تكن قوات علي على نفس الدرجة من التنظيم والطاعة والولاء لقائدها الذي تزعمها منذ فترة وجيزة للغاية وتم هذا التزعم في ظروف غير مساعدة وغير طبيعية .

وبعد الفراغ من أمور معركة الجمل قام علي بمراسلة معاوية ، ودعاه إلى الطاعة والجماعة ، وسيّر إليه سفارة برئاسة جرير بن عبدالله البجلي ، وأخفقت هذه السفارة كما أخفقت جميع الجهود التي بذلت لجلب معاوية للطاعة ومن ثم الحيلولة دون الاقتتال بين الشام والعراق ، واحتج معاوية بأنه كان ولي عثمان المقتول وأن له الحق بالمطالبة بدمه والاقتصاص من قتلته ، وحين تذرع معاوية بهذه الحجة كان يعرف سلفاً أن علياً لن يسلمه قتلة عثمان لأمرين رئيسيين ، أولهما : أن قتلة عثمان كانوا من زعماء جيش علي ومن أنصاره وليس بمقدرة علي تسليمهم أو الاقتصاص منهم ، وثانيهما أن علياً قال لمعاوية أنا الخليفة وإلي يرجع المتخاصمون وأنا أحكم في الدماء وغيرها وأقوم بتنفيذ الأحكام فتعال وتقاضَ أمامي مع من تزعم أنهم قتلوا عثمان ظلماً .

وسار علي نحو الشام على رأس قوات ضخمة والتقاه معاوية بقواته قرب

صفين على الفرات ، وكان معاوية قبل تحركه قد استطاع أن يضم إلى صفه عدداً من الزعماء المحنكين مثل عمرو بن العاص ، وقد ساعده عمرو في النجاح في صراعه مع علي ، والتقت قوات الطرفين في صيف سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م ، وقامت بينهما معارك شديدة للغاية كادت أن تأتي عليهما معاً ، ولقد مالت الكفة نحو العراقيين ، ومل الناس الحرب ، واستخدم الطرفان كل وسائل الحرب النفسية ، فقد استغل جماعة علي مصرع عمار بن ياسر الذي كان الرسول قد أنبأه بأن سيقتل على يد الفئة الباغية ، وأحسن جماعة معاوية استغلال التناقضات الموجودة بين صفوف قوات علي ، وحاول معاوية شراء بعض قادة علي وتثبيطهم عنه » وأخيراً دعا معاوية الى تحكيم القرآن في مسألة الخلاف القائم ، واستجاب علي مكرهاً لهذا الطلب .

وهكذا حقق معاوية بذلك عدة أمور منها : أنه جعل نفسه نداً لعلي ، وكان ذلك خطوة مباشرة نحو إعلان نفسه خليفة ، ثم جعل التناقضات بين صفوف قوات علي تزداد حتى تسبب تمزق هذه القوات وخروج بعضها على علي وتكفيرهم له ، وسيشغل هؤلاء « الخوارج » معظم وقت علي وجهده مما أتاح الفرص لمعاوية لتقوية صفوفه وزيادة استعداداته ، ثم الشروع في تجريد علي من الولايات واحدة تلو أخرى .

ولقد اتفق الطرفان حين توقفا عن القتال على أن يختار كل منهما ممثلا له يجتمعان ويبحثان في جميع أطراف المشكلة ومن ثم يصدران حكماً قرآنياً فيها ، ولقد كان في قبول علي بهذا الأمر تنازلاً غير مباشر عن صلاحياته كخليفة ، وتراجع عن اصراره بأنه هو الخليفة مصدر السلطات والمرجع في كل خلاف ، ولقد اختار أهل العراق أبا موسى الأشعري ممثلا لهم وحكماً رغم اعتراض علي عليه ووقع اختيار معاوية وأهل الشام على عمرو بن العاص ، والتقى الحكمان بأذرح من منطقة دومة الجندل « فبعث علي ابن عباس ولم يحضره وحضر معاوية ، فلم يتفق الحكمان على شيء » وارفض الاجتماع وعادت

الأمور إلى ما كانت عليه من قبل (١) .

وأخذ كل طرف من جهته يستعد للقاء في ساحة المعركة مرة ثانية ولم يستطع علي التحرك نحو بلاد الشام ذلك أنه شغل بثورة الخوارج الذين انشقوا عنه وكوّنوا نواة حركة جديدة ستكون من أعظم الحركات تأثيراً في التاريخ الاسلامي ، ومن الأسباب التي منعت علياً من الزحف إلى الشام ملل جنده وتقاعسهم عن القيام بأعمال القتال ، ولقد نجم عن هذا نتائج خطيرة للغاية استغلها معاوية خير استغلال ، فقد انتقل معاوية من مرحلة الدفاع عن نفسه إلى مرحلة جديدة ابتدأها بإعلان نفسه خليفة ثم بتجريد علي من ولاياته ، وبدأت بعض الولايات بالامتناع عن دفع الضرائب لعلي ، كما أن مصر سقطت لمعاوية ، وكادت الحجاز مع الحرمين ، ووصلت الحال بعلي إلى درجة كبيرة من الضعف وتحرج موقفه كثيراً ، وفي ذروة الأعمال هذه اغتيل علي في سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م من قبل خارجي اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي وذلك في مسجد الكوفة وقت صلاة الفجر ، وقد أزاح اغتيال علي كل العقبات من أمام معاوية .

وبعد اغتيال علي بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة ، وكان أول ما قام به من أعمال الاستعداد لاستئناف القتال ضد معاوية ، لكن تصدع جبهته الداخلية وتمزقها ثم شكوكه في طاعة أتباعه له حال دونه ودون ذلك ، فلقد تحرك الحسن من المدائن على رأس جيش عزم أن يقاتل به معاوية ، وأثناء تحركه هذا استطاع معاوية شراء بعض قادته كما استطاع أحد الخوارج جرحه جرحاً بليغاً كاد أن يودي بحياته ، وقد شغله جرحه هذا عن شجون الحرب وجعله مع تخلي بعض قادته عنه وانضمامهم إلى معاوية أكثر اقتناعاً بعدم جدوى القتال ضد معاوية ،

---

١ – مصنف عبد الرزاق : ٤٦٣/٥ – ٤٦٦ . أنساب الأشراف : ٢٩٢/٢ – ٣٦٧ . تاريخ خليفه : ٢١٦/١ . الطبري : ٥٥٢/٤ – ٥٧٦ ، ٥ – ٥ – ٧١ . صفين لنصر بن مزاحم . الاخبار الطوال : ١٥٢ – ٢٠١ . اليعقوبي: ١٨٤/٢ – ١٩٣ . ابن الاعثم : ٥١/١ و ــ ١٣٥ و . مروج الذهب : ٣٨٤/٢ – ٤١٤.

فاستقر رأيه على الصلح ، وجرت مفاوضات بين ممثلين عن الحسن ومعاوية أعطى معاوية وثيقة بيضاء موقعة من قبله ليسجل عليها الحسن كل ما كان يريده في سبيل تنازله عن الخلافة ، وهكذا كان أن تنازل الحسن في سنة ٤١ هـ /٦٦٢م عن حقه بالخلافة إلى معاوية وبايعه ، وقد سمي هذا العام بعام الجماعة ، وعاد الحسن بعد البيعة إلى المدينة حيث قضى نحبه بعد فترة وجيزة مسموماً من قبل زوجته التي كان معاوية قد اشتراها وطلب منها قتل بعلها ووعدها إن فعلت ذلك أن يزوجها ابنه يزيد (١) .

إن الهزيمة التي حاقت بأهل العراق وأدت إلى انتصار الجند الشامي قد تمت بفعل عدة عوامل ، ونشأت عن عدة أسباب وكان لها نتائجها البعيدة التأثير على المجرى الذي سار فيه التاريخ الاسلامي سياسة وفكراً وعقيدة ثم حضارة . ومع أننا أتينا على ذكر بعض هذه العوامل والنتائج أثناء سياق الحديث ، لا بأس من أن نعيد النظر بها مرة ثانية وهي مجتمعة . إن أهم العوامل التي سببت إخفاق علي رغم توفر ظروف النجاح له أكثر من خصمه كانت :

١ — عدم التكافؤ بين الجيوش المتحاربة ، فجيش علي على الرغم من تفوقه العددي — حسب روايات المؤرخين — كان يفتقر إلى التجانس ويعوزه الولاء التام والاخلاص الكامل الصافي بدون شوائب وتردد ، وهذان العاملان كانا متوفرين في جيش معاوية ، الذي استطاع بحنكته وبعد نظره السياسي وطموحه الدؤوب ، وبفضل المدة الطويلة التي قضاها في الشام ، استطاع أن يؤثر على الشاميين ويصنع منهم جنداً شجعاناً ، مخلصين ومطيعين لقائدهم ومتحمسين لقضيته ، ينفذون الأوامر العسكرية دون تردد، ودون تحسب لنتائجها،ودونما أي تحرج ، وذلك مهما كانت طبيعة هذه الأوامر حتى وإن كان فيها هتك لحرمة البيت الحرام وسفك لدماء آل النبي وصحابته .

---

١ — مصنف عبد الرزاق : ٤٦١/٥ . أنساب الأشراف : ٣٦٧/٢ — ٤٩٥ . تاريخ خليفة : ٢١٨/١ — ٢٣٦ . الطبري : ٩٤/٥ — ١٦٥ . اليعقوبي : ١٩٤/٢ — ٢١٥. الأخبار الطوال : ٢٠٢ — ٢٢١ . مروج الذهب : ٤١٥/٢ — ٤٣٧ ، ٤/٣ — ١١ .

٢ ــ وعلى عكس الجند الشامي كان جند الكوفة والعراق ، كلهم قائد لنفسه ، وكل واحد منهم له هواه ورغباته وقناعاته الخاصة التي كانت تتعارض مع مصلحة الدولة وغايات الخليفة ، ولعل أصدق عبارة صورت ما آلت اليه أمور علي مع جنده ما قاله في إحدى أخريات خطبه : «لا رأي لمن لا يطاع » ، وما قاله معاوية : «كان علي في أخبث جند وأشدهم خلافاً ، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافاً » .

٣ ــ وحالت طبيعة جند علي بينه وبين نيل النصر في صفين وأجبرته على قبول التحكيم في ساعة كان الفوز له قد صار محققاً ، وكان هذا القبول نكسة لعلي وتراجعاً كبيراً عن مبادئه وتنازلاً عن صلاحياته الأساسية، وكان لذلك نتائجه السلبية على جيشه من النواحي المعنوية والمادية ، فقد نزل علي من مركزه كخليفة لكافة المسلمين إلى مطالب بالخلافة ، وأتاح هذا الفرصة لمعاوية أن يطرح نفسه لأول مرة كمرشح للخلافة بعد أن كان مجرد حاكم للشام متمرد وخارج عن الطاعة والجماعة . ومن جهة ثانية كان التحكيم سبباً في خروج اثني عشر ألفاً من جند علي وانشقاقهم عنه ، وهم نواة الحركة التي ستعرف باسم حركة الخوارج ، وأدى هذا الانشقاق مع نشاط الخوارج إلى تحرج موقف علي وإلى انحطاط معنويات جنده في وقت كان هو بأمس الحاجة فيه إلى الوحدة والانسجام بين صفوف أتباعه .

٤ ــ لقد كان علي أول خليفة للمسلمين نشأ مسلماً منذ طفولته المبكرة في بيت النبوة ، فشرب من ينابيع الاسلام العليا مباشرة على يد أخيه ومربيه وابن عمه ثم عمه فيما بعد النبي محمد ، فكان علي مسلماً صرفاً رجل مبادىء ومثل ، لا يعرف المداهنة والمساومة ، ولا يقبل بمبادىء الخداع السياسي ، ولا يأخذ بأعمال بذل أموال المسلمين لتقوية مركزه وشراء ضمائر بعض القادة كما فعل معاوية ، ولقد كانت السياسة المالية لعلي من بين العوامل التي أثارت الاستياء بين صفوف العراقيين ، وكان تشدده في العطاء من العوامل التي دفعت عدداً كبيراً من أعوانه إلى الانصراف عنه بعد أن خاب أملهم فيما كانوا يسعون اليه من مكاسب شخصية ومادية .

٥ – وعلي حين صار خليفة لم يهدف من الحكم سوى رفعة شأن الاسلام وتحقيق مبادئه ، وكان من أهم هذه المبادىء رفع الحيف والظلم وإحقاق العدل ومنع الاستغلال ، وإزالة الفوارق خاصة بين العرب الفاتحين وطبقة المحكومين من الأمم التي دخلت مجموعات منها في الاسلام وصارت هذه المجموعات تعرف باسم الموالي ، فقد سعى علي إلى تحقيق المساواة بين الموالي وعرب العراق وإزالة الطبقية والحيلولة دون التفاوت الاجتماعي والاستغلال ، وأغضب هذا جماعات كبيرة من أهل العراق الذين أصروا على أن تبقى امتيازاتهم وأن تزداد على حساب حرمان الموالي ، وكانوا دائماً يطالبون علياً بقولهم : « يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم (١) » .

ونجم عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة إلى بني أمية نتائج كبيرة ، فقد انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية ، وهذا كان معناه انتصار الارستقراطية القرشية وأصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على أصحاب المبادىء والمثل ، لقد كان نصر معاوية هزيمة لكل الجهود التي بذلت للحد من طغيان الرأسمالية القرشية ، هزيمة لحلف الفضول ، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الإسلام وحربه على الاستغلال والظلم ، هزيمة للمثل والمبادىء العليا ونجاحاً للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمال ، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الإسلام وأجيال المسلمين التي اعتقدت مجمعة على أن خلافة علي قد أنهت بسقوطها خلافة ساد فيها الإسلام وحكم فيها باسم مبادئه ، ولقد قامت منذ لحظة السقوط هذه محاولات كثيرة بعضها دامية وهائلة من أجل العودة إلى تطبيق الإسلام كما جاء ومن المؤسف أن النجاح لم يكتب لواحد منها ، فلم يمكن حتى الآن العودة إلى مبادىء محمد والخلافة الراشدة .

ولقد كان العراق هو الخاسر الأكبر بانتقال الخلافة إلى الأمويين ، فقد تحولت العاصمة من الكوفة إلى دمشق ، وفقدت الكوفة مكانتها البارزة وأصبحت

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي : ٥٦/٢ . ابن أبي الحديد : ١٨٠/١ .

دمشق حاضرة الإسلام ومركز دياره ، ووقف أهل العراق من الحكم الجديد موقف المعارض ، ولم تكن هناك سوى أقلية ضئيلة قامت ببيعة معاوية بإخلاص ، وأما الأغلبية فقد بايعت كرهاً أو سعياً وراء مصلحة ومكسب فردي وخاصة عندما شعروا بأنفسهم وقد فقدوا كل شيء : الخلافة ، ومركز الحكم وبيت المال ، ولم تخلص العراق للأمويين أبداً ، وكانت دائماً مصدر قلاقل واضطراب وخطر لهم ، لذا فقد عاملوها بسياسة البطش والشدة ، وكانت هذه المعاملة تسكّن العراق لفترة من الزمن ، وتؤدي غالباً إلى ردات فعل عنيفة ، لكن غالبية هذه الردات استطاع الجيش الشامي — طالما ظل متماسكاً — القضاء عليها .

لقد كان الصراع في صفين صراعاً بين الشام والعراق ، وحرم انتصار بني أمية العراق من العاصمة ، وبالتالي من موارد الدولة ، التي كان معظمها يأتي من العراق نفسه والأراضي القريبة منه ، لذلك وجدت دائماً أسباب للمعارضة والنقمة ، ونظراً لعدم وجود التمايز بين العمل الديني والعمل الدنيوي في الاسلام ، فقد أخذت المعارضة العراقية شكلاً دينياً ظاهراً ، وألحت على المثالية في المطالب ، والآمال المشرقة في حياة المستقبل ، وصاغت مطالبها وعرضتها بصورة رائعة ، وذلك لأنها كانت خارج السلطة ، ثم إنه كان للعراق مواريثه السياسية والحضارية الخاصة ،وكان له مشاكله البشرية والاجتماعية المتميزة .

وكانت معارضة العراق بحاجة إلى زعامة تتوافق من حيث الصفات مع جميع الحاجات ، ولقد كان آل بيت النبي أفضل هذه الزعامات وتلاهم — إنما مع فوارق شديدة — الخوارج . وعندما هزم العراق كان على رأسه أسرة آل النبي ، ونظراً لوضع هذه الأسرة الخاص ، ولكونها حرمت من منصب الخلافة ، وللصور التي اتسمت بها ، فقد اتخذ زعماء هذه الأسرة لقباً جديداً أحلوه محل لقب الخلافة ، وأضافوا لهذا اللقب العام لقب خاص اتخذه كل زعيم لنفسه ، ونبع هذا اللقب الخاص من صفة من صفات الخير والسعادة المثالية للمعارضة

ولحياة المستقبل – مثل صادق من صدق ، ومهدي من هداية ، ومنصور من النصر – ومع الأيام تحددت هذه الألقاب وأخذ كل واحد منها معنى مستقبلياً خاصاً ، وتحفل كتب الشيعة بهذه الأمور على أنني أرى أن أفضل كتاب ألف في الاسلام في هذا الصدد هو كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المروزي (ت : ٨٤٢ م)(١) .

وكان اللقب العام الذي أخذ مكان لقب الخلافة هو لقب الإمامة ، والامامة مشتقة لغوياً من لفظة « أمة » التي تعني الشرعة والدين ، وفي القرآن « إنا وجدنا آباءنا على أمة » وفيه أيضاً « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أي خير أهل دين ، وزعيم الأمة هو الإمام ، ولقد كان النبي أيام حياته إمام أمته(٢) ، وبعد وفاته ورث ذلك منه علي بن أبي طالب ، وحين حرم علـي من منصب الحكم يوم السقيفة لم يحرم من منصب الإمامة ، وعندما صار خليفة استرد حقه واجتمع فيه الدين والدنيا .

وبعد اغتيال علي آلت الإمامة والخلافة إلى ابنه الحسن ، وقد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية وهو مكره ، ثم ما لبث أن اغتيل، فآلت الامامة إلى أخيه الحسين .

هذا وقد عرفت المعارضة العراقية التي جعلت من آل البيت أسرة زعامة لها بشيعة آل البيت أو شيعة علي ، أي حزب آل البيت أو حزب علي ، ومع مرور الأيام اقتصر عـلى لفظة شيعة ، ومع مرور الأيام وتجدد الأزمات تطورت حركة الشيعة فكرياً وسياسياً وتنظيمياً ، ففي الفترة الأولى نجد أنه بعد مقتل الحسين في فاجعة كربلاء لم يجد بعض الشيعة حرجاً في تسمية أخيه محمد بن الحنفية والإيمان به كإمام ، وكان هذا شعار ثورة المختار وأتباعها – وهي ثورة سنأتي على ذكرها في المستقبل – وبعد اخفاق هذه الثورة ، ولأسباب كثيرة

---

١ – لقد أنجزت تحقيق هذا الكتاب وسأدفعه للطباعة قريباً إن شاء الله .

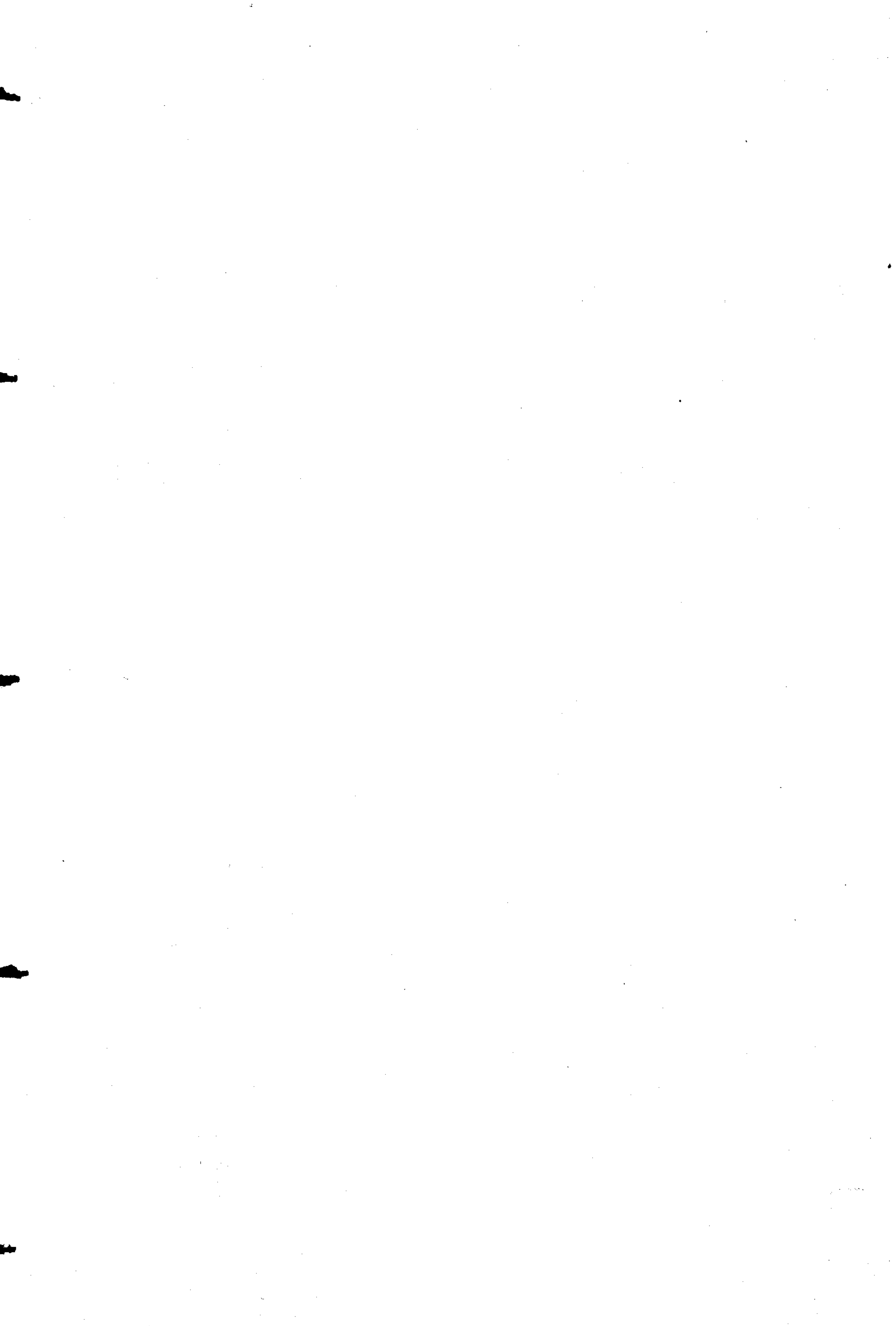
٢ – انظر معنى الكلمة في لسان العرب .

ليس هذا المكان مكان شرحها ولا المناسبة مناسبة دراستها بشكل مفصل أجمع غالبية الشيعة على حصر الإمامة في أولاد علي من فاطمة ابنة الرسول ، ثم حصر قسم كبير منهم هذا الحق في أولاد الحسين بن علي وفاطمة دون أولاد أخيه الحسن ، وصارت القرابة هي العمود الفقري لحق الإمامة ، وبات هذا الحق ثابت بالنص والتعيين ، ومحاط بخصائص ومزايا ، لعل أهمها العلم ، فالنبي كان خاتم الأنبياء وعند وفاته انقطع الوحي ، وقبل انقطاع الوحي علّم علياً وأعطاه علماً خاصاً ، وعلي وحده استطاع فهم وحمل أسرار هذا العلم الخاص وعلي — الذي وصف دائماً بالعلم — ورّث هذا لابنه الامام بعده وهكذا .

وخلاصة القول أننا نجد أنه بعد استيلاء معاوية على السلطة حدث تطور كبير في مؤسسة الخلافة وامرة المؤمنين ، فقد أصبح رأس السلطة ملكاً يورث ملكه ، أو كان هو أشبه الناس بالملك لكن مع احتفاظه بلقب أمير المؤمنين دون سواه من أصحاب السلطة ورجالاتها ، وصار زعيم المعارضة إماماً .

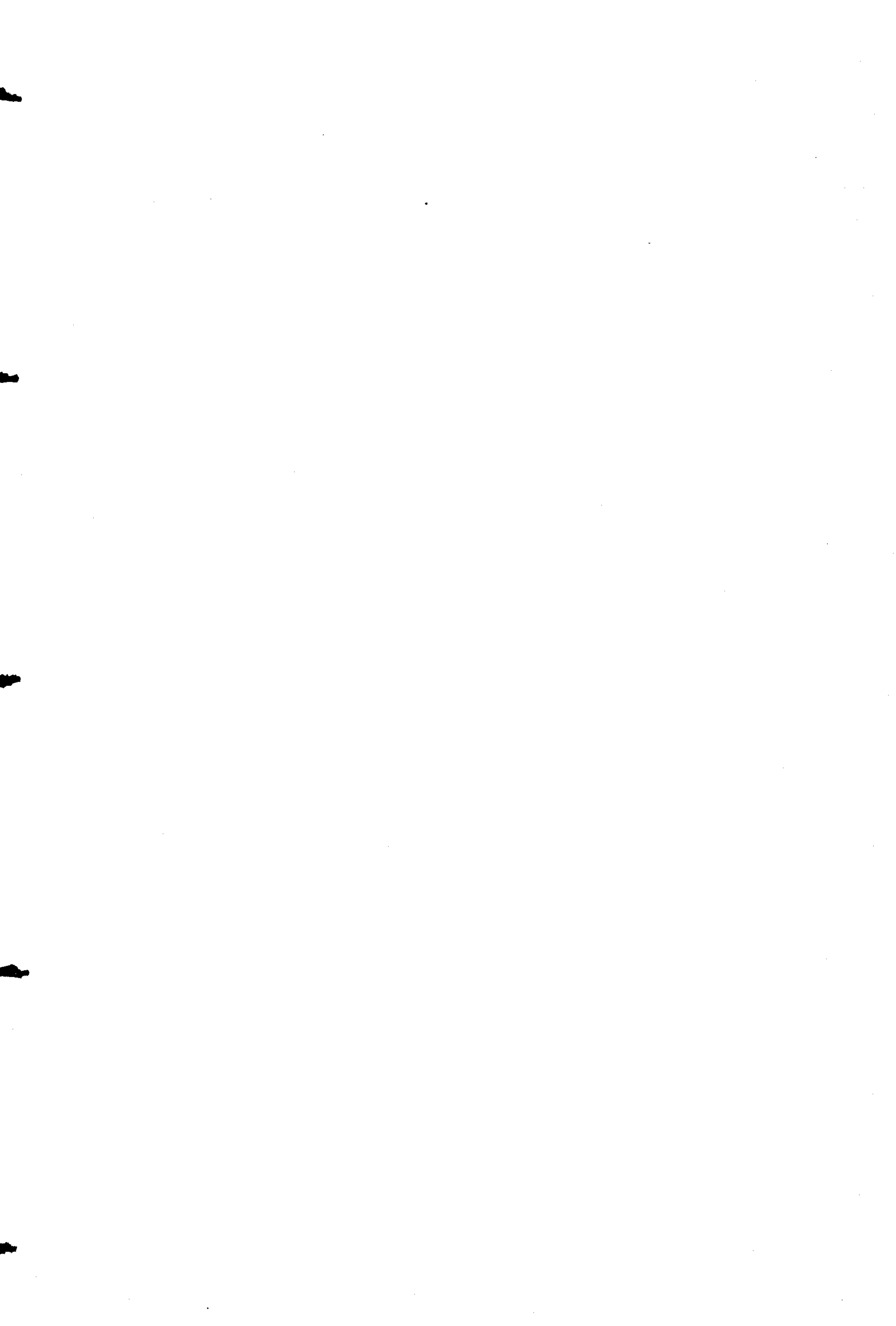
كذلك تطورت فكرة الامامة تطوراً كبيراً ، فقد حدث انشقاق بين صفوف الحزب الشيعي ، بحيث طورت كل جماعة فكرة الامامة والعلم تطويراً خاصاً ، وحددتها بما شاءت وبما اقتضت الأحوال .

* * *



الباب الثاني

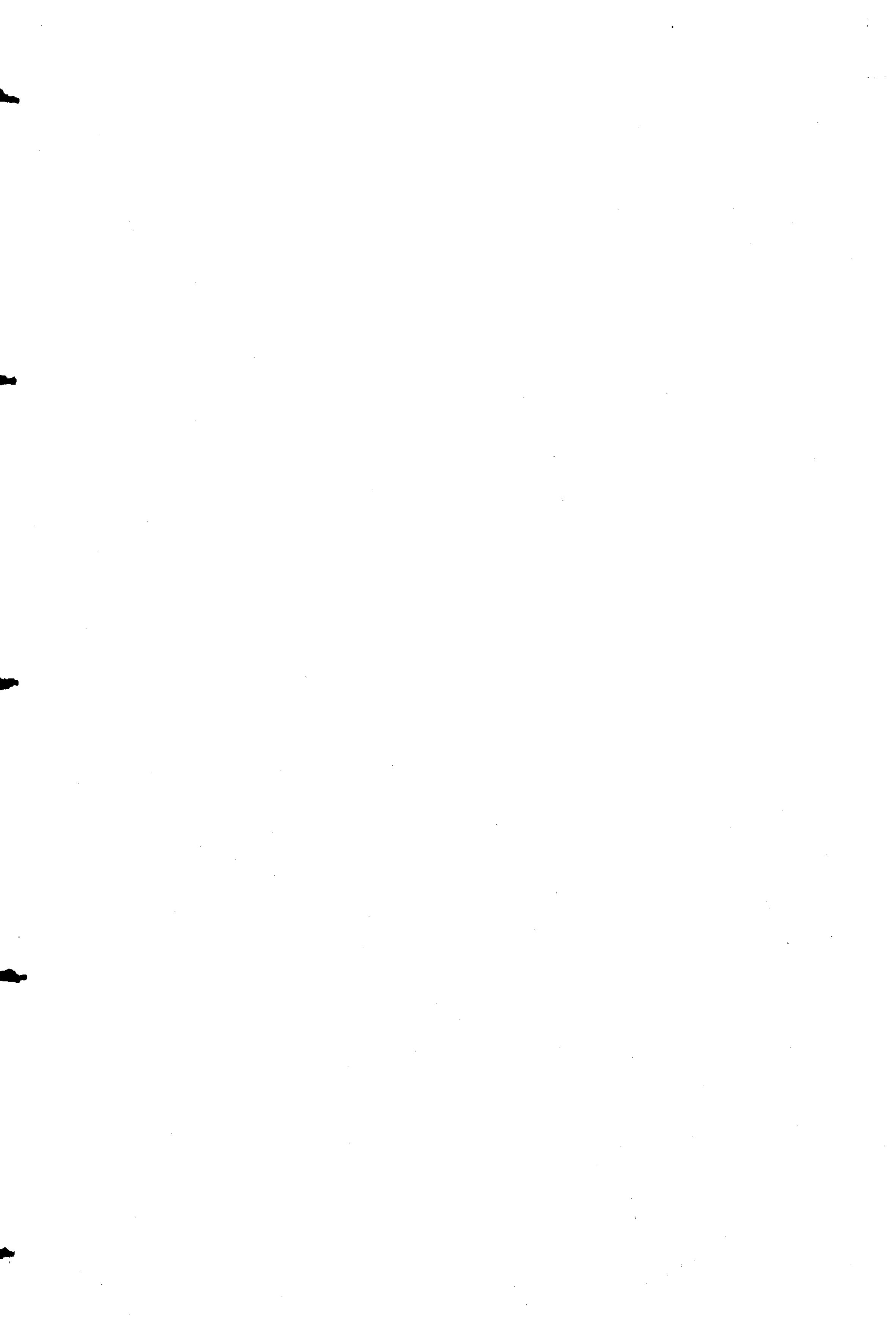
الدولة الاموية



الفصل الأول

دور التأسيس

الحركات السياسية المعادية للحكم الأموي



الدولة الأموية

استولى معاوية بن أبي سفيان على السلطة ، وانتزع لنفسه منصب الخلافة وأسس أسرة مالكة بقوة السلاح ، لا بموجب أي حق شرعي ، أو دعوى قانونية صحيحة ، لذلك لاقى معارضة شديدة دائمة ، فاضطر إلى الابقاء على استخدام القوة المسلحة ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة لعل من أهمها :

زيادة عدد الجند الشامي وزيادة نفقاته مما سبب تسخير موارد الدولة له ، ونظراً لوجود الالحاح المالي الدائم ، فقد اضطرت الدولة إلى حرمان معظم فئات الجند غير الشامي ، ثم اضطرت الى انتهاج سياسة مالية قاسية فيها استغلال وجيف ، والحاجة الدائمة إلى المال كانت وراء عدد من الثورات ، ووراء عدم التشجيع على دخول الاسلام شعوب الأمم المفتوحة، ولم يمر هذا دون انعكاسات شديدة للغاية .

وزيادة الاعتماد على الجند الشامي ، سبب تدخل هذا الجند في شؤون الدولة، ونظراً لأن هذا الجند جاء من قبائل العرب في بلاد الشام ، فقد زادت قيمة هذه القبائل مع قادتها فتحولوا إلى أرستقراطية خاصة ، وقام تناحر بين هؤلاء القادة ، وتكونت في الشام قوى متناحرة على التحكم بالسلطة ، (وهو ما سيدعى بالعصبية القبلية) .

وجري الجند وراء الربح السريع ، أثر على سياسة الفتوح العربية تأثيراً كبيراً وسيرها ، ويمكنه أن يفسر صورة الخط البياني لهذه الفتوح ، ويفسر بشكل خاص العمليات العسكرية ضد بيزنطة ، حيث اتخذت أرضها ميدان تدريب أكثر من ميدان توسع لأن ذلك كان سيحتاج إلى جهد طويل مستمر مع مرابح مادية قليلة للغاية .

وتميز الجند الشامي على سواه من قوات أمصار الدولة ، جعل هذه القوات تنظر دائماً إلى هذا الجند نظرة عداء ، لذلك كانت دائمة الثورة والمعارضة الحادة ، وخاصة في العراق ، مما اضطر حكام العراق منذ لحظة قيام الدولة الأموية إلى جلب قوات من الشام إلى العراق ، وسعوا إلى اسكانها في ثكنات فنظر إليها نظرة الجند المحتل ، ولجأ هؤلاء الحكام إلى التخلص من قوات العراق من الكوفة والبصرة ، وعملوا - خاصة زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف - على نفي هذا الجند العراقي إلى خارج العراق ، إلى خراسان ، حيث سخر في حركات الفتوح ، وأجبر على السكنى هناك ، وهذا الاجبار أوجد في خراسان قوات ساخطة لديها الاستعداد الدائم للثورة على الحكم الأموي ، الأمر سيستغله بشكل ممتاز عدد من الثوار وعلى الأخص الثورة العباسية التي أطاحت بالحكم الأموي .

إن اعتماد الأسرة الأموية على الجند ، لم يكسب حكمها صفة الشرعية ، كما حدث للدولة العباسية فيما بعد ، وباتت منية هذه الدولة مرتبطة بقوة الجند الشامي ، واخلاصه وتماسكه ورضاه مع تماسك أفراد الأسرة الأموية ، لكن حدوث أي خلل في هذا كان سيؤدي إلى نهاية الحكم الأموي ، وهذا ما حصل فيما بعد .

وهذا الوضع الشاذ سيتنبه له بعض خلفاء بني أمية ، وخاصة عمر بن عبد العزيز ، لكن ترسخ النظام وقوة رجالاته ، سيحول بين ابن عبد العزيز وبين نجاح برنامجه السلمي مع خطة احلال رباط الدين محل بقية الأربطة والوشائج وإقامة مجتمع الأمة الاسلامية المتمازجة بدون طبقات وأرستقراطية عسكرية متحكمة .

لقد اتخذ بنو أمية من بلاد الشام قاعدة لهم ، وهذه البلاد ذات طبيعة جغرافية خاصة لها انعكاساتها على طبيعة السكان ، وعدم تكوينهم مجتمع ليس فيه تناقضات شديدة ، ومن يستطلع تاريخ بلاد الشام يجد أن هذه البلاد لم تكن قط قاعدة لامبراطورية ، لأنه ليس فيها سهل واسع يعيش فيه كمية كبيرة

من الناس تكوّن مجتمعاً متناسقاً يكون قاعدة الامبراطورية وخزانها البشري مثل الحال في مصر والعراق ، لذلك سنجد أن متأخري خلفاء بني أمية يزحفون شمالا ثم شرقاً حتى منطقة الجزيرة كما سيكون الحال زمن آخر هؤلاء الخلفاء مروان بن محمد .

إن الاغتصاب القائم على دعم القوة المسلحة سيضطر إلى اتباع سياسة تنكيل وملاحقة فكرية ، لذلك سنجد أن عصر بني أمية حال دون قيام حركة تدوين فكرية عند العرب ، وغدت السلطة الأموية سداً تجمع خلفه محاولات لنتاج فكري ضخم ، وما أن انهار هذا السد حتى تدفق النتاج الفكري المدون فغطى جميع ميادين الحياة (١) .

هذا وإن عدم الاستقرار السياسي ، لن يحول فقط دون النتاج الحضاري إنما سيحول دون قيام مشاريع اجتماعية كبيرة ودون نمو التجارة والصناعة ، وهو في نفس الوقت سيجبر الدولة على ارضاء كبار القادة بمنحهم اقطاعات من الأرض كبيرة ، كما أن وضع هؤلاء القادة والوضع العام للدولة سيجبر العديد من الملاك الصغار على الالتجاء إلى هؤلاء القادة ووضع أنفسهم وأملاكهم وطاقاتهم تحت تصرفهم ، وسيسبب ذلك قيام طبقة اقطاعية ، ولعل في التعرف إلى سير عدد من قادة وأمراء بني أمية — وليكن مسلمه بن عبد الملك مثالاً — سيوضح هذه المسألة ويجليها .

ولنشرع الآن بعد هذه المقدمة بالتعرف إلى وقائع التاريخ الأموي وأهم أحداثه .

* * *

---

١ – انظر التأريخ عند العرب : ٣١ – ٣٣ .

معاوية وعهده

معاوية هو ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، كان أبوسفيان كبير رجالات بني أمية ، وأكثرهم ثروة ، وكان قائد القوافل التجارية القرشية ، لذلك عُدّ من أرفع زعماء مكة القرشيين ، وهو الذي تزعم قبيلة قريش وقاد جندها بعدما هاجر النبي إلى المدينة وقد أسلم أبو سفيان يوم فتح مكة ، واعتبر من المؤلفة قلوبهم ، وقد شك كثير من الناس في صحة اخلاصه للاسلام ، وفي عهد النبي استعمله النبي على نجران .

وكان أبو سفيان رجلاً مزواجاً ، وكانت هند بنت عتبة إحدى شهيرات نساء قريش فتزوجها أبو سفيان ، فكان ثالث أزواجها وآخرهم ، وكان أول ولد أنجبته لأبي سفيان معاوية ، وحدث ذلك قبل البعثة بعامين ، وفي مكة نشأ معاوية ، وتأثر بأبيه ، لكن تأثره بأمه هند كان أشد ، وأسلم معاوية مع أبيه « عام الفتح »، «فكان يقال له الطليق ابن الطليق، ومات أبوه سنة ثلاث وعشرين في خلافة عثمان ، وقد كف بصره ، وكان معاوية داهية من الرجال، موصوفاً بجزالة الرأي والحلم والأناة والسخاء ... وكان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : « هذا كسرى العرب » .

وقد فقد أبو سفيان مع بني أمية سلطانهم حين فتحت مكة ، ورغم ذلك فقد أحسن النبي معاملتهم حتى ينزع الحقد من نفوسهم على بني هاشم خصومهم الألداء في الجاهلية ، فعامل أبا سفيان معاملة حسنة وأعلن ساعة الفتح أن من يدخل داره فهو آمن ، وقد ساهم أبو سفيان فيما بعد ببعض أعمال الفتوحات وَفَقَدَ عينَه أثناء حصار الطائف ، كما أن ابنه معاوية عمل كاتباً للوحي بين يدي الرسول ثم تدرج في خدمة الدولة الجديدة ، وكان أحد أفراد الجيش الذي وجهه أبو بكر تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان .

وبعد وفاة أبي بكر وعندما أصبح عمر خليفة عين يزيداً والياً على أحد أقسام بلاد الشام ، وبعد وفاة يزيد سنة ١٨ هـ / ٦٣٩م عين مكانه معاوية .

وبعد مقتل عمر ، وفي عهد عثمان – وهو أحد أقارب معاوية – فوض لمعاوية حكم جميع أجناد الشام ثم أضاف اليه ولاية الجزيرة سنة ٢٥هـ / ٦٤٥ م ولقد اتاحت الأزمات التي حدثت في عهد عثمان الفرصة أمام معاوية لا لينفرد بحكم الشام ، بل ليظهر وكأنه الحاكم المطلق لهذه الولاية ، وبعد مصرع عثمان استغل معاوية ذلك لصالحه خير استغلال ، فتصدى للخليفة الجديد وتزعم جماعة المطالبين بدم عثمان ، فكانت موقعة صفين ثم قصة التحكيم ، وتبع ذلك انشغال علي بأمور العراق ثم اغتياله على يد أحد الخوارج ، ثم تنازل الحسن كما مرّ معنا . ولقد مكن هذا كله معاوية من استحواذ المركز الأول في ديار الاسلام وجعله قادراً على أن يعيد زعامة أسرته ، ويقيم مملكة وراثية عاشت قرابة القرن .

هذا وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن معاوية ، فوصفوا شخصيته الفذة ، فذكروا أن ابرز ما كان يميزها : الحلم ، والدهاء ، وحسن السياسة ، والكرم ، وهذه الصفات ما تزال مقترنة باسم معاوية حتى هذا اليوم ، وليس ثمة شك ان صفاتاً كهذه مع ما تميز به الرجل من طموح كبير كانت وراء نجاحه في بلوغ أهدافه ، ولقد أعطت مواهبه في الحكم ثمارها خلال الفترة الطويلة التي حكم فيها الشام وهي فترة امتدت عبر ثلاثة من الخلفاء الراشدين استطاع خلالها تأكيد سلطاته وبناء جيش قوي ، حيث لم يظهر في وجهه معارضة قوية أو انتقاد شديد لحكمه على عكس ما كان عليه الحال في بقية الولايات(١) .

---

١ – أفرد البلاذري نصف المجلد الرابع من كتابه أنساب الأشراف للحديث عن معاوية ، وقد طبع هذا القسم حديثاً (١٩٧١) في مدينة القدس وجاء في (٢٤٩ص) وانظر أيضاً تاريخ الخلفاء : ١٢٩ – ١٦١ . كتاب نسب قريش : ١٢٧ – ١٢٨ . جمهرة أنساب العرب : ١١١–١١٣ . الطبري : ٥/١٠ – ٣٢٥ . تاريخ خليفة : ١/٢١٦ – ٢٧٦ . اليعقوبي : ٢/٢١٦–٢٤١ . الأخبار الطوال : ١٥٥ – ٢٠٥ . مروج الذهب : ٣/١١ – ٥٩ . الفتوح : ١/١٥٩ و – ١٨٥ و . الفخري : ٨٧ – ٩٢ . تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٩٤ – ٢٠٥ .

العراق ولاية أموية

بعدما ضم معاوية العراق إلى دولته ، عين عبد الله بن عمرو بن العاص والياً على الكوفة ، لكن ذلك لم يدم طويلاً لأن المغيرة بن شعبة خوّفه بقوله : « استعملت عبدالله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر ، فصرت بين لحيي الأسد» فسارع معاوية فعزل عبدالله وعيّن المغيرة مكانه،وكان المغيرة ختنا – صهراً – لمعاوية وواحداً من أعوانه المخلصين له،والمنتمين بنفس الوقت الى مدرسته السياسية، وقد تحدر من بني ثقيف ، اهل الطائف حلفاء الأسرة الأموية قبل الإسلام (١) .

وكانت مهمة المغيرة في الكوفة على غاية من الصعوبة ، فقد كان عليه أن يجابه ثورات الخوارج وحركات شيعة علي التي كونت نواة حزب سياسي وأخذت ببعض المفاهيم العقائدية الخاصة بسبب تشابك القواعد السياسية والدينية في الإسلام ، ونجح المغيرة في إدارة الكوفة ، ذلك أنه استطاع ان يشغل الكوفيين عن معارضة الأمويين بدفع صفوة زعمائهم إلى حرب الخوارج ، وهكذا ورط أعداء السلطة في حرب داخلية وحال دون تلاقي جهود الطرفين ضد الأمويين ، وبذلك استطاع بدهائه أن يطفىء نار المعارضة العنيفة ويحد من خطرها . ولكن هذا كان إلى حين .

وعين معاوية على البصرة عبدالله بن عامر ، وكان قد شغل هذا المنصب لعثمان،وقد أخفق ابن عامر في مهمته فاضطرب حبل الأمن في البصرة،وشاعت الفوضى فيها الأمر الذي دفع معاوية إلى التماس حاكم قوي يحكم قبضته على البصرة ، ويبعد عنها شبح الثورة ، وكان أكثر الرجال آنذاك جدارة بتولي مسؤولية هذه المهمة الشاقة زياد بن ابيه عامل علي على فارس ، وإمكانية التعاون مع زياد لم تكن في متناول معاوية ، فقد ظل زياد على اخلاصه لعلي ورفض الاستجابة للخليفة الأموي ، ولم تنفع معه سياسة التهديد والوعيد ، وسد أذنيه

---

١ – الطبري : ٥/١٦٦ . أنساب الأشراف : ٤/١/٥ .

عن سماع كل نداء وجهه اليه معاوية للقدوم اليه ، وقد تغير موقف زياد عقب اتصال المغيرة به وتوسط الحال بينه وبين معاوية ، وقام معاوية فاستلحق زياد بأسرته وجعله أخاً له من أبي سفيان ، وذلك على أساس قصة فيها أن أم زياد كانت بغياً في الجاهلية وكان قد اتصل بها أبو سفيان فأحست بأنها حملت منه وكان هذا الحمل هو زياد ، وبعد عملية الاستلحاق صار زياد بن أبيه يعرف باسم زياد بن أبي سفيان ، وقام معاوية فعينه والياً على البصرة .

قدم زياد البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م فنجح حيث أخفق غيره ، وكانت خطبته الأولى المعروفة باسم البتراء بمثابة برنامج موضح لسياسته ، وقامت هذه السياسة على الشدة والإرهاب والشروع بنفي الجند العراقي إلى خراسان ، ولقد كافأه معاوية بضم الكوفة إليه بعد وفاة المغيرة ، مع بقية أجزاء مشرق الدولة الإسلامية فأصبح أقوى شخصيات الدولة بعد الخليفة .

ومما يثير الاستغراب في سياسة زياد ليس حربه العنيفة ضد الخوارج ، بل الحرب الشعواء التي شنها على شيعة علي ، في الكوفة ، فعلى الرغم من ولائه الشديد السابق لعلي ، وحرصه على متابعة هذا الولاء حتى بعد مقتله نجده ينقلب بعد اتصاله بمعاوية واستلحاقه ، فيصبح أموياً من أكثر المتعصبين تطرفاً ضد الشيعة ، وعلى الرغم من شخصيته الفذة وما تمتع به من مواهب ادارية عالية وامكانات كبيرة فقد أخذ عليه المؤرخون هذا المسلك ، وعابوا عليه هـذا التطرف والإسراع في تغيير المواقف ، كما عابوا عليه الاغراق في سياسة القمع والارهاب ، ذلك أن هذه السياسة وإن أعطت نتائج سريعة في العراق إلا أنها كانت موقتة ، وكانت فيما بعد شراً على آل زياد وعلى الحكم الأموي ، حيث صارت عاملاً من عوامل اشتداد النقمة وتفجيرها إلى ثورات مسلحة بعد موت زياد في سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م ، لأن موته أحدث فراغاً في العراق صعب على الدولة الأموية سده لمدة مديدة من الزمن (١) .

* * *

١ – تاريخ خليفة : ٢٤١/١ . الطبري : ١٧٦/٥ – ١٧٨ ، ٢١٤ – ٢١٥ . اليعقوبي : ٢٢٢/٢ . الأخبار الطوال : ٢١٩ – ٢٢٠ . أنساب الأشراف : ١٦٣/١/٤ – ١٩٥ . فلهوزن : ١١٥ – ١٢٠ .

إعادة تنظيم الدولة وتطوير ادارتها :

تسلم معاوية زمام السلطة في الدولة العربية الاسلامية ، في أعقاب حرب أهليـــة ذرت نارها طيلة سنوات عدة فأصابت وحدة الأمة في الصميـــم ، وأتت على مركزية السلطة ، فانتشرت الفوضى في كل مكان وتفجر الصراع مجدداً بين القبائل وأخذ بعضها يشهر البغضاء ويجاهر العداء للحكم الجديد وللمركزية في السلطة ، مما جلب المتاعب واستدعى اتخاذ الاجراءات الصارمة .

ومع معاوية انتقلت عاصمة الدولة إلى دمشق ، تلك المدينة التي كانت تعج مع منطقتها بالعرب المخلصين له ، فكان ذلك بالاضافة لما ألحقه بالعراق من اضرار ، ضربة جديدة إلى شمال شبه الجزيرة العربية التي بدأت تفقد مركزها السياسي منذ خلافة علي الذي اضطر لاختيار الكوفة مقراً له . ومن ثم أخذت المدينة التي أثرت كثيراً في صنع الأحداث الاسلامية الأولى ، فتزعمت الدور الأول لزمن النبي والخلفاء الثلاثة الأوائل ، تعيش في الظل ، وطبعاً لم يمر ذلك دون ردات فعل دموية .

ولعل أبرز التغييرات التي شهدتها الدولة في عهد معاوية هي مسألة تحويل النظام السياسي فيها من نظام قائم على نوع من الشورى إلى نظام ملكي ثيوقراطي أو بمعنى آخر من حكم اسلامي ديني دنيوي أممي إلى سياسي دنيوي أساسه العنصر العربي . ولا غرابة في ذلك فالأمويون استولوا على الخلافة بالقـــوة والقهر وليس عن طريق الشورى ، وهذا ما أضفى على خلافتهم طابعاً سياسياً ظاهراً ، حتى أنه من المعتقد ان كلمة « ملك » تداولت لأول مرة في الاسلام في عهد معاوية حيث ينسب اليه المؤرخون قوله : « أنا أول الملوك » ، وجاء عند الترمذي وأبي داود أن النبي قال : « الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك » . وقال القلقشندي إن معاوية : « أول من رتب الخلافة وأقام أبهتها وأجراها على قاعدة الملك » (١) .

---

(١) اليعقوبي ٢/٣٢٢ . أنساب الأشراف : ٣٦/١/٤ – ٣٧ . تاريخ الخلفاء : ١٣٠ . مآثر الانافة : ١٢/١ – ١٣ ، ١١١ .

على انه رغم هذا التصريح المنسوب إلى معاوية ، يجب على المؤرخ أن يتناوله بالحذر وألا يجنـح إلى المبالغة في تفسيره ، ذلك أن معاوية رغـم اهتمامـه بالمظاهر الملكية ، وحرصه على التمثيل بالأباطرة ، لا سيما جيرانه البيزنطيين ، ظل في الواقع يحكم ويتصرف كزعيم مكي يعرف كيف يصطنع الرجال ويرضيهم ، وكان يحكم بالتشاور مع جهاز ضم رؤساء القبائل ، ولم يتصرف تصرف الملوك ، وهذا ما حدا بالمؤرخ البيزنطي تيوفانيس . أن يصف معاوية بالمستشار الأول ، ولم يصفه بالملك ، أو الامبراطور(١) .

أما السمات العامة للدولة فقد ظلت كما هي ثيوقراطية ، الاسلام دستورها ودينها الرسمي ، ولعل أهم ما استحدثه معاوية من أمور كان ما يتعلق بمظاهر الحكم ، وهي أمور لم تكن معهودة عند العرب ، فقد ابتنى لنفسه قصراً سماه « الخضراء » وجلس على السرير ، وأحاط نفسه بالحجّاب ، وكان أول من أقام الحرس تمشي بالحراب بين يديه ، وأوجد الشرطة لحراسته ، وانعزل اثناء الصلاة في مقصورة خاصة تحجبه عن بقية المصلين ، ومن المعتقد أن هذا التدبير جاء بعد المؤامرة التي أعدت لاغتياله على أيدي الخوارج .

ومن الناحية الادارية هناك من يرى أن النظام الأموي الاداري في الشام كان امتداداً للنظام القديم الذي كان سائداً في الشام ، والموروث عن الدولة البيزنطية ، ويبدو أنه كان لبيزنطة تأثير على مظاهر بلاط الخليفة أكثر من أي جانب آخر ، وينبغي ألا ننسى أن معاوية اعتمد في تنظيم ادارته على الأسس العامة التي طورها الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو قد استبقى الجهاز الاداري القديم بموظفيه من نصارى الشام ، يكتبون باليونانية ، وهي اللغة التي ظلت وقتاً غير قصير لغة الدواوين في الشام ، أما في العراق فكانت دواوينه تكتب بالفارسية ، وفي مصر بالقبطية واليونانية ، وقد اتخذ معاوية لنفسه مستشاراً مالياً وادارياً من نصارى الشام ، وهو سرجون بن منصور الرومي ، وكذلك فان العملة التي تداولها الناس

---

١ – أنساب الأشراف : ٤/١/٤٠ – ٥٣ . فلهوزن : ١٣٢ .

أيام معاوية كانت هي نفسها التي سادت في الشام قبل الفتح ، إنما مع بعض التعديلات العربية ، وهذا الحال ينطبق على الأقاليم الأخرى حسب التأثيرات السياسية التي كانت تخضع لها قبل الفتح العربي .

بَيْدَ أن معاوية وان اعتمد في سياسته الادارية والمالية على تنظيمات الخليفة عمر بن الخطاب ، إلا أنه أضاف كثيراً من التجديدات ، التي اقتضاها الحال لضبط الأمور والاشراف فعلياً على إدارة الدولة ، فكان أن ظهر « ديوان الخاتم » ، وهذا الديوان اعتبره ابن طباطبا من أكبر الدواوين . وكان السبب المباشر لظهوره أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم ، وأحاله على والي العراق زياد بن أبيه ، فوصل الأمر إلى زياد بمائتين ألف بعد أن فض ابن الزبير الكتاب وجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر ذلك وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف ، ثم أمر بحبس ابن الزبير حتى أداها عنه أخوه عبد الله .

وهكذا ظهر ديوان الخاتم الذي كان يمنع تزوير كتب الخليفة ، ويقوم بإثبات نسخها فيه ، والختم عليها بخاتم صاحب الديوان ، وأول من تولى هذا المنصب القاضي عبدالله بن عمرو الحميري ، كذلك كان معاوية أول من وضع نظاماً للبريد في الدولة الإسلامية بغية الوقوف على أخبار الولايات بالسرعة الممكنة ، فأقام نقاطاً على الطرق وضع فيها الخيل المضمرات ، ليسهل أمام صاحب الخبر تغيير فرسه إذا تعبت ، والواقع أن نظام البريد هذا لم يكن من ابتكار معاوية وإنما اقتبسه من دول المنطقة، وخاصة الامبراطورية الساسانية ، وطوره لخدمة دولته الناشئة حيث ساهم بدون شك في انتظام الأمور واستتباب النظام ، ومعرفة المركز بجميع مشاكل الولايات (١) .

---

١ - تاريخ خليفة : ٢٧٦/١ - ٢٧٧ . الطبري : ٣٣٠/٥ . اليعقوبي : ٢٣٨/٢ - ٢٣٩ . تاريخ الخلفاء : ١٦٠ . الفخري : ٨٩ - ٩٠ . تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٩٩ - ٢٠٥ . مآثر الاناقة : ١١٠/١ - ١١٢ ، ٣٤٢/٢ - ٣٤٤ . المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ؛ ٢٨٤ - ٢٨٥ .

أما في الولايات فكانت سياسة معاوية قائمة بصورة خاصة على اصطناع الأنصار والتعاون مع شخصيات من ذوي الكفاءات العالية ، والخبرة في شؤون الحكم ، ولم يكن معاوية يتورع عن استعمال شتى الأساليب للوصول إلى تحقيق أهدافه ، فقد انتدب لحكم الكوفة — مركز المعارضة الشيعية — المغيرة بن شعبة الذي اشتهر بدهائه ومراوغته ، وشابهت أساليبه في الادارة أساليب معاوية، وكان زوجاً لآمنة بنت أبي سفيان ، ولم يشارك المغيرة في معارك صفين ، إنما التحق بمعاوية بعد ذلك ، وكان معه عند التحكيم،وبعد مقتل علي أرسله معاوية للتفاوض مع الحسن بن علي وحمله على الموادعة . وقد ظل منذ ذلك الوقت ركناً أساسياً من أركان النظام الأموي حتى وفاته سنة ٥٠ للهجرة / ٦٧٠ م .

وفي البصرة عين معاوية عليها زياد بن أبيه ، وكان سياسياً بارعاً وخطيباً بليغاً ، ولقد اختلف عن المغيرة بأنه كان أكثر حزماً وأصلب عوداً . قد حرص معاوية على استمالته بكل الوسائل حتى تمكّن المغيرة من تحقيق هذا الهدف فأقنعه بالتعاون مع الخليفة الأموي ، وقد اشتهر زياد بخطبته المعروفة (بالبتراء) التي القاها حين وصوله إلى البصرة حيث كانت بمثابة برنامج لسياسته التي فرضت جواً أشبه ما يكون بالحكم العرفي على أهل هذه المدينة .

وتولى شؤون مصر لمعاوية داهية آخر ، كان من أبرز المتعاونين معه في صفين ، وهو عمرو بن العاص ، ويقال أن عهداً كان قد تم الاتفاق عليه آنذاك بين الرجلين بأن تكون مصر من نصيب ابن العاص وذلك لقاء مناصرته لقضية معاوية . هذا ويروى بأن عمراً قال : « أنا للبديهة ، ومعاوية للأناة ، والمغيرة للمعضلات وزياد لصغار الأمور وكبارها » (١) .

أما ولايات الحجاز فكانت من نصيب أقاربه من البيت الأموي ، وذلك لمكانتها وباعتبارها معقلاً من معاقل المعارضة ، سواء من بني هاشم ، أو من الشخصيات القرشية الأخرى الطامحة إلى الحكم ، والحاقدة على الأمويين ،

---

١ — تاريخ خليفة بن خياط ٢٤٧/١ . أنساب الأشراف : ٤/١/٥، ١٦، ١١٠ . الفخري : ٨٨ .

وكانت المدينة اهم مراكز الحجاز ، وغالباً ما عين معاوية عليها مروان بن الحكم ، أو سعيد بن العاص حيث كان يعزل الأول ليولي الآخر مكانه وذلك باستمرار حتّى لا يجنح أحدهما إلى الاستئثار بالسلطة وحتّى يحدث التغيير الذي يشغل الناس حيناً ويرضيهم (١) .

ولاية العهد

كانت مسألة مصير الحكم بعد معاوية تقلق باله أكثر من غيرها من مشاكل الدولة ، وكان حريصاً على أن يجد حلاً له صفة الديمومة لهذه المشكلة قبل موته ، ولم تكن تجارب الماضي ، وما عانته الدولة الاسلامية من فتن وحروب أهلية بسبب الخلافة ، تترك له مجالاً للتردد في اختيار رجل مناسب يليه ، فمنذ موت النبي والخلافات تذر قرنها بين المسلمين ، لقد اختلفوا في السقيفة ، وظل فريق منهم ساخطاً على أبي بكر ثم على عمر وقد بلغ السخط ذروته في عهد عثمان ، حيث انفجرت الفتنة الأولى التي أودت بحياة الخليفة ، وجاءت خلافة عليّ وليدة للانقسام وفريسة للتناحر حتّى كان أن استولى معاوية على السلطة ، وكان معاوية متعصباً لقريش ولأسرته من بني أمية من قريش ، فها هو يقول واصفاً أسرته « إنا على ما فينا لنعطي السائل ، ونجود بالنائل ، ولا تزال العرب غُلْبَ الرقاب ما رأوا أشياخنا على المنابر »(٢) ومعاوية الذي جهد قدر مستطاعه ليستولي على مقاليد الأمور في الدولة الاسلامية ، ما كان بأي حال من الأحوال ليترك الأمور تخرج من يد أسرته ، لذلك ابتعد عن مسلك عمر في الأخذ بمبدأ الشورى ، وقرر أن يعتمد مبدأ التوريث ، وكان اعتماد هذا المبدأ أمراً ليس بالسهل تنفيذه ، ولعل مما كان يشجع معاوية اخلاص جند الشام له ، وقوة هذا الجند ونوع زعاماته ، ثم الأحوال السياسية للعرب في زمانه ، فهؤلاءالعرب كانوا قد تطوروا مراحل كثيرة في التفهم السياسي واعتماد المبادىء ، فقد

١ – أنساب الأشراف ٢٥/١/٤ . تاريخ خليفة : ٢٧٦/١ .
٢ – أنساب الأشراف ١٧/١/٤ – ١٨ .

قبلوا توريث أبي بكر لعمر بن الخطاب ، كما قبلوا حصر عمر للسلطة في يد ستة رجال ، ثم رضوا بمعاوية الذي نال السلطة بقوة السلاح ، وكان فريق من هؤلاء العرب ، وهم جل جماعة المعارضة ، قد ورّثوا الحسن بن علي بعد وفاة أبيه .

لم يقرر معاوية الأخذ بمبدأ التوريث فقط بل قرر أن يجعل الوريث ابنه يزيد دون غيره من أفراد الأسرة الأموية ، وكان يعرف حين قرر هذا ما ينتظره من معارضة داخلية أموية ثم من معارضة شديدة من كبار أبناء الصحابة الذين كان لا يزال الطموح الى الخلافة يراودهم وكانوا ينتظرون الوقت المناسب لتحقيق غاياتهم ، واستطاع معاوية بحنكته الشهيرة أن يخلق الجو الملائم من أجل إعداد ابنه يزيد ليكون خليفة له ، على أن ما يلفت النظر في هذا المجال أن معظم المصادر التاريخية تتحدث عن بيعة يزيد بولاية العهد وكأنها من صنع المغيرة بن شعبة الذي زيّن لمعاوية هذا الأمر ، حتى يبقيه في منصبه كعامل على الكوفة (١). والواقع أن المغيرة رغم هذا الدور المعزو له ورغم الدور الذي قام به في أخذ البيعة ليزيد ، فان أصل الفكرة كانت لمعاوية ذلك أنه منذ أن استقر له الأمر في الشام كان شديد الاهتمام بتربية ولده فأشركه منذ وقت مبكر في الصوائف وفي تحمل المسؤوليات الجسام ، حتى أنه وضعه على رأس الحملة الكبرى التي أرسلها لفتح القسطنطينية سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م . وكان الإعداد الضخم لهذه الحملة والدعاية الواسعة التي أحيطت بها ، قد أعطاها أهمية تفوق سائر الحملات التي شهدها عصر هذا الخليفة ، ولا شك أن معاوية كان يرمي من وراء تسلم ابنه قيادة حملة عظيمة مثل هذه ، إظهاره بمظهر القائد صاحب القدرات العسكرية وجعله الرجل المنتظر لاستلام شؤون الحكم بعد غياب أبيه ، وفي نفس الوقت كان يريد أن يزيل الصورة التي تكونت في أذهان الناس ، وهي التي كانت تظهر يزيداً خليعاً متهتكاً ، كل همومه الانصراف الى اللهو والصيد ومعاقرة الخمرة .

---

١ – أنساب الأشراف : ٤/١/١٧–١٨ .

وعندما حان الوقت أباح معاوية برغبته في إعلان يزيد ولياً لعهده ، فتداول الناس هذا الأمر في بلاط الخليفة وتجاذبوه بين التأييد والاستغراب ، وقامت الغالبية من أهل الشام وباركته وتحمست له ، لكن المشكلة لم تكن في الشام ، وإنما كانت في موافقة الأمصار ، حيث كان يتجمع الناقمون على حكم معاوية، والمتطلعون إلى الخلافة بعد وفاته .

وكان المغيرة بن شعبة أول المؤيدين لدعوة معاوية حيث أخذ يروّج لها في الكوفة حتى تمكن من استمالة عدد من أهلها عن طريق المال ، وأقنعهم بالذهاب إلى دمشق لبيعة يزيد .

أما زياد فقد جاء تأييده مصحوباً ببعض التحفظ ، ونصح معاوية بالتّريث، وفي نفس الوقت استجابت بقية الأمصار لرغبة معاوية وأخذت وفودها تتوالى على دمشق ، التي شهدت بهذه المناسبة احتفالات أدبية ، شارك فيها الخليفة وتبارى فوق منبرها الشعراء والخطباء،ولكن بلداً واحداً افتقدتها هذهالاحتفالات ولم تشارك وفودها البيعة ، وهي الحجاز ، فاضطر معاوية أن يذهب اليها بنفسه . حيث أن تأييد الحجاز كان بنظره هو الأهم ، لأنه مهد الاسلام وموطن العروبة وفيه المدينة العاصمة الأولى ومكة وكعبتها ، وكانت مكة والمدينة مكان لقاء ومنتجع رجالات الاسلام من الصحابة وأبنائهم ، وقد رفض غالبية هؤلاء البيعة حين باحثهم بها مروان بن الحكم – عامل معاوية على المدينة ، وكان أشد الناس رفضاً ثلاثة من كبار شخصيات المدينة وهم : الحسين بن علي ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وهنا قرر معاوية الذهاب بنفسه إلى الحجاز .

وتوجه نحو المدينة ومعه ألف أو ألفا فارس ، فلما وصلها ألقى خطبة في المسجد ، أشاد فيها بفضائل يزيد وأهليته للخلافة ، وأراد في البدء أن يصل إلى إقناع الحجازيين بالحسنى ، فتساءل عن الثلاثة الكبار فقيل له انهم خرجوا إلى مكة ، فلحقهم اليها واجتمع بهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون ابن الزبير المتحدث باسمهم ، فحَاجَّهُ في عدم شرعية البيعة ليزيد ، واتهمه بالخروج على سنة الأوائل من الخلفاء ، ولما لم يصل معاوية إلى إقناعهم قال لهم :

« إني أحببت أن أتقدم اليكم ، إنه أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيكم فيقوم القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك فأصفح ، فاني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحد منكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » . ثم جمع الناس في المسجد وخطب فيهم قائلاً : « إن هؤلاء – ويقصد بهم الثلاثة الممتنعين – قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله » .

وهكذا تمت البيعة ليزيد في دمشق وبقية الأمصار ، ولقد جاء بعضها طوعاً وكرهاً ، كما زعم معاوية أن البعض الآخر قد بايع ، لكن في الحقيقة كان قد ظل رافضاً مؤثراً الصمت ليفجر غضبه في الوقت المناسب . وكان معاوية – وهو السياسي البعيد النظر – يدرك جيداً معنى معارضة الثلاثة الكبار المعتصمين في مكة لتولية ابنه يزيد ، ولعل هؤلاء كانوا هاجسه الوحيد ، حتى انه وهو على فراش الموت اسرّ بمخاوفه هذه الى ولده قائلاً : « إني لست أخاف عليك من قريش إلاّ ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما عبدالله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به ، فاصفح عنه فان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وأما الذي يجثم جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا مكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان فعلها بك فظفرت عليه فقطعه إرباً إرباً(١) » .

أعمال التوسع العسكرية

اتسعت الدولة العربية زمن معاوية حتى وصلت أطرافها في المشرق إلى هراة وكابل وبخارى ، وبلغت الفتوحات في المغرب شواطىء المحيط الأطلسي ،

---

١ – أنساب الأشراف : ٨٣/١/٤ ، ١٢٣ – ١٢٤ ، ١٢٧ . الفتوح : ١٧٥/١ و – ١٨٠ ظ . الطبري : ٣٠١/٥ ، ٣٠٧ . تاريخ الخلفاء : ١٥٣ – ١٥٩ . الأخبار الطوال : ٢٢٥ – ٢٢٧ . مروج الذهب : ٣٦/٣ – ٣٨ . الامامة والسياسة : ١٧٥ – ١٩٢ . تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٩٦ – ١٩٩ .

أما على الجبهة البيزنطية فقد استمرت الحرب دونما انقطاع ، وباتت تدعى بحرب الصوائف والشواتي ذلك أن العرب كانوا قد بدأوا بوضع نظـــام خاص لحملاتهم هذه ، بحيث كانت الحملات تخرج بانتظام في الشتاء ، ثم في الصيف ، منذ فجر الخلافة الاموية واستمرت بعد ذلك حتّى قيام دولة بني العباس ، وكانت هذه الحملات حملات تدريب للجند الشامي ولم تكن أبداً للتوسع ، ولم يكن معاوية رجل دولة للسياسة والإدارة فقط بل كان رجل حرب وغزو ، فمنذ توطده في الشام نشطت الحملات البرية كما بنى معاوية اسطولاً فتح به قبرص وغيرها من جزر المتوسط ، وحقق به النصر الشهير على البيزنطيين في معركة ذات الصواري سنة ٣٦ هـ / ٦٥٧ م ، وكان معاوية آنذاك لا يزال والياً على الشام ، وقد اضطر معاوية إلى مهادنة البيزنطيين إبان محنة الحرب الأهلية بينه وبين عليّ ، حيث انصرف الى معالجة هذه الأزمة بكل جهوده ، فعقد هدنة مع امبراطور القسطنطينية سنة ٣٦ هـ / ٦٥٧ م ، خشية أن يغتنم الفرصة فيقوم بشن هجوم على الشام ، وما أن فرغ من أحداث صفين والمشاكل الداخلية التي نشأت بعد اعلان خلافته حتّى نقض الهدنة وعاود نشاطه العسكري المعتاد منذ ولايته على الشام ، وقام بتقوية اسطوله لأجل مهمات أكبر .

وأهم ما يميز العلاقات العسكرية مع البيزنطيين في هذه الفترة الحملة الكبرى التي سيّرها معاوية لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد ، وقد ضمت بين صفوفها الصحابي أبي أيوب الأنصاري مع عدد من أبناء الصحابة. وجاءت هذه الحملة تعبيراً عن سياسة معاوية التوسعية الرامية إلى دك عاصمة البيزنطيين والاستيلاء عليها ، وجاءت من ناحية أخرى نتيجة لنجاح حملات الصوائف والشواتي التي تمكن العرب من خلالها سبر غور أعدائهم والوقوف على قوتهم ، وفوق هذا كله هدف معاوية من هذه الحملة تحقيق دعاية كبيرة لابنه مرشحه لولاية العهد ؛ وتعويد أبناء الصحابة وغيرهم من شخصيات الاسلام على العمل تحت قيادته. هذا ولن أتوسع هنا في سرد تفاصيل أخبار الحملات العسكرية التي قامت في عهد معاوية بل سأكتفي بالاحاطة بالملامح العامة دون التوغل في التفاصيل .

ذلك أن الغاية هنا إبراز الاهتمامات العسكرية لمؤسس الدولة الأموية ثم الاشارة إلى أهم منجزات عصره الحربية .

وفيما يتعلق بشأن المصير التي آلت إليه حملة القسطنطينية فإنه محاط ببعض الغموض ، ورغم ذلك يستطيع الباحث أن يقوّم مدى النجاح الذي حققته ؛ فمن المؤكد أن العرب حاصروا القسطنطينية من الجهة الآسيوية وتمكنوا خلال الحصار من الاستيلاء على أحد المواقع المهمة في جنوبي غربها حيث ظل في أيديهم لسنوات عدة فيما بعد ، لكن على العموم لم تحقق الحملة الهدف الذي ابتغاه معاوية من ورائها وهو فتح العاصمة البيزنطية ، فلقد أخفق العرب في اختراقها بسبب منعتها ومتانة أسوارها ، ولعدم قدرتهم على تحمل الأحوال المناخية والعواصف التي فتكت مع النار الاغريقية بسفنهم ،وهذه النار هي اختراع حربي يرى البعض أنه ظهر آنئذ على يد أحد المهندسين الاغريق واسمه (كالينيكوس) ، ولهذا أمر معاوية بانسحاب الجيش المرابط حول اسوار القسطنطينية، فأخفقت بذلك أولى محاولات العرب لاختراقها ، واصيب الأسطول العربي بخسارة كبيرة فانكفأ نحو السواحل الشامية ، وكادت السيطرة على البحر المتوسط تعود للاسطول البيزنطي (١) .

ولم تكن الحروب مع البيزنطيين هي كل نشاط عصر معاوية العسكري ، وانما كانت هناك انجازات عظيمة على جبهات أخرى من حدود الدولة ، لا سيما في الجانب الغربي في شمال أفريقية ، وهي بلاد كان العرب يسمونها بالمغرب .

هذا وسنعرض لأخبار النشاط العسكري في عهد معاوية في شمال أفريقية في

---

١ – تاريخ خليفة : ١٦٦/١ ، ٢٤٨ . فتوح البلدان : ١٥٧ – ١٦٢ . الأخبار الطوال : ١٣٩ . تاريخ اليعقوبي : ١٦٥/٢ – ٢٤٠ . الطبري : ٢٥٨/٤ – ٢٦٣ ، ٢٨٨/٥ – ٣٠٠ . أنساب الأشراف ٧٠/١/٤ . الفتوحات العربية الكبرى : ٥١٢ – ٥٥٧ ، ٦٢٩ – ٦٣٤ .
إن أفضل دراسة ينصح بالعودة لها حول النار اليونانية هي :
A History of Greek Fire and Gunpowder by. J.R. Partington.

القسم المخصص للمغرب . وأما النشاط الحربي على الجبهة الشرقية ، فكان إلى حد ما محدوداً وذلك إذا ما قيس بنشاط الجبهات الأخرى ذلك أنه اقتصر فيه الأمر على عدد من الحملات البسيطة أرسلها ولاة العراق الذين كانوا يسيطرون على المقاطعات الشرقية من الدولة ، وقد توغلت إحدى هذه الحملات في مطلع خلافة معاوية حتى وصلت إلى مشارف لاهور ، كما سار جيش آخر باتجاه الحدود الشمالية الشرقية لخراسان حيث اصطدم العرب لأول مرة بالعناصر التركية المرابطة في هذه المناطق ، وستستأثر هذه الجبهة باهتمام الخلفاء الذين سيأتون بعد معاوية أكثر من سواها .

* * *

الحكم الأموي بعد معاوية وأهم حركات المعارضة ضده

حركات الشيعة وثوراتهم

حين بويع معاوية بالخلافة لم يدين له سكان الأمصار الإسلامية كلهم بالطاعة بل أرغم غالبيتهم على ذلك ارغاماً ، وكان هناك دائماً قوى سياسية لها أهميتها تناوىء الحكم الجديد وتسعى لخلق المتاعب له بين الحين والآخر ، وإذا ما أردنا أن نرسم صورة واضحة للموقف السياسي في مطلع الخلافة الأموية نجد أن قوى ثلاثاً كن آنئذ في حلبة الصراع من أجل السلطة ، اثنتان منهما تتزعمان المعارضة ضد واحدة استحوذت على السلطة ، ولما كان لكل واحدة من هذه القوى مؤيديها ، فقد غدت بمثابة أحزاب كانت هي : حزب السلطة من بني أمية ومؤيديهم في الشام والأمصار الأخرى ثم حزب شيعة آل البيت الذي كان يوالي علياً وأولاده ثم بقية بني هاشم آل النبي ، ويحقد على البيت الأموي الذي اغتصب حقه في الخلافة ، وقد نشأ هذا الحزب أيام النبي ، وتطور بعض التطور أيام الخلفاء الراشدين ، ولاقى انتشاراً أيام علي وبعده في العراق والاقاليم الشرقية ، وأخيراً حزب الخوارج الذي اتفق مع الشيعة في عدائه للأمويين مع أنه في الأصل عدواً للفريقين .

ولم تكن معارضة هذين الحزبين تبغي تقويم اعوجاج السلطة، بل أرادت تدميرها لأنها اعتبرتها مغتصبة غير شرعية لذلك كان الوصول الى السلطة بالقضاء على البيت الاموي هو الهدف البارز لكل منهما ، ويمكن أن نضيف إليهما أحزاباً كانت أقل شأناً منهما لكنها نقمت مثلهما على الأمويين مثل تحزبات بعض القبائل في العراق التي لم تنظر بعين الارتياح الى نقل العاصمة السياسية وبيت

المال من الكوفة إلى دمشق ، وتفضيل اهل الشام عليها في العطاء ، ورجالات الفئة المتدينة من المسلمين التي وجدت في خلافة معاوية انتصاراً للارستقراطية القديمة التي كان لها شأنها الكبير في الجاهلية ، فعادت تسيطر من جديد تحت ستار الاسلام ، وقد انتقدت هذه الفئة أسلوب الأمويين في الحكم الذي قامت ركائزه على أساس العصبيات وإثارة الأحقاد القديمة ، إنما كان نقدها في كثير من الأحيان سلبياً .

ومع الأيام تجمعت عوامل السخط ضد النظام الأموي ، وأججت نارها الأحزاب السياسية حيث أخذت تكشف عن عدائها الصريح للأمويين وتبث دعوتها في أقاليم الدولة المختلفة ، وكان أشد هذه الأقاليم معارضة وأكثرها ثورة هو العراق الذي شعر بضياع مركزه بعد انتصار معاوية وانتقال زعامة العالم الاسلامي ، لذلك ازدحم هذا الاقليم بالمناوئين للحكم الأموي من شتى الأحزاب ، وكانت تحركهم عوامل مختلفة ، ولكنهم كانوا جميعاً يتفقون على هدف واحد هو إزالة السلطة الأموية .

هذا وان الظروف التاريخية التي مرّ بها العراق قد وضعته في مكان متفوق حضارياً على الأقطار الأخرى ، فقد كان بحكم موقعه الجغرافي أسبق الأقطار إلى صنع الحضارة ، ثم التأثر مع التأثير في حضارات العالم القديم سيما اليونانية والفارسية ، كما أن العرب العراقيين كانوا قد عرفوا نوعاً من الحكم السياسي قبل الاسلام بقيام مملكة الحيرة التي كانت برغم تبعيتها لامبراطورية الفرس تتمرد بين الحين والآخر على هذه التبعية وتتطلع إلى الاستقلال ، حتى أنها اعتنقت ديانة البيزنطيين ،اعداء الفرس ربما تعبيراً عن هذه النزعة الاستقلالية ، وبعد ظهور الاسلام وامتداد حركة الفتوح إلى العراق قابل عرب الحيرة الفاتحين الجدد ببعض التحفظ وآثروا دفع الجزية مقابل احتفاظهم بمعتقداتهم الدينية ، ولا بد من القول أن هذه النزعة الاستقلالية ، والشعور بالتفوق الحضاري كانا من أبرز العوامل التي حركت الصراع الاقليمي بين الشام والعراق عبر آماد طويلة ، ولكنه وصل الى الذروة إبان الحكم الأموي .

وعلى ذلك كان العراق هاجس معاوية الدائم وأهم الأقطار التي وجه اليها عنايته الخاصة فاختار لادارته أعظم الشخصيات . وكان معاوية بما لديه من خبرة واسعة في عالم السياسة ، يعرف جيداً أحوال كل بلد والأسلوب الذي يناسبه ، وكانت حنكته وراء نجاحه في إقرار الأمور في سائر الأقاليم . أما العراق فقد بقي خارج هذا الاطار وأخفقت سياسة اللين التي سار عليها في بداية حكمه في اكتساب ولاء العراقيين وثقتهم ، فرأى أن يأخذهم بالعنف دون اسراف ، ولهذا كان اجتهاده في استمالة زياد بن أبيه المعروف بشخصيته القوية خطوة حاسمة لجلب الاستقرار إلى هذه الولاية واخضاعها ومنع عناصر الثورة فيها من التحرك .

ولم يكن ذلك صعباً على زياد المدعوم بمعاوية وجند الشام فقد نجح في إسكات المعارضة طوال المدة التي حكم فيها وإن كان نوعاً من السكوت المتململ الذي لم يلبث أن انفجر بعد موته ، ذلك أن العراق الذي كان يمثل قاعدة السخط على الحكم الأموي،وكانت قيادته بعيدة عنه لأنها كانت متمثلة بالحسن ثم الحسين اللذين عاشا في الحجاز بعد تنازل الأول لمعاوية ، وكان هدف معاوية الأساسي العمل على منع الاتصال بين القاعدة والقيادة وذلك حتى يتمكن من ضرب الطرفين كل على حدة .

ولقد كان وجود الحسن في المدينة مصدر قلق لمعاوية ، فهو منافسه الأول على الخلافة ، كما أن بقاءه حياً كان يتعارض مع مخططاته الرامية إلى تحويل الخلافة إلى ملك وراثي في البيت الأموي ، يضاف إلى ذلك أنه كان بين الرجلين عهوداً ومواثيق تنص على أن تكون لمعاوية الخلافة ما كان حياً فإذا مات فالأمر للحسن ، وسعى معاوية للتخلص من الحسن ، وهكذا جاءت وفاته سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م في ظروف غير طبيعية تشير إلى أن معاوية كان وراء ذلك، حيث قام بتحريض زوجة الحسن – جعدة بنت الأشعث – ودفعها إلى دس السم

له بعد ان اغراها بالمال ووعدها بالزواج من ولده يزيد (١) .

وبعد موت المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م فوضت لزياد السيادة المطلقة على العراق ، وأصبحت المجابهة مباشرة مع الحزب الشيعي بانتقال مركزه إلى الكوفة . وجاءت تصفية أحد زعمائها الكبار وهو حجر بن عدي تدليلاً على سياسته الرامية إلى اجهاض حركة المعارضة الشيعية بالتخلص من زعمائها بمختلف الطرق ، وكانت هذه السياسة مبنية في الواقع على دعامتين أساسيتين هما : الارهاب ، وضرب القبائل ببعضها ، وقد نجح في ذلك فعلاً لا سيما في سياسة التمزق وبعثرة القوى ، وقد تحدث (فلهوزن) عن سياسته مع القبائل فبين أن زياداً قد عرف كيف يخضع القبائل بأن يضرب احداها بالأخرى وعرف أيضاً كيف يجعلها تعمل من أجله » (٢) .

يزيد بن معاوية ومصرع الحسين بن علي

مات معاوية سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م . فتولى ابنه يزيد الخلافة بعد أن مهد له أبوه الأرض وروض الناس ، ولما كتب الى الأمصار بتوليته بايعه الجميع ما عدا عدد من أبناء الصحابة في الحجاز كان أبرزهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وهما من النفر الذي رفض بيعته في السابق ، وفعل معهما معاوية ما أتينا على ذكره سابقاً .

وكما كان معاوية قد توقع بتحذيره يزيد قبل موته من هذين الرجلين ، ما لبثت أن تحققت توقعاته حيث سارع الحسين بالخروج على يزيد ولحق به بعد وفاته ابن الزبير . فالحسين مع التزامه بالبيعة لمعاوية وهو الموقف الذي حدده

---

١ – تاريخ خليفه : ٢٤٦/١ . تاريخ الخلفاء : ١٢٧ . الأخبار الطوال : ٢٢١ . ابن الأعثم : ١٧١/١ و – ١٧٣ و . تاريخ اليعقوبي : ٢٢٥/٢ – ٢٢٨ . مروج الذهب : ٥/٣ – ٧ . مقاتل الطالبيين : ٤٦ – ٧٧ . تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٩٢ .

٢ – أنساب الأشراف : ٢١١/١/٤ – ٢٣٥ . تاريخ خليفه : ٢٥١/١ . الطبري : ٢٥٣/٥ – ٢٨٥ . اليعقوبي : ٢٣٠/٢ . مروج الذهب : ١٢/٣ . ابن الأعثم : ١٧١ . لحجر ترجمة وافية في كتاب بغية الطلب لا بن العديم . فلهوزن : ١١٧ – ١٢٢ .

الحسن ، صاحب الحق الأول في الخلافة ، كان ساخطاً بينه وبين نفسه على اغتصاب معاوية السلطة من أسرته ، حريصاً على إظهار هذا الحق في كل مناسبة ، وجاء رفضه لولاية يزيد في حياة أبيه منسجماً مع طموحه وأهدافه في الوصول إلى الحكم ، وبعد موت معاوية ومجيء يزيد ، رفض الحسين اعلان البيعة وترك المدينة إلى مكة فكان بذلك أول المعارضين ، ذلك أنه لم يكن بينه وبين الخليفة الجديد ما كان بين الحسن ومعاوية من عهود ومواثيق ينبغي الالتزام بها .

وجاء استلام يزيد لمهام الخلافة ، صدمة عنيفة للشيعة في العراق وسواهم الذين عانوا وطأة الارهاب والظلم في أيام معاوية ، فمجيء يزيد كان يعني استمراراً لهذا الاسلوب من الحكم ، لذلك ما لبثت نيران الثورة المكبوتة في النفوس أن تفجرت بعد موت زياد تحركها ذكريات أليمة تزيدها اشتعالاً ، من موت الحسن مسموماً ، إلى قتل حجر بن عدّى ، إلى سقوط العديد من الضحايا في البصرة والكوفة ، ثم جاءت تولية يزيد لتضعهم في موقف لا مجال فيه للتّردد ، موقف كان بنظرهم ثورة على الظلم واللاشرعية ، ولوضع الحقوق في نصابها ، وكانت ثورة العراق في الكوفة بحاجة إلى قيادة ورنت الأبصار نحو الحجاز حيث الحسين بن علي .

وهكذا قام اتصال بين أهالي الكوفة والحسين ، إثر اجتماع عقده الكوفيون في منزل سليمان بن صُرد وذلك بعدما بلغهم موت معاوية ، فاتفقوا على أن يكتبوا للحسين من أجل تسليمه الأمر ، والواقع أن الكوفة بدت حينذاك وكأنها بدون سلطة ، تنتظر بلهفة مجيء الحسين الذي توالت عليه كتب أشرافها التي بلغت عدداً كبيراً تجاوز الخمسين ومائة وكانت كلها تحمل الالحاح بقبول الدعوة ، والتعجيل في القدوم ، ومن أهم الرسائل تلك التي كتبت على لسان أهل الكوفة بعد انتهاء اجتماعهم في بيت سليمان بن صُرد وجاء فيها : ... أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك من قبلك ، الجبار العنيد الغشوم الظلوم ، الذي ابتز هذه الأمة وعصّاها ، وتأمر عليها بغير رضاها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى أشرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود .

ثم إنه قد بلغنا أن ولده اللعين قد تأمّر على هذه الأمة بلا مشورة ، ولا اجماع ولا علم من الأخيار ، ونحن مقاتلون معك ، وباذلون أنفسنا من دونك ، فأقبل إلينا فرحاً مسروراً ، مأموناً مباركاً ، سديداً وسيداً ، مبراً مطاعاً ، إماماً خليفة علينا ، مهدياً ، فإنه ليس علينا إمام ولا أمير إلاّ النعمان بن بشير ، وهو في قصر الامارة وحيد طريد ، ليس يجتمع معه في جمعه ، ولا يخرج معه إلى عيد ، ولا يؤدى إليه الخراج ، يدعو فلا يجاب ، ويأمر فلا يُطاع ، ولو بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه عنا حتّى يلحق بالشام ، فاقدم إلينا ، فلعل الله عز وجل أن يجمعنا بك على الحق ... »

قرأ الحسين كتب أهل الكوفة ، ورأى من واجبه الاستجابة لمطاليبهم ، وأخذ بمشاورة أهله وأصدقائه ، فنصح بعدم الذهاب والتريث ، وبعد أخذ ورد قرر ارسال ابن عمه مسلم بن عقيل كيما يوطد له الأمور ويعد العدة لقدومه ، وذهب مسلم نحو الكوفة وما أن دخلها حتّى لاقى نجاحاً كبيراً ، حيث التف حوله أهلها خاصة الشيعة، ومما ساعد على نجاح مهمته أن والي الكوفة حينذاك النعمان بن بشير كان مستضعفاً ، فلم يبادر الى الوقوف في وجه مسلم وضرب زعماء هذه الحركة، لكن هذا الموقف لم يعجب رجال الدولة في دمشق، فأشاروا على يزيد بعزله وتعيين عُبيد الله ابن زياد والي البصرة مكانه .

وكان ابن زياد بشخصيته الجبارة أكثر رجالات يزيد جدارة بإحباط تمرد الكوفيين ، لذلك كلفه يزيد بهذه المهمة ، رغم ما كان يكنه له من العداوة ، وقدم ابن زياد الى الكوفة ودخلها ملثماً ليخفي أمره عن الناس ونجح في التمويه، حتّى أن البعض ظنه الحسين ، وفي تلك الاثناء كان مسلم يتابع مهمته في الكوفة، فلما ضمن بيعتها كتب اليه يستحثه بأن يسرع في القدوم اليها ، وكان الحسين قد قرر رغم معارضة المخلصين من أهله ، الشخوص إلى الكوفة بعد أن توفرت قناعات بهذه المعطيات . فبادر فوراً إلى مغادرة مكة حيث كان معتصماً منذ رفضه البيعة ليزيد ، وترك فيها وراءه خارجاً آخر هو عبد الله بن الزبير الذي كان يشجعه على اتخاذ قراره في الذهاب الى العراق ، وفي الحقيقة كان

موقف ابن الزبير نابعاً من مصلحته الخاصة ومطامحه الذاتية ، فلم يكن تشجيعه للحسين بالخروج تأييداً لثورته ، لكنه كان حريصاً على أن يخلو له الجو في الحجاز ، وحريصاً على اختفاء الحسين من الوجود لأنه كان يطمح أيضاً إلى الخلافة ، وكان وجود الحسين إلى جانبه ثم في الحياة يفسد عليه هذا الطموح ، وكان الحسين يعلم جيداً ما وراء تشجيع ابن الزبير له ، فقد قال يوماً لبعض جلسائه : « ان هذا – وقصد ابن الزبير – ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من أن اخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر شيء معي ، وان الناس لم يعدلوه بي فود اني خرجت منها لتخلو له » .

ومع هذا قرر الحسين السفر على أنه ما كاد ليأخذ الطريق إلى العراق حتى كان الموقف في الكوفة قد بدأ يتخذ شكلاً آخر لتتطور الأحداث فيه لغير صالحه ، ذلك أن ابن زياد كان قد نجح في ارغام الناس على التخلي عن مسلم وانتهى الأمر بقتله ، وحين بلغ الحسين القادسية وافته الأخبار بمصرع مسلم وانقلاب الموقف ضده ، وعلم في نفس الوقت بوجود جيش أموي قوامه عشرين ألفاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص يتقدم لاعتراضه والقاء القبض عليه وعلى جماعته الذين لم يتجاوز عددهم التسعين ما بين رجل وامرأة وطفل وأمام هذه الأخبار آثر الحسين المضي في سبيله ، وعندما اعترض سبيله ، فضل الشهادة على الاستسلام الذي عرض عليه ، ونشبت معركة غير متكافئة قرب كربلاء قاد الحسين فيها نفسه إلى مصرع بطولي كان له من النتائج الشيء الكثير المستمر .

وهكذا انتهت بالاخفاق أول حركة ضد خلافة يزيد قام بها أشد الأحزاب تطرفاً في عدائه للحكم الأموي وهو الحزب الشيعي ، ولكن اخفاق هذه الثورة لم يؤد إلى ضعف هذا الحزب – كما توقع الأمويون عند ابادتهم لزعمائه في كربلاء – بل على العكس من ذلك كانت حركة الحسين باكورة ثورات هزت

النظام الأموي من أساسه وجعلته يعيش اضطرابات متلاحقة قام بها الشيعة وغيرهم ، حتى انهار صرحه بقيام الثورة العباسية (١) .

حصاد كربلاء

ثورة التوابين

كانت حركة التوابين أول ردة فعل مباشرة قام بها شيعة الكوفة لما حدث في كربلاء، فبعد مقتل الحسين شعر زعماء هذه المدينة بفداحة الذنب، وتجرعوا مرارة الندم ازاء موقفهم المتخاذل ، وتقاعسهم عن نصرة الذي دعوه ليتولى أمرهم، ثم تخلوا عنه وتركوه وحيداً أمام مصيره . «ورأوا انه لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلاّ قتل من قتله، أو القتل فيه»، وتداعت عناصر الثورة من كافة أنحاء العراق، وأخذت تعقد الاجتماعات ، « ولقي الشيعة بعضهم بعضاً بالتلاوم والندم على ما فرطوا فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وأنهم دُعوا إلى نصرته فلم ينصروه بعد أن كانوا كاتبوه ، وعلموا أنه لا يغسل عنهم الاثم والخطأ إلاّ أن يخرجوا فيقتلوا من قتله ، ويأخذوا بدمه حيث كان من مشارق الأرض ومغاربها » .

ولاقت الدعوة إلى الأخذ بثأر الحسين نجاحاً كبيراً ، غير أنه حدث أن وصل إلى الكوفة قادماً من الحجاز المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فأعلن أنه أرسل من قبل محمد بن الحنفية ، أخي الحسين ووصيه للدعوة لإمامته وللثأر

---

١ ـ أنساب الأشراف : ١٠٢/١/٤ – ١٠٣ ، ١/٢ – ١٦ . تاريخ خليفة : ٢٧٨/١ – ٢٨٤ . الفتوح : ١٨٧/١ و – ٢٣١ ظ . الأخبار الطوال : ٢٢٧ – ٢٦١ . الطبري : ٤٠٠/٥– ٤٧٠ . تاريخ الخلفاء : ١٦١ – ١٩٥ . اليعقوبي : ٢٤٣/٢ – ٢٤٧ . مقاتل الطالبين : ٧٨ – ١٢٢ . مروج الذهب : ٧٥/٣ – ٨١ . الفخري : ٩٣–٩٥ . تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٠٥ – ٢١٠ . البداية والنهاية : ١٥٠/٨ .

للحسين ، وأثر المختار كثيراً على حماس الناس وكاد أن يشل حركتهم ، وكادت الفتنة أن تقع بينهم فتمزق صفوفهم وترمي بأسهم بينهم ، ولكن تم التوصل إلى ما حد من ذلك ، حيث أن المختار عدل عن خطته وأخذ يشجع عناصر الثورة لمغادرة الكوفة حتى يخلو له الجو .

وصارت الظروف السياسية في تلك الفترة تساعد على التحرك وتشجع على المبادرة بالثورة فقد كان يزيد قد مات دون وريث قادر على الحكم وتصدع البيت الأموي ، وتبعثرت القوى المساندة للدولة ، وتعمق في الوقت نفسه الصراع القبلي ، واتخذ شكلاً خطيراً سيما بعد اعلان ابن الزبير نفسه خليفة في الحجاز ، فانحازت القبائل القيسية إلى جانبه ، بينما ساندت القبائل اليمانية على رأسها كلب النظام الأموي ... وزاد في تحرّج الأوضاع في دمشق وفاة معاوية بن يزيد الذي خلف أباه في ظروف غامضة ، وبذلك شغر العرش الأموي ، واحتارت الأسرة الأموية ، وكادت تسلم الأمر لابن الزبير .

وأخذت الولايات في الدولة تتخلص من ولائها للبيت الأموي وتتجه إلى بيعة ابن الزبير ، وكاد الأمر يخرج من يد بني أمية ، لولا أن صمد زعماء كلب ، وعقدوا مؤتمراً في الجابية بايعوا فيه مروان بن الحكم — وكان أحد شيوخ بني أمية ، من غير السفيانيين — واستطاع مروان قيادة القبائل اليمنية إلى النصر في مرج راهط على القبائل القيسية التي كانت بزعامة الضحاك بن قيس الفهري حليف ابن الزبير ، لكن اذا كان النصر الذي حققه مروان في مرج راهط قد أبقى على الخلافة في البيت الأموي ، فان الدولة كانت ما تزال تتطلب جهوداً عظيمة من أجل اعادة وحدتها ، فعبد الله بن الزبير كان قوي الجانب في الحجاز ، وأخوه مصعب صار سيد البصرة ، أما الكوفة فقد شهرت هي الأخرى — كما أسلفنا — سلاحها وانتفضت في وجه السيطرة الأموية على يد جماعة المطالبين بدم الحسين .

وعندما انتظمت هذه الحركة تزعمها خمسة من رؤوس الشيعة وهم : سليمان بن صُرد الخُزاعي ، والمسيب بن نجيه الفزاري ، وعبد الله بن سعد بن نفيل

الأزدي ، وعبدالله بن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي . وكانت دعوة هؤلاء قد بدأت سراً في أعقاب مقتل الحسين ، فاجتمعوا في منزل سليمان بن صُرد ، وتناوبوا على الخطابة ، معلنين تصميمهم على الأخذ بثأر الحسين مهما كلف الأمر ، وجعلوا ابن صُرد زعيماً لهم ، وتجمعت عناصر الثوار ، وعسكرت قرب الكوفة بقصد التحرك نحو بلاد الشام ، لقتل عبيد الله بن زياد ، وقبل التحرك اتجهوا نحو قبر الحسين وهم يقولون : « اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا وقد أسأنا وأخطأنا فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ... اللهم إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، هذا وإن إعلان التوبة هذه قد منح عناصر الثورة اسمهم حيث عرفوا بالتوابين ، وعندما وصلوا إلى قبر الحسين أقاموا عنده يوماً وليلة « يصلون ويبكون ويتضرعون ، فنادى فيهم سليمان بن صرد بالرحيل فجعل الرجل بعد الرجل يأتي القبر فيودعه ويترحم على الحسين ، ويستغفر الله له ، ثم إنهم ازدحموا على القبر كازدحامهم على الحجر الأسود وهم يقولون :

اللهم إنا قد خرجنا من الديار والأموال ، وفارقنا الأهلين والأولاد نريد جهاد الفاسقين المحلين ، الذين قتلوا ابن بنت نبيك ، فتب علينا وارزقنا الشهادة يا أرحم الراحمين .

اللهم إنا لو نعلم أنه لو كان الجهاد فيهم بمطلع الشمس أو بمغرب القمر ، أو بمنقطع التراب لكان حقيقاً علينا أن نطلبه حتى نناله ، فإن ذلك هو الفوز العظيم ، والشهادة التي ثوابها الجنة » .

وتحرك التوابون يريدون بلاد الشام ، ولم يصغوا لعروض ونصائح أصحاب ابن الزبير .

ونلاحظ أن هدف التوابين من السير إلى دمشق كان نابعاً ليس فقط من رغبتهم في قتل ابن زياد بل من تصميمهم على محاسبة المسؤول الاول عن قتل الحسين وهو النظام الأموي ، ولعله من المناسب العودة لاعطاء فكرة موضحة عامة عن الوضع السياسي في الكوفة عشية خروج التوابين . كانت هذه المدينة

قد أصبحت تتبع إدارياً لابن الزبير ، وكان عامله عليها يقوم بمراقبة تحركات التوابين ، غير أنه لم يقف في وجههم ، لأسباب منها أنه لعل ابن الزبير كان يرى في هذه الحركة خدمة لمصالحه واستنفاداً لطاقات أعدائه الأمويين الذين كانوا قد ارسلوا حينئذ عبيد الله بن زياد في قوات كبيرة لانتزاع الكوفة واعادتها للحكم الأموي . وكان في الكوفة أيضاً داعية آخر إلى الثأر للحسين وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وكان المختار قد قدم منذ فترة إلى الكوفة كما بيّنا وأخذ يبث دعوته بين أبنائها لاستمالتهم إلى جانبه ، ولكن كثيراً من هؤلاء آثر البقاء تحت زعامة سليمان بن صُرد فانتحى المختار جانباً عندئذ بانتظار مناسبة أخرى ، وكان لا ينفك في الوقت نفسه عن مهاجمة التوابين ، واتهام زعيمهم بقصر النظر ، وعدم التبصر بأمور الحرب ، ذلك أن المختار كان يرى في حركة التوابين مجرّد مغامرة نصيبها من النجاح ضئيل ، ولعله وجد فرصته في تحقيق ما كان يصبو اليه ، بأن تؤول اليه زعامة الشيعة إذا ما أخفقت حركة التوابين فغير موقفه وأخذ يشجع التوابين على الخروج بعدما كان يعمل على تثبيط هممهم ، فكان له ما أراد ولكن إلى حين .

وفي مطلع ربيع الأول سنة خمس وستين للهجرة (٦٨٥ م) كان خروج سليمان بن صُرد مع أربعة آلاف من أصحابه إلى الأنبار ومنها أتى قرقيسياء (البصيرة حالياً في سورية) حيث رحب بهم زُفر بن الحارث الكلابي زعيم قيس المهزوم في مرج راهط ، وقدم لهم المال والمؤن ، وفي تلك الأثناء وصلت أخبار بوفاة مروان ومبايعة ابنه عبد الملك ، فأرسل هذا الأخير إلى قائد الحملة الأموية عبيد الله بن زياد أمراً يقرّه به على منصبه ويطلب منه الاستمرار في المهمة التي انتدبه اليها أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقي التوابين في عين الوردة (قرب عين العرب أو هي نفسها في سورية الآن) ، فبعث إلى سليمان أحد قواده وهو الحصين بن نمير ، طالباً منه المبايعة لعبد الملك ، لكن سليمانًا لم يكتف بالرفض بل طلب منه تسليم ابن زياد ، وخلع طاعة عبد الملك ، ومساعدته على طرد عمال ابن الزبير من

العراق وتسليم الأمر إلى آل البيت ، وكان من غير المعقول أن يوافق القائد الأموي على هذه المطالب لذلك كان لا بد من الصراع لمعركة غير متكافئة انتهت بمصرع التوابين مع زعيمهم سُليمان بن صُرد،وكان الذين نجوا منهم قلة عادت إلى العراق لتساهم من جديد في حركات أخرى .

وبمعركة عين الوردة انسدل الستار على فصل آخر من تاريخ التحرك الشيعي ضد الأمويين ، وهذه الحركة إذا ما حاولنا تقويمها ، نجد أنها كانت تفتقر إلى كثير من التنظيم واعتماد برنامج سياسي واضح ومهما يكن الأمر إنها كانت حركة انتحارية بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لا همّ للقائمين عليها سوى الانتقام للحسين أو اللحاق به ، على أنه من الانصاف أن نشير إلى أن هذه الحركة لم تقتصر في نتائجها على الشهادة في سبيل الحسين وملاحقة بعض قتلته ، وإنما كان لها تأثيراً عميقاً على تطور حركة المقاومة الشيعية ، وتعبئة الناس في الكوفة ، وتهيئتهم لجولة جديدة ضد السيطرة الأموية (١) .

ثورة المختار

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي أحد أركان الثورة التي كانت معدة في الكوفة لصالح الحسين ، ولكن ابن زياد قبض عليه فيمن قبض عليه من الزعماء الشيعيين وأودعه معهم في السجن . فعلى هذا كان المختار مرتبطاً بالنشاط الشيعي منذ البدايات ، ومنذ أن ظهر على مسرح العراق السياسي كرجل صاحب مطامح وبرامج ثورية ، ولعل هذا الارتباط يعود إلى الوسط الذي نشأ فيه وهو وسط مشبع بالاخلاص والحب لعليّ وأبنائه ، ذلك أنه عاش في أكناف عمه سعد عامل عليّ ثم الحسن على المدائن .

وبعد مقتل الحسين توسط عبد الله بن عمر لدى الخليفة يزيد من أجل اطلاق

---

١ - أنساب الأشراف: ٥/٢٠٤ - ٢١٤. تاريخ خليفة : ١/٣٣٠ . فتوح ابن الأعثم : ١/٢٥٥ و - ٢٦٤ ظ . الطبري : ٥/٥٥١ - ٥٦٩ . تاريخ الخلفاء : ٢١٦ - ٢٢٠ . مروج الذهب : ٣/١٠٠ - ١٠٤ .

سراح المختار ، فلبى رغبته وأطلق سراحه ، وغادر المختار الكوفة إثر ذلك وتوجه نحو الحجاز ، وكان عبدالله بن الزبير ، حينذاك يقاتل في مكة الجيش الأموي الذي كان يحاصرها بقيادة الحصين بن نمير ، ولم يتردد المختار– وهو الثائر على الأمويين – عند وصوله إلى مكة في الانضمام إلى جانب ابن الزبير والقتال معه ، ونظراً لبراعته ومؤهلاته ، اصبح لفترة من الوقت احد رجال ابن الزبير المقربين .

ولكن لا يجتمع سيفان في غمد واحد ، لذلك لم يستمر الانسجام والوفاق طويلاً بين الرجلين ، فلقد كان لكل منهما طموحه الواسع وأحلامه البعيدة في السلطة والنفوذ ، لذلك هرب المختار من مكة وعاد أدراجه إلى الكوفة حيث كان الجو أكثر ملاءمة لتحقيق طموحه ، سيما وأن الكوفة لم تتقبل كثيراً خلافة ابن الزبير ، وما لبثت أن انقلبت عليه ، ذلك أن المجتمع الكوفي كان بحاجة ماسة إلى حركة اصلاحية شاملة ؛ وهذه الحركة كانت لا تتحقق بنظرهم إلا بالتحرر من السيطرة الأموية ، وقيام حكم جديد يتبنى مطالبهم الاجتماعية ، ورغم أن ابن الزبير التقى مع الكوفيين في العداء لبني أمية ، إلا أنه أخفق في أن يكون البديل المنتظر ، ومن هذه الزاوية حاول المختار أن يتسلل إلى زعامة الكوفة ويستميل إليه أهلها ، لكن هذه المدينة رفضت كما بيّنا زعامة المختار لأنها كانت مرتبطة بولائها لزعيم آخر هو سليمان بن صُرد الخُزاعي .

على أن حلم المختار بتزعم شيعة الكوفة ما لبث أن أصبح قريب المنال إثر هزيمة التوابين ، ومقتل سليمان بن صُرد ، وهنا غدا هو الشخصية البديلة التي اتجه اليها الكوفيون ، وكان المختار حينذاك يبث دعوته بين الناس زاعماً انه موفد من قبل محمد بن الحنفية إلى أهل الكوفة من أجل الأخذ بالثأر لأخيه الحسين ، والدعوة لإمامته .

ولاقت دعوة المختار في البداية نجاحاً كبيراً ، لكن ما أن بدأ المختار بتقريب الموالي والعمل من أجل تطبيق بعض الاصلاحات الاجتماعية ، حتى نفر منه أشراف الكوفةوأخذوا يقاومونه بشدة، رافضين تصديق قوله بأنه موفد من قبل

ابن الحنفية ، حتى أنهم أرسلوا وفداً إلى الحجاز ليتبين حقيقة ذلك ، وعاد الوفد ومعه اجابة غير شافية .

ولم يلق المختار بالاً لمعارضة هذه المجموعة من أهل الكوفة ، فقد قويت شوكته والتفت حوله الأغلبية الساحقة من السكان، يدفعهم على ذلك ما لاقوه من عمال ابن الزبير الذين لم يختلف أسلوبهم عن أسلوب العمال الأمويين ، وازداد المختار قوة بانضمام ابراهيم بن الاشتر اليه ، وكان قائداً باسلاً عرف مثل أبيه قبله بعدائه الشديد للأمويين ، وورث عنه براعته ومؤهلاته العسكرية ، وهكذا وبسرعة عجيبة تم للمختار السيطرة على الكوفة ودخل قصر الامارة حيث جاءه الناس مبايعين له ، وكان هذا الانتصار كافياً لأن يجعل من المختار بطلاً شعبياً في نظر الكوفيين الذين حقق لهم ما كانوا يصبون اليه، ويناضلون من أجله منذ صفين .

وكانت الخطوة التالية بعد السيطرة على الكوفة ، هي تحقيق ما وعد الكوفيين به ، وهو الانتقام من قتلة الحسين ، فوجه رئيس شرطته على رأس ألف رجل لتعقب كل من كان له يد في مقتل الحسين ، حتى إذا سمع باقتراب جيش عبيد الله بن زياد وجه اليه جيشاً على رأسه أحد قواده وهو يزيد بن أنس ، ثم أعقبه بجيش آخر بقيادة ابراهيم بن الاشتر ، فجرت بين الطرفين معركة حاسمة عند نهر الخازر على بعد خمسة فراسخ من الموصل ، انجلت عن هزيمة قاسية للجيش الأموي ومقتل قائده على يد ابن الأشتر ، كما قتل الحصين ابن نمير وعدد آخر من القواد الكبار . وفي نفس الوقت كان رجاله يقومون بتصفية المسؤولين الكبار ممن شارك في موقعة كربلاء ، وبذلك أصبح المختار الشخصية اللامعة التي حظيت باعجاب الشيعة واكبارها ، في العراق وخارجه.

ولم يتردد المختار في اتباع سياسة تنطوي على كثير مـــن التودد للعلويين لا سيما لابن الحنيفة،حتى ان هذا التودد بين الرجلين أزعج عبدالله ابن الزبير فبادر إلى إلقاء القبض على ابن الحنفية ، لأن ابن الزبير وجد في المختار

وفي دعوته لابن الحنفية تهديداً خطراً ينبغي التصدي له بحزم . وقام المختار بارسال قوة إلى الحجاز أطلقت سراح ابن الحنفية . ورغم هذا كان المختار منصرفاً إلى تثبيت حكمه ، يؤثر تحاشي الاصطدام الدموي مع ابن الزبير ، ذلك رغم التأييد الذي حظي به من جانب سواد الكوفيين إلا أن تكتل الاشراف وسادة القبائل ضده وتآمرهم عليه ، بدأ يؤثر على وضعه ويزعجه خاصة عندما ترك هؤلاء الكوفة واتصلوا بمصعب بن الزبير في البصرة ، وحرّضوه على الشخوص إلى الكوفة لتخليصهم من المختار .

وكان هؤلاء الأشراف يمثلون طبقة ارستقراطية لها نفوذها التقليدي ومصالحها الخاصة ، وكان موقفهم بصفة عامة نابعاً من هذا المركز السياسي والاقتصادي الذي يتمتعون به ، لذلك كان من الطبيعي أن يثوروا على سياسة المختار الذي قضى على امتيازاتهم ، ووزع العطاء على الجميع ، حتى الموالي الذين عانوا من الحرمان طويلاً ، نالوا نصيبهم على يد المختار ، ويمكن القول أن تقريب الموالي كان محاولة أولى نحو إقامة المجتمع الاسلامي القائم على الايمان لا على رابطة الدم وشرف المحتد ولا شك أنه كانت هناك علاقة بين إنصاف الموالي وثورة الاشراف ، حيث يتضح من وصف أحدهم لسياسة المختار ازاء الموالي ، وهو وصف مشبع بالحقد والمرارة : « لقد تآمر هذا الرجل علينا بغير رضى منا ، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا » ويتضح من هذا أنه لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من جعله للموالي من الفيء نصيباً . .

وفي البداية تمكن المختار من القضاء بسهولة على تمرد الاشراف ، واستطاع قائده ابن الأشتر أن يخضع له سائر منطقة الجزيرة ، وبذلك وصل إلى ذروة مجده السياسي ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فسرعان ما أخذت شمسه بالأفول وبات الخطر يتهدد حركته الفتية ، ولم يكن هذه المرة من جانب الأمويين بل من منافسه اللدود عبدالله بن الزبير الذي كان قد أرسل أخاه مصعب إلى البصرة وأوكل اليه مهمة القضاء على حركة المختار ، ذلك أن ابن الزبير وجد

في استفحال أمر المختار في الكوفة تهديداً لمركزه ليس في العراق وحسب بل في الحجاز وغيره ، وفي البصرة استقبل مصعب أشراف الكوفة وأخذ بالعمل على تعبئة الجيوش لحرب المختار فاستدعى المهلب بن أبي صفرة قائد ابن الزبير في فارس الذي كان يحارب الخوارج وطلب إليه إنابة أحد أولاده مع قطعة من الجيش والقدوم عليه فيمن بقي معه من الجند وعندما وافاه سيّره على رأس جيش كبير إلى الكوفة ، وفي نفس الوقت خرج عبد الرحمن بن مخنف وهو أحد الأشراف إلى الكوفة بهدف الاتصال مع أهلها لحملهم على ترك المختار والبيعة لابن الزبير ، وفي المقابل أرسل المختار الذي كان ابن الأشتر قد هجره أحد قواده أحمد بن شميط لملاقاة الجيش الذي أرسله مصعب فجرت معركة عنيفة انتهت بهزيمة جيش المختار ومقتل قائده ، فآثر المختار حينئذ الخروج بنفسه ، وكان مصعب أيضاً قد ترك البصرة في طريقه إلى الكوفة فاجتاز واسط حتى إذا وصل إلى الفرات عبر مع جنوده النهر فوق سفن كان قد أعدّها لذلك ، وجرت بينه وبين المختار معركة قاسية عند حروراء وذلك سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م وقد دارت فيها الدائرة على المختار الذي تراجع إلى الكوفة واعتصم في قصر الامارة حيث جرت عدة معارك خاض فيها المختار قتالاً بطولياً قبل أن يلقى مصرعه .

وهكذا عادت السيادة لابن الزبير على كافة مناطق العراق وهزمت حركة المختار لكن خلفت وراءها الكثير من النتائج ، ولعل من أهم أسباب هزيمة المختار واخفاق حركته :

أ ــ أن ثورته لم تكن حركة سياسية اسلامية شاملة تستهدف قلب النظام الأموي بقدر ما كانت حركة إقليمية تغلفت باطار ديني واجتماعي ضيق ، فضلا عن أن سلوك المختار نفسه وابتداعه أموراً غريبة عن الإسلام حسب ما يذكر المؤرخون ، كان قد أغضب المسلمين عليه حيث وجدوا في ثورته حركة دينية متطرفة .

ب – إن قيام المختار بتصفية الذين اشتركوا في قتل الحسين ، قد أعطاه القاعدة الشعبية التي كان يسعى اليها في صفوف الشيعة ، ولكن هذه القاعدة سرعان ما أخذت تتصدع ، حينما ظهرت مطامع المختار الشخصية ،وانكشفت محاولته في استغلال اسم محمد بن الحنفية لتحقيق أغراضه ، ذلك أن هذا الأخير وغيره من زعماء آل البيت لم يؤيدوا المختار علناً ولم يباركوا أعماله ، بل وقفوا منه موقفاً فيه الكثير من الغموض والسلبية .

ج – كان تخلي ابراهيم بن الاشتر عن المختار وعدم وقوفه الى جانبه في حربه ضد مصعب من أشد الكوارث التي حلّت بالمختار ، فقد أدى ذلك ، ليس إلى خسارته فقط أحد أبرز قواده ، وإنما إلى تخلي عدد كبير من جيشه عنه لتأثرهم بموقف ابن الاشتر ولا ندري الدوافع التي حدت بابن الأشتر لاتخاذ هذا الموقف ، فلعل الثورة على الأمويين وإزالة خلافتهم قد جمعت بين الرجلين ووحدت بين جهودهما من أجل هدف مشترك ، ونيل الملك واقتسام الولايات قد فرّق بينهما .

د – وأخيراً فهناك عامل مهم ساهم أيضاً بإضعاف مركز المختار وهو تكتل رؤساء القبائل ضد حركته ، وكان لهؤلاء نفوذهم وأهميتهم في المجتمع الكوفي وكان لهم تحالفاتهم خارجه ، فلقد أغضبهم المختار بإبعادهم عن مراكز النفوذ ، وبالمعاملة الحسنة التي عامل بها الموالي، فثاروا عليه واتصلوا بابن الزبير من أجل القضاء عليه(١) .

ثورة زيد بن علي بن الحسين

بعد اخفاق حركة المختار بفترة وجيزة تم القضاء على مصعب بن الزبير من قبل عبد الملك بن مروان الذي خلف أباه ، فعاد العراق إلى حظيرة الدولة

---

١ – الفتوح : ٢٥٥/١ ظ – ٢٧٦ ظ ، ٢/٢ و – ٤٣ و . أنساب الأشراف : ٢١٤/٥ – ٢٧٣ . تاريخ خليفة : ٣٣٢/١ . تاريخ الخلفاء : ٢٢٠ – ٢٥٣ . اليعقوبي : ٢٥٨/٢ – ٢٦٤ . الطبري : ٥٦٩/٥ – ٥٨٢ ، ٥/٦ – ١١٦ . الأخبار الطوال : ٣٠٦ . مروج الذهب : ١٠٤/٣ – ١٠٧ .

الأموية فاستأنف حكامها فوق أرضه ممارسة سياسة التنكيل والقهر وعملوا في سبيل اسكات كل صوت معارض بصرف النظر عن انتمائه السياسي ، وقد وصلت هذه السياسة أوجها في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي* الذي عهد إليه عبد الملك بحكم العراق ، فبقي في منصبه طيلة حياته إبان خلافة عبد الملك ثم ابنه الوليد ، ومن أشهر ما عرف عن هـذا الوالي ، اعتماده سياسة التوسع الخارجي والعمل العسكري الدؤوب ، من أجل القضاء على حركات المعارضة ، حيث كان يلجأ باستمرار إلى تهيئة الحملات العسكرية إلى مناطق بعيدة ، لقتال أناس لم يكونوا بالضرورة معادين للدولة أو خارجين عليها ومن الأمثلة على ذلك الحملتان اللتان قادهما عبيد الله بن أبي بكرة ، وعبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث لمحاربة رتبيل ملك الترك . وكان من أهم مرامي هذه السياسة إبعاد قوى الجند المعارضة عن العراق ونفيها ، وامتصاص النقمة وإلهاء الأحزاب المعارضة بهذا النوع من الفتوح ، وهذا ما اعلنه الحجاج نفسه حين خاطب العراقيين بقوله : « اني لم أجد لكم دواء أدوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث (١) »

لكن هذه السياسة على أنها وإن حافظت على العراق ضمن الدولة الأموية ، إلا أنها لم تستطع أن تمنع عنه خطر الثورة الدائم بل على العكس من ذلك اشتدت المقاومة اشتعالاً في عهد الحجاج وقامت سلسلة من الثورات كادت احداها أن تقضي عليه (وهي ثورة ابن الأشعث) وظلت نار الثورة مشتعلة بعد الحجاج ، لأن الأسلوب الأموي في حكم العراق ظل نفسه لم يتغير . وما كان له أن يتغير ، إنما ازداد الأمر خطورة ، لأن الدولة لم تستطع أن تحظى بخليفة كعبد الملك أو حاكم كالحجاج .

وثورة زيد بن علي هي واحدة من الثورات الشيعية التي هزّت دعائم الحكم الأموي بعنف وكانت خطوة من الخطوات المباشرة لما قام بعد ذلك في خراسان

---

١ ـ العقد الفريد ، ط . العريان : ١٧٩/٤ . وسيتم بحث ثورة ابن الأشعث بعد قليل .

على يد ابي مسلم الخراساني وجماعته الذين حملوا لواء الثورة العباسية ، ذلك لأنها وقعت في أواخر فترة استقرار وتماسك السلطة الأموية زمن هشام بن عبد الملك ، بعدما عزل واليه خالد القسري الذي كان اقدر حاكم للعراق بعد الحجاج ، ويروى أن سبب هذه الثورة المباشر هو ان والي العراق بعد خالد القسري وهو يوسف بن عمر الثقفي كتب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك زاعماً ان خالد القسري قد أودع قبل عزله زيد بن علي ستمائة ألف درهم ، فاستدعى هشام زيداً وطالبه بالمال ، ولما أنكر زيد ذلك ، طلب منه هشام أن يذهب إلى العراق لمواجهة ابن عمر ، لكن زيداً رفض المسير إلى العراق لتخوّفه مما قد يلحقه من اساءة على يد يوسف بن عمر المعروف بكرهه للشيعة ، ومن المعتقد ان زيداً ارتاب في دعوة الخليفة له ، وأدرك أن في الأمر مكيدة للتخلص منه ، فهو قد كان من البارزين من الأسرة العلوية ، وهو حفيد الحسين ، ولا شيء كان يقف دون طموحه للخلافة ، ومن هنا جاءت مخاوف هشام من زيد وشكوكه في نواياه حتى أنه صارحه مرة بذلك حين قال له : « بلغني انك تؤهل نفسك للخلافة وأنت ابن أَمَة » . يريد بذلك ان يعيّره بأمه غير العربية ، ويطعن بأحقيته في الخلافة ، لأن السائد زمن بني أمية كان جواز الخلافة لمن كان عربي الأبوين فقط .

والواقع أن هذه التهمة كانت تخفي وراءها نوايا هشام ، وعامله للنيل من زيد ، ومن مكانته الدينية والسياسية ، ذلك ان المصادر بكاملها تشير إلى ورع زيد وتقواه ، فمن غير المعقول لرجل هذه صفاته ان يقدم على عمل أقل ما يمكن وصفه بسوء الأمانة .

كان زيد يدرك جيداً أبعاد هذه التهمة ، ولذلك تخوف من مواجهة عامل العراق ، وطلب من هشام ان يعفيه من ذلك ، ولكن هشاماً اصرّ على قراره ، فخرج زيد من مجلس هشام غاضباً ، واتخذ طريقه إلى الكوفة حيث قابل يوسف بن عمر ، ويبدو أن والي العراق جمع زيداً مع خالد القسري بعدما جلبه من السجن ، وقد أنكر خالد أن يكون له أي مال

لدى زيد ، ولكن يوسف بن عمر لم يقبل بالأيمان التي أقسمها الرجلان بشأن المال ، فحبس زيداً وأمر بتعذيبه وأعاد القسري إلى سجنه حيث كان ، وحين بلغ الخليفة هذا الخبر أمر عامله باطلاق زيد والسماح له بالعودة إلى المدينة .

أراد زيد أن يعود ادراجه إلى حيث كان يقيم في المدينة ، ولكن شيعة الكوفة ألحّوا عليه بالبقاء قائلين : « انا لنرجو أن تكون المنصور (١) ، وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية » . وتردد زيد في قبول دعوتهم ، وغادر الكوفة ، ولكنه ما أن تجاوزها حتى لحقته وفود الشيعة تكرر دعوتها اليه بالخروج وخاطبته بقولها : « أين تذهب عنا ومعك مائة الف رجل من أهل الكوفة يضربون بني أمية بها دونك وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة » ، والواقع ان زيداً رغم التفاف شيعة الكوفة حوله والحاحها عليه بقبول دعوتهم للثورة ، ظل متهيباً خطورة الموقف ، خاصة وان التجارب السابقة لأسرته مع أهل الكوفة كانت لا تشجع على الاستجابة ، وكان عليه أن يستمع إلى نصائح أقاربه ، وعندما فعل ذلك حذّر من الركون إلى أهل الكوفة .

ومن المعتقد أن زيداً كان لديه طموح عقائدي للخلافة الأمر الذي جعله يلين أمام الحاح أهل الكوفة بالثورة على الأمويين ، بالاضافة إلى ذلك كان لمحادثته مع يوسف بن عمر ، وما تعرض اليه من اساءة ، وامتهـان وسجن أثر كبير في نفسه ، فأراد أن ينتقم لذلك .

وهكذا استجاب زيد بن علي لمناشدة الكوفيين وظهر بثورته على مسرح السياسة في العراق ، بعـد أن مهّد لها بالاستعدادات اللازمة ، والاتصالات مع القبائل في المدن الأخرى طيلة عشرة أشهر ، ويعطينا هذا فكرة عن تبصّر

---

١ — المنصور أحد الألقاب التي أطلقت على أشخاص ذوي صفات مهدوية سيظهرون في المستقبل حيث يزيلون الظلم ويقيمون حكم العدل والعدالة ، هذا وأفضل كتاب فيه معلومات عن الرجال المهدويين هو كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد (ت ٢٢٨ ﻫ) وقد حققت هذا الكتاب وسأدفعه قريباً للنشر .

زيد وشدة حيطته حتى أنه كان لا يبيت في نفس الدار ليلتين متواليتين امعاناً في تضليل شرطة ابن عمر ، وأخيراً حدد الأول من صفر ١٢٢ هـ . [٧٤٠م] موعداً لإعلان ثورته ، لكن هذه الثورة خنقت في مهدها لأن والي العراق علم بأمرها فدعا أهل الكوفة إلى الاجتماع في المسجد قبل ساعات من إعلانها ، فلبى الناس دعوته وبينهم عدد كبير من أنصار زيد ، وبينا هم في المسجد أمر جنده الشامي بضرب الحصار حولهم ومنعهم من الخروج ، وحين جاء زيد مع نحو مئتين من أنصاره لتخليص المعتقلين ، أخفق في قتال الجند الشامي المتفوق عدداً على أفراد أنصاره القلة ، ورغم تحرّج موقف زيد فإنه لم يستسلم وصمم على الصراع ، فدارت مناوشات بينه وبين الجند الشاميين استمرت طيلة اليومين التاليين حيث أصيب بسهم في جبهته قضى على حياته وعلى ثورته التي ماتت قبل أن تولد ، فطويت بذلك صفحة جديدة من تاريخ المقاومة الشيعية ضد الحكم الأموي (١) .

* * *

ثورة المدينة :

تمثل انتفاضة المدينة صورة من صور الصراع الاقليمي حول الخلافة ، وجاءت كآخر ردة فعل لانتقال مركز الحكم من المدينة كما كانت أيضاً ردة فعل مباشر لمقتل الحسين بن علي ، وهي لم تكن فورة عابرة حركتها العواطف رغبة في الانتقام ، بل كانت ثورة تستهدف تقويض نظام الأمويين الذي حاد عن الشرع ، وانحرف عن مسيرة الأوائل ، واستبدل العدل بالطغيان ولذلك كانت شعلة الثورة متأججة في نفوس أهل المدينة منذ وقت بعيد ، وكانت تبحث فقط عن سبب مسوّغ للانفجار .

---

١ – الفتوح : ٢/٢٠٦ و – ٢١٢ و . الطبري : ٧/١٦٠ – ١٩١ . تاريخ خليفة : ٢/٥٣٦.
اليعقوبي : ٢/٣٢٥ – ٣٢٦ . مقاتل الطالبيين : ١٢٧ – ١٥١ . تاريخ الخلفاء : ٤١٥ –٤٢٣.
مروج الذهب : ٣/٢١٧ – ٢٢٠ .

وكان ذهاب وفد من أهل المدينة ، انفذه عامل المدينة ، إلى دمشق لمقابلة يزيد بن معاوية ، هو المحرض المباشر لتفجير الثورة ، وقد ضم هذا الوفد بعض المؤيدين لابن الزبير ، وعلى العموم كان الجميع كارهين للبيت الأموي ناقمين عليه لأسباب ذكرنا بعضها ، ولعل عامل المدينة قصد من وراء ذلك ، الوصول إلى تفاهم بين الخليفة ووجوه أهل المدينة ، وبالفعل فقد أحسن يزيد استقبالهم وأجزل لهم العطاء في محاولة لإرضائهم وإزالة الأحقاد من النفوس ، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ، لأن هؤلاء أخذوا بعد عودتهم إلى المدينة في شتم يزيد وأظهار عيوبه قائلين : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ويطرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر الخزاب — اللصوص — والفتيان ، وانا نشهد لكم إنا خلعناه » .

وعقد أهل المدينة إثر هذا مؤتمراً في المسجد النبوي ، أجمعوا فيه على خلع يزيد ، وبايعوا عبدالله بن حنظلة أحد أعضاء الوفد وولوه أمرهم ، وكان أنصارياً ولم يكن قرشياً ، وثارت المدينة ووثب أهلها على بني أمية الذين تجمعوا في منزل كبيرهم مروان بن الحكم، فطردوهم جميعاً ، وكان عددهم يقارب الألف رجل وكان عليهم أن يبقوهم رهائن ، كما طردوا عامل المدينة عثمان ابن محمد بن أبي سفيان ، وحين سمع يزيد بالثورة بادر إلى العمل بسرعة لضربها ، فجهز جيشاً جعل عليه مسلم بن عقبة ، ويقال ان اختياره لهذه المهمة — وهو المعروف بصلافته وقسوته — جاء بناءً على توصية قديمة له من معاوية ، ووصل جيش مسلم إلى المدينة في ذي الحجة ٦٣ هـ [٦٨٣ م] ونزل في الحرّة وهي موقع في الشمال الشرقي من المدينة ، وفي هذا المكان جرى قتال شديد بين أهل المدينة وجند الشاميين حيث نجح هؤلاء في اختراق صفوف المدافعين ودخول المدينة ، واستباحتها أياماً ثلاثة « يقتلون الناس ويأخذون الأموال » .

لقد كانت ثورة المدينة وموقعة الحرة محاولة يائسة قامت بها المدينة بزعامة الأنصار ، بغية استرجاع أهميتها في الدولة الاسلامية ، وذلك بعدما طواها

النسيان ، فعاشت مع أهلها في الظل السياسي طوال عهد معاوية ، الذي دأب على ابعاد الحجاز عن السياسة وسعى نحو اشغاله بأمور أخرى ، والذي دفع معاوية إلى ذلك كون الحجاز مهد الاسلام ، ومقر دولته الأولى ، ومنطلق الفتوحات والتوسع ، ومركز تجمع الصحابة وآلهم ، وهذا جعل منه مركزاً ينافس الشام ، ومصدر قلق للبيت الأموي .

هذا وكانت ثورة المدينة آخر محاولات الأنصار لشغل دور سياسي وذلك بعدما أخفقوا يوم السقيفة ، فلم يستطيعوا الاستقلال بمدينتهم ولم يستطيعوا إعطاء أنفسهم مكاناً يليق بماضيهم وجهادهم زمن النبي . وحين انتهت ثورة المدينة انتهى معها حياة عدد كبير من رجال الفكر والثقافة الإسلامية الذين كانوا يقطنون بها ، مما سبب تدهورها ثقافياً وحضارياً وتخلفها لتحل محلها مدن جديدة أخرى ليس لها نفس العراقة الاسلامية ، وصحيح أن ثورة المدينة انتهت بهزيمة الثوار في موقعة الحرة ، لكن الثورة في الحجاز ظلت مستمرة ، حيث انتقلت رايتها إلى مكة حيث اعتصم ابن الزبير وأقام يسعى للقضاء على الأمويين خلال سنوات عدة قادمة (١) .

ثورة عبدالله بن الزبير

وصف معاوية ، ابن الزبير ، في معرض وصيته لابنه يزيد بقوله : « وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير » ، والواقع ان معاوية كان مصيباً في حكمه على الرجل الذي أثبتت الأيام انه كان يتمتع بشخصية فذة، وطموح كبير ، وذكر مسبقاً أنه كان أحد الثلاثة ــ الحسين بن علي ، عبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر ــ الذين تحدوا معاوية ورفضوا البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، وحين صارت

---

١ – أنساب الأشراف : ٤/٢/٣٠ – ٤٦ . تاريخ خليفة : ١/٢٨٩ – ٣١٤ . الطبري : ٥/٤٧٨ – ٤٩٥ . الفتوح : ١/٢٣٣و ، ٢٤٠ و – ٢٤٣ ظ . الأخبار الطوال : ٢٦٤ – ٢٦٧ . اليعقوبي : ٢/٢٥٠ – ٢٥١ . تاريخ الخلفاء : ١٩٤ – ٢٠٠ . مروج الذهب : ٣/٧٨ – ٨٠ .

الخلافة إلى يزيـــد ، بايعه ابن عمر بينما أبى الآخران وغادرا المدينة إلى مكة وأقاما بها .

وفي مكة ، كان على ابن الزبير أن ينتظر بعض الوقت قبل أن يجاهر بطموحه للخلافة ، لأن التفاف الناس حول الحسين واهتمامهم به واستماعهم اليه دلّ على علو مكانة هذا الأخير في نفوس المسلمين ، فبدا وكأنه رجل الساعة والشخصية التي تتجه اليها الأنظار ، وكان هذا من أشد ما يثقل على ابن الزبير حيث رأى في وجود الحسين في الحجاز عقبة تحول دون تحقيق ما كان يصبو اليه ، ويصف ابو الفرج الأصفهاني موقف ابن الزبير حينذاك بقوله : « لم يكن شيء اثقل عليه من مكان الحسين في الحجاز ، ولا أحب اليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز ، وعلماً منه بأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين».

وفي الحقيقة كان ابن الزبير في غاية الذكاء ، فقد أعلن تأييده للحسين ووقف إلى جانبه ، وسعى اليه بأن يوليه على الحجاز وكان هذا تخطيطاً للمستقبل ، كما أنه كان من المستحيل لابن الزبير مجابهة الحسين لذلك اضطر إلى الانحناء أمامه حفاظاً على مصالحه الشخصية ، وحين جاءت الدعوة إلى الحسين بالخروج إلى العراق، كان ابن الزبير على رأس الذين حرضوه بالحاح لتلبية الدعوة ، وخرج الحسين إلى العراق كما نعلم .

وهكذا خلا الجو في الحجاز لابن الزبير ، فأصبح سيد الموقف فيه ، واعتصم في البيت الحرام بعد ما خلع طاعة يزيد متخذاً لنفسه لقب أمير المؤمنين .

وجاءت الظروف لتساعده على تحقيق طموحه السياسي ، فبعد مذبحة كربلاء شعر المسلمون بهول الفاجعة وانعكست آثارها على الحجاز حيث رفعت راية العصيان ضد بني أميـــة وبايعت ابن الزبير ، ذلك أنه استهول مصرع الحسين ، وعاب على أهل الكوفة تخاذلهم وتقاعسهم عن نصرته ، وموقف ابن الزبير هذا يذكرنا بموقف معاوية يوم مقتل عثمان ، فكلاهما استغـــل القضية لمصلحته ولتحقيق أهدافه من ورائها ، وتمايزت النتائج لتميز معاوية على ابن الزبير . واستجاب أهل المدينة لابن الزبير فأعلنوا الثورة على يزيد كما سبق الحديث .

ولما علم يزيد بخروج الحجاز عليه ، أرسل جيشاً بقيادة مسلم بن عقبـــة

لاخضاعه مبتدئاً بالمدينة وبعد أن تم لمسلــــم اخضاعها أكمل طريقه إلى مكة ، لكنه مات بعد أيام قبــل أن يصلها ، فخلفه في القيادة الحصين بن نمير السكوني ، فألقى الحصار على مكة وضرب الكعبة بالمجانيق ، دون أن يتمكن من اختراقها ، وكان هذا سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ — ٨٤ م ، وأثناء الحصار علم بموت يزيد ، ففاوض ابن الزبير حول فك الحصار والبيعة لــه ، واشترط عليه ان يصحبه إلى الشام لإعلانه خليفة هناك ، فرفض ابن الزبير أن يغادر الحجاز وطلب من الحصين أن يأخذ له البيعة ، فتوجه الحصين إلى الشام دون اتفاق مع ابن الزبير الذي بقي في معقله يرمم بناء الكعبة الذي هدمتــه مناجيــق الحصين ، وشغله هذا عن ترميم بناء الدولة واهتبال فرصته ، فقام سواه في الشام فقرر مستقبل السياسة لسنين طويلة قادمة .

وفي دمشق كان الموقف السياسي مضطرباً بعد وفاة يزيد حيث تنازل ابنه معاوية عن العرش ، ثم توفي في ظروف غامضة فأدى ذلك إلى طرح مسألة الخلافة وانقسام البيت الأموي على نفسه ، وجرّ ذلك أيضاً إلى احتدام الصراع القبلي بين قبائل قيس والقبائل اليمانية ، بشكل لم تكن له سابقة في الإسلام ، فبعد موت معاوية الثاني أخذ زعيم القيسية الضحاك بن قيس الفهري يدعو سراً إلى ابن الزبير ، وكذلك فعل زُفرّ بن الحارث أحد زعماء القيسية في شمالي الجزيرة وقنسرين وقرقيسياء ، وهكذا قوي موقف ابن الزبير جداً بانضمام القيسية اليه في الشام والعراق وخراسان ، ولم تلبث مصر أن انضمت اليه فأصبح بذلك الشخصية الأولى في العالم الإسلامي ، وهكذا ضعف شأن الأمويين فانكفأوا في دمشق لا يحظون بتأييد سوى حسان بن بحدل الكلبي زعيم قبيلة كلب في فلسطين المؤيدة من قبل القبائل اليمانية الأخرى في جنوبي بـــلاد الشام .

وأصبح ابن الزبير في مركز القوة ، وفي يده المبادرة بعد أن أخذت الأمصار تتسابق في اعلان بيعتها له ، وأوشكت معركته ضد الامويين أن تنتهي بالنصر ، وتحقق أهدافها ، لكن أموراً استجدت في الشام ما لبثت أن قلبت الموقف لصالح

خصومه ، فقد سعى رؤساء القبائل اليمانية وعدد من رجال الحكم الأموي ، الذين ادركوا أي خطر يلحق بمصالحهم ووجودهم السياسي بانتقال الخلافة من الشام إلى الحجاز ، إلى عقد مؤتمر في الجابية بجوار دمشق عالجوا فيه مسألة الخلافة والانقسام في البيت الاموي ، فتم الاتفاق على استبعاد خالد بن يزيد لصغر سنه ، واختيار مروان بن الحكم ، شيخ بني أمية ، فبويع له بالخلافة في ذي العقدة ٦٤ هـ / ٦٨٤ م ونجم عن هذا موقعة في مرج راهط بين قبائل قيس والقبائل اليمانية ، وجاءت هذه المعركة لتحسم الصراع حول الخلافة حيث انتصر مروان ومؤيدوه من اليمانية على الضحاك بن قيس والقبائل المضرية المؤيدة لابن الزبير ، وهكذا تم للأمويين الاحتفاظ بالخلافة لكنها انتقلت إلى فرع أموي آخر وهو الفرع المرواني الذي استطاع أن يوطد الأمور ، ويعيد وحدة الدولة ، وظل خلفاؤه يتعاقبون على الحكم حتى سقوط دولة الأمويين .

أما على صعيد جبهة ابن الزبير ، فان أول نتيجة لموقعة مرج راهط كانت هزيمة الحملة التي كان قد أرسلها إلى الشام بقيادة أخيه مصعب ، بعد أن جاء وصولها متأخراً ، فلم تجد عوناً من القبائل القيسية ، وأعقب ذلك ضياع مصر من قبضة ابن الزبير ، حين ذهب مروان اليها بنفسه فطرد واليها القيسي وأعادها إلى حظيرة الدولة الأموية ، وما لبث مروان أن توفي بعد فترة وجيزة تاركاً مهمة القضاء على ابن الزبير لابنه عبد الملك ، وبالفعل ما كاد هذا الأخير يوطد مركزه في دمشق حتى سار على رأس جيش إلى العراق الذي كان يسيطر عليه مصعب ابن الزبير سنة ٧١ / هـ ٦٩٠ م وكان قد مهد لذلك باتصالات أجراها مع رؤساء القبائل وأشراف أهل العراق ، ونجح باستمالة عدد كبير منهم ، لذلك عندما سارع عبد الملك لمواجهة مصعب كان قد انفض عنه كثير من اتباعه ، فجرت بين الطرفين معركة غير متكافئة ، انتهت بهزيمة العراقيين ومقتل مصعب فدخل عبد الملك الكوفة ، وجاءته القبائل المختلفة تعلن له الولاء وعاد العراق إقليماً أموياً ، وأصبح بشر بن مروان — أخو الخليفة — والياً عليه .

عاد عبد الملك إلى الشام ، وفي ذهنه ضرورة القضاء على عبد الله بن الزبير ، ذلك الهاجس الذي أقض مضاجع الامويين وحرمهم نعمة الاستقرار ، ففكر طويلاً بالرجل الذي يتمكن من حمل هذه المهمة الثقيلة وفيما هو كذلك إذا برجل — لم يكن من كبار قواده ، أو من البارزين على المسرح السياسي ، لكنه عرف كرجل حازم حين تولى قيادة مؤخرة الجيش الذي قضى على مصعب بن الزبير — يتصدى لها وكان هو الحجاج بن يوسف الثقفي .

سار الحجاج إلى الحجاز سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م ونزل في الطائف — المدينة التي ولد فيها — فمكث فيها شهراً اقتصر النشاط العسكري خلاله على بعض المناوشات البسيطة ، ثم غادرها إلى مكة ونصب المناجيق على جبل أبي قبيس حيث أخذت قذائفها تتساقط على الكعبة بتأييد من الخليفة نفسه ، رغم أنه كان قد أطلق صيحة الاستنكار حينما دكت جيوش الخليفة يزيد أسوار الكعبة قبل ذلك بثماني سنوات .

لم يستعجل الحجاج الامور ، وإنما كان هدفه إحكام الحصار حول ابن الزبير حتى ينفذ ما معه من زاد فيضطر عند ذلك للاستسلام ، وفي نفس الوقت أرسل فرقة من جيشه سيطرت على المدينة ، حتى إذا طال الحصار ونفذت المؤن في مكة ، خرج ابن الزبير وقاتل قتالاً بطولياً حتى سقط صريعاً وحوله قلة من أصحابه لاقوا المصير نفسه سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م بعد حصار دام نحواً من ستة أشهر .

كان مقتل ابن الزبير من الأيام التاريخية في حياة عبد الملك الذي شعر — وقد تخلص من أقوى منافسيه — أن الامور عادت إلى وضعها الطبيعي ، وصار بإمكانه أن ينصرف إلى تثبيت دعائم حكمه في الداخل ، واستئناف حركة الفتوح في الخارج ، كما كانت هذه الحادثة سبباً في بروز الحجاج كشخصية من أقوى شخصيات الحكم الأموي بعد الخليفة ، وهكذا انتهت أعظم محاولة سياسية قامت في وجه النظام الأموي ، محاولة هزّت دعائمه وكادت تقضي عليه ، لكن اعتصام قائدها في الحجاز واستنكافه عن المجيء إلى دمشق ، في

وقت كانت فيه هذه الأخيرة تبحث عن خليفة لها ، بينما كان هو سيد الموقف والخليفة المعترف به من الاغلبية الساحقة ، من أهم الاسباب التي أدت بحركته إلى السقوط ، يضاف إلى ذلك صفاته الشخصية من فقدان المرونة السياسية وتقتيره في انفاق المال ، وقصوره عن اصطناع الرجال(١) .

* * *

عصر الحجاج بن يوسف الثقفي

بعدما قضى الحجاج على ثورة عبد الله بن الزبير ، صار سيداً لجميع أجزاء شبه الجزيرة العربية ، ولم يشبع هذا طموحه بل اعتبره خطوة ممهدة نحو استلام منصب آخر أرفع في الدولة الأموية ، لذلك داوم الاتصال بعبد الملك ، وكان استخدام عبد الملك للحجاج هو استمراراً لنهج التحالف الأموي الثقفي الذي كان موجوداً قبل الاسلام واستمر بعد تسلم معاوية لزمام السلطة ، وحيث أن عبد الملك يمثل فرعاً من فروع الأسرة الأموية غير فرع معاوية ، كذلك الحجاج يمثل فرعاً جديداً من فروع ثقيف غير فرع المغيرة بن شعبة حليف معاوية وصهره .

وكما أن التبدل داخل الأسرة الأموية لم يمر دون ردات فعل كذلك كان الحال بالنسبة لثقيف .

وكان بعدما استولى عبد الملك على العراق أوكل أموره إلى أخيه بشر بن مروان وحدث أن توفي بشر بعد قرابة السنة من تسلمه لمنصبه . وكان هذا في أول سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، وأقلق شغور منصب والي العراق عبد الملك ،

---

١ – الفتوح : ٢٣٩/١ و – ٢٦٧ ظ ، ٢/٢ و – ٥٦ و . أنساب الأشراف : ١٦/٢/٤ – ٤٦ ، ١٢٥/٥ – ٣٧٩ – الطبري : ٤٩٨/٥ – ٦٢٢ ، ٥/٦ – ١٩٣ . الاخبار الطوال : ٢٦٢ – ٣١٤ . اليعقوبي : ٢٥٥/٢ – ٢٦٨ ، تاريخ الخلفاء : ١٩٥ – ٢٧٣ . مروج الذهب : ٨٤/٣ – ١٢٢ . فلهوزن : ١٩٣ – ١٩٥ . دوزي : ١١١ – ١١٩ .

خاصة أنه جاء في وقت اشتد فيه نشاط – فئة الأزارقة – من الخوارج العلني مع نشاط الفئات الأخرى الخفي واعداداتها للثورة ، ويروي ابن الأعثم أن عبد الملك جمع أهله ورجال دولته وخاطبهم بقوله : « أيها الناس إن العراق قد تكدر ماؤها ، وظهر جدبها ، وملح عذبها ، وبدا وميضها ، واشتد ضرامها ، وكثر لهبها ، وثار قتامها ، وعظم شررها ، وعلا أمرها ، وأبرق رعدها ، وكثر وقودها بحطب حيّ ، وجمر ذكي ، ودخان وهي ، وهؤلاء الأزارقة الطغاة المارقة قد اشتدت شوكتهم وتفرقت جرثومتهم حتى قد حذرهم الصغار ، وليس يقوم لهم الكبار ، فمن ينتدب لهم منكم بسيف قاطع ، وشأن لامع وقلب جامع » فانتدب له الحجاج من بين الناس فولاه العراق ، فدخل الكوفة في نفس العام وألقى على منبرها خطبته المشهورة التي استفتحها بقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ....

وتوعد فيهاأهل العراق وأعلن لهم عن سياسة كلها تنكيل وقسوة ودم ،وكان الحجاج بخطته هذه المعلنة يشبه زياد بن أبيه ، وفي الواقع هناك أوجه كثيرة من الشبه بين الحجاج وزياد ، إنما اختلف الحجاج عن زياد بأنه كان أبطش للدماء وأكثر عنفاً ذلك أنه بدأ حياته السياسية في الخدمة في الجيش الأموي ، وظل دائماً حريصاً على الظهور بمظهر القائد العسكري في حين أن زياداً بدأ حياته السياسية في العمل الاداري المدني وغلبت عليه الصفة المدنية طيلة حياته .

وجاءت سياسة الحجاج القائمة على البطش بنتائج كثيرة متباينة ، كان على رأسها ابقاء العراق تحت حكم الأمويين وفي نفس الوقت تهيأة الأجواء المناسبة للاطاحة بالخلافة الأموية كلها ، لأن ردات الفعل لبطش الحجاج كانت شديدة للغاية ، يضاف إلى ذلك أن العصر الذي حكم فيه الحجاج كان يختلف عن عصر زياد ، ففي عصر الحجاج كان عدد الذين دخلوا في الاسلام من غير العرب قد أصبح كبيراً ، لذلك علت أصوات كثيرة تنادي بالمساواة

وتندد بالتحكم والتفاوت الطبقي والظلم ، وقد تدثر معظم الثوار بشعار المساواة هذا وطالبوا بتحقيقه ، إنما بشكل غير واضح ، أو على الأقل هذا ما تذكره لنا مصادرنا المتوفرة .

ثورة المطرف بن المغيرة بن شعبة

ومن الثورات التي قامت على الحجاج ثورة المطرف بن المغيرة بن شعبة ، وتختلف هذه الثورة عن غيرها من الثورات التي شهدها العصر الأموي من حيث أن صاحبها كان من رجالات الحكم الأموي وكبار موظفي الدولة ، بينما كان الثوار الآخرين من زعماء المعارضة ، حركتهم عوامل اصلاحية ومطامح شخصية ، وكانوا في كلا الحالتين بعيدين عن السلطة محرومين من خيراتها .

لكن المطرّف كان ابناً للمغيرة الذي شغل دوراً بارزاً في سياسة الدولة الأموية ابان عهد معاوية ، حيث أوكل اليه عدة مهمات كان آخرها تعيينه والياً على الكوفة ، وكان مع أخوته حمزة وعروة من المقرّبين من الحكم والمشاركين في المسؤولية ، وهو نفسه كان والياً على المدائن في عهد عبدالملك ابن مروان ، كما كان مرتبطاً بعلاقات وثيقة مع الحجاج باعتبار أن ولايته كانت تتبع ولاية العراق من الناحية الادارية ، ويبدو أن المطرّف لم يستطع أن يتقبل طويلاً حكم أحد أفراد قبيلته ممن لا يدانيه شرفاً ، ثم انه كان حكماً قائماً على الاستبداد والظلم والانحراف عن المبادىء الاسلامية ، لذلك تمرد على هذا الواقع فخلع الحجاج الثقفي مع الخليفة المرواني عبد الملك .

اتصل المطرّف ، قبل اعلان ثورته ، بالخوارج للانضمام اليه والقيام بعمل موحّد ، لكنه اصطدم برفضهم واصرارهم على أن ينضم هو اليهم ويسلم الأمر إلى زعيمهم شبيب ، ورغم ان مستشاريه صوروا له خطورة الموقف ونصحوه بألاّ يقدم على عمل كهذا ، وقالوا إن الحجاج : « ليلتمسن أن يصل اليك لو كنت في السحاب هارباً حتى يهلكك أنت ومن معك » . فإنه قام

بحركته منفرداً سنة ٧٧هـ/٦٦٩م ، داعياً إلى الحكم بالحق والعدل في السيرة وذلك حسب ما جاء في الخطاب الذي أعلنه أمام أصحابه بمثابة برنامج عام لثورته وهو : « أما بعد فان الله كتب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان وقال فيما انزل علينا : « تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » ، واني اشهد الله اني قد خلعت عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني فان له الأسوة وحسن الصحبة ، ومن أبى فليذهب حيث شاء فاني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوا » .

ولم يحالف النجاح هذه الحركة ، فسرعان ما قضت عليها جيوش الحجاج ، وقتلت قائدها المطرف . وليس ثمة شك أن الظروف السياسية لم تكن ملائمة لقيام هذه الحركة ، في وقت كانت فيه الخلافة الاموية في ذروة قوتها وكان الحجاج في غاية المكنة والقوة ، يمسك بقبضة من حديد زمام السلطة في العراق وأرض المشرق ، ولهذه الأسباب لم يجد أمير العراق كبير صعوبة في القضاء على ثورة المطرف قبل استفحال أمرها ، هذا وكانت هذه الثورة تحتاج الى التخطيط الطويل والقواعد الشعبية الواسعة مع الحلفاء الأقوياء، وهذا لا يتأتى إلاّ بعد طويل جهد وحسن تنظيم ، وقدرة على الاستعداد مع روح ثورية أصيلة لا تحرك تمليه المواريث والمكانة الشخصية(١) .

ثورة ابن الأشعث

لم يكن المطرف بن المغيرة الوحيد بين أشراف العرب الذين نفروا من الحجاج وثاروا عليه مستغلين النقمة العارمة ضد سياسته ، بل فاقه في الشهرة

---

١ – ابن الأعثم : ٦٩/٢ و – ٧٢ ظ –.تاريخ خليفة : ٣٤٧/١ . الطبري : ٢٠٢/٦ – ٣٠٠ . تاريخ الخلفاء : ٢٧٤ – ٢٧٥ . اليعقوبي : ٢٧٣/٢ . مروج الذهب : ١٣٢/٣–١٣٦. فلهوزن : ٢١٨ – ٢٢١ . دوزي : ١٢٠ – ١٢٧ .

والأهميــــــة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكانـــت ثورة ابـــن الأشعث من بعض الأوجه مثلها مثل ثورة المطرف بن المغيرة حيث أنهـــا اندلعت في المشرق ، ولم تقم في الكوفة كما حدث قبل عصر الحجاج ، وبهذا جاءت مؤشرة على أهمية المشرق والدور الذي يمكن أن يقوم به في المستقبل .

لقد اندلعت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في نواحي سجستان ، ثم امتد شررها إلى العراق ، واستطاعت خلال فترة وجيزة أن تحقق نجاحاً باهـراً بفضل الاستجابة الجماهيرية القوية التي توفرت لها في وقت بلغ فيه السخط أشده والتذمر أقصاه على الخليفة الأموي ، وعلى ممثله في العراق الحجاج بن يوسف .

ولم تولد هذه الثورة فجأة إثر خلاف قائدها مع الحجاج ، كما تشير بعض المصادر ، حيث أن الحجاج ولّى ابن الأشعث على سجستان ، وكلفه بغزو بلاد الترك المجاورة وضيق عليه بالأوامر ، وأكثر له من الاهانات ، وإنما كانت لها أسباباً أعمق من ذلك بعضها يعود إلى علاقة العراقيين بنظام الحكم الأموي ، وبعضها الآخر يتعلق بشخصية الحجاج الطاغية وسوء معاملته لأهل العراق لا سيما الموالي ، ولكي نكون أكثر تحديداً نستطيع أن نوجز هـذه الأسباب بثلاثة فقرات :

١ ـ اقليمية : وتتعلق بكراهية العراقيين للحكم الأموي ، وإثارة المشاعر القبلية والأسروية .

٢ ـ اقتصادية : وتتعلق بالسياسة الضرائبية ، وسوء أحوال الموالي ، وانهيار الأحوال الاقتصادية ، لانعدام الاستقرار وكثرة النفقات على الجند والادارة .

٣ ـ سياسية : تنبع من مسألة الاستئثار بالحكم والاضطهاد والعقوبات الجماعية ، والتجنيد الاجباري لفتوح مزعومة ، ذلك أن عبد الرحمن شعر مع جنده وهم في المشرق أنهم نفيوا من العراق ولم يرسلوا في سبيل تحقيق غاية الفتح والجهاد .

لعل هذه هي أهم الأسباب التي كانت تتفاعل في نفوس العراقيين حين اندفعوا كالتيار الهائج وراء ابن الأشعث للانقضاض على العدو المشترك الذي وحّد مشاعر الطرفين ، والواقع ان ابن الأشعث اختلف عن غيره من الثوار الذين ناهضوا الحكم الأموي ، بأنه كان في حياته السياسية قبل الثورة واحداً من أبرز أشراف الكوفة ، يحتفظ ببقايا المجد القديم الذي كان لأجداده ملوك كندة قبل الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، وكان جلّ ما يطمح اليه أن تكون له ولاية من الولايات أو منصباً من المناصب ، فهدفه إذاً كان الدخول في خدمة الدولة وليس الثورة عليها .

أما السبب المباشر الذي جعل من ابن الأشعث قائداً لثورة عظيمة ، فهو مرتبط بسياسة الحجاج التي هدفت إلى تصفية العراق من العناصر المعارضة ، بتجنيدها في حملات عسكرية تشغلها عن مقارعة الدولة ، وتبعدها عن البصرة والكوفة ، وهذا ما اعترف به الحجاج صراحة حين قال : « يا أهل العراق ، اني لم أجد لكم دواء ادوى لدائكم من هذه المغازي والبعوث». وكانت الحملة التي قادها ابن الاشعث أكبر حملات النفي هذه ، ويزيد هذا الاعتقاد رسوخاً ، انها جاءت في أعقاب حملة مخفقة تشكلت في نفس الظروف وهي حملة عبيد الله بن أبي بكر .

سار ابن الأشعث بحملته إلى سجستان حيث عين والياً عليها ، ثم منها إلى كابل (في أفغانستان الحالية) لإخضاع ملكها (زنبيل) ، فأبدى مهارة عسكرية فائقة اضطرت زنبيل إلى الانسحاب والتخلي عن جزء كبير من بلاده ، ولكن ابن الأشعث خشي من التوغل في هذه البلاد وتخوّف من شرك قد يدفعه زنبيل إلى الوقوع فيه إذا استمر في تقدمه ، فكتب إلى الحجاج يعلمه بالوضع ، ويقترح عليه خطة فيها ترك التوغل في بلاد الترك حتى يتعرف مع جنده إلى شعابها ، ويجبوا خراجها فغضب الحجاج ، ورفض الموافقة على خطة قائدة متهماً إيّاه بالجبن والتخاذل ، وأكد في كتاب آخر رفضه وأمره بمواصلة المسير وإلا « فإن اسحق بن محمد أخاك أمير الناس » .

كانت رسائل الحجاج ، الشرارة التي فجّرت الموقف الذي عرف ابن

الأشعث كيف يستغله لصالحه بعدما لمس الحقد المتفاعل في نفوس قواده وجنوده ضد حاكم العراق ، فخطب فيها قائلاً : « أيها الناس إني لكـم ناصح ولصلاحكم محبّ ، ولكم في كل ما يحيط بكم نغصة ناظر ، وقد كان من رأي فيما بينكم وما بين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم وأولي التجربة والحرب منكم ، فرضوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً ، وقد كتبت إلى أميركم الحجاج فجاءني منه كتاب يعجّزني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك فيها اخوانكم بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أقضي إذا قضيتم وآبي إذا أبيتم » .

قررت هذه الخطبة المثيرة التي القاها ابن الأشعث في مؤتمر عام لجنوده في الواقع مصير الحملة فسرعان ما تعالت الهتافات من الجند تردد بملء حناجرها : « لا بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع » .

وهكذا فإن الحملة التي أرسلها الحجاج لقتال زنبيل ، انقلبت عليه ورفعت راية الثورة في وجهه وتوجهت نحو العراق ، وفي الطريق إليه انضم إلى صفوف الثوار جنود ورجال الحاميات في المناطق التي مروا بها ، حتى إذا بلغوا فارس وكانت الحماسة على أشدها بين الجنود خلعوا عبد الملك أيضاً ، وبذلك تحولت حركة ابن الأشعث من مجرّد عصيان للحجاج لتخليص العراق من استبداده إلى ثورة عامة ضد النظام الأموي .

وفي بداية الثورة بعث ابن الأشعث رسالة إلى المهلب بن أبي صفرة، والي خراسان يطلب فيها مساعدته ، لكن المهلب رفض الاستجابة له وقال : « ما كنت لأغدر » وحذر ابن الأشعث من مغبة عمله هذا ونصحه بالرجوع عن قراره بقوله : « أنظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها والبيعة فلا تنكثها » ، وفي نفس الوقت حذّر المهلب حاكم العراق من الخطر الذي يتقدم نحوه وقال له : « ان أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل » .

وكان للعامل النفسي أثره في إعطاء هذه الثورة أهمية خاصة ، فالاستجابة الجماهيرية التي لاقتها من جنود وقواد ومتطوعين كانت واسعة للغاية وذلك

فضلاً عن الجماعات الدينية الواسعة التأثير التي عرفت بالقراء حيث كانوا طليعة الثورة وباعثي شعلة الحماس في نفوس الثوار .

وتهيّب الحجاج الموقف وأدرك خطورته حينما وافته الأخبار عن حجم الثورة والتأييد الضخم الذي لاقته ، فخرج بجنده الشامي لملاقاة ابن الأشعث ، وكان الحجاج حينما نفى جند العراق جاء بجند احتلال شامي ، وبدأ في تنفيذ خطة بناء مدينة لهذا الجند ولادارة العراق تقع بين البصرة والكوفة ، وستعرف هذه المدينة باسم واسط . وبعدما وافت أخبار الثورة عبد الملك أصبح لا يقل جزعاً عن واليه ، فبادر إلى إعداد الجيوش وإرسالها إلى العراق ، بينما سار الحجاج مع جنوده الشاميين إلى (تستر) لملاقاة ابن الأشعث قبل أن يتعمق في الاراضي العراقية . فأسفر أول اصطدام بين الفريقين في سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م عن هزيمة الشاميين ومقتل نحو الف وخمسمائة منهم ، وكان وقع هذه الهزيمة مؤلماً على الحجاج ، فتراجع عن البصرة التي كان قد اتخذها قاعدة لعملياته العسكرية ، فدخلها بعد قليل ابن الاشعث ، ودعا سكانها إلى خلع عبد الملك ، فتجاوب هؤلاء معه وانضموا إلى ثورته .

وفي السنة التالية (٨٢ هـ / ٧٠١ م) التحم الفريقان في الزاوية (بالقرب من البصرة) واشتد القتال بينهما ، وكان سير المعركة في صالح العراقيين أول الأمر ، لكن الحجاج تمكن بشجاعته وصموده من تحويلها لصالحه ، وانسحب ابن الأشعث بعد هزيمة الزاوية نحو الكوفة ، فأتاح هذا للحجاج الفرصة لاسترجاع البصرة ، فعيّن عليها أحد أقاربه ، وفي الكوفة استقبل ابن الاشعث استقبالاً رائعاً تجسدت فيه النقمة على الحكم الاموي ، والواقع ان هذا الترحيب لم يكن يتعلق بشخصية قائد الثورة بقدر ما كان مظهراً لمعاناة عاشها الكوفيون منذ أيام صفين .

وأدرك الحجاج خطورة استيلاء ابن الاشعث على الكوفة ، وراءه التأييد الشديد لثورته ، فعزم على السير إلى الكوفة ، وطلب في الوقت نفسه المساعدة من الخليفة الذي لم يبخل عليه بإرسال المزيد من الجيوش الشامية . وسلك الحجاج طريق البادية على الضفة اليمنى من الفرات وعسكر في موقع (ديرقُره)

ليسهل منه وصول الامدادات من دمشق . وفي المقابل كانت جيوش ابن الأشعث تعسكر في دير الجماجم، وأخذ كل من الفريقين يستعد للمعركة الفاصلة.

ولكن القتال طال دون أن يسفر عن نتيجة حاسمة . وكان عبدالملك في دمشق يرقب الأحداث بقلب مرتجف ، فآثر أن يستمع إلى رأي النصحاء (من زعماء قريش ووجوه أهل الشام) حيث اشاروا عليه بالتدخل لإيقاف التصارع بين المسلمين ، حتى وإن كان ثمن ذلك التخلي عن صديقه الحجاج .

وبالفعل سيّر عبد الملك إلى العراق ابنه عبدالله وأخاه محمد حاملين اقتراحات الخليفة ، وكانت تدور حول نقاط أربع :

١ ــ عزل الحجاج إذا كان ذلك مطلب العراقيين .

٢ ــ مساواة العراقيين بالشاميين في العطاء .

٣ ــ عطاء ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه اميراً ما دام هو حياً وعبد الملك خليفة .

٤ ــ تعيين محمد بن مروان والياً على العراق .

وكان ردّ فعل الحجاج مؤلماً فقد اغتاظ من معاملة عبد الملك له هذه المعاملة وبعث اليه برسالة ينطق كل حرف من حروفها بالمرارة وخيبة الأمل، وحذره في نفس الوقت من موادعة العراقيين الذين لا يستقرون على موقف ، ونصحه بأن يأخذهم بالشدة .

أما ابن الأشعث فقد انحنى أمام وساطة عبد الملك ودعا رفاقه إلى الموافقة عليها ، لكن هؤلاء عارضوه بشدة ورفضوا أي نصيحة بالتخلي عن المعركة .

وكان ذلك من حسن حظ الحجاج ، فاستطاع أن يتخذ من الوقت حليفاً له، لما وصله من إمدادات كان آخرها جيش الموصل بقيادة محمد بن مروان ، وبينما كانت الحماسة قد فترت في جانب العراقيين ، الذين كانوا في معظمهم جنداً غير نظاميين ، كان على عكس ذلك ما آل اليه الحال في جيش الحجاج ، وأخيراً دارت المعركة الفاصلة في دير الجماجم ، وكانت أعظم معركة تشهدها البلاد منذ صفين حيث انتهت بهزيمة ابن الأشعث ، وفراره إلى البصرة ، لكن

الحجاج لحق به واشتبك معه في معركة عند مسكن انتهت بهزيمته أيضاً وفراره إلى سجستان ، ومنها التجأ إلى زنبيل ملك الترك ، لكن الحجاج أصرّ على مطاردته ففاوض زنبيل في أمر تسليمه وأغراه بالأموال ، فاستجاب بعدما تصلب بادىء الأمر ،لكن ابن الأشعث رفض السير إلى الحجاج ،لمواجهة انتقامه فغافل حرسه وألقى بنفسه من علو شاهق في مكان يقال له (الرخّج) فسقط جثة هامدة .

لقد كانت ثورة ابن الأشعث من أعنف الثورات التي قامت في وجه النظام الأموي ، ومن أشد الأزمات التي تعرض لها عامل الأمويين القوي ــ الحجاج بن يوسف ــ حيث كادت أن تطيح به ، لكنه خرج من الأزمة منتصراً بفضل شجاعته ورباطة جأشه ، فاستحق بذلك تقدير الخليفة ، وأصبح مركزه في الدولة أكثر قوة وصار من ثقاة البيت الحاكم، ومن أركان الدولة التي حماها من الأخطار ودفع عنها شر الثورات .

ولكن الحجاج لم يكتف بتحقيق الانتصار على ثورة ابن الأشعث ودفع قائدها إلى الانتحار ، إنما قام بحملة تطهيرية واسعة تجلت فيها قسوته وتعطشه إلى سفك الدماء ، الأمر الذي حمل عبد الملك على الاستياء منه ، فطلب منه توقيف هذه الحملة التي شهدت سقوط آلاف الضحايا ، وصبّ الحجاج جام غضبه على الموالي بصورة خاصة وعلى جماعات القراء الذين تعمّد إذلالهم قبل أن يأمر بإعدامهم .

ولا بد من كلمة أخيرة حول اخفاق هذه الثورة التي توفر لها من التأييد الشعبي والمناخ الملائم ما لم يتوفر لأية ثورة أخرى ، وعلى ضوء ذلك يمكننا إيجاز أهم عوامل الإخفاق في عدة نقاط ، بعضها يتعلق بشخصية قائد الثورة، والآخر يتعلق بالجيش وأمور التنظيم ، والظروف الأخرى التي كان لها دورها المهم في ترجيح كفة النصر لأي من الفريقين :

فبالنسبة للعوامل المتعلقة بقائد الثورة فهناك :

١ ــ التردد وعدم الاقتناع الكامل الخالص بالقضية التي كان يحارب من

أجلها ، فهو قد قام بثورته مدفوعاً بعامل الصراع والكراهية الشخصية بينه وبين الحجاج ، مستغلاً مشاعر العداء والكراهية التي كانت تكنها عناصر الجيش لحاكم العراق، فالظروف هي وحدها التي جعلته على رأس هذه الثورة، فهو قد كان ميالاً إلى المسالمة حتى في المواقف التي كانت تتطلب تصلباً أقوى ومجابهة أشد.

٢ ـ فقدان الانسجام بين تطلعات وأفكار قائد الثورة المتحدّر أصلاً من سلالة ملكية قديمة ، والطامع في تقلد ولاية من الولايات ، وبين الثوار الذين عانوا من استبداد العمال الأمويين وقاسوا الاضطهاد والحرمان ، وهذا ما رأيناه خلال المفاوضات التي سبقت معركة دير الجماجم ، حين ضعف ابن الأشعث أمام الوعد بالولاية ، بينما تصلب الثوار ورفضوا التخلي عن ثورتهم حتى ولو كان الحجاج ثمناً لذلك.

٣ ـ لم يكن ابن الأشعث تلك الشخصية الثائرة التي تستميت من أجل الدفاع عن مبادئها وتحقيق أهدافها ، وإنما كان شخصية سياسية مساومة مستعدة دائماً للتراجع وتغليب المصالح الخاصة على المبادىء ، ومن هنا فإن أول ما أصيبت به هذه الثورة هو فقدان الزعامة المؤمنة ، المتحمسة ، والمشاركة بالآلام والآمال .

أما الأسباب الأخرى فيمكننا حصر أهمها في ثلاث نقاط أيضاً :

١ ـ إن هذه الثورة ككل الثورات، لم يكن كل المنتمين اليها على مستوى واحد من العقيدة والاخلاص والاندفاع ، فإلى جانب المخلصين المندفعين وجد المخلصون غير المندفعين الذين كانت تخور عزائمهم عند أول صدمة ، كل ذلك فضلاً عن فريق الانتهازيين الوصوليين الذين انضموا إلى الثورة بعدما رأوا طلائع الفوز تلوح في الأفق طمعاً بما يمكن أن يحققه لهم نجاحها من مغانم.

٢ ـ ان غياب العنصر التنظيمي كان له أكبر الأثر في فشل الثورة أيضاً ، لأن الحماس مهما بلغ لا يكفي لتحقيق النجاح ، وعلى ذلك لا بد من الاعتراف بأن الثورة في الحقيقة كانت مرتجلة ، فبينما كانت تقابل حكماً راسخاً وجيوشاً

نظامية خبرت الحرب ، كانت في المقابل تضم بين صفوفها مجموعات شعبية غير منظمة وغير متجانسة .

٣ – لم يتأت للثورة بعد اندلاعها أو قبله أن تخلق قيادات شعبية تتولى التنظيم والاعداد والتوجيه ، بل كانت مضطرة للارتجال وترك الجماهير تقود بعضها بعضاً وتنظم شؤونها بنفسها ، وبعبارة موجزة لم يكن هناك من يمسك زمام الجماعات ويوضح لها الحقائق ويردها عن هزيمتها ، ويثمر فكره الاصرار والعناد في المقاومة (١) .

الخوارج

في الوقت الذي كانت فيه الفئات التي أتينا على ذكرها تنشط بين آونة وأخرى ضد بني أمية ، كان الذين ثاروا على عليّ يوم صفين لقبوله بالتحكيم وخرجوا عليه فعرفوا بالخوارج ، يتحركون في العراق والأقاليم الشرقيـــة تحركات تختلف قوة وضعفاً باختلاف قوة وضعف الحركات الأخرى ، ومقدرة السلطة وتوفر المادة البشرية والقادة ذوي الجرأة والمطامح والاندفاع الثوري المثالي ، وكان أوائل هؤلاء قد عارضوا فكرة التحكيم وأنكروا على عليّ قبولها ، وقالوا : « لا حكم إلا لله » ، أي أنه لا يجوز بنظرهم العدول عن حكم الله إلى حكم الأشخاص ، وكانت معارضتهم سلبية في باديء الأمر ، فاقتصروا على مضايقة عليّ لحمله على استئناف القتال ، ثم تحولت معارضتهم إلى حرب شعواء ، بعد العودة إلى العراق من صفين وذلك أنهم خرجوا إلى قرية حروراء – القريبة من الكوفة بزعامة عبد الله بن وهب الراسبي ، فعرفوا بـ « الحرورية » نسبة إلى هذه القرية ، لكن اسم الخوارج غلب عليهم ، وظل شاملاً جامعاً لمختلف فئاتهم وفرقهم .

---

١ - ابن الأعثم : ١٠١/٢ ظ – ١١٧ – ظ.تاريخ خليفة : ٣٦٢/١ – ٣٧٣.الأخبار الطوال : ٣١٦ – ٣٢٤ . الطبري : ٣٢٦/٦ – ٣٨٣ . اليعقوبي : ٢٧٧/٢ – ٢٨٠ . تاريخ الخلفاء : ٢٨١ – ٢٩٥ ، ٣١٤ – ٣٢٤ . مروج الذهب : ١٣٢/٣ – ١٦٤ . فلهوزن : ٢٢٤ – ٢٣٦.

ويبدو أن علياً لم يأبه أولاً كثيراً لخروج هذه الجماعة ، فانصرف إلى متابعة الاعداد للقتال مع معاوية بعدما أخفق التحكيم ، لكن تطرف الخوارج في آرائهم الدينية ، وتكفيرهم لعلي وغيره من الصحابة ، حمله على قتالهم ، سيما بعد أن علم بتعرضهم لأحد الصحابة وهو عبدالله بن خبّاب بن الأرت ، وقتله مع زوجته لأنه رفض موافقتهم على آرائهم ، فانتصر علي عليهم في معركة النهروان ، وقتل زعيمهم ابن وهب ، ومع ذلك لم تكن النهروان خاتمة الصراع مع الخوارج ، بل كانت بداية حروب طويلة خاضوها ضد علي أثناء حياته ثم ضد معاوية وحلفائه الامويين ، وامتدت كذلك إلى الدولة العباسية ، ولكنها لم تصل آنئذ في عنفها وشدتها إلى ما كانت عليه زمن الدولة الاموية، وكان موقفهم من معاوية لا يختلف عن موقفهم من علي ، فكلاهما كان بنظرهم كافراً ، يجب القضاء عليه ، لذلك تآمروا على تصفية الرجلين ، فنجحوا في اغتيال علي واخفقوا مع معاوية حيث ساعدته الظروف لينجو من الاغتيال ، وحين ذهب معاوية لأخذ البيعة من أهل الكوفة هاجمه الخوارج ، ولكنه تخلص منهم أيضاً وحاربهم بأهل الكوفة .

ومنذ ذلك الحين لم تتوقف هجمات الخوارج سواء على البصرة أو الكوفة أو سواهما من الحواضر ، وكان هذا حافزاً للعمال الأوائل لأن يهتموا بأمر الخوارج ويدفعوا خطرهم ، وقد نجحوا في ذلك لا سيما زياد ثم ابنه عبيدالله الذي تفرغ لقتالهم ، واستئصالهم من البصرة ، حتى اضطرهم للهرب إلى الأهواز التي ما لبثوا أن اتخذوها قاعدة للهجوم على البصرة ، وكانت طريقتهم هذه المرة أشبه ما تكون بحرب العصابات ، فكان أن عانت البصرة الكثير من وطأة هجماتهم المتكررة ، وأخفقت جيوش ابن زياد في وضع حد لنشاطهم العسكري إلا بعد أن أخذهم بالخدعة وقتل زعيمهم أبو بلال بن أديه .

بعد ذلك انصرف الخوارج إلى تجميع قواهم من جديد واستئناف النضال ضد الأمويين . فانتخبوا زعيماً جديداً هو نافع بن الأزرق ، وفي عهده نحت الخوارج استراتيجية جديدة حين اتصلوا بابن الزبير في الحجاز ، ووجدوا في ثورته فرصة مواتية لضرب الخلافة الأموية ، وقاتل الخوارج بالفعل مع ابن

الزبير واشتركوا في الدفاع عن مكة أثناء حصار الحصين بن نمير السكوني لها ، ولكن تحالف الخوارج مع ابن الزبير لم يدم طويلاً ، ففارقوه إلى العراق سنة ٦٤هـ / ٦٨٣ م بعد أن وجدوا اختلافاً كبيراً في وجهات النظر بينهما .

وفي أثناء ذلك كانت البصرة مسرحاً لتطورات سياسية جديدة ، فقد تمرّد أهل البصرة بعد موت يزيد ، وطردوا ابن زياد تعبيراً عن سخطهم على الحكم الأموي ولكن تنافس القبائل على السلطة في المدينة ، فتح الباب أمام الخوارج لاستغلال الظروف لصالحهم ، واستئناف نشاطهم العسكري ، وأخذت البصرة تتعرض من جديد لهجماتهم التي نشرت الرعب بين السكان ، الأمر الذي دعا المدينة لتناسي خلافاتها واختيار مجموعة من أبنائها لقتال الخوارج ، وفي نفس الوقت استنجدت بابن الزبير طالبة منه ارسال شخص يتولى أمرها ويدافع عنها ضد الخوارج فاستجاب إلى تعيين المهلب بن أبي صفرة(١) .

الحجاج والخوارج

كانت غالبية الخوارج على غاية من التطرف والمثالية العقائدية في الفكر والتطبيق ، وقد عرضهم هذا التطرف مع انعدام المرونة إلى عدة أزمات أدت

---

١ – جاءت بعض أخبار الخوارج متناثرة في مصادرنا الأولى دون كبير عناية أو تفصيل ، ويعتبر المبرد من أكثر الكتاب مادة عن الخوارج في كتابه الكامل ، كما أن ابن الأعثم أولاهم عناية خاصة ، وفي القرن السادس هـ قام البياسي في كتابه الاعلام بجمع أخبار الخوارج ولم ينشر ما وصلنا من كتاب البياسي بعد دار الكتب المصرية : ٣٩٩ تاريخ ، هذا وفي كتاب أنساب الأشراف للبلاذري مادة جديدة عن الخوارج ، كما أن كتب الفرق تحوي مادة لها قيمة خاصة عنهم. انظر الكامل في الأدب : ٣/٨٩٠ – ١١٦٦ . أنساب الأشراف : ٢/٣٣٨ – ٤٨٧ ، ٤/١ . ابن الأعثم : ١/١٤٩ و – ١٥٩ و ، ٢/٦٠ و ١٠١ ظ . تاريخ خليفة : ١/٢٢٤ – ٢٢٧ ، ٢٦٠ – ٢٦٥ ، ٣٢٢ ، ٣٥١ – ٣٥٤ . الطبري : ٥/٦٤ – ٩٣ ، ١٨١ – ٢٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ – ٢٣٨ ، ٥٦٣ – ٥٦٩ – ، ٦١٣ – ٦٢٢ ، ٦/٧٤ ، ١٩٥ – ١٩٩ ، ٢١١ – ٣١١ . الأخبار الطوال : ٢٠٢ – ٢٠٥ ، ٢٦٩ – ٢٧١ . اليعقوبي : ٢/٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٢ ، ٢٧٤ – ٢٧٦ . تاريخ الخلفاء : ١٠٧ – ١١٦ ، ٢٢١ ، ٢٦٣ – ٢٧٩ . مروج الذهب : ٣/١٤٣ – ١٤٧ .

إلى تمزق صفوفهم وتحولهم إلى عدد من الفرق جعلها البعض تتجاوز العشرين، وبعدما أصبح المهلب بن أبي صفرة مسؤولاً عن حرب الخوارج تعرضوا إلى عدة أزمات فانقسموا على بعضهم ، ومع هذا فقد ظلت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق أقوى فرقهم وأكثرها عدداً ونشاطاً ، وأشدها خطراً ، فهذه الفرقة هي التي قادت النشاط الخارجي زمن ابن الزبير ثم طيلة أيام حكم الحجاج للعراق ، وهي التي قاتلها المهلب وانتصر عليها في عدة معارك ، وقتل زعيمها في احداها ، ولا بد من الاعتراف ان ابن الزبير كان موفقاً في اختيار هذا القائد المحنك الشجاع ، الذي استبسل في قتال الخوارج وتمكن من كسر شوكتهم ، وظل يقوم بهذه المهمة طوال عهد عبدالله بن الزبير ، حتى إذا رجع العراق إلى السيادة الاموية أصبح المسؤول الرسمي عن حرب الخوارج عاملا الكوفة والبصرة (بشر بن مروان وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد)، ورغم ذلك فإن عبد الملك نفسه مهد السبيل للمهلب لمتابعة قتالهم ، ولكن موقفه تحرّج ، بسبب أن العلاقة بينه وبين أمير الكوفة كانت سيئة فلم يمدّه بالجيوش اللازمة في الوقت الذي اشتد فيه خطر الخوارج على يد زعيمهم قطري بن الفجاءة وهنا أرسل المهلب كتاباً إلى الخليفة جاء فيه : « فإما بعثت إليّ بالرجال وإما خليت بينهم وبين البصرة » .

وبعد قليل من الوقت جاءت الاخبار تنعي بشر بن مروان في أول سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤ م ، فسارع عبد الملك إلى تولية قائده الحجاج بن يوسف على العراق ، وأمره بأن يوقف كل جهوده لمسألة الخوارج ، وفعلا بدأ الحجاج فور وصوله بتجنيد أهل العراق والحاقهم بالمهلب ، ومما قاله في خطبته الأولى حول هذا الموضوع : « ألا وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم اعطياتكم واشخاصكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب ، وقد أمرتكم بذلك وأحليت لكم ثلاثاً وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به ويستوفيه مني أن لا أجد أحداً من بعث المهلب بعدها إلاّ ضربت عنقه وانتهبت أمواله » .

ودارت إثر ذلك معارك طويلة بين المهلب والأزارقة لكن دون الوصول

إلى نتيجة حاسمة ، على أن الخوارج ما لبثوا أن دبّ بينهم الخلاف حين تمرد على قطري أحد قواده الكبار وهو عبد ربه الكبير ، فتركهم المهلب يقتتلون دون أن يستعجل الهجوم عليهم ، حتّى إذا أنهكهم القتال الداخلي حاربهم كل على حدة ، فهزمهم ، وقتل قائديهم قطري وعبد ربه الكبير .

وبذلك تم للحجاج ، بفضل المهلب اخماد حركات الخوارج الأزارقة ، وتقديراً لما قام به المهلب كافأه الحجاج بولاية خراسان وكانت أهم الولايات الشرقية ، وقد ظل يتقلدها حتّى وفاته ، ثم انتقلت إلى ابنه يزيد فبقي والياً عليها ردحاً من الزمن حتّى ساءت العلاقات بينه وبين الحجاج .

على أن خطر الخوارج لم ينته بهزيمة الأزارقة وكسر شوكتهم ، فقد استمرت فرقة أخرى منهم تعبث بأمن البلاد ، وهي فرقة الخوارج الصفرية ، وقد اشتد خطرها حين قام صالح بن مسرح في سنة ٧٦هـ / ٦٩٥ م على رأس جماعة منها بالهجوم على الجزيرة ، وانضم اليها شبيب بن يزيد الذي يبدو أنه كان بالاصل من الازارقة وأوقع هؤلاء الهزيمة بجيشين أرسلهما عامل الجزيرة محمد بن مروان . فلما وصلت هذه الاخبار إلى الحجاج أرسل اليهم جيشاً من أهل الكوفة فتمكن من الانتصار عليهم وقتل قائدهم صالح ، فانتقلت زعامتهم إلى شبيب بن يزيد .

ولقد قوي أمر الصفرية في عهد شبيب وعلا شأنهم ، فاستولوا على المدائن ، وهزموا خمسة جيوش أرسلها الحجاج وقتلوا قوادها ، ووصل بهم الامر إلى تهديد الكوفة نفسها ، فغادرها الحجاج متخذاً طريق البصرة ، بينما دخلها شبيب وأقام في قصر الإمارة يأخذ البيعة باسم امير المؤمنين ، وأدرك الحجاج خطورة الوضع فأرسل إلى عبد الملك يستنجده فأرسل له فرقة من الجند الشاميين وعندما توفر له ذلك حارب الخوارج وانتصر عليهم ، فغادروا الكوفة إلى الاهواز ، وفي الطريق مات شبيب غرقاً في نهر دجيل أثناء مطاردة جيوش الحجاج له ، أما اتباعه فقد تابعوا هروبهم إلى كرمان ، وهكذا أمكن للحجاج

أن يقضي على خطر الخوارج الذين هددوا العراق طوال خلافة عبد الملك وإمارته ، فكانت حركاتهم من أخطر الحركات التي تعرضت لها الدولة الاموية . (١)

الخوارج بعد الحجاج

ولما جاء الوليد إلى الحكم وجد حكماً مستتباً ونظاماً ثابتاً الامر الذي ساعده على استئناف حركة الفتوح بهمة ونشاط ، ذلك ان الخوارج ضعف شأنهم في عهده وزال خطرهم أو كاد ، ولم نسمع في عهد سليمان عن أي نشاط لهم يذكر ، ولكنهم عادوا إلى الثورة في خلافة عمر بن عبد العزيز ، حين خرجوا في العراق وعلى رأسهم رجل يقال له شوذب . فأرسل اليهم الخليفة، مسلمة بن عبد الملك فأوقع بهم الهزيمة ، ثم أرسل اليهم يحاورهم في أمر عقيدتهم فاستكانوا إلى حين ، ولكنهم عادوا إلى الثورة بعد وفاة عمر بقيادة شوذب نفسه واستطاعوا أن يهزموا عدة جيوش أرسلها يزيد بن عبد الملك ، وظل الحال كذلك حتى تصدى للأمر مسلمة بن عبد الملك فجمع جيشاً من عشرة آلاف مقاتل ، جعل عليه سعيد بن عمرو الحرشي وأمره بالمسير لقتال شوذب ، فاستطاع أن يقضي على شوذب وأتباعه بعد معارك طاحنة .

وفي عهد هشام عاد الخوارج إلى الثورة بجوار الموصل بزعامة رجل ادعى الألوهية يقال له بهلول بن بشر ، فبعث أمير الكوفة خالد بن عبد الله القسري جيشاً للقضاء عليه ، ولكن هذا الجيش هزم على الرغم من تفوق عدده ، عند ذلك قام هشام بارسال عدة جيوش من الشام والعراق والجزيرة تمكنت من القضاء على بهلول وحركته ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد للخوارج أي نشاط ملحوظ في العراق . (٢)

---

١ – مصادر الحاشية السابقة .

٢ – تاريخ خليفة : ٥٠٩/٢ ، ٥٢٥ ، ٥٢٩ ، ٥٦٨ ، ٥٨٢ – ٥٨٨ . الطبري : ٥٥٥/٦– ٥٥٦ ، ٥٧٥ – ٥٧٨ ، ٣١٦/٧ – ٣٢٣ ، ٣٤٤ – ٣٩٦ . سيرة عمر بن عبد العزيز : ٧٠، ٧٥ ، ١٠٨ .

نشاط الخوارج خارج العراق

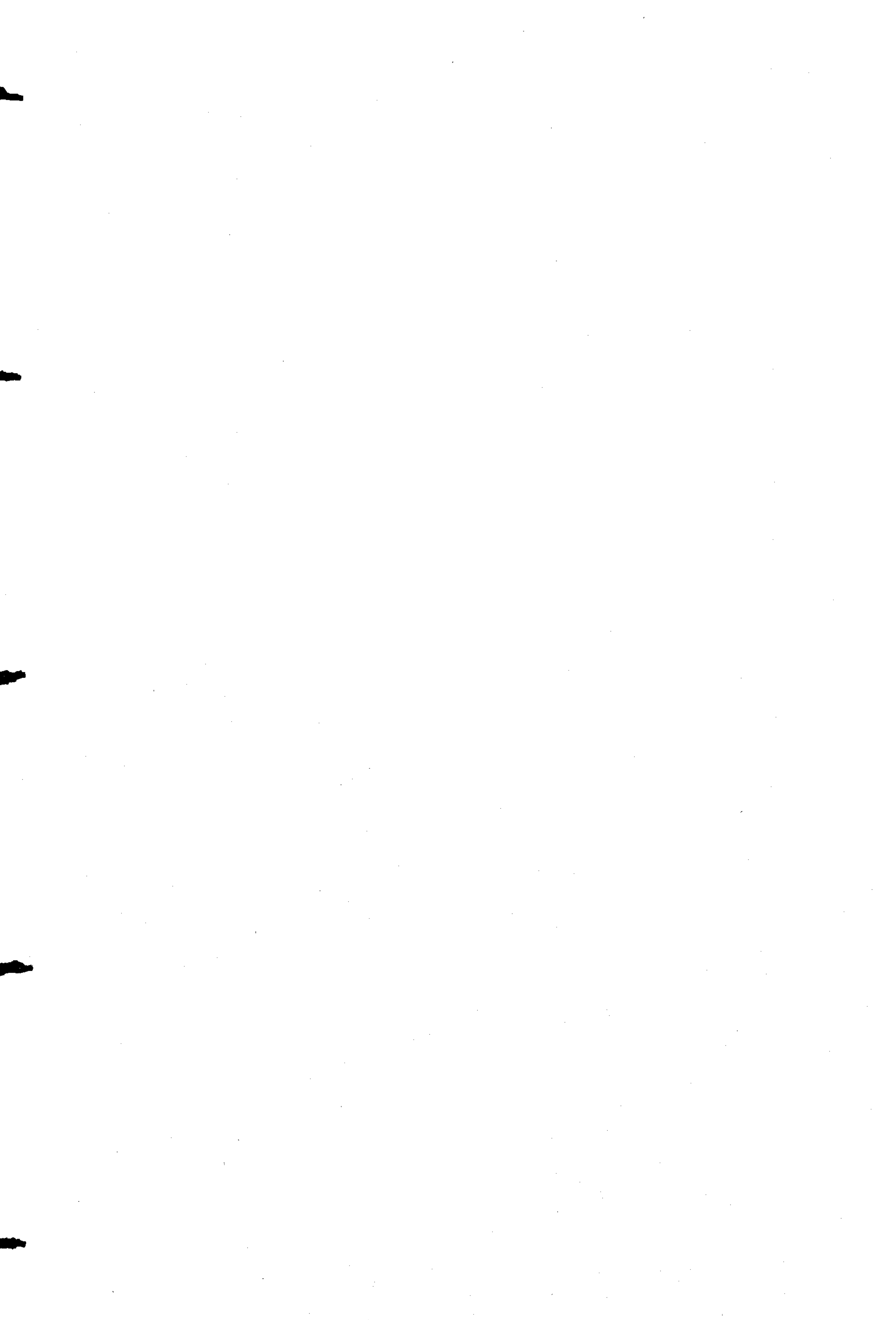
لم يكن العراق وحده مسرحاً لثورات الخوارج ، فقد امتد تأثيرهم إلى شبه الجزيرة العربية على يد نجدة بن عامر بعد اختلافه مع نافع بن الأزرق . فذهب نجدة إلى اليمامة حيث بايعته قبائلها من بني حنيفة ، ثم ارتفع شأنه بعد استيلائه على البحرين وعُمان ، وأخذ نشاطه يمتد حتّى بلغ اليمن وحضرموت ، أما علاقات نجدة بابن الزبير فكانت حسنة أول الأمر ، حتى أن نجدة اشترك معه في صد عدوان الحصين بن نمير على مكة ، ولكن هذه العلاقة لم تتطور أكثر من ذلك .

على أن الأمر اختلف حين قـام الحجاج بالهجوم على مكة ، فتحالف معه مدة ، ويقال أن عبد الملك دعاه بعد سقوط المدينة إلى طاعته فاستجاب لذلك مقابل تقليده اليمامة ، ولكن أنصاره نقموا عليه وقتلوه ، وبعد موته ضعفت الخوارج النجدات وانقسمت إلى عدة فرق ، وكانت أهم هذه الفرق تلك التي تزعمها أبو فديك عبد الله ، الذي انتهى أمره هو الآخر في سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م حين أرسل عبد الملك جيشاً من الكوفة انتصر عليه وقضى على اتباعه.

وهكذا قدّر لعبد الملك أن يقضي على خطر الخوارج في العراق وشبـه الجزيرة العربيـة ، بعد أن ظلوا لسنوات طويـلة يعبثون بالأمن وينشرون الارهـاب في البلاد التي كانت مسرحـاً لنشاطهم ، والواقع أن حركات الخوارج وإن كانت موجهة ضد الحكم الأموي الذي وصفوه بالجائر ، إلاّ أنها كانت مقودة بضعف الفكر وعدم صحة الرؤيا ، ذلك أنهم خلال ثوراتهم التي زعموا أنها طلباً للاصلاح كانوا لا يتورعون عن سفك الدمـاء وسلب الناس وارتكاب الفظائع ، وظلوا طيلة هذه الفترة معلنين النقمة على الحكم الأموي وثـائرين عليه ولكن بمنـاهج غامضة ، وخطط مبهمة وتعصّب مجنون .

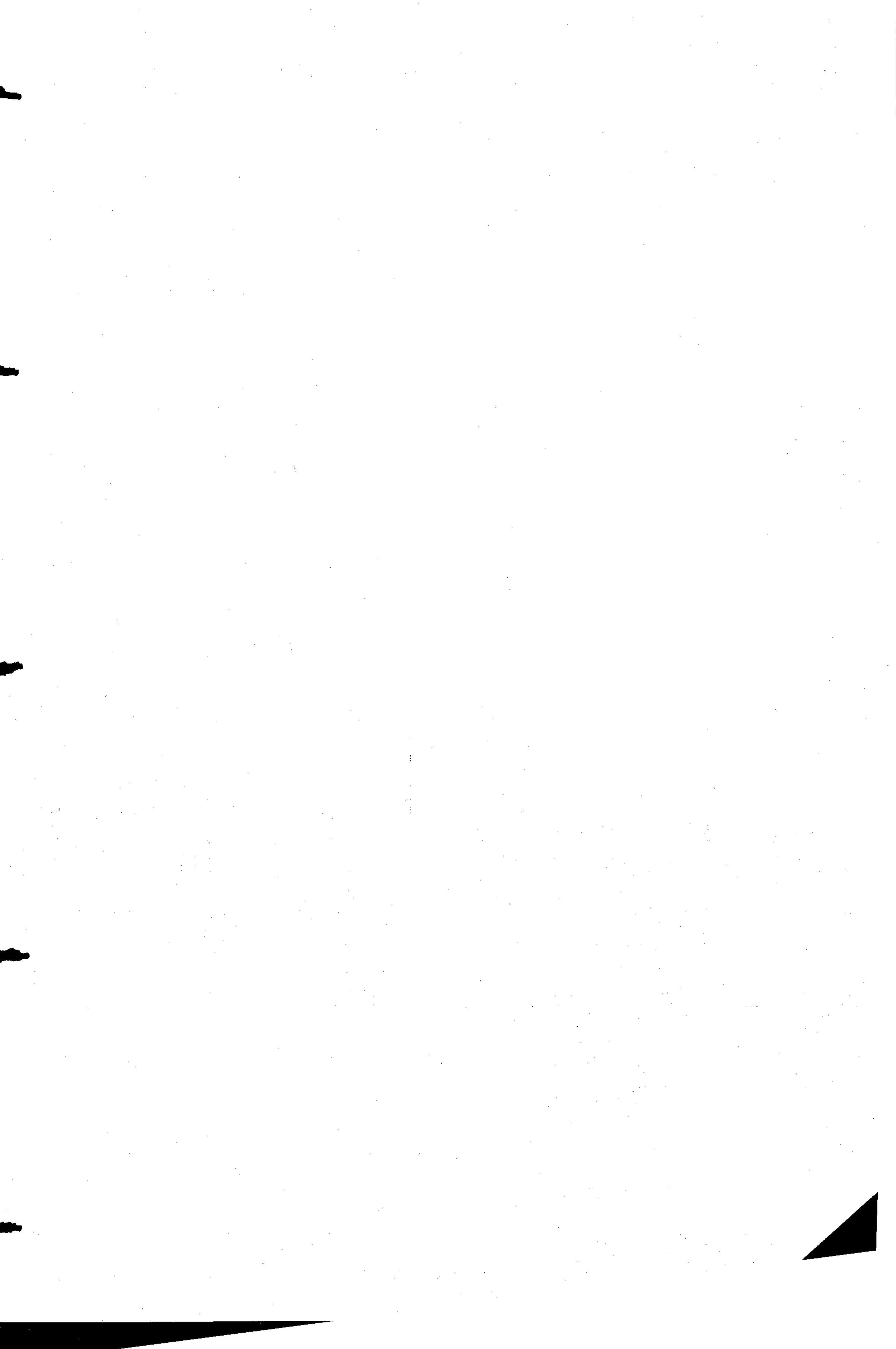
---

١ – تاريخ خليفة : ٣٥١/١ . الطبري : ١٧٤/٦ ، ٢١٦ – ٢٢٣ .



الفصل الثاني

دور الاستقرار الداخلي والتوسع الخارجي



سياسة التوسع الخارجي

متابعة أعمال الفتوح في المشرق

فتح بلاد ما وراء النهر

بعد أن نجح عبد الملك وقائده الحجاج في القضاء على حركات الخوارج واخماد نار الثورات الأخرى ، التي هزّت السلطة وشغلت جيوشها لسنوات طويلة ، أصبح بامكان الدولة أن تعطي اهتماماً أكثر للسياسة الخارجية وتستأنف أعمال الفتوح على أوسع نطاق ، وعندما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة ، استطاع أن يقطف ثمرة الجهود الجبارة التي بذلها والده في سبيل الاستقرار واعادة وحدة الدولة ، وأن يتفرغ لسياسة الفتح دون أن يعوقه عائق .

ففي الشرق قلّد الحجاج قائده المهلب بن أبي صفرة ولاية خراسان ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م تقديراً لما قام به من جهود ضد الأزارقة ، وما لبث هذا الوالي الجديد أن بدأ نشاطه العسكري في هذه الجهات فعبر نهر بلخ ونزل على مدينة كش وأقام فيها سنتين ، ثم وجه ابنه حبيباً في أربعين الفاً إلى بخارى فاشتبك في مناوشات مع أهلها دون أن تؤدي إلى نتيجة حاسمة ، وغادر المهلب كش بعد أن صالح أهلها على جزية يؤدونها له ، وكان في نيته أن يغزو بلاد الصغد لكنه علم بوفاة ابنه المغيرة في مرو فآثر الرجوع اليها حيث مات هو الآخر بعد مدة قصيرة في سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م .

خلف يزيد بن المهلب أباه في ولاية خراسان ، وسار على سياسة أبيه التوسعية ولكن الخلاف ما لبث أن وقع بينه وبين الحجاج فعزله وولى مكانه أخاه الفضل ، فمكث بضعة شهور قام خلالها ببعض الغزوات ، قبل أن

يعزله الحجاج أيضاً ويولي قتيبة بن مسلم الباهلي ، وكانت الخلافة حينذاك قد انتقلت إلى الوليد بن عبد الملك ؛ وفي عهد هـذا الخليفة أخذت العمليات العسكرية شكلا منظماً على جميع الجبهات .

ففي جبهة بلاد ما وراء النهر قام قتيبة بغزو الصغانيان فتلقاه ملكها بالهدايا والأموال ، ثم سار إلى شومان وآخرون وصالح ملكيهما أيضاً ، ولكن ملك شومان ثار عليه وطرد عامله ، فرجع قتيبة اليه وضرب حصونه بالمجانيق ، وجرت معركة بينهما قتل فيها الملك المتمرّد .

وقام قتيبة بعد ذلك بسلسلة من الغزوات في بلاد الصغد استغرقت سنوات متوالية ، وكان أقسى هذه الغزوات على قتيبة تلك التي قام بها إلى (بيكند) سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ م وكانت أدنى مدن بخارى إلى نهر جيحون ، ففتحها بعد قتال شديد ، ثم عبر قتيبة نهر جيحون إلى بخارى — وكان العرب قد غزوها عدة مرات دون أن ينالوا منها — فحاصرها بدوره أيضاً ، ولما أبت عليه استشار الحجاج ، فطلب منه أن يصورها له ، فأجابه إلى ذلك ؛ فرد عليه الحجاج بوضع خطة جديدة لحصارها . ولما أعاد قتيبة المحاولة تمكن من اخضاعها سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ وكان لذلك تأثير كبير على سير الفتوح في هذه المنطقة ، إذ أخذت مدن الصغد تتساقط أمام جيوش قتيبة .

وفي نفس الوقت كانت جيوش لقتيبة وعماله يقاتلون في طخارستان صاحب القلعة الشهيرة (باذغيش) المعروف بنيزك وكان هذا يحارب الوجود العربي في هذه الجهات بشراسة ، ويحرض ملوك بلخ والطالقان وغيرهما ضد العرب ، لكن قتيبة تمكن من قتله سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ م

وفي سنة ٩٣ هـ / ٧١١ م امتدت فتوحات قتيبة إلى مدن واحة خوارزم على دلتا نهر جيحون ، فصالحه ملوكها ، كما امتدت فتوحاته أيضاً إلى الممالك التي كانت واقعة على نهر سيحون وكانت متاخمة لبلاد الترك ، فغزا (الشاش) و (فرغانة) سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م ووصل إلى (كاشغر) على تخوم الصين سنة

٩٦ هـ / ٦١٤ م وهي السنة التي مات فيها الوليد بن عبد الملك ، فتوقف قتيبة عن المضي في فتوحاته وعاد إلى قاعدته في مرو .

فتح بلاد السند

تعود صلات العرب ببلاد السند (وهي البلاد الواقعة شرقي ايران على ساحل بحر الهند) إلى ما قبل الإسلام ، وكانت في طبيعتها الأولى تحمل الطابع التجاري ثم تحولت هذه الصلات ، بعد ظهور الإسلام إلى اهتمام بغزو هذه البلاد البعيدة التي أطلق عليها العرب اسم ثغر الهند ، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب أرسل عامله على عُمان حملة بحرية إلى السند ، وهي حملة كانت على ما يبدو استكشافية وكان خروجها بدون رأي الخليفة لذلك غضب منه ولامه ، وفي عهد عثمان جرت محاولة لغزو الهند عندما قام عامل العراق – بأمر من الخليفة – بارسال شخص إلى هذه البلاد لاستطلاع أحوالها ويبدو أن التقرير الذي قدمه مبعوث الوالي العراقي لم يكن مشجعاً لغزوها ، فصرف الخليفة النظر عن ذلك .

ولما تسلم معاوية زمام الخلافة وجّه اهتمامه إلى ثغر الهند لا سيما في حكم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله في العراق ، حيث قاما بسلسلة من العمليات العسكرية الناجحة في هذه الجهات .

ولكن خطة الفتح المنظم للهند لم تقم إلاّ في أيام الوليد ، وكانت بدون شك جزء من الخطة العامة التي جرى تنفيذها على عدة جبهات في عهد هذا الخليفة ، وكان محمد بن القاسم الثقفي على رأس الحملة التي جرى تشكيلها في سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م من الجند الشاميين ، وكان محمد هذا أحد أقارب الحجاج ، وتصفه لنا المصادر التاريخية بأنه كان شجاعاً مقداماً تمثلت فيه مزايا القائد العبقري .

ولقد سار محمد بجيشه من مكران نحو الديبل (كراتشي اليوم) الواقعة على ساحل بحر الهند فحقق على أرضها عدة انتصارات عظيمة وتمكن من فتحها بعد حصار طويل ، ثم تحوّل عنها إلى شمال الهند حيث نجح في اخضاع عدد من المدن ، بعضها استسلم له صلحاً وبعضها عنوة ، وفي الطريق تصدى له داهر الذي تصفه مصادرنا بملك السند وكان على رأس جيشَ كبير ، فدارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار ساحق للعرب وهزيمة داهر ومقتله مع عدد كبير من أصحابه .

وكان من أهم نتائج هذا الانتصار أن أصبح طريق العاصمة راور ممهداً أمام القائد العربي فدخلها ، ثم عبر نهر بياس في طريقه إلى ملتان – المدينة المقدسة – فقاومه أهلها ، وعند ذلك ضرب حولها الحصار وقطع عنها المـــاء حتى استسلمت له ، واستجابت لشروطه ، وهي قتل المقاتلة وسبي الذريّة ، فدخلها محمد وأطلق عليها اسم المعمورة بدلاً من ملتان، وبذلك تحقق للعرب السيادة على بلاد السند بفضل المنجزات العسكرية الضخمة التي قام بها محمد بن القاسم الثقفي ، الذي لم يقف نشاطه عند ملتان ، وانما تابع توغله في شمالي السند حتى بلغ كشمير قبل أن تتوقف الفتوح في هذه الجهات بوفاة الخليفة الوليد . (١)

الجبهة البيزنطية

بعدما انتزع العرب بلاد الشام والجزيرة من الامبراطورية البيزنطية ، لم يتابعوا زحفهم شمالاً نحو العاصمة البيزنطية مثلما صنعوا على الجبهة الساسانية،

---

١ – البلاذري : ٣٨٥ – ٤٣٢ . تاريخ خليفه : ٣٩٩ ، ٤٠٤ – ٤٠٨ . ابن الأعثم : ٢/٩٠ و – ٩٣ ظ، ١٣١ظ – ١٣٢ و، ١٣٤ و – ١٦٢ ، الطبري: ٦/٣٢٥ – ٣٢٦ ، ٣٨٦ – ٣٨٨ ، ٣٩٧ – ٣٩٨ ، ٤٢٤ – ٥٠٤ ، الأخبار الطوال : ٣٢٧ . تاريخ الخلفاء : ٣٠٠ – ٣١١ . اليعقوبي : ٢/٢٨٧ – ٢٩٠ .

فهنا على الجبهة البيزنطية توقف العرب عند سفوح جبال طوروس ، ولم تندفع جماعاتهم داخل آسية الصغرى ، فتتخذ من أراضيها موطناً جديداً كما كان الحال بالنسبة للأراضي الساسانية ، هذا مع الاقرار بأن العرب لم يتوقفوا عن الغارة على آسية الصغرى وحتى على القسطنطينية نفسها ، لكن الغارة للتدريب والنهب وارهاب العدو شيء والفتح والهجرة شيء آخر ، ويتساءل الانسان عن الأسباب التي منعت العرب من فتح أراضي بيزنطة والهجرة إليها ، وعندي أن ذلك يعود الى عدة عوامل أهمها عامل المناخ والربح المادي ، فالأراضي البيزنطية كانت أراضي تختلف في مناخها وشدة بردها عن الأراضي الأخرى التي احتلها العرب ، ثم إن العيش فيها لم يكن سهلاً وكانت أرباحه المادية ضئيلة ، ثم إن احتلال آسية الصغرى وبعد ذلك القسطنطينية كان يحتاج إلى جهود مضنية طويلة ، وما كان ليتسنى للدولة الأموية الوقت الكافي مع الاستقرار الداخلي لبذل مثل هذه الجهود ، ثم إن طبيعة النظام الأموي ومكان الجيش فيه ما كان ليسمح أبداً بابقاء القوات المحاربة في جبهة واحدة بسبب أمن الدولة وبسبب رغبات قادة الجند او الأفراد بالحصول على المرابح الوفيرة بأرخص السبل وأقلها جهداً .

هذا ومن المعلوم أن بيزنطة كانت عدواً في غاية الخطورة بالنسبة للدولة الأموية ، لأن أراضيها كانت متاخمة لبلاد الشام وقريبة من دمشق العاصمة حيث يمكن تهديدها بواسطة البر أو بوساطة إنزال بحري في السواحل القريبة منها وهذا ما حدث بالفعل .

وحين لم تهاجر القبائل العربية المواكبة للجيوش الى الأراضي البيزنطية نجد أن السياسة الأموية تجاه بيزنطة انطلقت من عقيدة الهجوم الدائم على أراضي العدو بغية ردعه عن الهجوم وبغية تدريب القوات الأموية مع احداث الدمار بشكل مستديم في منطقة الحدود ، وأدى هذا إلى توضيح الخطوط لحدود شبه ثابتة بين بيزنطة والدولة الأموية ، وستتحول هذه الحدود فيما بعد إلى

أماكن دفاعية وذلك بعد سقوط الدولة الأموية واتخاذها من العراق مركزاً ومن المشرق ساحة نشاط وعمل شاغل دائم .

وتعرف الأعمال التنفيذية للسياسة الحربية الأموية تجاه بيزنطة عادة بنظام الصوائف والشواتي ، ويذكر بعض الرواة أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي ابتدع هذا النظام ثم إن عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الأموية هو الذي أولى هذا النظام عناية خاصة حتى أصبح أمراً دائماً ، وقام هذا النظام على ارسال حملات أموية لتتوغل داخل الأراضي البيزنطية مغيرة عليها مرة في الصيف وأخرى في الشتاء ، هذا ولم تحقق هذه الحملات نجاحات ملحوظة لها صفة الديمومة ، كما أنها كانت تصاحب الاخفاق في كثير من الأحيان ، ذلك أنها فقدت بشكل شبه دائم عنصر المفاجأة ، فسكان شمال بلاد الشام مع أجزاء كبيرة من الجنوب وكثير من رجال الادارة الأموية كانوا يدينون بنفس العقيدة التي كانت تدين بها بيزنطة ، لذلك كانت بيزنطة تعرف دائماً وبشكل مسبق أخبار الحملات وغاياتها وما لها وما عليها ، وكانت بيزنطة تملك من المقدرة ما يمكنها من الاستعداد التام قبل وصول الخطر بوقت فيه الكفاية .

هذا وقد أرسل بعض خلفاء بني أمية — كما سنرى — عدة حملات ضد القسطنطينية ، كان نصيبها الاخفاق بسبب ما شرحناه من قبل وما بيناه عن طبيعة الجيش الأموي وتركيبه مع علاقته بالسلطة ، يضاف إلى هذا أن القسطنطينية أثبتت دائماً أنها قادرة على البقاء ، بحكم حصانتها وتفوقها البحري ، ثم لضعف الخطط العربية التي رسمت لاحتلالها ، حيث أن العرب صرفوا معظم جهدهم من الجهة الآسيوية وكان عليهم أن يقوموا بعزل القسطنطينية من الجهة الأوروبية حتى يمنع عنها العون الأوروبي كما فعل آل عثمان فيما بعد .

وإذا كان هذا هو الحال على الصعيد العربي ، فإن بيزنطة بدورها كانت تسعى لاستعادة بلاد الشام ، لذلك لم تدع فرصة مؤاتية كانت الدولة الأموية

فيها في حالة عدم استقرار إلا واقتنصتها فأغارت على السواحل الشامية حيناً وسعت إلى تهديد دمشق في حين آخر وذلك عندما أنزلت جماعات من سكان الجبال الفاصلة بين آسية الصغرى والشام ، والذين عرفوا باسم الجراجمة ، عندما أنزلتهم على السواحل الشامية أو دفعتهم لسكنى جبل لبنان واستغلتهم أحسن استغلال لتهديد دمشق في أوقات الأزمات وسواها ، وهؤلاء الجراجمة الذين غير معروفة تماماً أصولهم أثاروا الشغب دائماً ضد دمشق ، فلقد نشطوا نشاطاً كبيراً أيام معاوية أثناء صراعه مع علي ، ثم ثاروا فيما بعد على عبد الملك الذي عمل على استمالتهم مقابل مبالغ من المال دفعها إليهم ، ثم بحذوه حذو معاوية في عقد هدنة مع الامبراطورية البيزنطية مقابل دفعه لها مبالغ من المال ، وبالمناسبة من المفيد الاشارة إليه أن العلاقات الأموية البيزنطية لم تكن دائماً ذات سمات عدائية حربية بل تخللها أحياناً فترات سلم وتبادل للسفارات والهدايا وغير ذلك .

هذا وما أن استتب الأمر لعبد الملك حتى أرسل حملة إلى معاقل الجراجمة قضت على ثورتهم ، ودفعت معظمهم إلى ترك معاقلهم والنزوح من جديد إلى آسية الصغرى . بينما بقيت مجموعة منهم في جبل لبنان ، فاندمجت مع سكانه الأصليين .

كما نقض عبد الملك اتفاقه مع الامبراطور البيزنطي حين أرسل حملة لغزو بلاده سنة ٨٣ هـ / ٧٠٢ م فانتصرت على جيش بيزنطي كبير داخل آسية الصغرى ثم أخذت منذ ذلك الوقت الحملات التقليدية أو حملات الصوائف والشواتي تأخذ طريقها إلى بلاد البيزنطيين وتتوغل فيها فكانت أبرز ما ميز العلاقات العسكرية بين دمشق والقسطنطينية في عهد هذا الخليفة ، وقد تم الاستيلاء بفضل ذلك استيلاءاً موقتاً على عدد من الحصون المهمة ، ولم يكن الهدف كما هو واضح التمهيد لفتح القسطنطينية من خلال هذه العمليات البسيطة بقدر ما كان الهدف من ورائها اضعاف دولة البيزنطيين ، وحماية الحدود من غزواتها .

وفي عهد الوليد تابعت حملات الصوائف والشواتي نشاطها حيث قادها اثنـــان من كبار قـــادة الأمويين وهما : مسلمة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد ، فاستولت حملة في سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م على الطوانـــة التي كانت واقعة على الطريق المؤدي إلى القسطنطينية ، وكان لسقوطها دويٌ كبير في عاصمة الخلافة نظراً لأهميتها وشدة تحصينها ، وقد أوقع العرب خســـائر جسيمة في صفوف البيزنطيين واستولى العرب على كميات كبيرة من الأسرى حملوها معهم مع الغنائم الهائلة التي حصلوا عليها .

وتابع العرب عامئذ توغلهم في آسية الصغرى ، فسقطت في أيديهم عدة حصون أخرى مثل سلوقية ومرعش وعمورية وهرقلة وزودوها بالحاميات لتحمي مؤخرتهم ولتكون قاعدة للهجوم على معاقل البيزنطيين البعيدة ، وفي سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م أرسل الوليد أخاه مسلمة على رأس حملة الى الجرجومـــة ـ مركز الجراجمة ـ بعد أن عاد هؤلاء إلى الثورة فهزمهم مسلمة،وخرّب عاصمتهم ثم نقل سكانها إلى الشام حيث شاركوا فيما بعد في القتال إلى جانب العرب . دون أن يكرهوا على ترك النصرانية ، واستخدام المرتزقة النصارى له دلالات على خطة فتح كبرى كان يعد لها .

ومهما يكن الحال في هذه المنجزات العسكرية رغم أهميتها من وجهـــة النظر الاستراتيجية ، لم تخرج عـــن نطاق الحرب الوقائية لمنع البيزنطيين من أي هجوم على الشام ، هذا وليس هناك ما يؤكد عزم الوليد عـــلى اقتحـــام القسطنطينية عـــن طريق حرب منظمة وذلك لانشغال جيوش الخلافـــة في منـــاطق نائية في المشرق ، ولعله قد كان في ذهن الخليفـــة مشروعاً لغزو القسطنطينية بعد فراغ هذه الجيوش مـــن مهماتها ، حتى أن البعض يؤكـــد أن الوليد باشر فعلاً في إعداد هذا المشروع حين عهد إلى أخيه مسلمـــة بإعداد الجيش الذي سيتولى الهجوم على القسطنطينية ، ولكن موت الوليد حـــال دون

ذلك ، فتأخر تنفيذه الى عهد خليفته سليمان بن عبد الملك الذي قام بالمحاولة الثانية والأخيرة لغزو القسطنطينية إبان الحكم الأموي . (١)

سليمان وحصار القسطنطينية الثاني

تثير الحملة الكبرى التي سيَّرها سليمان لحصار القسطنطينية فضول الباحث لأهميتها أولاً ، وللظروف التي أحاطت بها ثانياً ، ذلك أن تقوم حملة كهذه في عهد خليفة يصفه المؤرخون بالرجل المقبل على الحياة ، المنغمس في لهوها وملذاتها . لأمرٌ يدعو إلى الاستغراب ، خاصة في الوقت الذي كان فيه العرب منصرفين عن الجبهة البيزنطية إلى جبهات أخرى ، بعد أن سبروا قوة القسطنطينية وأدركوا صعوبة القضاء عليها ، فما هي إذاً الأسباب التي حملت سليمان على القيام بمثل هذه الحملة ؟

يبدو أن ما قام به سليمان كان جزءاً من سياسة الدولة العسكرية الرامية إلى توسيع رقعة الامبراطورية ، ومقارعة البيزنطيين بصورة خاصة ، وما طمح اليه سليمان لم يختلف عن طموح أي خليفة آخر ، يضاف إلى ذلك أن سليمان جاء إلى الحكم في وقت بلغ فيه الاستقرار منتهاه ، والانتعاش الاقتصادي ذروته ، وفي أعقاب إنجازات ضخمة قام بها الخليفة السابق ، فأراد سليمان أن يحقق لنفسه مجداً عجز عنه الآخرون ، وهو أن يكون له شرف الاستيلاء على القسطنطينية ويجب ألا ننسى ما كان بينه وبين أخيه الوليد من تناحر خفي بسبب موقف سليمان المعادي للحجاج الذي كان الوليد قد زاد من صلاحياته ووسعها ، الأمر الذي جعله يفرض سيطرته واستبداده على جميع ولاة المشرق ، وكان منهم يزيد بن المهلب ، وكان يزيد من المقربين من

---

١ – ابن الأعثم : ١١٧/٢ و – ١٢٨ و . فتوح البلدان : ١٥ – ١٦٨ . تاريخ خليفه : ٣٧٨/١ – ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ . الطبري : ٤٢٩/٦ – ٤٣٤ ، ٤٣٩ . ابن عساكر : ١٩٥/٨ و (نقلا عن معجم بني أمية) . العيون والحدائق : ٣/٣ .

سليمان ، فقبض عليه الحجاج وأودعه السجن ، ذلك أنه هناك من يشير الى أن الحجاج تآمر مع الوليد على إبعاد سليمان عـن الخلافة وإعطائهـا لعبد العزيز بن الوليد .

لذلك كله اتجه سليمان نحو القيام بإنجاز عظيم ، يطمس إنجازات الوليد، أو على الأقل يقف الى جانبها ، ولا نستبعد بأن تكون تصفية كبار قادة الخليفة السابق جزءاً من المخططات التي رافقت الإعداد لحملة القسطنطينية .

استعد سليمان للحملة استعداداً هائلاً ، فجمع لها الجيوش مـن مختلف الأمصار ، حتى بلغ تعدادهـا ـ حسب بعض الروايات ـ نحواً من مائة وعشرين ألفاً ، ووضع على رأس هذه الجيوش مسلمة بن عبد الملك فخرج سنة ٩٨هـ / ٧١٦م ومعه جماعة من فقهاء الشام والعراق متخذاً طريق مرعش، وكانت صائفة قد سبقت هذه الحملة في السنة السالفة وقد كانت بقيـادة مسلمة وداود ابن الخليفـة سليمان نفسه واقتصرت مهمتهـا على استطلاع الأحوال وفتح بعض الحصون الواقعة عـلى الطريق المؤدي إلى القسطنطينية .

ويبدو أن الظروف التي كانت تجتازها العاصمة البيزنطية حينذاك قـد ساهمت في تشجيع العرب على تنفيذ مشروع الغزو ، ذلك أن اضطرابات خطيرة حدثت في دولة البيزنطيين نتيجة التصارع عـلى الحكم والثورات المتلاحقة ، وضغط الشعوب المجاورة ، فقد تعاقب على العرش حينذاك عدد من الأباطرة ، أخفقوا في معالجة وضع دولتهم المتدهور ، فبعد مقتل جستنيان الثاني ، الذي عاصر عبد الملك والوليد جاء فيليبيقوس ثم انستاسيوس الثاني ، وكان هذا الأخير يتحسب لهجوم عربي ، فاتخذ من جزيرة رودس قـاعدة للهجوم على الساحل السوري ، والقضاء على محاولات العرب العسكريـة في آسية الصغرى ، ولكن هذه الجزيرة أعلنت العصيان على الامبراطور ، وانتهى الأمر بخلعه وتولية ثيودوسيوس الثاني مكانه ، وتعرض هذا الاخير بدوره لانقلاب قام بـه حاكم عمورية الذي أصبح امبراطوراً باسم ليون الثالث ، وفي عهد ليون هذا قام العرب بحصار القسطنطينية .

وكان الاستعداد لهذه الحملة أشبه ما يكون بتعبئة عامة في جميع أنحاء الدولة الأموية ، حيث أن جميع الولايات قد شاركت فيه بصورة فعلية ، ولم يقتصر الأمر على الجيوش البرية ، وإنما أسهمت القوة البحرية التي كانت تضم سفناً عديدة من مصر وبلاد الشام فاتجهت إلى بحر مرمرة ، وألقت الحصار البحري حول القسطنطينية ، وتوغل في نفس الوقت مسلمة بجيوشه الكثيفة فعبر الدردنيل وعسكر أمام أسوار المدينة ، وأقام الخليفة في مرج دابق قرب حلب ، يستطلع أخبار الحملة ويمدها بما تحتاجه من أشياء وتعليمات .

وكانت وطأة الحصار شديدة على البيزنطيين فاستماتوا في الدفاع عن مدينتهم واستنجدوا بقبائل البُلغار لصد الهجوم العربي ، ولكن الحصار طال حتى حلول الشتاء ، وكان قاسياً شديد البرودة ، وبذلك تألبت الطبيعة ضد العرب ، وتعرض الاسطول لعواصف عاتية حطمت جزءاً كبيراً منه ، كما فعلت النار الاغريقية فعلها ولم تبقِ إلا على قليل من سفنه .

وتحمل العرب الكثير من المشاق نتيجة الظروف الطبيعية السيئة ، ولشلل قوتهم البحرية ، وفقدان المؤن بعد أن طال أمد الحصار فخسروا بسبب ذلك عدداً كبيراً من رجالهم ، ولم تستطع الخلافة أن تعمل شيئاً لإنقاذ الموقف ، لأن البيزنطيين حالوا دون وصول أي مدد للجيوش المرابطة حول القسطنطينية.

ورغم هذه الظروف الصعبة ، فإن مسلمة ورفاقه صبروا على القتال وأبدوا كثيراً من ضروب الشجاعة والتضحية دون أن يستولي اليأس عليهم ، أو يفكروا بالتراجع ، وظلوا على هذه الحالة حتى موت سليمان ، واستلام عمر ابن عبد العزيز زمام الخلافة سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م فأصدر أوامره الى مسلمة بالانسحاب ، وذلك بعدما رأى عدم جدوى متابعة القتال .

وهكذا أخفقت أيضاً محاولة الأمويين الثانية للقضاء على امبراطورية البيزنطيين ، وهي محاولة توفر لها العديد من الأسباب التي كان من الممكن أن تؤدي بها إلى النجاح ، وكان ذلك سواء في الاستعدادات الضخمة ، أو

في القيـــادة الجيدة ، ذلك أن مسلمة اعتبر مـــن كبار القادة الأمويين الذين تمرسوا في الحرب ضد البيزنطيين ونالوا مكانة بارزة في الميدان العسكري بصورة عامة ، هذا وهناك من يحمل هذا القائد مسؤولية اخفاق الحملـــة ويصفه بأنه «كان عاجزاً لا رأي له في الحرب» . وهذا الاعتقاد وهمي لا يستند إلى الحقيقة ، لأن مسلمة أثبت مهارته العسكرية في هذه الحملة مع كل الحملات التي قام بها ، لذا لا نستطيع أن نرد اخفاق الحملة إلى سوء القيادة ، والسبب الأكثر قبولا في هذا الصدد هو أن القسطنطينية -كما أشرنـــا سابقاً- كانت لا تزال مـــن القوة والتفوق البحري بحيث أنها تستطيع الدفاع عـــن نفسها ورد أي قوّة مهاجمة ، ولقد وافق حسن الحظ هذه المدينة حيث ساعدتها الأنواء كما أمدهـــا القضاء بوفاة سليمان ومجيء عمر الثاني مع سياسته السلمية.

وبعد موت سليمان عاد الهدوء إلى الجبهة البيزنطية (١) ، وتوقف النشاط العسكري الكبير ، ولم يبق هناك إلا حملات الصوائف التي تابعت نهجهـــا التقليدي ولكن بصورة بطيئة ، ففي عهد عمر بن عبد العزيز ، صدرت الأوامر للعرب في آسية الصغرى بالتراجع إلى ملطية . القاعدة القديمـــة التي اتخذت منذ أيام معاوية لتكون مركزاً لانطلاق الطوائف ، والواقع أن هـــذا الخليفة كان مهتماً بنظم الدولة وشؤونها الداخلية أكثر مـــن اهتمامه بتجنيد الجيوش ودفعها إلى ميدان الفتوح ، ولقد بدأ ثورة مـــن الداخل ليعيد الأمور إلى نصابها ، ولكي يرسي قواعد الأمة الاسلامية على أساس متين متمثلاً بسيرة الخلفاء الأوائل في صدر الاسلام، وعلى الأخص سيرة جده عمر بن الخطاب منهم.

ولكن هذا لا يعني أن عمر قد أوقف كل نشاط عسكري للدولة فقـــد ظلت بعض العمليات العسكرية مستمرة عـــلى عدد من الجبهات لا سيما في

---

١ – ابن الأعثم : ١٦٣/٢ و– ١٦٧ و . تاريخ خليفة: ٤٢٣/١، ٤٢٥ ، ٤٣٢ . الطبري: ٥٣٠/٦ – ٥٣١ ، ٥٥٣ . تاريخ الخلفاء : ٣٤٧ . العيون والحدائق : ٢٤ – ٣٣ . معجم بني أمية : ١٦٤ (نقلا عن ابن عساكر : ٢٢٢/١٦ ظ – ٢٢٦ ظ) .

الاندلس ، لكنها كانت عمليـــات طفيفة، غـــايتها تمتين الحكم الاسلامي وتقويته ، ذلك أن هذا الخليفة كان هدفه الرئيسي الانصراف إلى معـــالجة الشؤون الداخلية قبل استئناف عمليات الفتوح .

ولقد ازداد في عهد خليفته يزيد بن عبد الملك النشاط العسكري ركوداً ، فيما عدا بعض العمليات التي كانت بلاد ما وراء النهر مسرحـــاً لها ، ومعنى ذلك أن الجبهة البيزنطية ظلت هادئة حتى مجيء الخليفة هشام بن عبد الملك الذي استأنف الغزوات ضد البيزنطيين وذلك منذ مطلع خلافته ، ولمع في هذه الغزوات أسماء عدد جديد من القادة من أفراد الأسرة الأموية وسواها أمثال مروان بن محمد،ومعاوية وسعيد وسليمان أبناء هشام نفسه يضاف إليهم اسم عبد الله البطال الذي حيكت حوله عدد من الملاحم (مثل سيرة ذات الهمة) والأساطير والروايات نظراً لما قام به من أعمال بطولية ، هذا وقد قـــام البطال بغزو الأراضي البيزنطية على رأس جيش ضخم ، ولكن هذا الجيش أصيب بالهزيمة ، وقتل قائده سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م .

هذا وقد كان للبحرية العربية في عهد هشام دور ملحوظ في الحرب ضد البيزنطيين ، وكان أمير البحر آنذاك عبد الرحمن بن معاوية بن حُديج الذي شنّ غارات متتالية على ثغور البيزنطيين البحرية ، لكن هذه الحروب سواء في البر أم في البحر لم تتمخض عن أي نتيجة حاسمة ، كل ذلك رغم الجهود الكبيرة التي بذلت . (١)

---

١ – تاريخ خليفه : ٤٩١/٢ ، ٤٩٥ – ٤٩٧ ، ٥٠٠ – ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ . الطبري : ٨٨/٧ ، ١٩١ .

عمر بن عبد العزيز

والسعي نحو اقامة الأمة الاسلامية

يعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الفعلي الثاني للدولة الأموية ، وواضع نظمها ومخطط سياستها ، ويعرف عبد الملك في مصادرنا بأبي الخلفاء من بني أمية ، ذلك أن غالبية من تربع على العرش الأموي جاء من صلبه ، فأربعة من ولده وهم : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام حكموا بعده ، ومن بعدهم جاء عدد من حفدته ، ولم يأت حكم أولاده الأربعة بعده بشكل متواصل بل كان على مرحلتين تخلل بينهما فترة ، أقل ما يمكن وصفها به بأنها كانت فترة متميزة في تاريخ الخلافة الأموية وتاريخ الاسلام .

لقد عهد عبد الملك قبل وفاته لولديه الوليد ثم سليمان ، وحكم الوليد من سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م حتى سنة وفاته في ٩٦ هـ / ٧١٥ م ، فخلفه سليمان ، ولم يطل حكمه ، فقد توفي سنة ٩٩هـ / ٧١٧ م ، وعندما حلت به المنية « وهو يومئذ بدابق دخل عليه رجاء بن حَيْوَة ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وهو رجل من أهل الأردن كان موصوفاً بالحكمة والشدة مرضياً في دينه وأمانته ، وكانت ملوك بني أمية تثق به لفضله وشرف نفسه ، فلما دخل عليه ، قال : ما تصنع يا أمير المؤمنين ، إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح ، فقال سليمان : كيف ترى داود ابني ، فإني خرقت عهد ابني لأنه غلام لم يبلغ ، فقال رجاء : يا أمير المؤمنين داود غائب عنك بقسطنطينية وأنت لا تدري أحي هو أم لا ، فقال سليمان : فكيف ترى عمر ابن عبد العزيز ؟ قال رجاء : أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً ، فقال سليمان: هو والله على ذلك ، ثم قال : والله لئن وليته ولم أول سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن يُجعل أحدهم بعده ، فجعل بعده يزيد بن عبد الملك » .

وتوفي سليمان وبايع الناس عمر بن عبد العزيز ، وكان ذلك بداية فترة جديدة ، ذات تجربة متميزة في تاريخ الدولة الأموية ، ابتغت احداث تبديل جذري يتناول المفاهيم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت المجتمع الأموي ، وأريد بهذا التبديل تقويم الانحراف والعودة الى مبادىء الاسلام الأولى التي بشر بها النبي وسعى لتطبيقها هو وأصحابه الخلفاء من بعده ، ومن سوء الحظ أن هذه التجربة قد جاءت مثل فترة توقف قصيرة في تاريخ الدولة الأموية ، سرعان ما انتهت بموت صاحبها المبكر ، فعادت أمور الدولة الأموية سيرتها الأولى المعهودة ، لا بل تم تجاوز المعقول فأوغل في الانحراف والاستهتار ، فساق ذلك نحو النهاية بسرعة غير معتادة .

ووصل عمر إلى الخلافة ، لا بفضل نسبه وتصنيفه العائلي ، وانما بفضل شخصيته المرتفعة وسلوكه المثالي ، مع العلم أن الخلافة لم تكن بعيدة عنه كل البعد ، فأبوه عبد العزيز بن مروان كان عامل مصر اثناء خلافة أخيه عبد الملك ، وكان مقدراً له أن يخلفه ، لولا أن الموت عاجله في حياة أخيه ، أما أمه فكانت أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . وهو قد نشأ متأثراً بهذه الصلة إلى حدٍ كبير ، في حياته السياسية وسلوكه العام .

والمتتبع لحياة عمر قبل أن يمارس مسؤولية الخلافة تستوقفه النزعة الانسانية التي كانت تغلب على تصرفاته ، ويعجبه ايمانه الصرف بالمبادىء الأسلامية ، وهذه صفات لازمته طيلة فترة شبابه ، مضاف إلى ذلك كله أنه كان يمتلك الجرأة الكافية ليجهر بما يعتقد به مهما اشتدت المواقف، وصعبت الظروف.

ولقد تولى أولى مهامه السياسية أيام الوليد بن عبد الملك حين عينه والياً على المدينة ، فاستطاع أن يخفف كثيراً مما كان بنفوس سكانها من الكراهية للبيت الأموي ، التي كان زادها عمقاً تصرفات العمال الأمويين الذين سبقوه، ووجوده في المدينة جعل من الحجاز ملاذاً للمضطهدين والهاربين من طغيان الولاة ، سيما العراقيين الناقمين على سياسة الحجاج ، وكان هذا سبباً من

الأسباب التي أثارت حقد عامل العراق على عمر ، فأخذ يلح على الوليد بأن يعزله من الحجاز فاستجاب لطلبه ، ويبدو أن عزله قد تم لإرضاء الحجاج الذي كان يتمتع بنفوذ كبير لدى الخلافة ، ولهذا ظل عمر محتفظاً بمكانته في البيت الأموي وبقي يحظى باحترام الجميع ، وكان لا يتورع باستمرار عن الجهر بآرائه منتقداً سلوك الخليفة وعماله ، في وقت بلغ فيه طغيان الحجاج حدّه الأقصى ، فانتفض مرة حين ذكر بعضهم أمامه ظلم الحجاج وغيره من الولاة فقال : « الحجاج بالعراق والوليد بالشام وعثمان بالمدينة وخالد بمكة ، اللهم قد امتلأت الدنيا ظلماً وجوراً ، فأرح الناس » .

وعندما ولّي الخلافة اختار لنفسه منذ اللحظة الأولى دور المصلح لأمته من الفساد والمنقذ لها من الانحراف غير هياب ولا وجل ، وباشر مسؤولياته بخطوتين جريئتين كانت الأولى : إعطاؤه الأوامر لمسلمة بالتراجع عن أسوار القسطنطينية ، حيث كانت أحوال الجنود العرب قد ساءت إلى حد كبير بعدما تضافر عليهم الجوع والبرد والعدو ، والثانية : عزل معظم العمال الذين كانوا يتولون ادارة الولايات قبل مجيئه ، واستبدالهم بمجموعة خيرة من الذين وثق بهم فاعتمد عليهم من أجل تطبيق برنامج اصلاحي أراده .

وقد تمثلت الخطوط العامة لسياسته الاصلاحية في المساواة بين الفئات المسلمة المختلفة الأصول والألوان ، وفي رد الحقوق إلى أصحابها ، ورفع المظالم عن الناس ، وتنظيم الضرائب بحيث لا تجبى إلا ضمن وقتها وتبعاً للشريعة وسنقوم فيما يلي بعرض أهم المنجزات التي حققها هذا الخليفة خلال الفترة الزمنية القصيرة التي قضاها في الحكم ، والتي لم تتعد السنتين والخمسة أشهر :

أ ـ احقاق الحق ورفع الظلم :

بعد ما ولي عمر الخلافة أعلن للناس : « إن الله فرض فرائض وسنّ سنناً ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها مُحق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته ، ويدلنا إلى ما لا نهتدي إليه ، ويكون

عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس ، ولا يغتب عندنا أحداً، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا » .

يظهر هذا الاعلان منذ البداية حرص عمر على ترسيخ قيم الحق والعدل ، كما يظهر مفهوم السلطة وأتباعها عنده ، فالسلطة بالنسبة له مسؤوليات جسام وخدمات تؤدى للشعب ، ومساع حثيثة لاقامة الحق بينهم ، ودفع الباطل عنهم ونسمعه يصف مقومات الحكم وركائزه بقوله: « إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا » ونجده بهذا يهتم بالقضاء ويجعله في مقدمة توصياته لعماله ، ويروى أنه قد كان أول خليفة أموي ندب نفسه للنظر في المظالم بشكل مباشر .

وبعدما تسلم الخلافة بادر إلى رد الحقوق لأصحابها ، فبدأ بنفسه وبأهل بيته فرد القطائع التي ورثها عن آبائه ، وأعاد ما كان الأمويون قد اغتصبوه إلى أصحابه الشرعيين ، وقد ساهم هذا الاجراء في اجتذاب ولاء الفئات المختلفة ومحبتهم له ، لكنه كان في نفس الوقت عاملا من عوامل اغضاب الأمويين ، الذين وجدوا في سياسته الصعبة ازاءهم تهديداً لمصالحهم ، وانتقاصاً لمكاسب كانوا يرفضون التخلي عنها ، لذلك قرروا التخلص منه .

ب ـ المساواة

نظر عمر إلى مجتمع دولته فرأى فيه العرب يتحكمون بمن سواهم وبعض العرب يتحكم بالعرب وغيرهم وأدرك أن العلاج الأمثل لهذا هو ازالة الفوارق وإحلال المساواة بين المسلمين جميعاً ، فجعل ذلك قاعدة حكمه كما عامل أهل الذمة بالرفق ، وأمر بأن تخفف عنهم الأعباء قدر المستطاع ، فرفع الجزية عن الرهبان في مصر ، وألغى الضريبة على أملاك الكنيسة وأسقط عن نصارى قبرص الزيادة النقدية التي كان قد فرضها عبد الملك ، وكتب إلى عماله يأمرهم بأن يعاملوا أهل الذمة بالعدل وأن يأخذوا منهم الخراج باللين ، وكان مما كتب به في هذا الصدد إلى عامله على البصرة قوله :

« انظر إلى أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه » . وإذا ما عدنا الى مسألة المساواة بين المسلمين ، أي إزالة الفوارق بين العرب والموالي ، نجد في هذا تخلصاً من الحاجة إلى الجيش ومن أعمال العنف والتنكيل ، كما نجد أن سياسة عمر السمحة قد شجعت الكثير من أهل الذمة على اعتناق الاسلام ، والتعايش مع العرب على أساس من المساواة ، بعد أن افتقدوا الشعور بالمواطنة في العصور السابقة ، حيث عمدت الدولة إلى حرمانهم من الوظائف والعطاء ، فضلا عن الاستمرار في فرض الضرائب على الذين اعتنقوا الاسلام ، رغم ما في ذلك من مخالفة صريحة لجوهر الشريعة ، فلما جاء عمر أسقط الجزية إلا عن غير المسلمين ، وأعلن أن من يسلم يعامل كبقية اخوانه ، له ما لهم وعليه ما عليهم ؛ ولقد كان احلال رباط الاسلام محل رباط الأصل والعصبية والشرف أعظم ما عمله عمر في سبيل إقامة الأمة الاسلامية عن طريق السلطة لتجنب الثورة وأعمال العنف .

وكانت مواقفه في مجال السياسة الضرائبية تنم عن إيمان عظيم ، وجرأة متناهية فقد كتب اليه حيان بن سريج ، صاحب خراج مصر : « أما بعد فان الاسلام قد أضرّ بالجزية ، حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » . فرد عليه عمر بقوله : « قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، فضع الجزية عمن أسلم ، فإن الله إنما بعث محمد هادياً ، ولم يبعثه جابياً » .

وفي عهد هذا الخليفة أيضاً كان الجراح بن عبدالله الحكمي والياً على خراسان. وقد أرسل في إحدى المناسبات وفداً إلى عمر من ثلاثة أشخاص بينهم رجل من الموالي يكنى بأبي الصيداء ، واسمه صالح بن طريف ، وصفه الطبري بأنه كان فاضلاً في دينه ، ووصل الوفد إلى دمشق ، فتكلم الاثنان ، وأبو الصيداء صامت ، فقال له الخليفة : « أما أنت من الوفد ؟. قال : بلى ، قال الخليفة : فما منعك عن الكلام ؟ قال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج . وشكا

له جفوة الوالي (الجراح) وعصبيته ، ووصفه بأنه سيف من سيوف الحجاج يعمل بالظلم والعدوان ، فقال له : « مثلك فليوفد » . وكتب إلى عامله في خراسان : « انظر من صلى الى القبلة فضع عنه الجزية » . وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الناس في خراسان يقبلون على اعتناق الاسلام دون إكراه أو ضغط ، فحقق بذلك خطوة هامة على طريق التجانس بين الفئات المختلفة في المجتمع الإسلامي ، ويرى البعض أنه كان من الممكن لموازين السياسة والحكم والعلاقات بين الحكام والمحكومين أن تقلب لو قدر لهذا الخليفة أن يطول حكمه مدة أكثر ، ولنهجه الاصلاحي أن يستمر بعده .

وبعد ما تحدثنا عن سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة والموالي، فمن الضروري تبيان علاقته بالأحزاب المعارضة سيما حزب الشيعة الذي كان على رأس المعارضة ضد الخلافة الأموية ، لقد أحسن عمر معاملة زعماء هذا الحزب ونجح في تخفيف الكثير من نقمتهم وغضبهم ، فقد أمر بالإمساك عن الشتائم التي كان الامويون يقذفونها على المنابر ضد الخليفة الراشدي عليّ بن أبي طالب، كما أحسن معاملة بني هاشم وقرّب اليه عدداً منهم ، ورد اليهم ملكية (فدك) وهي قرية بالقرب من المدينة ، كانت للنبي بعد فتحها ، ثم جعلها أبو بكر من أملاك الدولة ، وقد انتقلت بعد ذلك إلى ملكية الأمويين بعد استلامهم الحكم ، وبقيت في حوزتهم حتى جاء عمر بن عبد العزيز ، فأعادها إلى أبناء فاطمة .

وقد جعل العلويون لهذا الخليفة عندهم مكانة لم يبلغها أحد من الخلفاء الأمويين ولا غرو في ذلك فقد طرح في حكمه السيف جانباً وابتعد عن زهق الأرواح إلاّ في الأمور التي كانت تهدد سلامة الاسلام ، وأقام حكمه على الحوار والاقناع ، وهي الطريقة المثلى التي رآها جديرة باقامة حكم عادل ، واكتساب ولاء المعارضين للدولة وتخفيف حدة الخارجين عليها .

جـ ـ موقفه من التنازع القبلي

كانت العصبية القبلية من أهم المشاكل التي تعرضت لها الدولة الأموية ، وهددتها بالزوال والانهيار ، وكانت خطورتها ناجمة عن التمزق السياسي الذي أحدثته في الجبهة الداخلية ، فصدّع القاعدة التي استند إليها الحكم الأموي ، وقد انغمس الخلفاء في صراعاتها منذ وقت مبكر ، فكانوا ينتصرون لفريق ويتعصبون ضد آخر ، خاصة بعدما انفجر الصراع عنيفاً في مرج راهط عام ٦٣ هـ / ٦٨٢ م بين القبائل اليمانية المؤيدة للحزب الأموي وبين القبائل القيسية المؤيدة للحزب الزبيري ، وكان ذلك في الواقع صراعاً عنيفاً من أجل السلطة والاستئثار بالمناصب ، انتهى بعد جهود عظيمة بانتصار الحزب الأموي ، ولكن نتائجه ظلت لوقت غير قصير مرضاً عضالاً في جسم الدولة ، تهددها بين الحين والآخر قبل أن يدفع بها إلى السقوط ، علماً أننا الآن نستطيع أن ندرك بوضوح أن الصراع بين القيسية واليمانية لم يكن صراعاً بين شعبين انحدرا من أصلين مختلفين بل كان صراعاً بين تجمعين سياسيين اجتماعيين ، لكل منهما مصالحه ومطامحه ، كان أحدهما في صف السلطة أحياناً والثاني في صف المعارضة ، وكانت وسائل المعارضة تعتمد العنف الدموي ، لذا كانت خطرة ممزقة لصفوف الأمة .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الحكم جابه هذه المشكلة الخطيرة بروح جديدة ، ووقف منها موقفاً في غاية الصلابة ، مستلهماً مواقف الرسول والخلفاء الأوائل الذين حاربوها ، وحاولوا استئصالها من المجتمع الاسلامي الجديد ، فقام أولا فأطفأ نار الفتنة التي اشتعلت في الشام ، وبعث إلى رؤساء القبائل في شبه الجزيرة فحذرهم من إثارة الفتنة ، وشرح لهم فضل الاسلام في توحيد القبائل العربية تحت راية واحدة ، والدور الذي قام به الرسول في إخماد نار العصبية بين مختلف القبائل .

وكان الاسلوب الذي سلكه ، هو اسلوب الاقناع والمحاورة في دعوة

المتصارعين إلى ضرورة التمسك بالوحدة ، واستلهم قول الله :

(إنما المؤمنون أخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون) [الحجرات ٤٩ / ١٠] وكان إذا امتنعوا عن الاستجابة لدعواه ، ضربهم بشدة دونما تردد ، أو تعاطف مع أي فريق أو تعصب ضده .

وكان هدف هذا الخليفة تحقيق الوحدة السياسية للدولة العربية وتعميق التجانس بين الفئات المختلفة ، والانصهار ضمن الرابطة الاسلامية ، ولذلك كان في تفكيره اسلامياً ، متحرراً من الاعتبارات القومية والقبلية والسياسية الضيقة ، التي تحكمت في بقية الخلفاء الأمويين ، فكان حريصاً كل الحرص على إفساح المجال أمام الجميع للدخول في الاسلام ، واقامة مجتمع متجانس يتجاوز العصبيات والمصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

هذه كانت خطة عمر بن عبد العزيز لحل مشكلة من أبرز مشاكل الدولة الأموية ، وهي مشكلة لم تكن طارئة في المجتمع الأموي ، لكن الخلفاء الأمويين يتحملون مسؤولية كبرى في تهيئة الجو المناسب لانتشارها واستفحال خطرها ، فكان عمر بن عبد العزيز الخليفة الوحيد الذي عالجها بموضوعية وتجرد ، وأطفأ نارها ، ولكن كل ذلك كان الى حين .

د ــ الادارة وخطط الاصلاح :

أدرك عمر بن عبد العزيز أن نجاح خططه الاصلاحية مرتبط إلى أبعد الحدود بطبيعة إدارة الدولة وسلامتها ، وكانت الادارة الصالحة بنظر هذا الخليفة هي التي تنشر الاطمئنان وتزرع الثقة في قلوب الناس، وكان يرى أن عيون الحكام ينبغي أن لا تقر إلا في استفاضة الأمن والاستقرار في البلاد ، وظهور مودة المحكومين (الرعية) لهم ، وحسن ثنائهم عليهم . وقد اتضحت هذه المقاصد منذ اليوم الأول الذي تسلم فيه زمام الحكم ، حيث عزم على تطهير الادارة من مفاسدها ، فعزل الولاة والعمال الذين كان يعتقد أنهم يجورون على الناس،

ويستبدون بهم، وقام باختيار مجموعة جديدة لمس عندها الاخلاص وحب الإصلاح، ولعل نص رسالته التالي، التي وجهها إلى عامله على خراسان تصلح أن تكون نموذجاً لسياسته الادارية، التي كان حريصاً على تنفيذها في كل بقاع الدولة، فقد جاء فيها قوله: «أما بعد، فكن عبداً ناصحاً لله في عباده، ولا تأخذك في الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم. فلا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعي، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق، فإن الله لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهباً، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه». ومن هذه الرسالة ندرك أن العمال والموظفين كانوا بنظره المسؤولين يتحملون المسؤولية المباشرة، لذلك ينبغي أن يكون سلوكهم ضمن الإطار القويم، وسيرتهم المثل الأعلى، فهو قد حذرهم من استغلال مناصبهم لأطماعهم الشخصية، وحظر عليهم مزاولة أي نشاط تجاري من شأنه أن يلحق ضرراً بمصالح الأمة حيث أعلن: «لا يتجر إمام، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر، ويصيب أموراً في عَنَتٌ، وإن حرص على أن لا يفعل».

لقد أراد عمر بن عبد العزيز أن يكون الجهاز الاداري صورة حيّة تعكس السلطة العليا بكل خصائصها وميزاتها، فلا يكون هناك أي تناقض بين سلوك الموظف وبين سلوك الخليفة، ولذلك فرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه فسدّ في وجههم كل ثغرة قد يتسللون منها إلى استغلال مراكزهم، ومنع عليهم قبول الهدايا التي كانوا معتادين على تلقيها في الأعياد والمناسبات التقليدية، وحصر نشاطهم في نطاق الخدمات التي وجب أن يقوموا بها لجماهير شعوب الدولة على أتم وجه، كما أرادهم أن يوفروا للمرضى والمحتاجين والمسافرين كل ما كانوا يحتاجون اليه من المأوى والملبس والمطعم، إلى غير ذلك من الخدمات التي كان ينبغي أن لا تقتصر على فريق معين من الناس وإنما

تشمل كل فئات المجتمع ، كما أعطى الحق للجميع في ممارسة نشاطهم الاقتصادي وأداء شعائرهم الدينية بحرية تامة .

د ـ الاصلاح الضرائبي

كان أبرز جانب في سياسة عمر بن عبد العزيز الاصلاحية ، هو الجانب المتعلق باعادته بناء النظام الضرائبي والمالي على أسس جديدة مستقاة من القواعد الأولى التي كان قد طورها عمر بن الخطاب في مطلع الدولة الإسلامية ، وهي محاولة كانت ترمي الى اعادة الحقوق الى نصابها وتوزيع الطاقات المادية في الدولة توزيعاً عادلاً بشكل يوفر الرفاهية والاستقرار للجميع بدلاً من الاستغلال والحرمان .

وتنفيذاً لبرنامجه الاصلاحي قام هذا الخليفة بسلسلة اجراءات كانت في منتهى الجرأة والتصميم ، دون أي اعتبار للاستياء الذي أحدثته هذه الاجراءات في أوساط البيت الأموي ، فقد عمل على إلغاء كل الضرائب والرسوم غير الشرعية التي كان الأمويون قد فرضوها بهدف تنمية موارد الدولة المالية ، فأمر بإبطال ضريبة الخراج على الذين أسلموا ، ووضع نظام يقضي بأن يدفع الملاكون المسلمون ضريبة العشر فقط ، وتجدر الاشارة إلى أن ضريبة الخراج كانت ينبغي ألاّ تجبى إلاّ من الملاكين غير المسلمين ، ولكن بعض الولاة تجاوز هذا المبدأ ولجأ إلى جبايتها من المسلمين كما فعل محمد بن يوسف الثقفي حين فرضها على أهل اليمن . كما الغى الزيادات وهدايا الاعياد (النيروز والمهرجان) وكانت هذه قد تحولت إلى ضرائب شبه إجبارية بعد ما كانت طوعية اقتبست لا بل ورثت من النظام الساساني .

كما قام باسقاط الجزية عن غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام ، وهؤلاء كان جلهم من الفرس الذين أخذوا يتحولون جماعات إلى الاسلام ، خاصة في الفترة التي سبقت مجيء عمر بن عبد العزيز إلى الحكم ، وكان من البديهي حسب نصوص الشريعة أن ترفع الجزية حكماً عن أعناق هؤلاء المسلمين الجدد ،

ولكن عامل العراق الحجاج بن يوسف وسواه رفضوا اعفاءهم من الضريبة لما ترتب على ذلك من نقص في العائدات المالية التي كانت السلطة بحاجة إلى المزيد منها .

وفي الوقت ذاته حرّم تعذيب الناس من أجل الخراج ، وكان دائماً يلح على توصية عماله به ويؤكد عليهم باتباع الأساليب العادلة في جباية الضرائب ، ومراعاة ظروف الفلاحين ، وأوضاع الرعايا المتوجب عليهم دفع الجزية تبعاً للمواسم الزراعية ، ومستوى الانتاج لكل منهم ، ونلاحظ حرص هذا الخليفة على تطبيق هذا المبدأ في جباية الضرائب في الرد الذي بعث به إلى عامله على البصرة عديّ بن أرطأة ، وكان قد شكا اليه بأن اناساً لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب فأجابه : « أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأني جُنّة لك من عذاب الله ، إذا أتاك كتابي هذا ، فمن أعطاك ما قبله عفواً ، وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إليّ من أن ألقاه بعذابهم » .

وتنبه عمر الى ميل زعماء العرب نحو امتلاك الأراضي وكذا رجالات الأسرة الأموية ، ورأى في ذلك مخاطر جليلة ، فمنع انتقال الاراضي في البلاد إليهم . واستحدث نظام خاص مكّن المسلمين من استئجار بعض الأراضي شرط أن يدفعوا عنها ضريبة الخراج ، ومرد هذا إلى طبيعة الملكية في الاسلام ، ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان قد أبقى الأراضي الزراعية في البلاد المفتوحة في أيدي أصحابها تستغل لصالح الأمة وحظر انتقالها إلى أيدي العرب وغيرهم . لكن هذه الصورة تغيرت بعض الشيء أيام الخليفة الثالث عثمان حيث أباح لشخصيات من الحجاز بالانتشار في البلاد المفتوحة وامتلاك الأراضي فيها ، وجاء الأمويون فاتبعوا هذه السياسة ، وأصبح استملاك العرب وأثرياء المسلمين للأراضي أمراً مألوفاً ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الحكم حرص على تنظيم هذه المسألة على ضوء ما كان سائداً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ولا شك أن هذه قضية في غاية الأهمية ، ارتبطت مباشرة بالدخل الاقتصادي

العام للدولة ذلك أن الابقاء على الأراضي في أيدي أصحابها ، كان بمثابة ارجاعها إلى ملكية الأمة الممثلة بالدولة التي كان لها الحق في جباية ضريبة الخراج من مستغليها من غير العرب ، مع ما يترتب على ذلك من عائدات للخزانة ، ومنع لنشوء الطبقات الاقطاعية المستغلة .

يضاف إلى كل ذلك أنه في حرصه على احقاق الحق واقامة المساواة أعاد النظر في نظام العطاء الذي كان سائداً لدى الادارة الأموية ، والمقصود بالعطاء هو ما كان يتقاضاه المقاتلون من مخصصات مالية ، وكان عمر بن الخطاب أول من نظم مسألة العطاء هذه بأن جعل للجند رواتب ثابتة ، بعد أن كان هؤلاء يكتفون بالغنائم التي كانوا يستولون عليها ، وكانت هذه الرواتب تختلف بحسب القرابة من الرسول ، والسابقة في الاسلام ، وقد ظلت تدفع حتى سقوط الدولة الأموية ، على أن الخلفاء الأمويين لم يتبعوا قاعدة موحدة بصدد العطاء ، فغالباً ما كان هذا الأمر يخضع لاعتبارات سياسية أو قبلية ، فالشاميون كانوا عادة أوفر نصيباً من الفئات الأخرى في المجتمع الأموي ، بينما كان العراقيون أقل هذه الفئات نصيباً ، لا سيمـــا في الفترات التي اشتد فيها الضغط على العراق أبان ولايـــة الحجاج بن يوسف ، وعلى العموم كان حظ غير العرب من العطاء شبه معلوم .

ولما جاء عمر بن عبد العزيز ، نسف هذه القاعدة ووضع نظاماً ثابتاً للعطاء ، قام على المساواة بين العرب وغيرهم ، طالما كان الجميع يقاتلون في سبيل مبدأ واحد ، وتحت راية واحدة ، كما أجرى العطاء على أبناء المقاتلين وزوجاتهم ، وخصص أعطيات للفقراء والمرضى الميؤوس من شفائهم ، فضلاً عن انشاء دار خاصة لاطعام الفقراء ، وأبناء السبيل دعيت بدار الطعام . وفي سبيل ذلك تشدد عمر في مسألة الزكاة ، وهي الضريبة المفروضة على المسلمين ، واهتم بتوزيعها على مستحقيها في مختلف أنحاء الدولة .

كان هذا عرض موجز لأهم الانجازات التي قام بها عمر بن عبد العزيز ، والواقع إن المرء ليستغرب كيف استطاع هذا الخليفة تحقيق كل هذه الأعمال

العظيمة خلال فترة وجيزة لم تتعد العامين والخمسة شهور ، وحقيقة الأمر أن مرد ذلك أن عمراً لم يكن بالرجل العادي الذي يقتنع بأداء الدور الذي مارسه غيره من الخلفاء الأمويين ، مهما كبر حجم هذا الدور، أو تضاءل ، وإنما كان رجلاً من طراز آخر له مثله التي عاش لها ، وقضيته التي قاتل في سبيلها ، فكانت خلافته القصيرة ثورة شاملة هدفت إلى إقامة مجتمع اسلامي موحد ، متحرر من الظلم ، والطبقية ، والاستغلال .

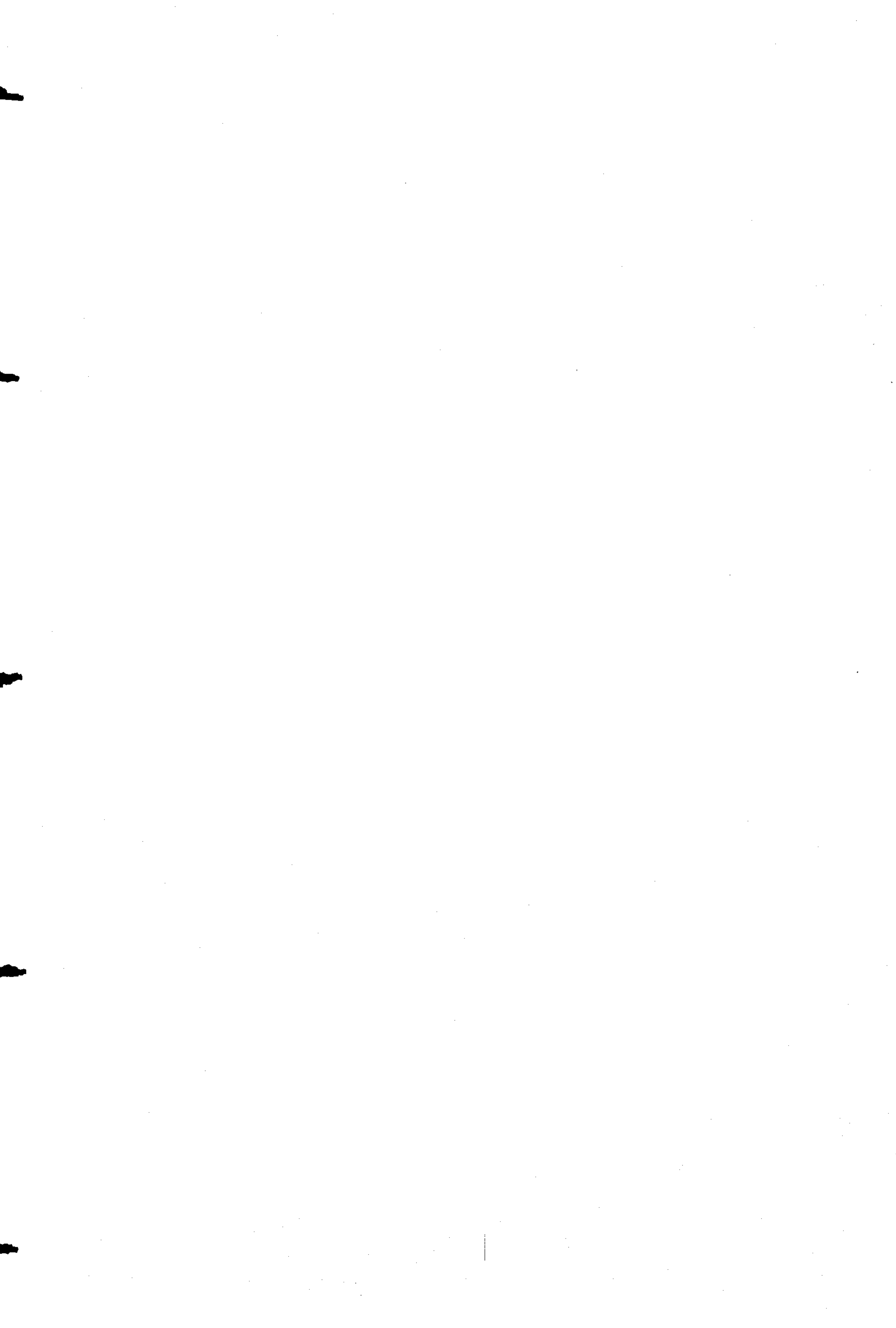
ونتيجة لذلك وضع معظم المؤرخين هذا الخليفة في لائحة الخلفاء الراشدين، وسموه بالخليفة الراشدي الخامس ، لأنه كان بنظرهم أقرب إلى هؤلاء في مثاليته وسياسته من الخلفاء الأمويين . كما أطلق عليه البعض اسم عمر الثاني في معرض المقارنة بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب ، ويبدو أن صلة النسب والاسم المشترك للخليفتين دعما هذه المقارنة ، علماً بأن هنالك فوارق عديدة بين شخصيتي الرجلين ، الأول كرجل دولة فذّ حقق أعظم الانتصارات العسكرية والسياسية والادارية ، والثاني أموي مثالي الاسلام كانت له نظرته الخاصة في الأعمال العسكرية والادارية والمالية ، وكان بعضها مختلفاً عما سار عليه الخليفة عمر بن الخطاب ، ويخطىء كل من يعمل على تجريد عمر بن عبدالعزيز من صفته الأموية ، فقد كان في الواقع بما قام به من أعمال وبما حققه من إنجازات ، يعمل لتثبيت دعائم الحكم الأموي على قواعد جديدة سليمة تضمن له الاستمرار ، وتحميه من خطر الانهيار الذي أحاق به ، ولهذا كان انصرافه بكل جهوده إلى الأمور التنظيمية لتحقيق هذا الهدف الأساسي ، وكان من الممكن جداً أن تنعكس ثمار هذه الجهود على الخلافة الأموية بصورة عامة لو طال به الزمن قليلاً (1) .

---

١ — الفتوح : ٢/١٦٦ ظ — ١٧٢ ظ . تاريخ خليفه بن خياط : ١/٤٦١ — ٤٧١ . فتوح البلدان : ١٥٩ . الطبري : ٦/٥٥٠ — ٥٧٣ . خراج أبي يوسف : ١١٩ . سيرة عمر بن العزيز لابن عبد الحكم . الأخبار الطوال : ٣٣١ . تاريخ الخلفاء : ٣٥٢ — ٣٨٠ . مروج الذهب : ٣/١٩٢ — ٢٠٥ . تاريخ اليعقوبي : ٢/٣٠١ — ٣٠٩ . العيون والحدائق : ٣/٣٧ — ٦٤ . معجم بني أمية : ١٣٢ — ١٣٣ . الفخري : ١٠٣ . السيوطي : ٢٢٨ — ٢٤٦ . فلهوزن : ٢٥٦ — ٣٠١ . ملامح الانقلاب الاسلامي : ٨١ — ١٧٧ .

الفصل الثالث

دور الانهيار



بدء الانهيـــار

بعد موت عمر بن عبد العزيز ، آلت مقاليد الخلافة الى ثالث أبناء عبدالملك الذي عرف بيزيد الثاني ، وأحياناً بيزيد بن عاتكة ، نسبة إلى أمه حفيـــدة معاوية الأول ، وانتسابه هذا الى أمه كان يبعث في نفسه المباهاة والاحساس بأنه أرفع مكانة من بقية الخلفاء الأمويين ، فهو مرواني الأب ، سفياني الأم . ولعل هذه الصفة الأخيرة كانت من العوامل المساعدة لاستلامه مهام الخلافة ، بينما أبعد عنها أخوه الكفؤ مسلمة الذي كانت أمه غير عربية ، حيث كـــان الأمويون يولون هذه المسألة اهتماماً كبيراً ويجعلون ميلاد الرجل من أم عربية شرطاً أساسياً للوصول إلى الخلافة .

وتظهر لنا شخصية يزيد الثاني من خلال كتابات المؤرخين ، شبيهة الى حد كبير بشخصية سلفه يزيد الأول حيث أنه كان مثله رجل « لهو وعبث وحب للغناء والشراب والجواري » ، والواقـــع أن مجـــال التشابـــه بين الخليفتـــين ليس سهلاً ، كما يبدو لأول وهلة ، فإذا كانت هذه الصفات صحيحة ، وتتوافق إلى حد كبير مع نمط الحياة التي عاشها يزيد بن عبد الملك ، فإنها ربما تحوي شيئاً من المبالغة بالنسبة ليزيد بن معاوية، ثم إن إحداث ولاية العهـــد لأول مرة ومـــا تمخض عن ذلك من أحداث خطيرة ، كانت في الحقيقة كافية لإرباك حكم يزيد ودفعه نحو السقوط ، حيث تكتلت ضده الأحزاب ، لا سيما أحزاب أبناء الصحابة التي كان لها من المكانة في نفوس الناس ما جعل معارضتها في منتهى الخطورة .

وكان تولي يزيد الثاني منصب الخلافة قد تم تنفيذاً لوصية الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك ، ولكن موافقة عمر بن عبد العزيز على هذا الاختيار ،

لأمر يثير التساؤل ، فهذا الخليفة الذي بذل أقصى جهوده لإنشاء الدولةالاسلامية القائمة على الحق والعدل والمساواة ، ما كان ليختار رجلاً له مثل صفات يزيد، وإن أكره على الاختيار وما كان ليظل راضياً إلى أمد طويل ، لكن موت عمر قبل أوانه ، في ظروف إغتيالية يبدد هذا التساؤل ، وهكذا جاء استلام يزيد ابن عبد الملك ، لمقاليد الحكم منسجماً مع طبيعة النظام الأموي الذي كان سائداً قبل عمر ، ولم يحاول عمر أن يمس هذا النظام خلال ثورته الاصلاحية ، بل نراهعلى العكس من ذلك كان حريصاً كل الحرص على إبقاء الخلافة في البيت الأموي ، وعدم اتخاذ أي موقف من شأنه إثارة متاعبجديدة في وجه الأسرة الحاكمة ، هذا ومن المسلم به أن ثورة عمر الاصلاحية لو تسنى لها النجاح لاستطاعت انقاذ الحكم ، ولم ينغمس يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة في حياة اللهو والمجون فقط بل انغمس أيضاً فيخضم التعصب القبلي ، بشكل لم نعهده عند غيره من الخلفاء الأمويين الذين كانت لهم ميولهم القبلية ، فهو قد ارتبط بوشائج وثيقة بأسرة حاكم العراق السابق الحجاج بن يوسف الثقفي، وكانت قد صارت من أركان الحزب المضري ، وكان في نفس الوقت يكن عداء ظاهراً ليزيد بن المهلب حاكم العراق ، أيام سليمان بن عبد الملك ، وعدو الثقفيين الألد ، ولذلك جاءت سياسته الداخلية تحمل طابع التعصب الشديد للقبائل المضرية ، وإفساح المجال أمامها للاستئثار بالسلطة والتفوق في العطاء ، وعلى هذا نجد يزيد ينحدر بالخلافة الأموية من مكانها العليالمتحكم بالصراعات القبلية والحزبية والمستفيد منها ، إلى موقف الطرف المنازع في الحلبة .

لذلك نجد أن سياسة التعصب الأعمى التي أخذ بها هذا الخليفة لم تلبث نتائجها السيئة أن ظهرت بشكل سريع ، ممزقة وحدة الجند ومبعثرة جهود القوى السياسية في الدولة ، فعلى صعيد الجبهة الداخلية انفجر الوضع بخروج يزيد بن المهلب في العراق ، وكان يزيد ينتمي إلى قبيلة أزد اليمانية ، التي نزحت من مواطنها في شبه الجزيرة العربية إلى جنوب العراق وكانت في حوالي سنة ٦٠ هـ / ٦٧٩ م

بزعامة المهلب بن أبي صفرة والد يزيد ، الذي برز في حرب الخوارج حتى لقب بقاهر الأزارقة ، وقد لاقت جهود المهلب في هذا المجال تقدير الدولة ، فكافأه عاملها على العراق (الحجاج) بتقليده ولاية خراسان حيث ظل يحكمها حتى موته سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م فتولاها بعده ابنه يزيد فترة قصيرة ثم ما لبث أن وقع في خلاف مع الحجاج ، فعزل ، وحل محله قُتيبة بن مسلم الباهلي فاتح بلاد ما وراء النهر .

وحملت الأزمة التي نشبت بين الحجاج بن يوسف ويزيد بن المهلب، حملت هذا الأخير على الالتجاء الى سليمان بن عبد الملك الذي كانت تربطه علاقات وثيقة بآل المهلب ، لا سيما يزيد ، فلما آلت الخلافة إلى سليمان ولاّه على العراق وخراسان ، وقد أعطاه ذلك مكانة مرموقة في النظام الأموي ، وكان مفترضاً أن يمارس الدور الذي مارسه الحجاج ، إبان خلافة عبد الملك ، ولكن الحظ لم يكن حليفاً لحاكم العراق الجديد ، فما لبث سليمان أن توفي بعد فترة قصيرة،ولم يكن خليفته عمر بن عبد العزيز يستسيغ شخصية يزيد،فعزله وطالبه بأموال كبيرة كان قد كتب عنها إلى الخليفة السابق بأنه جباها وأنها بحوزته، وحين طالبه عمر أنكر ذلك ، فأمر عمر بحبسه حيث بقي في السجن ، إلى أن علم بوفاة الخليفة ، وتعيين يزيد بن عبد الملك خليفة جديداً ، وكان يخشاه كثيراً لما بينهما من تناقض واختلاف في المواقف ، نتيجة اضطهاد ابن المهلب، إبان ولايته على العراق ، لآل الحجاج الذين ارتبط بهم الخليفة الجديد بصلاة القربى والمودة .

ثورة يزيد بن المهلب

هرب يزيد من سجنه قاصداً البصرة ، المدينة التي كان يجتمع فيها بنو قومه من الأزد ومن يناصرهم ، فاستولى عليها وقبض على عاملها عديّ بن أرطأة وأودعه السجن ، كما انضمت اليه بلاد فارس والأهواز وكرمان ، واتجه نحو واسط متخذاً طريق الكوفة ، التي كانت تمثل باستمرار مركز الثقل في مناهضة الحكم الأموي ، وقيل أن اعداداً غفيرة من الكوفيين وافته آنذاك ، وأعلنت تأييدها لثورته .

ويبدو أن هذه الاستجابة الشعبية الواسعة كانت بفعل عاملين اثنين : تعلق الأول بما كان لآل المهلب من تقدير وإعجاب في نفوس الناس ، مع الأسلوب الذي اتبعه يزيد في استمالة هؤلاء واغراقهم بالذهب والفضة ، وتعلق الثاني بشخصية الخليفة الجديد التي لم تكن بنظر العراقيين مؤهلة لتحمل مسؤوليات الحكم ، لما عرف عنه من التبذل والمجون والتعصب ، لا سيما القبائل اليمانية العراقية التي رأت في خلافته عودة إلى أيام الحجاج وتحكم القبائل المضرية .

كانت خطة يزيد بن المهلب إذاً الوصول إلى الكوفة ، وتخليص العراق من أيدي الجند الشاميين ، رافضاً ما أشار عليه به أحد اخوانه (حبيب) بالخروج من العراق إلى خراسان ، حيث فرص النجاح كانت أكثر وفرة لبعد هذه البلاد عن قبضة الحكم المركزي ، لكن يزيداً لم يقنع بنصيحة أخيه ، ومضى في طريقه الى الكوفة مفتتحاً صفحة جديدة من الصراع التقليدي بين الشام والعراق ، الذي لم يكن ليهدأ إلا لينفجر من جديد ، وذلك منذ قيام الدولة الأموية وحتى سقوطها ، وفي أواخر سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م اقتحمت جيوش ابن المهلب مدينة واسط واستولت عليها ، وحينذاك أخذت طلائع الكوفيين تتجه إلى واسط معلنة تأييدها للثورة ، ومخترقة الحصار الذي أقامه والي الكوفة خارجها في النخيلة القريبة منها .

وأدرك الخليفة خطورة الوضع في العراق فعهد إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك ، القائد الذي قاد أعظم الحملات العسكرية في آسية الصغرى وأرمينية ، بالقضاء على حركة ابن المهلب ، فسار مسلمة إلى العراق على رأس جيش كبير من الجند الشاميين ، واشتبك مع ابن المهلب في معركة عنيفة في ١٠٢هـ / ٧٢١م في العقر من أرض بابل ، وأسفرت هذه المعركة عن هزيمة الثوار ، ومقتل يزيد بعد أن قاتل ببسالة ، وأظهر شجاعة نادرة ، كما قتل في المعركة عشرة من أخوان قائد الثورة وبنيه ، وتعقب الأمويون من نجا بنفسه من آ ل المهلب الذين حاولوا الهرب إلى خراسان فقتلوهم جميعاً ، ما عدا اثنين تمكنا من النجاة وهما : أبو عيينة بن المهلب ، وعثمان بن المفضل بن المهلب ، اللذان التجآ إلى بلاد

الترك . وبذلك غابت أسرة عظيمةعن مسرح السياسة الأموية ، شغل أفرادها دوراً أساسياً في خدمة النظام الأموي وحمايته ، وتقديراً للنصر الذي حققه مسلمةعلى ابن المهلب ، عينه أخوه الخليفة ، والياً على العراق والمشرق الإسلامي ولكن الخليفة الذي كان أسير عصبيته القبلية المتطرفة ما لبث أن عزله ، وعين مكانه عمر بن هبيرة أحد رجالات مدرسة الحجاج المخلصين والمتأثرين به إلى حدٍ كبير ، فعاد العراق إلى الحكم الأموي المباشر ليستكين قليلاً ، ثم ليستأنف مسيرة الثورة الدائمة ضد الحكم الأموي .

وكان اخفاق ثورة ابن المهلب ضربة قوية للقبائل اليمانية التي ساندتها، فقد فقدت هذه القبائل كل أمل في استعادة نفوذها المفقود خاصة وأن الخليفة كان بعيداً كل البعد عن انتهاج سياسة مسؤولة تفضي إلى التقارب والتخفيف من حدة الصراع القائم ، فهو لم يحاول الاستفادة من تجربة الخليفة عمر بن عبد العزيز التي قامت على المساواة أو من تجربة الخلفاء السابقين الذين استطاعوا ، رغم عصبيتهم ، أن يحافظوا على التوازن في سياستهم الداخلية ، وإنما أصبح طرفاً في النزاع ، يتعاون مع غلاة المتعصبين للحزب القيسي ، دون أن يدرك النتائج الخطيرة التي ستترتب على هذه السياسة . ففي العراق مثلا كان عمر بن هبيرة القيسي المتعصب ، يحكم البلاد بالجور والظلم مدفوعاً بالرغبة في الانتقام من كل اليمانيين الذي واكبوا أبناء المهلب في انتفاضتهم على الحكم الأموي، وفي المغرب كان الأمر في يد يزيد بن مسلم صاحب الشرطة في أيام الحجاج أثناء ولايته على العراق ، فسار في حكم البلاد مسيرة سيده بما فيها من استبداد وجور فأعاد الجزية على الذين اعتنقوا الاسلام من البربر ، ولكن هؤلاء — كما سنرى — تآمروا عليه وقتلوه وكتبوا إلى الخليفة : « إننا لم نخلع الطاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون » . فزعم الخليفة بأنه لم يقره على فعله ، وبعث لهم عاملاً آخر هو بشر بن صفوان الذي لم يختلف كثيراً عن الوالي السابق في سياسته ازاء البربر وتعصبه القبلي .

وفي بلاد الترك أفسد ولاة يزيد بن عبد الملك ما قام به عمر بن عبد العزيز

من جهود عظيمة لنشر الاسلام في هذه الجهات ، وانتهجوا سياسة مستبدة ، منحرفة ، حملت كثيراً من الناس على الارتداد عن الاسلام والثورة على الحكم ، ولم يخفف من تدهور الأوضاع في هذه الجهات الا تعيين سعيد بن عمر الحرشي وكان أحد القادة الذين اشتهروا في حروب الخوارج وعمليات القضاء على ثورة ابن الأشعث ، وقد استطاع سعيد بفضل الجهود العسكرية ، والسياسة التي انتهجها ، استطاع إعادة سلطان الأمويين على هذه البلاد

وعلى صعيد المشاكل الداخلية ، التي واجهت خلافة يزيد بن عبد الملك ، أيضاً ينبغي أن نشير إلى تحرك الخوارج وعودتهم إلى مهاجمة العراق بقيادة شوذب الذي حاوره عمر بن عبد العزيز أيام خلافته ، فسبب ايقاف نشاط أتباعه ، وحملهم على موادعة الدولة ، ولكن عبد الحميد بن عبد الرحمن الذي خلف ابن هبيرة في حكم العراق أنهى حالة الموادعة مع الخوارج حين أمر أحد قواده بالهجوم على شوذب ، ولعله أراد بذلك أن ينال رضى الخليفة ويحظى بتقديره ، لكن شوذباً استطاع أن يوقع الهزائم المتكررة بجيوش الخلافة ، واشتد الخوف على الكوفة التي كانت هدف الخوارج ، ولم يدفع خطر هؤلاء الذي أخذ يتصاعد في العراق إلا مجيء مسلمة بن عبد الملك حيث أرسل إلى شوذب جيشاً كبيراً ، خاض معه ومع أتباعه من الخوارج معركة شديدة انتهت بهزيمتهم ومقتل زعيمهم .

أما على صعيد السياسة الخارجية ، فقد كانت أعماله العسكرية محدودة ، واقتصرت على بعض الحملات التي قادها سعيد الحرشي في بلاد ما وراء النهر حيث حققت بعض النجاح ، وتجدر الملاحظة إلى أن هذه الحملات لم تكن تستهدف متابعة حركة الفتوح في هذه المناطق ، بقدر ما كانت محاولة لإعادة السيطرة العربية ، التي أخذت في الانحسار نتيجة تعسف العمال الامويين واستبدادهم ، وعلى جبهة الخزر أصيب الجيش العربي بهزيمة قاسية ، فاندفعت الشعوب التركية والقوقازية نحو حدود أرمينية ، تشن غاراتها ، وتوقع الهزائم المتكررة بالعمال العرب ، الأمر الذي دعا الخليفة إلى تعيين الجرّاح بن عبدالله

الحكمي على أرمينية ، وأمده بجيش كبير لغزو الخزر ، فاستطاع الجرّاح أن يوقف تقدمهم ، ويحقق بعض الانتصارات العسكرية المحدودة .

وكما أهملت الجبهات المختلفة في شرقي الدولة وغربها ، كذلك أهملت الجبهة البيزنطية التي كانت في السابق جبهة رئيسية بالنسبة لعدد كبير من الخلفاء الأمويين ، فلم تشهد في عهد يزيد بن عبد الملك أي عمل عسكري ملحوظ ، علماً بأن بعض المصادر تشير إلى غزوة قام بها عمر بن هبيرة ، والعباس ابن الوليد ، لكنها على ما يظهر كانت غزوة مخفقة .

والواقع أن السياسة الخارجية لأي حاكم ، لا بد أن تكون انعكاساً مباشراً للوضع الداخلي ، فاذا كان مستقراً متماسكاً ، بدت الامكانات أكثر وفرة للقيام بأعمال عسكرية بارزة ، وهذا ما حدث اثناء خلافة الوليد بن عبد الملك الذي تسلم حكماً قوياً مستتباً في الداخل ، فانصرف بمعظم جهوده إلى الفتوح . أما بالنسبة ليزيد فقد وصل الوضع الداخلي في عهده إلى حافة الانهيار ، فانساق متورطاً في خضمّ الأحداث الدامية ، والانقسامات الخطيرة ، وشغلته حياته الخاصة بما فيها من عبث ومجون وجواري عن التفرغ لشؤون الحكم والاهتمام بسياسة الجهاد ، وتذكر مصادرنا أسماء عدد من محظياته وتصف تصرفاته معهن ، ثم انها تنسب سبب وفاته لحزنه على احدى جواريه التي توفت قبله بعشرين يوماً .

وتمثل خلافة يزيد بن عبد الملك في الواقع مرحلة من أدق المراحل في تاريخ الدولة الأموية ، ونحن لا نبتعد عن الحقيقة إذا ما قلنا : انها رسمت خط النهاية لهذه الدولة العظيمة ، ذلك أن الخليفة الجديد هشام بن عبد الملك الذي بويع له بعد وفاة أخيه في سنة (١٠٥ هـ / ٧٢٣م) ، كان رغم وصف المؤرخين له بالحزم وحسن الادارة والتدبير ورغم الجهود التي بذلها لاعادة ترميم الحكم الأموي والحفاظ على وحدة الامبراطورية ، فإن الأمر كان فوق طاقته ، وخرج عن إرادته فلم يستطع اللحاق بعجلة التدهور ، على أنه من الانصاف أن نشير إلى أن الخلافة الأموية استردت في عهده الكثير من حيويتها ومهابتها ،

وعلى ذلك يمكننا أن نعتبر الفترة الطويلة التي تسلم فيها هشام زمام المسؤولية ، تشبه بما شهدته من انتعاش مرت بها الخلافة الأموية صحوة الموت ، حيث أن الخلافة تهاوت بعد موت هشام بسنوات قليلة ، لقد استطاع هشام أن يعيد للدولة الهيبة لكنه لم يستطع ايجاد الحلول لمشاكل شعوب الدولة ، كما لم يستطع الاستفادة من صرخات الاصلاح وثورات عهده .

ولقد كانت الفترة الأخيرة من الحكم الأموي ، التي عاصر معظمها هشام ابن عبد الملك ، حافلة بالأحداث الجسام ، في مختلف أنحاء الدولة ، ورغم الاختلاف الواضح بين هشام وسلفه من حيث السلوك العام وممارسة الحكم ، فإن الرجلين انجرفا في تيار التعصب القبلي ، مع فارق واحد هو أن هشاماً كان أكثر اتزاناً ، وقد مال بعكس أخيه نحو مناصرة اليمانية التي عانت اسوأ ظروفها ايام الخليفة السابق ، لكن ذلك لم يكن أبدياً دائماً .

على أن ما يثير الانتباه هو أن الخليفة رغم أنه لم يكن متحرراً من الرواسب القبلية ، شأنه شأن بقية الخلفاء الأمويين ، كانت مصلحة الدولة عنده فوق الاعتبارات العصبية ، وكان الجهاز الاداري في عهده الذي مثله رجال مخلصون وذوو كفاءات سياسية وإدارية عالية ، انعكاساً لشخصية هذا الخليفة الذي حاول جاهداً أن يصلح ما أفسده أخوه ، وينقذ ما يمكن إنقاذه .

ففي العراق الاقليم الثائر ، عهد هشام بحكمه إلى شخصية قوية هي خالد بن عبد الله القسري ، فبقي في منصبه نحو خمسة عشر عاماً ، استطاع خلالها أن يحفظ التوازن بين القبائل المتناحرة ويشيع الاستقرار والهدوء ، بعد أن حارب الخوارج وقضى على حركات المعارضة ، فضلاً عن أنه اهتم بالأمور الاقتصادية وعني بالري واستصلاح الأراضي ، فأصبحت العملة في عهده أكثر جودة حتى نسبت إليه وعرفت بالخالدية ، وبذلك نال خالد تأييد العراقيين وحظي بتقديرهم لفترة من الزمن ، ومن المؤرخين من يضع هذا الوالي في مصاف الولاة الكبار الذين حكموا العراق أمثال زياد والحجاج ، وتبدو هذه المقارنة مقبولة إلى حدٍ ما ، ولكن خالداً اختلف عن سلفيه بأن إدارته لم تقم على

السيف بقدر ما قامت على الاقناع ، واستخدام الاموال في اجتذاب قلوب الناس .

غير أن العلاقة بين حاكم العراق وهشام ما لبثت أن ساءت فأقدم الخليفة على عزله لأسباب اختلف في تعليلها ، لعلها تعلقت بالثراء الفاحش الذي كان خالد قد أصابه ، وبالنقص الدائم في الخراج، ولم يكن عزل خالد مجرد تغيير عامل وتعيين آخر مكانه ، وإنما نتج عنه تغيير جذري في السياسة الاموية ازاء العراق الذي لم يلبث أن عاد إلى اضطرابه وموقفه المألوف ، ذلك أن هشاماً أرسل إلى العراق يوسف بن عمر الثقفي في سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م ، وكان هذا أحد أقارب الحجاج ، وكان حينذاك والياً على اليمن ، فسار إلى منصبه الجديد تتنازعه رغبة التمثل بسيرة الحجاج ، والتعطش لتنفيذ أوامر الخليفة بالقبض على خالد وتعذيبه ، على أن الخليفة لم يمض بعيداً في الانتقام من عامله السابق ، فما لبث أن أمر باطلاق سراحه في شوال من نفس السنة (١٢٠هـ) ، فغادر خالد السجن وتوجه نحو منطقة الرُصافة حيث كان يقيم هشام ، محاولاً مقابلة الخليفة ، لكن كان ذلك عبثاً وبدون جدوى .

على أن قضية خالد لم تنته بخروجه من السجن ، وإنما كانت نذيراً باشتعال نار الثورة من جديد في العراق نتيجة فساد الحكم وأخذ الناس بالشدة ، واصرار ابن عمر على محاكمة العامل السابق ، وقد ترتب على ذلك اعلان زيد ابن علي ثورته في العراق في أعقاب التهمة التي وجهها اليه يوسف بن عمر زاعماً أن خالداً القسري كان أودعه ستمائة الف درهم ، كما سلف ومر معنا .

وحظي إقليم خراسان في أطراف الدولة باهتمام خاص ، وكان تابعاً لولاية العراق ، وقد تصدر واجهة الأحداث التي بدأت تتفاعل بسرعة في معظم أقطار الدولة الأموية ، وعاش هذا الإقليم فترة عصيبة من الاضطرابات والقلاقل بسبب احتدام الصراع القبلي بين اليمانية والمضرية ، وكان العمال الأمويون بعصبيتهم المتطرفة يؤججون نار هذا الصراع ، وقد أدى ذلك إلى إضعاف نفوذ

العرب ، وبعثرة جهودهم ، وأفسح المجال أمام العناصر المختلفة لاستغلال هذه الحالة ، ومن ثم تحقيق أهدافها السياسية في الوصول الى الحكم .

وعلى الرغم من أن الخليفة هشام لم يكن بعيداً عن سياسة التحزب القبلي ، إلا أنه لم ينغمس فيها كلياً ، كما فعل الخليفة السابق ، وغالباً ما كان يتجاوز الاعتبارات الحزبية ، في سبيل مصلحة الدولة العليا ، ودفع الخطر عنهـا ، إلا أن البعض يعيب على هشام أسلوبه في معالجة الازمات ، واختيار العمال وعزلهم ، لا سيما في خراسان ، حيث أثار ذلك الاحقاد ، وعمق الكراهية بين القبائل المتصارعة ، رغم أنه أراد أن يسود بينها الوئام ، وفي سبيل هذه الغاية جعل الحكم دورياً بين المضرية واليمانية ، دون أن يفسح المجال لإحداهما بالتمادي في السيطرة والاستئثار بالسلطة على حساب الفئة الاخرى ، ولم يستطع هشام أن ينتزع من نفوس عماله رواسب الاحقاد القديمة ، والعقلية الضيقة التي حكموا بها البلاد .

وكان نصر بن سيّار ، آخر ولاة هشام على خراسان ، وقد أخفق نصر هذا في إنهاء الصراع والعداوة بين اليمانية والمضرية ، أو التخفيف من حدتّها ، على الرغم من أنه قد وصف بالإخلاص والحنكة وحسن التجربة وطولها . وعندما مات هشام كانت الاوضاع في خراسان قد وصلت الى مرحلة مـن التدهور شديدة للغاية ، بحيث صار من الصعب ، إن لم يكن من المحال ، إيقافها ، وبدا في الافق أن ثمة أحداثاً جساماً ستشهدها دولة بني أمية على أرض خراسان بالذات .

وكانت هناك متاعب أخرى قد واجهت الحكم الأموي في أطراف دولتـه الشمالية الشرقية ، فقد تحرك الترك الذين كانوا يعيشون وراء بحر الخزر ، وهم جماعات لم يستسلموا تماماً للحكم العربي ، لذلك لقي منهم ولاة خراسان، أثناء غزواتهم في هذه الجهات مقاومة عنيفة ، ولم يكن النصر دائماً إلى جانب العرب في حروبهم مع الترك ، فلقد انتصر العرب على الترك سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨م وذلك بقيادة مسلمة بن عبد الملك ، لكنهم انهزموا في سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م

هزيمة نكراء ، وقتل قائد القوات العربية الجراح بن عبد الله الحكمي ، ولم ينقذ الموقف العربي في بلاد الترك إلا انتصارات سعيد الحرشي ، ومروان بن محمد ، التي أرغمت الترك على الاستكانة والخضوع من جديد للسيادة العربية .

وفي الشرق أيضاً ، تدهور الوضع في بلاد ما وراء النهر ، وكانت مدن سمرقند وبخارى ، وبيكند ، أشد مناطق الثورة على السيادة الأموية ، ويبدو أن سياسة العمال الأمويين في هذه الجهات ، قد اسهمت إلى حد كبير في انفجار الموقف ، ودفعت السكان إلى الثورة .

وكان من هؤلاء العمال أشرس بن عبد الله السُلمي ، الذي ولي خراسان، وأمر عمّاله على بلاد ما وراء النهر بالاستمرار في أخذ الجزية من الذين أسلموا من السكان المحليين ، لأنه قد كان في ذلك — حسب دعواه — قوة للمسلمين.

ولقد دفع هذا التصرف أحد القادة العرب السابقين ، واسمه الحارث بن سريح إلى رفع راية الثورة على الخلافة الأموية ، وذلك سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م ، وقد انضم اليه كثير من العرب مع عدد من أعيان الترك ، فقوي صفه ، وتمكن من الايقاع بالجيوش التي أرسلت ضده ، ووصل إلى مرو ، قاعدة العرب في خراسان ، لكن أسد بن عبد الله القسري ، والي خراسان الجديد ، صده ، واقتلعه من خراسان ، بعد أن ألحق به الهزيمة .

ولاقت مناطق ثغر الهند أيضاً من عسف ولاة بني أمية ، وسوء ادارتهم ، فأخذ أهلها الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام زمن عمر بن عبد العزيز ، يرتدون عنه ، ولم تنفع سياسة هشام في تغيير الحكام ، في تحسين الحالة ، ولم تستطع تثبيت الحكم العربي في البلاد ، مما أدى إلى خروج المسلمين منها ، وضياع سيطرتهم عليها .

ولقد امتدت متاعب الجبهة الداخلية إلى اطراف الدولة الغربية أيضاً ، حيث قامت في مصر حركة ضد الحكم الأموي ، وكان ذلك بسبب اشتداد وطأة الضرائب على الأهلين ، وسوء معاملة العمال الأمويين لهم ، لكن حنظلة

ابن صفوان عامل هشام على مصر ، تمكن سنة ١٢١ هـ / ٧٣٨ م من إخماد الثورة ، وقتل عدداً كبيراً من القبط .

وكانت الأمور في المغرب [كما سنرى بالتفصيل] أشد تعقيداً ، حيث وجد الخوارج أرضاً خصبة للتحرك ، فاستغلوا نقمة الناس على سياسة العمال ، وحرضوا البربر ضد الخلافة الأموية ، واستطاع أحد الخوارج من البربر واسمه ميسرة المدغري أن يتزعم البربر ويقودهم للثورة على الأمويين ، وقام البربر بمبايعته بالخلافة ، ثم انشقوا عنه وقتلوه ، وبايعوا مكانه خالد بن حميد الزناتي ، وقاد خالد حرباً عنيفة ضد العرب ، ونال منهم النصر تلو الآخر ، وكان أبرز انتصاراته سنة ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م بمعركة عرفت بموقعة الأشراف ، وجهد هشام في القضاء على ثورته فأخفق ، وأخذ العرب بالتراجع عن المغرب حتى القيروان ، وقام هشام فأوكل إلى واليه على مصر حنظلة بن صفوان أمر القضاء على ثورة البربر ، فاستطاع ، بعدما اعتمد الخديعة ، أن يحقق نصراً ساحقاً على البربر ، مكن من إعادة المغرب إلى السيادة العربية .

أما على الضفة الشمالية المقابلة للمغرب ، فقد كانت الأحوال قد بلغت حداً من الفوضى والتمزق السياسي كبيراً ، وصارت الأندلس مسرحاً لحرب أهلية ، كانت في كثير من جوانبها امتداداً للحروب التي حدثت في المغرب ، فلقد شهد الأندلس أولاً ثورة لبربر الأندلس على العرب وواليهم عبد الملك بن قطن الفهري وعندما لم يستطع عبد الملك القضاء على ثورة البربر ، استنجد بجند عرب كانوا محصورين في طنجة ، ولقد استطاع بمعونة هؤلاء الجند القضاء على ثورة البربر ، لكن ذلك كان فاتحة صراع جديد بين العرب الجدد وعرب الأندلس القدامى ، وظل الصراع مستحكماً بين فئات العرب على الحكم في الأندلس حتى ما بعد وفاة هشام بن عبد الملك .

ولم تشغل المشاكل الداخلية ، رغم خطورتها ، الخليفة عن الاهتمام بأمور السياسة الخارجية فتصدى للأخطار التي تفاقمت على جبهات الدولة المتعددة ، مثل جبهة الترك ، وجبهة الخزر ، وجبهة الامبراطورية البيزنطية .

فلقد جهز هشام الجيوش الضخمة وأرسلها ضد بيزنطة ، كما اهتم بتقوية الحصون والمسالح في الثغور ، وعادت حملات الصوائف والشواتي تستأنف نشاطها بانتظام ، ولقد قاد ابناه معاوية وسليمان غالبية هذه الحملات ، كما قاد كل من مسلمة بن عبد الملك ومروان بن محمد حملات توغلت داخل الأراضي البيزنطية واستطاعت الاستيلاء على عدد من المواقع المهمة .

ولقد أصاب العرب زمن هشام بعض النجاح في البحر ، قواتهم قبرص ، كما حاولوا أخذ صقلية .

لكن رغم كل الجهود التي بذلها هشام ، ورغم كل غزوات جيوشه الخارجية ، كان ما أسفرت عنه سياسة الخارجية أنها استطاعت فقط أن تحافظ على حدود الدولة العربية ، دون إضافة مكاسب جديدة ، ولا ريب أن متاعب الجبهة الداخلية ، وانهماك هشام بالقضاء على الثورات والحركات الانفصالية قد حال دون تفرغه للقيام بحملات عسكرية هدفها التوسع والفتح المنظم ، ومات هشام ودولة بني أمية سليمة الجوانب غير منقوصة ، الأمر الذي عجز خلفاؤه الذين جاءوا من بعده عن القيام به .

وجاءت وفاة هشام في رصافته في ربيع الأول سنة ١٢٥ هـ/٧٤٢ م ، فانطوت بها مرحلة هامة وحافلة من مراحل التاريخ الأموي ، مرحلة ظلت الخلافة فيها مهابة ، والدولة سليمة مصانة ، لكن ما أن بويع بعده للوليد بن يزيد حتى دخلت دولة بني أمية في مرحلة الاحتضار ، بسبب ما توالى عليها من ضربات ، نجمت عن انقسام البيت الحاكم وتصدعه ، وجاء هذا في وقت تفاقمت فيه الاخطار الخارجية الى درجة أصبح فيها من غير الممكن تدارك الأمور ، فتهاوى النظام ، وقربت النهاية المحتومة .

وكان لسلوك الخليفة الجديد ، الذي عين بناء على وصية مسبقة من أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولسياسته الأثر الأكبر في تحطيم الدولة ، فقد كان ماجناً ، وهب نفسه أكثر من والده لحياة اللهو والعبث ، وانغمس مثله في حمأة الصراع

القبلي واقتفى أثره بالتعصب للقيسية على اليمانية ، فأتاح الفرصة أمام خصومه من البيت الأموي للتحالف مع اليمانية ، وللتشهير به ، واستغلال غضب الناس وكراهيتهم لخلقه .

وتزعم يزيد بن الوليد بن عبد الملك حركة المعارضة اليمانية مع الناقمين على الخليفة ، وقام بالاستيلاء على دمشق ، ثم الهجوم على مقر الخليفة في البخراء قرب تدمر ، حيث ذبحه هناك في سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م .

ويعتبر هذا الانقلاب الداخلي الذي أطاح بالخليفة أول تصدع دموي داخل الأسرة الأموية وبنفس الوقت أول ثورة تقوم بها القبائل اليمانية ضد الحكم الأموي ، وما لبثت هذه الثورة أن جرّت وراءها ثورات عجلت بسقوط البيت الأموي .

وبعد مصرع الوليد تسلم الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، زعيم الحركة التي أودت بالوليد ، وعرف يزيد هذا بيزيد الناقص ، لأنه أنقص أعطيات الجند بعدما زادها الخليفة السابق . ولقد اعتمد هذا الخليفة على تأييد اليمانية في اخماد حركات القيسية التي رفضت بيعته ، وكان نصر بن سيار القيسي ، عامل بني أمية على خراسان من أبرز الذين امتنعوا عن اعطائه البيعة كما امتنعت حمص وفلسطين ، وإفريقية ، لكن يزيداً استطاع ، بعد جهد كبير ، حمل الثائرين على بيعته ، فاستتب له الأمر ، لكن منيته عاجلته ، فكان أن قضى في الحكم أقل من ستة أشهر .

وقام بشؤون الخلافة بعده أخوه إبراهيم ، ومع إبراهيم فقد منصب الخلافة كل مهابة ، ولم يعد له أي شأن ، ويبدو أنه لم يحز على الاعتراف به كخليفة إلا من قبل قلة من الناس ، لذا ما كاد يظهر مروان بن محمد ، له بمظهر المنافس حتى خلع نفسه من الحكم ، بعد أربعة أشهر من وفاة أخيه .

وكان مروان بن محمد قائداً لجيوش الثغور له مطامحه كعسكري ، ثم كأموي وقد اتخذ من مقتل الخليفة الوليد بن يزيد ذريعة للثورة ، والمطالبة بالخلافة ،

تحت شعار المطالبة بدم الخليفة المسفوك ، ولقد اعتمد في ثورته على تأييد القبائل القيسية ، التي كانت قد شقت عصا الطاعة على يزيد الناقص وأخيه ابراهيم .

وتمكن مروان من دحر القوات التي أرسلها ابراهيم ضده ، ودخل دمشق ، فسيطر على الموقف ، وأخمد ما كان فيها من عصيان ، ثم أعلن نفسه خليفة، فبايعه الناس سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م .

وما لبث مروان أن غادر دمشق ، وهي تعج بأعدائه ، إلى حران في الجزيرة فاتخذها مركزاً له ، ليكون أقرب إلى المشرق ، حيث مكامن الخطر الحقيقي ، والواقع أن التحرك نحو المشرق ، كان قد بدأ قبل مروان ، وسار عليه معظم الخلفاء الأواخر ، بعدما أدركوا أن بلاد الشام بتناقضاتها الاجتماعية الناجمة عن تركيبها الجغرافي ، لا يمكن أن تصلح على المدى الطويل قاعدة للامبراطورية ، ولقد آثروا التحرك شرقاً ، لأن الأحداث قد جعلت من الشرق مركزاً للثقل السياسي في الدولة ، ومسرحاً لأخطر الحركات الاجتماعية والعقائديةوالادارية التي أدت إلى الإطاحة سياسياً بالحكم الأموي .

وكان مروان بن محمد حاكماً ذكياً جديراً بالمنصب الكبير الذي تولى مهامه ، لكنه جاء في وقت متأخر ، لذا لم يكن في مقدوره ايقاف التدهور الذي كانت تسير فيه الدولة بخطى حثيثة ، فقد حمي وطيس الحرب الأهلية بشكل لم يعهده الحكم الأموي من قبل ، وامتد الصراع الدموي بين القبائل من دمشق إلى حمص وفلسطين ، حيث قامت اليمانية بثورات مناهضة لمروان الذي دعمه المضريون ، وشهد العراق ثورة علوية بتأييد من اليمانية أيضاً ، كما عاد الخوارج إلى التحرك فسيطروا على الجزيرة ، وتقدموا نحو الكوفة ، وزاد نشاطهم في بقاع أخرى .

وفي خراسان اشتد الصراع القبلي وازداد التحرك الثوري الذي كان يبغي المساواة والعدالة ، فاستغل ذلك دعاة الحركة العباسية ، فنشطوا في هذا الإقليم النائي ، واجتهدوا في استغلال مساوىء الحكم الأموي، واستفادوا خير فائدة من

تطاحن الأحزاب العربية وتصارعها ، لذلك لم يمض وقت طويل حتى سقطت خراسان لأبي مسلم ، الذي كان مسؤولاً عن الحركة العباسية عسكرياً وسياسياً في خراسان .

وفوجىء مروان ، الذي كان منهمكاً في قتال الخوارج ، بأحداث خراسان، ولم ينفع ما بذله من محاولات يائسة في ايقاف مدّ الثورة الكاسح المتجه نحو عاصمة الخلافة الأموية ، فانجرف ، وانجرفت معه دولة بني أمية وسلطان بلاد الشام (١) .

* * *

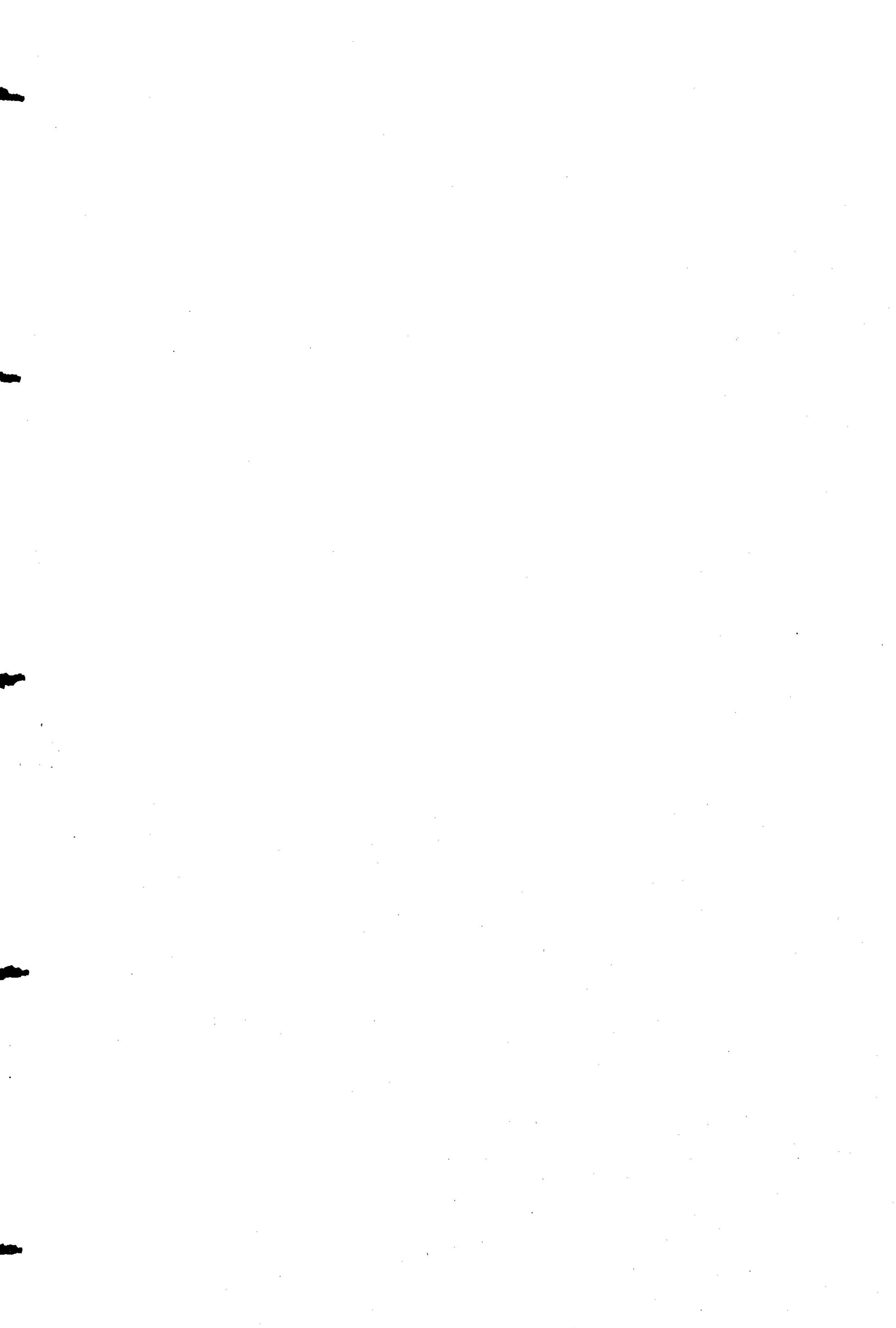
---

١ – تاريخ خليفه : ٢/٤٧١ – ٦٢٤ . الفتوح : ٢/١٦٨ و – ٢٣٥ و . الطبري : ٧/٢١ – ٤٤٣ . الأخبار الطوال : ٣٣٢ – ٣٦٦ . اليعقوبي : ٢/٣١٠ – ٣٤٩ . مروج الذهب : ٣/٢٠٦–٢٥١ . التنبيه والأشراف : ٢٧٧ – ٢٨٥. تاريخ الخلفاء : ٣٨٠ – ٥٩٥. تاريخ بخارى : ٨٦ – ١٠٣ . العيون والحدائق : ٣/٦٤ – ٢٠٦ . أخبار العباس : ١٦٨– ٤٠٣ . الكندي : ٦٧ – ٩٣ . فتوح مصر : ٢٠٠ – ٢٠٤ . تاريخ صنعاء : ٨٨ ، ٢١٤، ٣١٦ ، ٣٢٢ – ٣٢٣ . البيان المغرب (قسم المغرب) : ٥٢ – ٦٤ ، قسم الأندلس : ٤٨ – ٤٩ . ابن الأثير : ٤/١٦٠ – ٣٣٣ . معجم بني أمية : ١٦١ – ١٦٢ ، ١٦٤ – ١٦٥ ، ١٨٤– ١٨٦ ، ١٩٤ – ١٩٥ ، ٢٠١ . ابن العبري : ١١٥ – ١٢٠ . الذهب المسبوك : ٢٦ – ٥٣ . ابن خلدون : ٢/١٦٥ – ٢٤٨ . السيوطي : ٢٤٦ – ٢٥٥ . ابن كثير : ٩/٢١٩ – ٣٥٤ ، ١٠/٢ – ٣٩ . فلهوزن : ٣٠٢ – ٣٧٩ . عاقل (خلافة بني أمية) : ٢٩٧ – ٣٧٢ .

الباب الثالث

الدولة العباسية

الدور الأول



الفصل الأول

عصر حكم الخلفاء

الدعوة العباسية وأدوار التاريخ العباسي

سقطت دولة آل مروان من بني أمية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م على أيدي جيوش الثورة العباسية ، وقد جاء هذا الحدث الجلل نتيجة لعدة عوامل تعلق بعضها بحالة الدولة الأموية وسياستها ، ثم بأوضاع التمزق التي حلت في صفوف الأسرة الأموية مع صفوف القوى المؤيدة لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بعوامل اتصلت اتصالاً مباشراً بالدعوة العباسية ، هذا وكانت هذه العوامل – وما زالت – موضع اهتمام المؤرخين ومثار جدل بينهم ، وقد تم في الفصول الماضية ، استعراض فيه بعض التفصيل للتاريخ الأموي ، ومع ذلك فلا بأس من أن نورد هنا بايجاز أهم العوامل التي قامت بالدور الرئيسي في اضعاف الدولة الأموية وساهمت في انهيارها :

١ – اعطاء ولاية العهد لأكثر من واحد ، وما ترتب على ذلك من اثارة للبغضاء ، وانقسام للآراء بين أفراد الأسرة الحاكمة .

٢ – عودة ظهور روح العصبية بين القبائل ، ثم مسؤولية الخلفاء عن ازكاء روح هذا الصراع بين القبائل ، الذي نخر في جسم الدولة وأتى على وحدتها .

٣ – تعصب الأمويين الشديد للعنصر العربي ، واضطهاد الموالي سياسياً وضرائبياً واجتماعياً ، الأمر الذي أدى إلى نمو روح طالبت بالانصاف والمساواة ولقد خرج الموالي مع كل خارج على الحكم الأموي ، إلى ان كانت الثورة العباسية فشغلوا فيها دوراً بارزاً .

٤ – ظهور الطبقية بين صفوف العرب أنفسهم ، خاصة عرب العراق ، فقد احتكرت عناصر الفتح الأولى موارد الدولة وأصبحت تدعى بالاشراف ،

وحالت إلى حد بعيد بين مهاجرة العرب بعد الفتح وبين المساواة ، مما دفع هذه القوى العربية الجديدة للتحزب مع الموالي ، وللانخراط في الثورات المعادية للنظام القائم ، خاصة ثورات الخوارج ، ثم إنها ظلت دائماً في العراق ، أو في مواطن أخرى لديها الاستعداد للاستجابة لكل نداء ثوري .

٥ ــ ظهور الأحزاب السياسية الدينية المعارضة ، التي أنكرت حق بني أمية في الخلافة ، وكانت أحزاب الشيعة أبرز هذه الأحزاب وأكثرها نشاطاً وخطراً وبعد الشيعة جاءت فرق الخوارج التي ناهضت الدولة الأموية وناصبتها العداء منذ لحظة قيامها وحتى ساعة سقوطها ، يضاف إلى هذا أحزاب سياسية أخرى أتينا على ذكر بعضها ، مع كثير من القوى الدينية التي هزمت مع نجاح الفتح العربي ، فعملت على الانتقام واستعادة مكانتها وتأثيرها .

٦ ــ انغماس عدد من الخلفاء في حياة اللهو والمجون ، واهمالهم لشؤون الدولة كل هذا في وقت كان فيه الأثر الديني قوياً ، وكانت الحاجة تستدعي عظام الرجال ، والصفات الخلقية للخلفاء كانت سبباً في انتشار التذمر في صفوف الناس ، وجعلهم يتقبلون الدعوات التي نادت بقادة من أصحاب السمعة المثالية .

٧ ــ وأخيراً اتساع رقعة الدولة الأموية وعجز الادارة المركزية فيها عن تطوير نفسها إلى درجة تستطيع بها كفكفة جبروت وفردية حكام الأقاليم ، ثم عجزها عن ملاحقة مشاكل المجتمع ورصدها مع تأمين الحلول لها والمقدرة على تنفيذ خطط الاصلاح بشكل مستمر ، يضاف إلى هذا كله حالة التطور الاقتصادي وطبيعة ما ألم بأوضاع ملكيات الأرض في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني .

لعل تلك هي أهم العوامل التي تضافرت على اضعاف الدولة الأموية ، هذه الدولة التي لم تستطع أن تحكم عقائدياً ولا بشكل امبراطوري ، فكان أن تم تدميرها بعدما حكمت لفترة قصيرة من الزمن لم تتجاوز التسعين عاماً،

علماً بأنه قد توفر لها معظم مقومات الديمومة والاستمرار في سعة الرقعةوضخامة الموارد ، لكن ما ذكرناه بالاضافة إلى أسباب أخرى كعدم استقرار النظام المالي وانتهاج السياسة الاقليمية الضيقة ، واستئثار طبقة صغيرة بخيرات الحكم وغنائم الفتوح .

وحين سقطت الدولة الأموية سقطت الدولة العربية العظمى التي حكمت بقاع شاسعة من القارات الثلاث لعالم العصور الوسطى – آسية وأفريقية وأوروبة – وكان سقوطها نهاية المدّ لتيار التوسع السياسي العربي ، لكن بداية لمدّ جديد ثقافي وحضاري وعقائدي في نفس الوقت .

وكانت الدعوة العباسية التي أسقطت الدولة الأموية – من بعض الجوانب – احدى ثمرات الخصام القديمة ، والكراهية التي كانت متأصلة بين البيتين الأموي والهاشمي ، وكانت انعكاساً للتنافس بينهما على السلطة السياسية ، والمصالح الاقتصادية منذ الفترة التي سبقت قيام الاسلام ، وقد أخذت أبعاد هذا الصراع تتأصل مع ظهور النبي ودعوته للاسلام ، ومعارضة الأمويين العنيفة له .

وبعد وفاة النبي بأمد قصير من الزمن ، أي عندما استلم علي مقاليد الخلافة تجدد هذا الصراع ، وأخذ أبعاداً عميقة فيها الكثير من الدماء بدءاً بصفين ، وتثنية في مذبحة كربلاء ، ثم فيما تلاها من مذابح أخرى ، زلزلت الامة زلزالا شديداً ، وحركت مشاعرها بشدة مأساوية ، فوحدت صفوف الشيعة ، وجلبت أعداداً كبيرة من المؤيدين للقضية العلوية ، وعمل هؤلاء جميعاً على الأخذ بثأر الحسين ، والانتقام من قتلته أفراداً ونظاماً ، وفي الواقع لقد افتتحت كربلاء سجلا حافلا سطر بالدماء بين الأسرتين الأموية والهاشمية ، وتمخضت عن ثورات عدة ، بعضها أصاب نجاحاً محدوداً ، ولقي البعض الآخر الاخفاق ، ذلك أن الحركات العلوية الأولى التي قامت ضد الحكم الأموي كانت عاطفية انفعالية اقتصرت إلى التخطيط والعمل المنظم ، لأنها جابهت دولة كانت منيعة الجانب قوية كثيرة الجند .

وفي أواخر القرن الأول للهجرة اتجهت المعارضة الشيعية نحو تغيير اسلوبها، وتطوير تنظيماتها ، خاصة بعد الاخفاقات المتعددة التي أصابت محاولاتها لاستلام السلطة ، وتجمع مصادرنا على القول بأنه حدث آنذاك ما يشبه الانقلاب في صفوف الحزب الشيعي ، حيث انتقلت زعامة احدى أنشط التنظيمات الشيعية وأكثرها سرية وحسن تنظيم إلى فرع آخر من فروع الأسرة الهاشمية ، وهو الفرع العباسي ، نسبة إلى العباس عم النبي ، الذي كان من ذوي اليسار وأصحاب الثروة قبل الاسلام ، وكان بذلك حليفاً للمعارضة المكية للاسلام ، فهو قد شارك ضد المسلمين في معركة بدر ، وأسر فيها ، كما أنه أسلم حين فتحت مكة ، وأمّن الحماية والبقاء لأبي سفيان .

ولم يكن للعباسيين في الواقع ، في الفترات الاولى ، تطلعات إلى استلام الخلافة ، فقد كان العباس وأبناؤه شديدي الحماس لعلي ولحقه في الخلافة ، وقاتل العباسيون الاوائل في صفوف أبناء علي ، لاستعادة حقهم الذي اغتصب ، لكن طموح العباسيين الى الحكم ما لبث أن ظهر على يد أحدهم ، وهو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، حيث أصبح زعيماً لإحدى تنظيمات المعارضة الشيعية ، وتم ذلك — حسب ما جاء في غالبية المصادر — صدفة ، فقد زاره أبو هاشم ، عبد الله بن محمد بن الحنفية ، الذي كان صاحب الدعوة الكيسانية الشيعية وإمامها ، وتوفي عنده ، وقبل وفاته عينه ليخلفه في الامامة ، ذلك أنه كان لا يملك ولداً خاصاً به من صلبه ، وكان الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك قد عرف بأمره ، وأدرك خطورة دعوته ، فاستدعاه اليه ، ودس له السم ، فمات بالحميمة قرب البحر الميت ، حيث كان يسكن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس .

وأخذ صاحب الدعوة الجديد يعمل من الحميمة بحيطة وحذر ، في بناء الجهاز التنظيمي للدعوة حيث جعل لها مجلساً مؤلفاً من اثني عشر نقيباً مع عدد من الدعاة بلغ السبعين ، كان جلهم من اليمانية ، وقد أظهروا حماساً شديداً للدعوة ، التي عرفت بالهاشمية ، إما نسبة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية

أو إلى هاشم الجد الأعلى للرسول وآله من العلويين والعباسيين ، وأخلص الدعاة لهذه الدعوة ، فكانوا يجوبون البلاد الخراسانية التي وقع عليها الاختيار كأرض صالحة للثورة ، لبعدها وكثرة العناصر غير العربية فيها ، متظاهرين بأنهم تجار وكانوا يراسلون محمد بن علي في الحميمة ، أو يجتمعون به في مواسم الحج، معتمدين على السرية التامة في تنقلاتهم واتصالاتهم ، حتى أن البيعة لم تكن تؤخذ باسم العباسيين ، بل لشخص غير محدّد من آل البيت يتفق عليه فيما بعد ، ولذلك طرحوا شعارهم المعروف (الرضا من آل محمد) .

مات صاحب الدعوة محمد بن علي سنة ١٢٦ هـ قبل أن يحقق أحلامه في اسقاط الحكم الأموي ، فانتقلت الزعامة إلى ابنه ابراهيم الذي عرف بالامام، فشهدت الدعوة على يديه بداية مرحلة جديدة وحاسمة ، انتقلت من السرية إلى دور النشاط العلني ، وقد ساعد على ذلك ظهور شخصية تاريخية تسلمت زعامة هذه الحركة في خراسان ، هي شخصية أبي مسلم الخراساني ، الذي كان يتمتع بثقة الامام التامة ، لذلك مارس سلطة مطلقة على بقية نقباء الحركة ودعاتها .

توجه أبو مسلم إلى خراسان حاملا عدة رايات سود أعطاه إياها الامام ، وهي التي أصبحت شعار العباسيين وأخذ يتنقل بين قرى هذا الاقليم مؤلباً الناس ضد الأمويين ، معتمداً على ما كان بين العرب في خراسان من تمزق وانقسام ، فهم قد كانوا ، على حدّ قول أحدهم تعوزهم العاطفة الوطنية ، ولم يكن أحدهم يعنيه سوى مصلحة الخاصة أو بالأحرى مصلحة قبيلته ، ولم يبق مخلصاً للدولة في ذلك الوقت إلا حاكم الولاية نصر بن سيار .

عرف أبو مسلم ، بما أوتي من الدهاء ، كيف يذكي العداء بين نصر بن سيّار ، وبين زعيم اليمانية جديع بن علي ، الذي عرف بالكرماني ، فوقف إلى جانب الكرماني في هذا الصراع بينه وبين نصر ، وقد أسفر هذا الصراع عن تحطيم النفوذ العربي في هذه الجهات ، وكان المستفيد الأول من ذلك والمنتصر الوحيد هو أبو مسلم ، حيث دخل مرو بمساعدة ابني الكرماني ، ثم أرسل

أحد الدعاة في أثر نصر بن سيار الذي تراجع إلى نيسابور ، وبذلك عمت الثورة أرجاء الدولة الأموية (١٣١ هـ / ٧٤٨ م) . وسقطت خراسان بكاملها في قبضة أبي مسلم . وما لبث العراق أن الحق بها بعد معارك عنيفة بين عاملها يزيد بن عمر بن هبيرة وبين الجيوش العباسية بقيادة الحسن بن قحطبة ، وأخيراً جاءت الضربة القاضية التي أطاحت بالدولة الاموية في معركة الزاب الحاسمة التي دارت بين آخر الخلفاء الامويين مروان بن محمد وبين عبدالله بن علي العباسي ، وقد أسفرت عن هزيمة ساحقة للأمويين وفرار مروان ، ثم مقتله فيما بعد سنة (١٣٢ هـ/٧٥٠م). وقام القائد المنتصر بتعقب الأمويين وتصفيتهم في كل مكان .

وهكذا سقط النظام الاموي ، وأبيد معظم عناصر الاسرة الحاكمة ، ولم ينج منها سوى أفراد كان أبرزهم عبـــد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي تمكن من الفرار إلى إفريقية ومنها عبر المضيق إلى الأندلس ، حيث أسس دولة أموية هناك ، وبسقوط دولة الأمويين زال ما بقي لدمشق من أهمية سياسية ، وانتقل مركز الخلافة مرة ثانية إلى العراق ، القريبة من مركز الثورة ومن العناصر الفارسية التي شغلت دوراً رئيسياً في قيام الدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بها ، بعد أن كانت مضطهدة في العصر السابق إلى أن تصبح متساوية مع العرب في الحقوق ، وربما أكثر من ذلك ، فقد وصل بها الطموح إلى محاولة السيطرة الفعلية على مراكز الحكم والقوة في الدولة .

وقد وجد المؤرخون في قيام هذه الدولة الجديدة ، فاتحة عصر جديد في الإسلام ويرى فلهوزن أنه بمجيء العباسيين ، انتهت سيادة العرب التي كان يمثلها بنو أمية وأهل الشام ، وأن الفارسية انتصرت على العربية تحت شعار الاممية الإسلامية ويرى لويس أن استلام العباسيين الحكم محل الأمويين يمثل نقطة فاصلة في تاريخ الاسلام ، ويضع الثورة العباسية في مصاف الثورات العالمية ، ويقارن بين ما كان لها من تأثير في الشرق وبين ما كان للثورتين الفرنسية والروسية في تاريخ الغرب .

والواقع أن دعوة العباسيين التي استخدمت نفوذ آل البيت واستغلت تذمر الموالي من الحكم الأموي، كانت بلا ريب ثورة شاملة، قلبت كل المفاهيم السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في العهد البائد، ونتيجة لذلك جاءت لها هذه الاستجابة الجماهيرية الواسعة، وهذا الترحيب العظيم بولادة الدولة المباركة التي قامت لتحقيق المساواة والعدل بين الناس، ولكن القناع ما لبث أن سقط عن وجه الحكم الجديد، وكشفت هويته على حقيقتها. فالمبادىء التي نادى بها العباسيون وأقاموا دولتهم على أساسها ذهبت بعد حين أدراج الرياح، وما لبث العباسيون أن سلكوا نفس السياسة التصفوية التي سلكها أسلافهم الأمويون ضد خصومهم لا بل كانوا أكثر بطشاً وأشد قساوة.

لقد نجحت الدعوة العباسية، في حين حالف الاخفاق الحركات الشيعية الأخرى، لأن هذه الدعوة استطاعت أن تستفيد من أخطاء الحركات الأخرى وأن تصنع نظاماً للدعوة في غاية الإحكام، وله امكانات عالية للغاية.

لقد رأينا أن غالبية الحركات الشيعية السابقة قد اعتمدت على مدينة الكوفة وسكانها، وكانت الكوفة دائماً مركز التنظيم ومقر تفجير الثورة، ولم يكن من الممكن أبداً القيام بأي تحرك سري في الكوفة، كما أن الدولة الأموية ندبت إلى الكوفة أكفأ عمالها، ونجح هؤلاء في إثارة التناقضات في مجتمع الكوفة، كما نجحوا في القضاء على الثورات، وخاصة الكبرى منها، دون عظيم عناء في غالب الأحيان، وكان اخماد تحرك الكوفة اخماداً للثورة كلها.

لقد اختط العباسيون لأنفسهم خطة تختلف عن خطط الثورات السابقة، حيث أنهم اختاروا مقراً خاصاً لقيادة الثورة جعلوه في الشام مقر السلطة الأموية وأقل أماكن الدولة مراقبة وترصداً، وبذلك تجنبوا العراق والحجاز لأن هذين البلدين كانا تحت الرقابة الدائمة، وحين اتخذوا من الشام مقر قيادتهم جعلوا مركز نشاط الثورة في أقصى بقاع الدولة وأكثرها ملائمة للتحرك، نظراً لطبيعة القوى التي وجدت فيها، هذا وفي نفس الوقت أقاموا مركز اتصال بين أرض نشاط الثورة ومقر القيادة جعلوه في العراق في الكوفة.

كانت الحميمة قريبة من الطريق الواصل بين الشام والعراق ، وبين الشام والحجاز ، لذلك سهل على الدعاة الوصول من العراق إلى الحميمة دون أن يرتاب أحد بهم ، هذا وقد أطلق الدعاة العباسيون شعارات كبيرة غامضة يمكن تفسيرها حسب الأهواء ، كما استغلوا كافة الدعوات والحركات ومنوها بما حلمت به ، لقد كان هدفهم الوصول إلى السلطة ، والاطاحة بالحكم الأموي، وبعد ذلك يمكن للثورة أن تأخذ لنفسها الطريق المناسب ، وتغير أسس دعوتها الأولى اذا اقتضت الحاجة ، وهذا ما حصل .

إن وجود مركز الاتصال في العراق قد أعطى رجالاته دوراً كبيراً في توجيه الأحداث وفي مستقبل نظام الدولة ، في قيام نظام الوزارة ، وهذه مسألة سنعود لها بعد قليل ، ثم إن استغلال الحركات والدعوات كلها على اختلاف مساراتها قد اتاح السبيل أمام عقائد ايران وبلاد الرافدين السابقة للاسلام للظهور في أشكالها القديمة أو في أشكال جديدة ، وعندما يستعرض المرء التاريخ العباسي يمر به ذكر حركات الشعوبية والزندقة مع كثير من الفرق والديانات .

لقد أصبح دعاة الدعوة العباسية مع الأيام ما يشبه الهيكل العظمي لحزب عقائدي كبير ، وصار داعي الدعوة هو المسؤول الفعلي عن هذا الحزب ، وكان داعي الدعاة هذا هو « ضابط الاتصال » بين الامام والحزب ، وكثيراً ما كان الدعاة يجتمعون للمداولة في كثير من القضايا ويتخذون العديد مـــن القرارات ، حيث يخبرون بها الامام فيما بعد ، فيوافق ويبارك عملهم ، ولقد أعطى هذا الحزب العباسي الفرصة لتكوين نظرية خاصة حول شكل السلطة في المستقبل ، ويبدو أن هذه النظرية أرادت الخليفة أن يملك ولا يحكم ، وأن يكون الحكم في يد الحزب ممثلاً بداعي الدعاة ، الذي بات يعرف بلقب «وزير» ، والوزير هو حامل أوزار السلطة عن الامام ، هذا وتحدثنا مصادرنا أن داعي الدعاة حين قامت الثورة كان أبا سلمة الخلال ، وأنه كان يعرف بوزير آل محمد .

في الحقيقة نحن هنا أمام سؤال نجد أنفسنا ملزمين بطرحه ، وهو : هل استعارت الدعوة العباسية من الدعوات الشيعية وظيفة « الباب ، أو الحجاب »، وهي وظيفة أوجدت بسبب اختفاء الأئمة ، أو بسبب عدم وجود أئمة على الاطلاق ، ولضرورة استمرار العقيدة والحزب ، كما سيكون عليه الحال بالنسبة لجماعة الاثنا عشرية من الشيعة ؟ من الممكن أن هذا قد حصل ، خاصة إذا سلمنا أن الدعوة العباسية كانت وريثة الدعوة الكيسانيَة .

هذا ولقد اعتاد المؤرخون على تقسيم تاريخ الدولة العباسية إلى أربعة أدوار مميزة ، حسب أصل ونوع القوى السياسية التي سيطرت على الدولة ، وقالوا : كان لا بد لكل أسرة أو قوة تسلمت مقاليد الأمور في الدولة من أن تفرض طابعها الحضاري والبشري على الفترة التي حكمت فيها .

وهذا التقسيم فيه تجاوز وتحكم كبير ، ذلك أن الدولة العباسية أكملت مسيرة الإسلام الحضارية ، وساعدت على تمازج شعوب الدولة الإسلامية ، وتكوين الأمة الإسلامية ، وكان العطاء الحضاري في أجزاء الدولة متشابهاً ومتجانساً ، أما من الناحية السياسية فقد مرت الدولة بدورين هما : دور حكم الخلفاء والإدارة المدنية ، ودور تحكم الجند .

وعندما استعرضنا تاريخ الدعوة العباسية وتنظيماتها وجدنا أن الحزب العباسي ، قد أراد أن يحصر السلطات بيديه ، وأن يكون داعي الدعاة هو الحاكم الفعلي للدولة ، وحين دعا أبو سلمة الخلال نفسه بوزير آل محمد، قبل اعلان الخلافة العباسية ونجاح العباسيين في القضاء على الدولة الأموية ، أراد أن يكون الخليفة يملك ولا يحكم ، ولهذا السبب أخر أبو سلمة اعلان الخلافة بعد احتلال الكوفة ، وقام بعرض منصب الإمامة على عدد من العلويين ، فرفضوا عرضه ولم يقبلوا شروطه ، وضغط عليه آنئذ أبو مسلم لاعلان الخلافة ولاختيار أحد أفراد الأسرة العباسية ، وهنا كان من المفروض أن يختار أبا جعفر المنصور ، لأنه كان أكبر اخوانه سناً وأقواهم شخصية ، ولكن أبا سلمة اختار أبا العباس ، لأنه كان مريضاً ، ضعيفاً ، قبل بشروطه ،

لكن ما حدث أنه بعدما استلم أبو العباس الحكم ، وقف أبو جعفر وراء العرش ، وحرك أبو جعفر الجيش ضد الحزب ، فاغتال رجال أبو مسلم الخراساني أبا سلمة الخلال في وضح النهار بعدما خرج من عند الخليفة ، فتمكن الخليفة من تسلم السلطة وحصرها بنفسه ، وعندما يقرأ المرء أخبار القرن العباسي الأول يلاحظ أن غالبية وزراء هذا القرن قد قتلوا وهم في ذروة سلطانهم . ويلاحظ أيضاً الصلات الوثيقة بين كل الوزراء ، وأنهم جميعاً انحدروا من أصلاب بعض كبار دعاة الحزب العباسي .

وتعليل هذا الأمر أن الخلافة بعدما اغتصبت السلطة من الحزب ، لم تقض عليه تماماً ، ، بل بقي موجوداً ، واحتفظ بمنصب الوزارة ، لكنه استمر يحاول دوماً الاستئثار بجميع سلطات الدولة ، فكان الخلفاء يسارعون — ساعة الخطر — إلى إحداث الانقلابات الداخلية ، ولعل مصرع البرامكة من أوضح البراهين على هذا .

وكان الجيش هو المستفيد الأول من الصراع بين الخلافة والوزارة(الحزب)، وحاول بعض قادة الجيش منذ ساعة قيام الدولة أن يستبدوا بأمورها ، لكن الخلفاء استطاعوا منعهم بواسطة : ضرب قادة الجيش ببعضهم البعض كما فعل المنصور حين جعل أبو مسلم الخراساني يحارب عبدالله بن علي ، وكانا يقودان جميع قوات الخلافة العباسية ، أو بواسطة فتح جبهات قتال خارجي ، خاصة ضد بيزنطة ، كما فعل هارون الرشيد وابنه المأمون ، أو بواسطة حل الجيش، وتكوين جيش جديد ، كما فعل المعتصم ، لكن هذه الحلول كانت تسكينية ، فبعد المعتصم سيطر الجند على السلطة ، فبدأ الدور الثاني في التاريخ العباسي ، ولقد استمر هذا الدور حتى سقوط الخلافة العباسية .

وبعدما تدخل الجند بالسياسة واستلموا مقاليد الأمور ، دخلت السياسة إلى الجيش ، وتغلغلت بين صفوف الجند ، وحدث أن تضخم الجيش ، وضم عدداً من الأسلحة ، من مشاة ، وفرسان نبالة ، وفرسان سيافة ، وفرسان

حملة رماح ، ومشاة رماة وحملة رماح ، وجاء رجال كل سلاح من هذه الأسلحة من إحدى أمم الدولة ، ولذلك كان ما حدث بعدما استلم الجند مقاليد السلطة ، أن قام صراع بين فئات الجيش ، وغذى هذا الصراع رجال السياسة والمطامح وعناصر الأسلحة ، لذلك تميّز عصر تحكم الجند بعدم الاستقرار السياسي وكثرة الانقلابات وتبديل الخلفاء ، وكان تُرك المعتصم ، ثم الديلم ثم التركمان هم أبرز فئات الجند التي تحكمت بالخلافة ، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الدور الثاني إلى ثلاثة أقسام ولنقم الآن بعد هذا العرض المجمل في الدخول بالتفاصيل (١) .

---

١ – أخبار العباس : ١٦٠ – ٣٧٦ . الفتوح : ٢/٢١٨ و – ٢٢٨ و . الطبري : ٧/٤٩ – ٥١ ، ٣٥٣ – ٤٥٧ . تاريخ الموصل : ١٠٦ – ١٦٧ . تاريخ خليفه : ٥٦٤ – ٦٠٨ . الأخبار الطوال : ٣٦٠ – ٣٧٠ . اليعقوبي : ٣٣٨ – ٣٤٩ . مروج الذهب : ٣/٢٥٢ – ٢٦٦. مسائل الامامة للناشىء الأكبر : ٢٦ – ٣٦ . تاريخ الخلفاء : ٤٧٥ – ٥٩٧ . العيون والحدائق : ٣/١٥٧ – ٢١٣ . الكامل : ٤/٢٠٠ – ٣٣٠ . الفخري : ١١٣ – ١٢٠ . ابن كثير : ١٠/ ٢٥ – ٥٥ . السيوطي : ٢٥٤ – ٢٥٩ . الذهب المسبوك : ٤٨ – ٥٩ . ابن العدي : ١١٧ – ١٢٠ . ابن خلدون : ٣/٢٥١ – ٢٧٩ . فلهوزن : ٤٥٥ – ٥٢٨ . العرب في التاريخ: ١١٣ . دولة بني العباس : ١/٩١ – ١٨٩ .

Cambridge Medieval History: IV, 639 – 641.

وقف عدد من الباحثين المعاصرين اطروحاتهم لمعالجة الثورة العباسية . من هؤلاء : M.A. shaban الذي كتب بالانكليزية كتاباً دعاه (الثورة العباسية) The Abbasid Revolution ولم يعالج شعبان في هذا الكتاب مسألة الثورة والاعداد لها ، بل وقف كتابه على دراسة أحوال خراسان في العهـــد الأموي . وقام فاروق بدراسة الثورة العباسية باطروحته التي دعاها :

The Abbasid Caliphate, 750 – 786.

ثم قام بعد ذلك باعادة كتابة هذه الاطروحة مع شيء من التوسع في كتب ثلاثة دعاها : طبيعة الدعوة العباسية ، والعباسيون الأوائل ، وقد جاء الأخير في مجلدين .

بويع السفاح (أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) بالخلافة في ربيع الأول من سنة ١٣٢ هـ (تشرين الأول ٧٤٩ م) وأوضح في الخطبة الأولى التي ألقاها في مسجد الكوفة الهدف الذي قامت من أجله الثورة العباسية، وهو تطبيق مبادىء الاسلام التي انحرفت عنها الأسرة الأموية، وأشار إلى حق العباسيين بالخلافة والكفاح الطويل الذي خاضه أهل البيت من أجل استعادة هذا الحق، كما وعد الكوفيين بزيادة أعطياتهم تقديراً لموقفهم الإيجابي من الثورة العباسية، ولم ينس أن يذكرهم بأنه «السفاح المبيح والثائر المبير على حد تعبيره».

كانت مهمة أبي العباس شاقة وعسيرة، فكان عليه أن يثبت أقدام العباسيين في الخلافة ويوطد أركانهم، وقد نجح في ذلك خلال السنوات القليلة التي قضاها في الحكم، بعد أن حطمت جيوش عمه عبدالله بن علي آخر جيوب المقاومة الأموية، وقام بتصفية المنافس السياسي الذي أراده أن يملك ولا يحكم، وهو أبو سلمة الخلاّل (١٣٣ هـ / ٧٥٠ م)، وبذلك اجتازت الدولة الناشئة هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها، لتصبح أشد مناعة وقوة في عهد أخيه المنصور الذي عرف بالمؤسس الحقيقي للدولة العباسية (١).

ويعتبر المنصور أحد النخبة من الخلفاء الذين عرفهم التاريخ العباسي، فقد وصف بأنه كان سياسياً حاذقاً، لم يدع مجالاً لأي اعتبار يثنيه عن الموقف الذي يقتنع به، وقد اتخذ هذا الخليفة من الأنبار (عاصمة أبي العباس) مركزاً مؤقتاً له في مطلع خلافته، ثم رأى أن تكون لدولته عاصمة جديدة ودائمة، فانتهى به الأمر أخيراً إلى موقع على الضفة الغربية من نهر دجلة بجوار قرية

---

١ - تاريخ خليفة : ٢/٦٠٨ - ٦٢٩ . أخبار العباس : ٤٠٩ . الطبري : ٧/٤٢١ -٤٢٩، ٤٧١ . اليعقوبي : ٢/٣٤٩ - ٣٦٣ . تاريخ الموصل : ١٢٢ - ١٢٦ . الأخبار الطوال : ٣٧٠- ٣٧٨ . مروج الذهب : ٣/٢٧٠ - ٢٩٤ . العيون والحدائق : ٣/١٨٩ - ٢١٥ . الذهب المسبوك : ٥٣ - ٥٩ . الفخري : ١٢٠ - ١٢٦ . الكامل : ٤/٣٢٢ - ٣٤٦ .

صغيرة كانت تسمى بغداد ، فبنى عليه عاصمته التي عرفت بهذا الاسم ، وأحياناً بدار السلام . كما وضع المنصور مفاهيم جديدة للسلطة والخلافة ، فالخليفة بالنسبة له لم يعد خليفة رسول الله بل خليفة الله ، والعباسيون لم يرثوا العلويين بل ورثوا أباهم العباس ، الوريث الشرعي الوحيد للرسول ، لأنه كان عمه وتوفي بعده .

ومن أهم المشاكل التي واجهت هذا الخليفة ، مشكلة خراسان التي وليها أبو مسلم الخراساني في عهد الخليفة السابق ، وقد أصبح الخراساني بعد نجاح الثورة أقوى شخصية في الشرق الاسلامي ، والواقع أن العلاقات بين المنصور والخراساني لم يسدها الصفاء في يوم من الأيام ، فقد كانت لأبي مسلم يد في ابعاد المنصور عن الحكم ، والبيعة لأبي العباس مكانه ، كما يقال أن سبب العداء بين الرجلين يعود إلى الوقت الذي توجه فيه المنصور إلى خراسان بأمر من أخيه لاستشارة الخراساني بشأن أبي سلمة الخلال ، فرأى بنفسه النفوذ القوي الذي بلغه الخراساني هناك ، فخامره الارتياب به وأخذ يحرض أخاه الخليفة على التخلص منه بقوله : « لست بخليفة ما دام أبو مسلم حياً» .

ولسنا هنا في صدد الافاضة عن تفاصيل العلاقة بين الرجلين ، والمحاولات التي قام بها المنصور لتصفية غريمه ، والتي بلغت من الاثارة حدّاً كبيراً ، فالمجال لا يتسع لذلك ، وإنما سنقتصر على القول بأن المنصور قد استطاع في نهاية الأمر أن يوقع بخصمه اللدود ، وكانت خطوته في منتهى الجرأة والذكاء ، ذلك بعدما عرف كيف يستميل رجال أبي مسلم عن طريق المناصب وتوزيع الأموال عليهم ، ويرى البعض أن هذه الحادثة قد كانت من العوامـــل الهامة التي عملت على بذر بذور التفرقة واذكاء العنصرية بين العرب والفرس طوال العصر الاول من تاريخ الدولة العباسية .

تسلّم الحكم بعد المنصور مجموعة من الخلفاء(١) كانوا في معظمهم على

---

١ – تعاقب على الدولة العباسية في الدور الاول عشرة خلفاء هم : ابو العباس ، المنصور ، المهدي ، الهادي ، الرشيد ، الامين ، المأمون ، المعتصم ، الواثق ، المتوكل .

قدر كبير من الذكاء وسداد الرأي ، والشجاعة في تحمل المسؤولية ومواجهة المشاكل الخطيرة سواء في الداخل أم في الخارج ، ونخص بالذكر هارون الرشيد الذي احتل اسمه شهرة اسطورية في الكتب التاريخية ، حيث بلغت الخلافة العباسية قمة مجدها السياسي في عهده ، وكذلك المأمون الذي كان له الفضل في وضع أسس تطوير النهضة الفكرية في الدولة العربية الإسلامية ، والواقع أن خلفاء هذا العصر توفرت لهم المقدرة على حفظ التوازن السياسي ، وجعل الخلافة السلطة العليا والمنصب الاول في الدولة .

ذلك أن نظرية الحكم اختلفت تماماً في هذا العصر بالمقارنة مع النظام الاموي السابق ، فيما كان الخليفة الاموي أشبه برئيس قبيلة يستمد سلطته الفعلية من زعماء القبائل المتحالفين معه ويستشيرهم في الامور الخطيرة ، كانت سلطة الخليفة عند العباسيين مقدسة ومستمدة من الله ، وكان هذا نتيجة عاملين اثنين : الاول هو اعتقاد العباسيين ان الخلافة حق لهم ورثوه عن النبي وما يرافق ذلك من هالة دينية تزيد في أهمية هذا المنصب . والثاني : تأثر نظام الخلافة في الدولة العباسية بنظم الحكم عند الساسانيين من ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب ، ويتجلى هذا في العبارة التي قالها المنصور بعد مبايعته : « إنما أنا سلطان الله في ارضه » . (١)

الوزارة

ظهرت الوزارة لأول مرة في هذا العصر ، وهي المركز الثاني بعد الخلافة في الدولة ، ولم تكن قبلها معروفة في نظام الحكم عند العرب ، وقد قال عنها ابن طباطبا : « ان الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة العباسيين

---

١ – تاريخ خليفة : ٢/٦٢٩ – ٦٦٧ . الطبري : ٧/٤٧١ – .... . اليعقوبي : ٢/٣٦٤ – ٣٨٠ . تاريخ الموصل : ١٦١ – ١٦٤ . الأخبار الطوال : ٣٧٨ – ٣٨٥ . مروج الذهب : ٣/٢٩٤ – ٣١٦ . العيون والحدائق : ٢١٥ – ٢٦٩ . الذهب المسبوك : ٥٩ – ٩٠ . الفخري : ١٢٦ – ١٤٤ .

أما قبل ذلك فكان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا ما حدث أن استشار ذوو الحجى والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى الوزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

فالوزير كان يمثل السلطة العليا بعد الخليفة ، أو بمثابة رئيس الوزراء بالمفهوم الحالي ، فهو الذي كان يشرف على ديوان الحكومة الذي كان يسمى «ديوان الوزير » ، وكانت ترتبط به الدواوين المختلفة ويخضع رؤساؤها لسلطة رئيسه .

وقد تميز هذا العصر ببعض الأسر التي تولى عدد من أفرادها منصب الوزارة، وتأتي في مقدمتها أسرة البرامكة التي تولى منها أربعة الوزارة وهم : خالد ابن برمك ، وابنه يحيى ثم ابناه الفضل وجعفر ، وأسرة الربيع بن يونس فهو عربي استوزره المنصور وابنه الفضل بن الربيع الذي استوزر للرشيد والأمين ، وكذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون .

على انه برغم المكانة العالية والتأثير القوي الذي بلغهما بعض الوزراء ، فان هذا المنصب كان في منتهى الخطورة ومرتبطاً إلى حد كبير بمنصب الخلافة والتوازن معها إلى حد كبير ، فكثيراً ما لجأ الخلفاء إلى تصفية وزرائهم عندما حاول هؤلاء أن يتجاوزوا الحدود المرسومة لهم ، ويطغوا على صلاحيات الخليفة كما فعل أبو العباس مع الخلال والمنصور بأبي أيوب المورياني والرشيد بالأسرة البرمكية (١) .

---

١ – الجهشياري : ٥٨ – ٦٤ . الأحكام السلطانية للماوردي : ٢٢ - ٣٠ . الفخري: ١٥٣ . متز : ١١٣ – ١٤٠ . المؤسسات الادارية : ٧٨ – ١٩٠ . النظم الاسلامية : ٢٩٤ – ٣٠٧ . القاسمي : ٤٠٩ – ٤٦٨ . دولة بني العباس : ١/٣٠٩ – ٣١٣ .

الجيش

اختلف الجيش في تكوينه وسماته العامة في الدولة العباسية الجديدة ، عمّا كان عليه في الدولة الأموية ، فبينما غلب عليه الطابع العربي في قياداته وعناصر جنده في الدولة الأموية ، فكان جيشاً عربياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، أصبح جيش الدولة العباسية في الواقع هو جيش الثورة نفسها التي كان للقوات الخراسانية الفضل الأكبر في نجاحها ، وتثبيت دعائم الحكم الجديد ، فبرزت كقوة رئيسية في الجيش إلى جانب القوات العربية الأخرى ، وقد أدّى ذلك إلى ظهور تيارين متنافسين ، كان كل منهما يحاول السيطرة ، ويظهر التعصب لأبناء جنسه : الخراسانيون وكان على رأسهم أبو مسلم الخراساني ، أقوى شخصيات الدولة بعد الخليفة ؛ والعرب الذين كان من أبرز قوادهم عبدالله بن علي العباسي ، بطل معركة الزاب التي هزم فيها مروان بن محمد والطامح إلى الخلافة ، وقد ظل الجيش يعوزه الانسجام ويفتقر إلى التلاحم بين عناصره المختلفة طوال الدور الأول من الخلافة العباسية حيث ظهرت عناصر جديدة استغلت هذا الصراع وسيطرت عليه ، وكانت أهم هذه العناصر الجديدة من الترك الذين جلبوا غلماناً عبيداً من منطقة ما وراء النهر ، ثم دربوا خصيصاً ليكونوا جنداً .

وسنحاول هنا أن نعرض باختصار بعض الاسماء اللامعة من القادة العسكريين الذين شغلوا دوراً خطيراً في سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، ومن أبرز هؤلاء :

ابو مسلم الخراساني

كان الخراساني الذي لا نعرف يقيناً اسمه ولا حتى أصله الذي انحدر منه ، رجل الثورة العسكري ، والسياسي الداهية الذي عرف كيف يستفيد من تناحر القوى العربية في خراسان ، وكان هو الذي خرج بالدعوة العباسية من سريتها في الحميمة ، إلى دور التنفيذ والنصر الحاسم في خراسان ، وقد وضع بذلك الأسس الثابتة التي قامت عليها الدولة الجديدة ، وتفانى في الاخلاص لخليفتها

الأول الذي كان لأبي مسلم الدور في اختياره ووقف الموقف نفسه مع المنصور، الخليفة الثاني فأخلص في نصرته ، ودفع أخطار المنافسين له ، والخارجين على ملكه ، ومع ذلك فان المنصور قد بذل أقصى جهده لاستدراج أبي مسلم وقتله، كما ذكرنا في موضع سابق ، والواقع أن مقتل الخراساني كان نتيجة للعبة الصراع على السلطة في الدولة الناشئة ، ذلك أن تعاظم نفوذ أبي مسلم في خراسان لدرجة أنه أصبح وكأنه حاكمها المستقل ، والخشية من ظهور تكتل فارسي حوله يقود هذه الولاية وغيرها من الولايات الشرقية إلى الانفصال ، كان من أهم الدوافع التي حدث بالمنصور لتصفية قائده ، الذي بدأ سلوكه في هذا الصدد يثير مخاوف الخليفة ، خاصة بعد قيامه بقتل عدد من الزعماء العرب في خراسان بينهم الخزاعي نقيب النقباء في الدعوة العباسية(١) .

عبد الله بن علي العباسي

كان عبدالله من كبار قادة الأسرة العباسية ، ومن أوائل الذين حملوا لواء الثورة العباسية حيث انعقد على يديه النصر الحاسم في موقعة الزاب الشهيرة التي أسفرت عن هزيمة ساحقة لآخر خلفاء بني أمية مروان الثاني ، ولم ينته دور هذا القائد بقضائه على آخر معاقل الأمويين في الشام ، وإنما برز كمرشح للخلافة يسعى للوصول اليها بشتى الوسائل ، ولا شك أن طموح رجل مثل عبدالله إلى الخلافة يعتبر أمراً بديهياً ، فهو قد كان من كبار رجالات البيت العباسي الذين حفل سجلهم بالانتصارات والمنجزات العظيمة في سبيل تثبيت دعائم الدولة الجديدة .

---

١ – تاريخ خليفة : ٢/٦٣٧ . أخبار العباس : ٢٥٣ – ٣١٥. الطبري : ٧/٤٦٩ – ٤٩٤ . اليعقوبي : ٢/٣٦٦ – ٣٦٨ . تاريخ الموصل : ١٦٤ – ١٦٧ . الأخبار الطوال : ٣٣٧ ، ٣٦٠ ، ٣٨٠ . مروج الذهب : ٣/٣٠٣ – ٣٠٥ . العيون والحدائق : ٣/٢١٩ – ٢٢٤ . النهب المسبوك : ٦٤ – ٦٩ . الفخري : ١٣٧ . الكامل : ٤/٣٥٠ – ٣٥٢ . طبيعة الدعوة العباسية : ٢٢٨ – ٢٣٩ ، ٢٤٤ – ٢٥٥ .

ويبدو أن طموحه هذا لم يكن بعيداً عن مسامع أبي العباس الذي يقال أنه وعده بالخلافة حين سيّره إلى الشام لملاحقة مروان ، ولكن عبدالله إذا كان قد تقبل خلافة أبي العباس في وقت كانت فيه الأسرة العباسية أحوج ما تكون إلى توحيد الجهود واجتماع الكلمة ، فقد صعب عليه أن يفوز المنصور بالخلافة من دونه ، بعد وفاة أبي العباس ، وكان عبدالله حينذاك يقود حملة ضد البيزنطيين ، فلما علم بتطور الأوضاع في العراق أوقف القتال ، وأعلن خروجه على الخليفة الجديد .

سار عبدالله بجيشه إلى أعالي الجزيرة حيث طرح البيعة بالخلافة ، فبايعه جيشه وأهل الجزيرة وعدد كبير من أهل الشـــام ، إذ أن المصلحة المشتركة قد جمعت بينه وبين الشاميين التواقين إلى استعادة مكانتهم القديمة ، والثأر من الخراسانيين الذين اتجهوا من جديد لمحاربة الثائر العباسي بقيادة أبي مسلم ، فوقعت معركة بين الطرفين استمرت سجالاً نحو أربعة أشهر هزم على أثرها عبدالله ، والتجأ إلى أخيه سليمان في البصرة حيث اختبأ فترة من الزمن خرج بعدها ليبايع المنصور ، ولكن هذا الأخير – وكان معروفاً عنه شدة الحذر – لم يأمن له ، فزج به في السجن ثم أمر بقتله سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م (١) .

الحسن بن قحطبة

ومن القواد الذين عرفتهم الدولة العباسية وشغلوا دوراً كبيراً في انتصاراتها على الجيوش الأموية في العراق ، الحسن بن قحطبة الذي كان والده قحطبة بن شبيب من كبار الدعاة ، وقد قاد الجيش العباسي الذي تعقب نصر بن سيار عامل خراسان ، فدخل نيسابور والريّ واستولى على أصفهان ، وهزم العامل الأموي على العراق ، يزيد بن هبيرة ، في معركة بجوار الكوفة ، وقد أسفرت هـــذه

---

١ – تاريخ خليفة : ٢/٦٣٥ . الطبري : ٧/٤٧٤ – ٤٧٩. اليعقوبي : ٢/٣٦٥ – ٣٦٦ . تاريخ الموصل : ١٦٣ – ١٦٥ . مروج الذهب : ٣/٣٥٢ . العيون والحدائق : ٣/٢١٧ – ٢١٩ . الكامل : ٤/٣٤٨ . طبيعة الدعوة العباسية : ٢٣٩ – ٢٤٤ .

المعركة أيضاً عن وفاة قحطبة في ظروف غامضة ، فتولى ابنه الحسن زمام القيادة واستطاع أن ينتزع النصر من الأمويين بعد أن فقدت القوات العباسية الأمل ، وكادت تستسلم لليأس ، ثم تابع سيره إلى الكوفة فدخلها ، حيث كان له دوراً مهماً في اعلان خلافة أبي العباس ، وبعد نجاح الثورة برز اسم الحسن في الحملات العسكرية التي وجهها الخلفاء العباسيون ضد الدولة البيزنطية ، ورغم أن هذه الحملات لم تحدث أي تغيير في خريطة الحدود بين الدولتين ، إلا أنها حافظت على هيبة الدولة الناشئة وشقت طريق الغزوات الكبرى التي قامت فيما بعد . (١)

طاهر بن الحسين

لم يكن طاهر بن الحسين — الفارسي الاصل — من رجال الثورة أو دعاتها ، ولكنه برز خلال الازمة الخطيرة التي قامت في ظاهرها خلافاً على ولاية العهد بين الامين والمأمون ، وكانت في مضمونها حلقة جديدة في سلسلة الصراع التقليدي على النفوذ بين القوتين العربية والفارسية .

وقد بدأت الازمة ، عندما أقدم الامين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد واعطائها لابنه موسى ، فتحرجت الامور بين الرجلين وتطورت إلى نزاع مسلح ، وكان طاهر بن الحسين أحد المقربين إلى المأمون في خراسان ، فعهد اليه بقيادة الجيش الذي أعدّه لمقابلة الجيش الذي أرسله الامين بقيادة علي بن عيسى ، فاشتبك الجيشان في معركة عنيفة عند الريّ انتهت بهزيمة ساحقة لجيش الامين ، بعد هذا الانتصار تابع طاهر زحفه إلى العراق ومعه هرثمة بن أعين

---

١ – تاريخ خليفة : ٢/٦٠٠ – ٦١٦ ، ٦٥٦ ، ٦٨٦ ، ٧٤٥ . أخبار العباس : ٣٢١ – ٣٧١ . الطبري : ٧/٤١٢ – ٤١٧ . اليعقوبي : ٢/٣٤٣ – ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ . تاريخ الموصل : ١١٦ – ١٢٦ ، ١٤٢ ، ٢١١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ – ٢٩٠ . فتوح البلدان : ١٧٣ .

أحد قادة الحملة ، حتى وصل إلى بغداد واعلن عليها الحصار ، فاستسلمت المدينة الحصينة وقتل خليفتها الامين .

كافأ المأمون قائده بتعيينه والياً على الجزيرة والشام ، وكانت الاحوال مضطربة في هذه النواحي ، فأحسن حكمها وأعاد اليها الاستقرار ، ثم استدعاه الخليفة وعهد اليه بولاية خراسان ، حيث كانت الحاجة شديدة لرجل قوي من طراز طاهر بن الحسين ليقوم بالحكم فيها ويحافظ عليها من الحركات الانفصالية ، ولكن طاهراً لم يكن بدوره يعوزه الطموح الكبير ، فما لبث أن نازعته نفسه إلى الاستقلال في تلك البلاد النائية ، فحكمها حكماً يكاد يكون مستقلاً ، إلا أنه تمكن بحنكته وبراعته أن يتجنب غضب الخليفة ، فأبقى على ذلك الخيط الرفيع الذي كان يربط ولايته بالسلطة المركزية ، ولم يفكر المأمون بدوره باتخاذ أي اجراء سلبي ضد واليه ، طالما بقي يعترف ، ولو رسمياً ، بالخلافة العباسية . (١)

هرثمة بن أعين

كان هرثمة بن أعين ، وهو من أصل عربي ، أحد أعوان المأمون في خراسان ، ولما اندلعت الأزمة بين الأخوين ، عمل هرثمة كمساعد لطاهر ابن الحسين في الحملة التي انتصرت على جيش الأمين ، ودخلت بغداد ، وكان له دوراً بارزاً فيها ، ولكن بروزه لم يعجب بعض المتنفذين من الفرس لا سيما الفضل بن سهل وأخيه الحسن ، وكانا من كبار أعوان المأمون ، فاتهماه بالتواطؤ مع العلويين ونصرة قضيتهم ، وأخذوا يدسون عليه لدى المأمون الذي انقلب عليه أخيراً وأمر بقتله ، وقد أحدث مقتله استياءاً عاماً

---

١ – تاريخ خليفة : ٧٥٤/٢ – ٧٥٨ ، ٧٧٥ . الطبري : ٤١٢/٨ – ٤٩٧ ، ٥٩٣ – ٥٩٥ . اليعقوبي : ٤٣٧/٢ – ٤٤٠ – ٤٤٦ – ٤٥٧ ، ٤٧٠ . تاريخ الموصل : ٣١٨ – ٣٦٧ . الأخبار الطوال : ٣٩٧ – ٤٠٠ . مروج الذهب : ٤٠٩/٣ – ٤٢٠ . العيون والحدائق: ٣٢٢/٣ – ٤٦٣ .

بين أوساط العرب في بغداد ، وغدت بسبب ذلك مرة أخرى مسرحاً للفوضى والاضطراب (١) .

الأفشين

يمثل ظهور الأفشين كواحد من أبرز قادة الجيش العباسي بداية تغلغل العنصر التركي في مجتمع الدولة وسياستها ، وذلك في عهد المعتصم ، وكان هذا الخليفة قد ضاق ذرعاً بالصراع العربي – الفارسي الذي استنفذ كل طاقات الدولة وامكاناتها ، فرأى أن يعتمد على العناصر التركية في الجيش لما عرف عنها من البأس وشدة المراس واتقان الرمي مشاة وفرساناً ، ومن هؤلاء كان القائد الشهير الافشين الذي حقق النصر في موقعة عمورية ضد البيزنطيين ، وتمكن من قبل من القضاء على حركة بابك الخرمي الانفصالية ، مما أدى إلى ذيوع شهرته في أرجاء الدولة ، فكافأه الخليفة بولاية السند .

ولكن نهاية الأفشين ، أظهرت أن ولاءه للدولة العباسية لم يكن إلا مرحلياً فقد كشفت الحرب التي وقعت بين عبدالله بن طاهر والي خراسان وبين المازيار صاحب طبرستان المجوسي مراسلات من الأفشين بعثها إلى المازيار ، وفيها خطوط مؤامرة كان الأفشين يعدها لإقامة ملك مستقل في الولايات الشرقية من الدولة ، فأمر المعتصم باعتقاله ، وعهد إلى وزيره محمد بن عبدالملك الزيات بمحاكمته وقد كشفت المحكمة عن خيانته وبقائه على مجوسيته وبعدما برهنت علي تآمره على الدولة ، حكم عليه بالموت وأحرق بالنار سنة ٢٢٦هـ(٢).

---

١ – الوزراء والكتاب : ٢٥٩ – ٢٦١ . العيون والحدائق : ٣/٣٤٧ – ٣٥٠ . الطبري : ٨/٥٤٢ – ٥٤٣ . اليعقوبي : ٢/٤٤٩ – ٣٥٠ . تاريخ الموصل : ٣٤١ .

٢ – الطبري : ٩/١١ – ١٣ ، – ٢٣ – ٢٧ ، ٢٩ – ٧١ ، ٨٠ – ٨٩ ، ١٠٤ – ١١٤. مروج الذهب : ٤/٥٥ – ٦٢ . اليعقوبي : ٢/٤٧٣ – ٤٧٨ . العيون والحدائق : ٣/٣٨٢ – ٤٠٧ . البابكية : ٢٥٨ – ٢٦٠ .

المشاكل الداخلية

مشكلة ولاية العهد

كانت مشكلة ولاية العهد ومستقبل الحكم من مظاهر الصراع البارزة على السلطة ، وقد جرّت الى الدولة العباسية المتاعب ، واستنفذت من طاقاتها ونشاط خلفائها الكثير ، وقد ساهمت التكتلات السياسية ومؤامرات البلاط في إذكاء نار الصراع من أجلها ، إلى حد أنه كان يصل أحياناً إلى الانفجار والاشتباك المسلح بين أفراد الأسرة الحاكمة ، ونجمت هذه المشكلة ، في الحقيقة عن تركيب الدولـــة الامبراطوري وتعـــدد القوى والأهواء فيها ، ثم عن عدم وجود نظام ثابت ومحدد للخلافة ، بحيث كان يمكن أن يحول دون وقوع أزمات سياسية ، عند انتقال السلطة من شخص لآخر،وهذا أمر لم يقتصر على النظام العباسي ، بل عانت منه الدول العربية الاسلامية بصورة عامة ، خاصـــة الدولة الأموية ، حيث كان الخلفاء يميلون الى أن تكون السلطة السياسية بعدهم لأبنائهم ، متجاوزين في كثير من الأحيان ، اعتبارات الكفاءة والمقدرة على الحكم مما أدى إلى ظهور الانقسام وإثارة البغضاء بين أعضاء البيت الحاكم ، فكان ذلك ــ كما ذكرنا ــ مُن أهم الأسباب التي عجلت بسقوط الدولة الأموية وانهيارها .

وبعد قيام الدولة العباسية ، أخفق خلفاؤها في الاستفادة من التجربة الأموية، ووقعوا في نفس الخطأ ، سواء فيما يتعلق بتعيين اثنين في ولاية العهد ، أو بالمحاولات التي بذلها الآباء في توريث الأبناء ، وقد بدأ الصراع على ولاية العهد في الدولة العباسية منذ أن اختار أبو العباس اثنين لخلافته ، الأول : أخوه أبو جعفر المنصور ، والثاني : ابن أخيه عيسى بن موسى ، مستبعداً أحد كبـــار الطامعين في وراثته ، وهو عمه عبدالله بن علي القائد المشهور، وهكذا فتح هذا الخليفة ثغرة في نظام دولته الناشئة ، أخذت تتسرب عبرها رياح الأزمات

الخطرة ، فسرعان ما ثار عبدالله بعد موت أبي العباس مطالباً بأحقيته في الخلافة ، غير أن الخليفة ، المنصور تمكن – كما رأينا – من القضاء عليه بمساعدة أبي مسلم الخراساني .

وإذا كانت الخلافة قد استقرت للمنصور بعد تخلصه من منافسه الخطير عبدالله بن علي ، فإن مشكلة أخرى أقل خطورة ، كانت تأخذ قسطاً وافياً من تفكيره ، وهي مشكلة ولاية العهد ، فهو لم يكن مرتاحاً للقرار الذي اتخذه أبو العباس باختيار عيسى بن موسى ليكون خليفة بعد المنصور ، فقد رغب منذ البداية أن يعد كبير أبنائه لاستلام الحكم من بعده ، ولكن أمر إبعاد عيسى ابن موسى ، وكان من أقدر العسكريين في البيت العباسي ، لم يكن بالأمر الهين فكان لا بد من انتظار فرصة ملائمة لتحقيق هذه الغاية ، واعتقد المنصور أن الفرصة واتته حينما ثار الزعيم العلوي محمد النفس الزكية في الحجاز ، فأرسل ضده ولي عهده للقضاء عليه،ولعل الخليفة توقع له الاخفاق في مهمته، ولكن عيسى رجع من الحجاز ظافراً ، فازدادت مكانته رسوخاً في مركز الخلافة .

وفي المصادر التاريخية تفصيلات واسعة عن المحاولات التي قام بها المنصور لإبعاد عيسى عن ولاية العهد والمراسلات التي جرت بين الاثنين حول هذه المشكلة ، ذلك أن المنصور لم يدع وسيلة من وسائل الترغيب والترهيب إلا واستعملها لحمل ابن أخيه على التخلي عن حقه بالخلافة ، وأخيراً حقق المنصور غايته ، وانتهى الأمر بعيسى إلى التنازل عن حقه بولاية العهد الأولى للمهدي ابن المنصور على أن يحتفظ بولاية العهد الثانية .

رافق سوء الحظ عيسى بن موسى أيضاً في خلافة المهدي الذي لم يكن أقل تصميماً من والده المنصور على إزاحة ولي عهده وتوليته ابنه موسى الهادي ، فاستعمل معه نفس الأساليب التي استعملها والده من قبل ، فضلاً عن تحريكه الهاشميين وشيعتهم من أهل خراسان وتحريضهم على خلع عيسى والبيعة للهادي . ومرة ثانية خضع عيسى بن موسى لضغوط المهدي ، وخلع نفسه مكرهاً من ولاية العهد ، وبويع مكانه للهادي ومن بعده لهارون الرشيد .

وبعد وفاة المهدي تفجرت المشكلة من جديد وازدادت تعقيداً في ايام الهادي ، الذي ما كاد يتولى الخلافة حتى بدأ بمحاولاته للإطاحة بأخيه وإحلال ابنه جعفر مكانه ، فتأزم الموقف بين الأخوين ، وأوشك الصراع أن يتحول إلى حرب أهلية ، لولا حكمة يحيى البرمكي الذي تحاور مع الهادي مدافعاً عن حق الرشيد، ولولا موت الخليفة المبكر نتيجة مؤامرة دبرتها أمه الخيزران ، حسب ما تذكر الروايات التاريخية ، وذلك لأنه أراد الحد من سلطتها وتدخلها في شؤون الحكم .

وفي عهد الرشيد ، اتخذت مشكلة ولاية العهد أبعاداً سياسية ، ما لبثت أن تطورت إلى صراع دموي بعد موته ، ذلك أن الرشيد – رغم ما عرف عنه من ذكاء وبعد في النظر – وقع في نفس الخطأ الذي وقع به أسلافه ، وزاد عليهم بأنه لجأ تحت ضغط من زوجته والقوة العربية في الدولة ، إلى توليته ابنه محمد الأمين في سنة ١٧٥ هـ ، وابعاد عبد الله المأمون ، الذي كان مرجحاً أن تؤول اليه ولاية العهد ، لأنه كان الأكبر سناً والأكثر كفاءة ، وهذا ما كان يريده الرشيد نفسه ، وما لبث في سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ان عين المأمون في ولاية العهد الثانية على أن تكون له ولاية خراسان وما يتصل بها من الولايات الشرقية ، وأعقب ذلك في سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م البيعة لابنه القاسم بعد المأمون ، ودعاه (المؤتمن) وولاه على الجزيرة .

كان تصرف الرشيد هذا تصرف حاكم واجه الكثير من الضغوط ، فتصرف دون تقدير للعواقب ، فهو بتقسيمه للدولة بين أبنائه الثلاثة ، قد وضع بذرة التفكك السياسي التي تمخضت عن ظهور دويلات مستقلة بعد ذلك بقليل ، وأوقع الدولة في خضم حرب أهلية كبيرة كانت لها نتائجها الخطيرة على مستقبل الدولة ، فقد تكتل العرب إلى جانب الأمين وأخذوا يحرضونه على خلع المأمون، وبذلوا أقصى جهودهم من أجل نصرته واستعادة نفوذهم ..

وهكذا انفجر الصراع بين الأخوين ، وأجج ناره أصحاب المصالح والطموح من الطرفين ، فمن جهة كان الفضل بن الربيع عدو البرامكة وورثتهم

من آل سهل من الفرس ، والطامح إلى الاستئثار بالوزارة ، يقف إلى جانب الأمين ، ومن جهة ثانية كان الفضل بن سهل الذي عاش في كنف البرامكة وتأثر بهم يقف إلى جانب المأمون ، وقد انتهى هـذا الصراع بانتصار القوة الفارسية بزعامة المأمون ومقتل الأمين واندحار القوة العربية بعد معارك طاحنة .

ولعل المأمون كان الوحيد بين خلفاء الدور العباسي الأول الذي أفلح في معالجته – ولو مؤقتاً – لمشكلة ولاية العهد فقد رأى أن تكون الكفاءة هي المعيار الأول في اختيار الخليفة ، ولذلك لم يحذو حذو أسلافه بتعيين اثنين أو أكثر في ولاية العهد ، إنما عين شخصاً واحداً اعتقد فيه المقدرة على تحمل مسؤوليات الحكم ، فاختار أولاً في سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م عليّ الرضا أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية ، ولبيعة الرضا هذه بولاية العهد أسباب يختلف حولها المؤرخون ، وان كان من المرجح أن المأمون أراد أن يحقق نصراً سياسياً من وراء ذلك باستمالة العلويين وشيعة خراسان إلى جانبه اثناء صراعه مع الأمين ، وما لبث المأمون أن تراجع عن بيعته للرضا خاصة بعدما تمرّد أهل بغداد عليه ، لأنهم تخوفوا من تحوّل الخلافة إلى العلويين ، وانتهى الأمر أخيراً بمبايعة المأمون لأخيه أبي اسحق المعتصم متجاوزاً بذلك ابنه العباس ومخالفاً سنة الخلفاء العباسيين الذين سبقوه في الحكم (١) .

قضية البرامكة

كانت قضية البرامكة وهم في السلطة وعلاقتهم بالرشيد ، ثم المصير الذي آلوا إليه، من أهم القضايا التي عالجها المؤرخون القدامى ، واستأثرت حديثاً باهتمام الكتّاب المعاصرين ، وقد اعطاها كل واحد من الكتاب تفسيراً خاصاً ووجهـة نظر معينـة حتى تجاوزت هذه القضية حجمها الطبيعي ، فحادت

---

١ – الطبري : ٨/٩ – ٢٥ ، ١٢٤ – ١٢٨ – ، ٢٠٧ – ٢١٣ ، ٢٤٠ – ٢٤١ ، ٢٧٥ – ٢٨٣ ، ٤٢٨ – ٤٣٢ ، ٥٥٤ – ٥٥٥، ٦٤٦ – ٦٦٧ . العيون والحدائق : ٢٥٩/٣ – ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٨٥ – ٢٩٠ ، ٣٠٣ – ٣٠٥ . العباسيون الأوائل : ١٩٥/٢ – ٢٢٩ .

عن منطلقاتها الأساسية في كثير من الأحيان ، وحين نبحث بها هنا نفعل ذلك لأنها كانت إحدى قضايا التاريخ العباسي الكبرى ، وصلت بالصراع بين الخلافة والوزارة (الحزب) إلى القمة :

وقبل البحث في أسباب مصرع البرامكة لابدّ لنا من تقديم تعريف سريع بالاسرة البرمكية ، هذه الأسرة التي تقلد عدد من أعضائها منصب الوزارة وشغلوا دوراً بارزاً في سياسة الدولة العامة ، فالبرامكة أصلاً أسرة عريقة من أسر بلخ ، ينتسبون إلى جدهم برمك الذي وصف بأنه كان عالماً في الطب والتنجيم ، وكلمة برمك تعني بالفارسية ، السادن ، وهي وظيفة شغلها جد الأسرة في معبد النوبهار الذي كان أحد المعابد الزرداشتية الهامة .

وكان أول من اتصل من البرامكة بالعباسيين هو خالد بن برمك ، وكان في عداد حملة الثورة العباسيـــة إلى العراق تحت قيـــادة قحطبة ، وقـــد أوكل إليه قحطبة بن شبيب مهمة تنظيم الخراج وتوزيع الغنائم بين الجند فبرزت مواهبه الادارية منذ ذلك الحين ، وبعد تنصيب أبي العباس ومقتل الوزير أبي سلمة الخلاّل ، قام خالد بعده بالوزارة . وفي عهد المنصور كان خالد من المقربين إليه وعمل في عدة وظائف هامة ، حتى إذا مات سنة ١٦٥ هـ / ٧٨١ م حلّ محله ابنه يحيى الذي صار واحداً من أبرز رجالات البلاط في عهود المنصور والمهدي والرشيد ، وقد توثقت علاقـــة يحيى بالرشيد ، حيث ساعده في صراعه مع الهادي ، وعندما تقلد الرشيد الخلافة أوكل إلى حليفه واستاذه يحيى مهام الوزارة ، وفوّض اليه صلاحيات مطلقة حيث خاطبه بقوله : «قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت واقض على ما ترى » .

ومع الأيام بلغت سلطة البرامكة في عهد الرشيد برئاسة وزيره يحيى حداً بعيداً ، فقد أصبح الوزير وكأنه الحاكم الفعلي والجامع في يديه كل المسؤوليات ، وحظي الفضل بن يحيى بعطف الرشيد ومودته أيضاً ، وتقلد الوزارة بعد أبيه

فقام بها خير قيام ، ولكن دور البرامكة حتّى ذلك الحين برغم أهميته وفاعليته، لم يبلغ الدور الذي شغله جعفر بن يحيى الذي أعقب أخاه الفضل في الوزارة ، ففي عهده اشتدت قبضة البرامكة على الحكم وأصابوا من الشهرة حداً بعيداً، ذلك أن جعفراً بما عرف عنه من حيوية الشباب والذكاء الحاد والإقبال على المرح ، وهي صفات كانت تستهوي الرشيد ، أصبحَ هو المسيطر على زمام الأمور ، وله الكلمة النافذة في الدولة ، وقد حفلت المصادر التاريخية بالكثير من الروايات التي تشير إلى سلطان البرامكة في أيام جعفر وأخبارهم التي بلغت مرحلة تعدت الواقع إلى ما يشبه الأسطورة . وفي ذروة السلطة هذه أوقع الرشيد بالبرامكة انقلاباً دموياً صفاهم به مع أعوانهم .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، لماذا بطش الرشيد بالبرامكة بعد أن وصلوا إلى هذا المقدارمن القوة والسلطان ، وبعد أن ساهم هو في إبرازهم واحتلالهم هذه المكانة ؟ هناك عدة أجوبة لذلك ، فإذا اعتمدنا على ما جاء في الكتب التاريخية نجد أن مسألة دعيت بمسألة العباسة أخت الرشيد حيث قيل أنه قامت علاقة انجاب بين العباسة وجعفر ، نجدها تحتل مكاناً بارزاً في صفحاتها ، ولكن هذه القصة يعوزها التأكيد لأن أكثر من مؤرخ طعن بها .

والقضية الثانية التي أوردها المؤرخون هي قضية الثائر العلوي يحيى بن عبدالله الذي استسلم للفضل البرمكي بعد عفو الرشيد عنه ، فاستقبله الخليفة بترحاب وقرّبه اليه ، ولكن يحيى لم ينج من مؤامرات البلاط الأمر الذي غيّر موقف الرشيد منه ، فأمر بالقبض عليه وإيداعه السجن ، وقيل ان جعفر البرمكي مهد له طريق الفرار مما أغضب الرشيد وأثار نقمته على البرامكة ، وهذا التفسير أيضاً يحتمل الكثير من الشك لأنه ليس هناك ما يثبت تعاطف البرامكة مع القضية العلوية ، وعلى العكس من ذلك فالدلائل كلها تشير إلى أن الجفاء كان يسود العلاقات بين البرامكة والعلويين ، حتّى أن جعفراً المتهم باطلاق سراح يحيى بن عبدالله هو نفسه الذي دبر المؤامرة لقتل أخيه ادريس في المغرب الأقصى .

ومن المؤرخين المحدثين من يرى أن مؤامرات الفضل بن الربيع الذي كان أحد رجالات العرب الطامحين إلى تبؤ منصب الوزارة الذي كان يحتلــه البرامكة ، كانت من الأسباب الرئيسية التي أثارت حقد الرشيد عليهم ودفعته إلى تصفيتهم .

والواقع أن هذا الاحتمال مع أهميته ، لا يكفي لأن يكون سبباً كافياً ، مع أننا لا ندري إن كان باستطاعة الرشيد أن يقلد الفضل بن الربيع الوزارة ، دون اللجوء إلى الفتك بأسرة كانت تربطه بها علاقات حميمة منذ نشأته .

والواقع أن ابن خلدون يلامس معظم جوانب الحقيقة في تفسيره لأسباب النكبة البرمكية حين يقول : « إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه » .

لقد وصل البرامكة في الدولة إلى مكانة نافسوا فيها الرشيد نفسه ، فأموال الدولة وخيراتها كلها غدت في أيديهم ، ونفوذهم السياسي بدأ يطغى على نفوذ الخليفة ، الذي بات يشعر وكأنه الحاكم الرسمي فقط ، فيما هم الحكــام الفعليون ، فالصراع على السلطة والنفوذ ، هو الدافع الأول الذي حدا بالرشيد إلى التخلص من البرامكة ، وهو بدون شك نتيجة حتمية للتضارب بين السيادة المتمثلة بالخلافة وبين السيادة المتمثلة بالوزارة ، ذلك التضارب الذي بدأ مع ظهور الدولة العباسية ، حين اصطدم أبو العباس بوزيره الخلال ، والمنصور بأبي أيوب المورياني ، والمهدي بيعقوب بن داود ، وأخيراً المأمون بالفضل بن سهل ، ولكن أياً كان من هؤلاء الوزراء لم يبلغ المرتبة التي وصل اليها البرامكة ، الأمر الذي أحدث لسقوطهم هذا الدوي وأدى الى احتلال قصتهم هذا المكان البارز بين صفحات التاريخ .

---

١ – الطبري : ٢٨٧/٨ – ٣٠٠ . اليعقوبي : ٤٢١/٢ – ٤٢٤ . الجهشياري : ١٧٩ – ١٨٩ . العيون والحدائق : ٣٠٥/٣ – ٣٠٩ . مروج الذهب : ٣٨٤/٣ – ٣٩٣ . الفخري : ١٦٠ – ١٧٣ . الذهب المسبوك : ١٦٠ – ١٦٨ . مقدمة ابن خلدون : ٢٢ – ٢٥ . محاضرات الخضري : ١٢٣/٢ .

أهم حركات الشيعة

بعد نجاح الثورة العباسية ، أصيبت شيعة العلويين ، التي كانت احدى العناصر المهمة التي سارت مع الثورة ، وناضلت في صفوفها ، بخيبة أمل شديدة ، وشعرت بأحلامها في الوصول الى السلطة تنهار مرة أخرى ، ذلك أن الدولة الجديدة قد وضحت هويتها وبرزت صفتها العباسية بصورة لا تدع مجالا للشك ، ورأى العلويون أنفسهم ، وهم أبناء الفرع الهاشمي الذي قاد المعارضة ضد الحكم الأموي السابق ، وحملوا راية الكفاح والثورة منذ موقعة كربلاء وحتى ثورة يحيى بن زيد بن علي في أواخر الدولة الأموية ، مروراً بجميع الحركات العلوية وغير العلوية التي اتخذت من كربلاء محركاً لها ودافعاً لاستقطاب الجماهير الساخطة على النظام الأموي ، ليس فقط بعيدين عن السلطة ، وإنما ملاحقين مرة أخرى بعنف أكبر وتنكيل أشد .

ويبدو أن العلويين كانوا على اعتقاد بأن الثورة التي اندلعت في خراسان ستكون في النهاية لصالحهم ، أو أنهم على الأقل حاولوا استغلالها وتحويلها إلى ثورة علوية محضة ، وهذا ما حدث في اجتماع عقده بنو هاشم في الأبواء قرب مكة سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م من أجل اتخاذ موقف موحد والاتفاق على مرشح منهم للخلافة، وهذا هو الاجتماع الذي قال بعض المؤرخين أنه ضم أبو العباس والمنصور وهما من قادة الفرع العباسي ، وتم فيه ترشيح محمد بن عبدالله العلوي الملقب بالنفس الزكية ليكون الخليفة بعد نجاح الثورة ، ولكن هذا الخبر يعوزه التدقيق ، لانه كان من المستبعد جداً أن يوافق العباسيون ، الذين كانوا يخططون للثورة منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمن ، على أن تكون الخلافة علوية ، وهم يدركون جيداً أن احداث خراسان تتجه لمصلحتهم ، وإن كان من المعتقد ان العباسيين كانوا آنئذ متكتمين بشأن الخلافة ، ولم يحاولوا إثارتها مع العلويين ، وذلك من أجل المحافظة على تماسك الجبهة الهاشمية .

والخلاصة أن العلويين، حين ادركوا ضياع الخلافة من ايديهم ، وأنهـا صارت خلافة عباسية ، تلك التي سقوها بدمائهم وناضلوا طويلاً من أجلها ، انتفضوا على الدولة الجديدة في محاولة لاسقاطها ، وساروا على نفس الطريق الذي سلكوه مع النظام الأموي ، وهو طريق الثورة والكفاح ، وكان من أشهر ثورات الشيعة :

ثورة محمد بن عبدالله (النفس الزكية)

كان محمد بن عبد الله الذي عرف بالنفس الزكية واحداً من أبرز رجالات البيت العلوي الذين كان عندهم مطامح لنيل الخلافة ، وكان حسنياً ، أي من أبناء الحسن بن علي ، وقد ساعده على تحقيق مطامحه ، اعتزال آل الحسين الذين تزعّموا الأسرة العلوية في العهد الأموي الأمور السياسية ، فانتقلت زعامة نشاط الأسرة العلوية إلى الحسنيين الذين تزعمهم النفس الزكية .

رفض محمد بن عبدالله مبايعة أبي العباس بالخلافة ؛ وكذلك فعل أخـوه ابراهيم ، فامتنع هو الآخر في العراق . فكان لامتناعهما صدى استياء وحذر في نفوس العباسيين ، وقد حاولت الخلافة أن تتجنب الاصطدام بزعماء البيت العلوي ، وأخذ السفاح يتودد إلى النفس الزكية ، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً لأن النفس الزكية كان مقتنعاً بأحقيته في الخلافة ، فأخذ يتابع اتصالاته ويبث دعوته بين الناس بكل همة ونشاط ، ويبدو أن أبا العباس تجاهل تحركات النفس الزكية ، ربما لأنه لم يجد فيها ما يثير القلق في وقت كان هو فيه منصرفاً إلى تثبيت أسس دولته الجديدة .

ظلت سياسة المهادنة هي الطابع العام للعلاقات العباسية ـ العلوية طوال عهد السفاح ، حتّى إذا جاء المنصور وكان معروفاً عنه شدة الحذر ، أخـذ التأزم يشوب هذه العلاقات ، وبدا ظاهراً أن موقف الخليفة الجديد سيكون أكثر صلابة ، ورغم انشغال المنصور بقمع ثورة عمه عبدالله بن علي وبتصفية مشاكله مع الخراساني وانصرافه إلى مجابهة الحركات الاخرى التي نشبت في عهده،

فإنه لم يكن بعيداً عما يجري في الحجاز ونظر إلى تحركات العلويين بحـذر شديد ، وبث جواسيسه يتعقبون نشاط محمد النفس الزكية ، ويتتبعون أخباره، حتى علم أخيراً باختفائه في مكان ما في الحجاز .

وبعد هذا أصبح الحجاز مهيأ لانتفاضة علوية ، ولم يعد أمام المنصور إلاّ أن يأخذ الأمر بالشدّة ، فاستبدل الوالي بآخر عرف بالشدة والفظاظة ، وبسط له الأموال ليأتيه بالثائر العلوي حيث كان، لجـأ الوالي الجديد إلى التنكيل بالعلويين وزج عدداً منهم بالأصفاد ، وكان بينهم عبدالله بن الحسن والد النفس الزكية نفسه ، وكانت خطة المنصور من وراء ذلك استثارة النفس الزكية ودفعه إلى الخروج ، وقد حدث ذلك فعلاً حين بادر النفس الزكية إلى إعلان ثورته في رجب ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م ، ودخل إلى المدينة حيث انضمت اليـه بغالبية فئاتها ، فهزم أميرها وأطلق سراح المسجونين ، واستتب له الأمر فيها، وبذلك ظهرت المدينة مرة أخرى على المسرح السياسي بعد انكفائها طويلاً في العهد السابق .

كان المنصور آنئذ مشغولاً ببناء عاصمة دولته الجديدة في موقع بغداذ ، وحين وصلته الأخبار بخروج النفس الزكية في المدينة ثم أخيه إبراهيم في البصرة، سارع الى تشديد الحصار على الكوفة لمنع سكانها من الانضمام إلى ابراهيم وأرسل جيشاً ضخماً بقيادة ولي العهد ضد النفس الزكية لحصر ثورته في الحجاز والقضاء عليها .

وفي هذه الظروف الحرجة لم يقفل المنصور باب المفاوضات مع الثائر العلوي فأرسل اليه يقول : «لك علي عهد الله وميثاقه إن تبت ورجعت من قبل أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم». غير أن محمداً النفس الزكية رفض الموادعة وأصرّ على موقفه معلناً أن ذلك حقاً من حقوقه كما جاء في ردّه على المنصور : «اني أعرض الأمان مثل الذي عرضت علي ، فان الحق حقنا . فأبانا علياً كان الوصيّ ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم

ولايته وولده أحياء » ، ومراسلات المنصور – النفس الزكية في غاية الشهرة، وردت في أكثر من مصدر ، ويلاحظ فيها تبدلاً ، أوبداية تبدل ، في العقيدة العباسية ، فالعباسيون الآن ورثة العباس عم الرسول ووريثه الشرعي لأنه عاش بعده .

وأثار اصرار النفس الزكية ثائرة المنصور وبلغ به الغضب أقصاه ، فأصدر أوامره لقائده الذي كان يقترب حينذاك من المدينة بأن يأخذ النفس الزكية ورفاقه بمنتهى الشدة ، وكان النفس الزكية آنذاك يستعد للموقف بحفر خندق حول المدينة ، غير أنه عندما دنا الخطر ، قام عدد من أصحابه فخذلوه وتفرقوا عنه خاصة حينما رأوا ضخامة الجيش العباسي ، لذلك دارت معركة غير متكافئة بين الطرفين هزم على أثرها النفس الزكية وأنصاره ، ولقي هو مصرعه بعدما حارب بشجاعة نادرة .

ولم ينته خطر هذه الثورة بالقضاء على النفس الزكية في الحجاز ، ذلك أن ابراهيم أخوه كان ما يزال مسيطراً على البصرة والأقاليم المحيطة بها ، وكان من الممكن لحركته أن تكون أشدّ خطورة وأن تصيب بعض النجاح ، لو تمكن من الوصول الى الكوفة واتخذها قاعدة للثورة في العراق ، ويبدو أنه كان باستطاعته تحقيق ذلك لأن القوات الرئيسية للدولة كانت قد سارت إلى الحجاز ، لكن تردده فوت عليه الفرصة في السيطرة على زمام الموقف في العراق ، فتحطمت آماله على يد الجيش نفسه الذي قضى على ثورة أخيه في الحجاز (١) .

ثورة الحسين بن علي بن الحسن

لم ينه القضاء على ثورة النفس الزكية وأخيه تحركات الشيعة بزعامة البيت الحسني ، ففي زمن الخليفة الهادي حفيد المنصور ثار الحسين بن علي ، وكان

---

١ – تاريخ خليفة : ٦٥٠/٢ . اليعقوبي : ٣٧٥/٢ – ٣٧٩ . الطبري : ٥١٧/٧ – ٦٤٩. تاريخ الموصل : ١٨٠ – ١٩٥ . العيون والحدائق : ٢٣٧/٣ – ٢٥٧ . مقاتل الطالبين : ٢٣٢– ٢٩٩ ، ٣١٥ – ٣٨٦ . مروج الذهب : ٣٠٦/٣ – ٣٠٨ . العباسيون الأوائل : ١٦٣/١ – ٢١٨ . دولة بني العباس : ٢١٤ – ٢٢٦ .

من كبار آل علي ، على الدولة العباسية ، وكان العامل الأول وراء حركته ، عمليات التنكيل والاضطهاد التي قام بها عامل المدينة العباسي ضد العلويين ، مما دفعهم للثورة بتحريض من الحسين وبزعامته ، حيث اندفعوا إلى السجون وأخرجوا من فيها ، ثم بايعوا الحسين بالخلافة ، ولما تناهت أخبار هذه الثورة إلى الخليفة ، أرسل إلى الحجاز جيشاً ، التقى بالثوار عند موقع يقال له فخ بين مكة والمدينة ، حيث جرى قتال عنيف بين الطرفين أسفر عن هزيمة الثوار ومقتل قائدهم ، والواقع ان أهمية هذه الحركة ، لا تقتصر على عملية اقتحام السجون في المدينة كتدبير للتمرد على السيادة العباسية ، وإنما كانت لها نتائج بعيدة مؤثرة ، إذ أنها سببت ميلاد حركات شيعية أخرى ستكون لها نتائجها الخطيرة على صعيد التحرك العاوي ضد العباسيين ، وعلى وحدة الدولة العباسية (١) .

ثورة يحيى بن عبدالله

كان يحيى بن عبدالله ، وهو واحد من اخوان محمد النفس الزكية ، أحد الثوار الذين اشتركوا في موقعة فخ ، ونجح في الفرار من قبضة العباسيين ، حيث ذهب شرقاً حتى استقرّ به المقام في بلاد الديلم الجبلية ، جنوب بحر الخزر . فأخذ يدعو لنفسه حتى قوي أمره وبايعته جموع كثيرة من المناطق المجاورة ، وكان ذلك زمن الرشيد حفيد المنصور أيضاً ، الذي أرسل ضده وزيره الفضل بن يحيى البرمكي على رأس جيش كبير للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره في تلك الجهات ، فآثر الفضل أن يأخذه باللين ففاوضه بشأن الصلح ، فاستجاب يحيى ، شرط أن يكتب له الرشيد أماناً بذلك ، فوافق الرشيد وعاد الفضل مصحوباً بيحيى إلى بغداد حيث استقبله الخليفة بالترحاب والحفاوة .

---

١ – تاريخ خليفة ؛ ٢/٧٠٤ . اليعقوبي : ٤٠٤ – ٤٠٥ . الطبري : ١٩٣/٨ – ٢٠٣ . مقاتل الطالبيين : ٤٣١ – ٤٦٠ . العيون والحدائق : ٢٨٤/٣ – ٢٨٥ . مروج الذهب : ٣٣٦/٣– ٣٣٧ . الفخري : ١٥٤ – ١٥٥ .

وإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على هذه التفاصيل بشأن ثورة الديلم ، إلا أنهم يختلفون حول مصير قائدها ، فمنهم من يقول أن الرشيد تخوف من يحيى فقبض عليه وأودعه السجن ، وآخرون يقولون انه اتهم باعداد مؤامرة ضد الخليفة فأمر بحبسه ، المهم أن يحيى عاد إلى السجن ، وربما قتل فيه أيضاً ، هذا ، وكانت قضيته عاملاً مهماً من عوامل تصفية الاسرة البرمكية ، كما سبق وتحدثنا (١) .

ثورة ادريس بن عبدالله

كان ادريس الاخ الرابع للنفس الزكية من بين الذين ثاروا على العباسيين ، وقد هرب ادريس في نفس الظروف التي هرب فيها أخوه يحيى ، فكلاهما قاتل في معركة فخ ، ولكنهما اختلفا في الاتجاه الذي سار به ، فبينما اتجه يحيى الى الشرق ، يمم ادريس وجهه صوب الغرب وانتهى به المطاف في المغرب الاقصى من شمال أفريقية حيث التف حوله البربر ، وآمنوا بدعوته ، خاصة بعد أن تأكد لهم انتماءه إلى البيت النبوي ، وحاول الرشيد أن يرسل جيشاً في أثر ادريس ، لكنه تردد لبعد هذه البلاد وصعوبة الاشتباك مع قبائل البربر المتمرسة بالحرب ، فاتجه إلى المكيدة وبعث إلى إدريس رجلاً عرف بالمكر والدهاء هو سليمان بن جرير الذي تظاهر بأنه خارج على العباسيين ، فاطمأن له ادريس حتى اصبح من المقربين اليه ، ولما حانت الفرصة لسليمان دس السم لادريس في الطعام فمات سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، ولكن موته لم يقض على مشروع الدولة الادريسية الذي عمل له ، إذ أن اتباعه صمموا على الاحتفاظ باستقلالهم ، وكان ادريس قد ترك أمة له حاملاً ، ويذكر أنها وضعت ولداً بعد وفاته سمته ادريس أيضاً وبايعه البربر بالامامة ، وبذلك

---

١ – اليعقوبي : ٤٠٨/٢ . الطبري : ٢٤٢/٨ – ٢٥١ . مقاتل الطالبيين : ٤٦٣ – ٤٨٦ . مروج الذهب : ٣٥٣/٣ . العيون والحدائق : ٢٩٢/٣ – ٢٩٤ . الفخري : ١٥٨ .

استمرت أول تجربة علوية ناجحة في الوصول إلى الحكم دون أن يتمكن خلفاء هذا العصر من القضاء عليها (١) .

تلك هي أهم الحركات العلوية في العصر العباسي الأول ، وهي حركات لم يكتب لها النجاح ، باستثناء حركة إدريس بالرغم من توفر الكثير من الاستجابة الشعبية ، لكن افتقارها إلى التنظيم والاستعداد الكامل قادها مثل غيرها من الحركات الحسينية السابقة للعصر العباسي إلى هذه النتيجة، ، على أنه سيتبدل الحال في الدور العباسي الثاني الذي سيشهد حركات شيعية منظمة وناجحة إلى بعض الحدود .

* * *

١ – اليعقوبي : ٤٠٥/٢ . مقاتل الطالبيين : ٤٨٧ –٤٩١ . ابن خلدون : ٢٣/٤ – ٥٧ . البيان المغرب : ١٠٠/١ . تاريخ المغرب العربي : ٤٠٦– ٣٦٥ . المغرب عبر التاريخ : ١١٥– ١١٩ .

الحركات اللا اسلامية

قام الدعاة العباسيون أثناء اعدادهم للثورة باستقطاب كافة القوى والحركات على اختلاف ألوانها التي وجدت في خراسان . وكان هناك عدداً من الحركات التي نبعت عن ديانات المنطقة لما قبل الفتح الاسلامي ، وكانت هذه الحركات تتوق إلى استعادة مكانتها السابقة ، وكان هذا لا يمكن تحقيقه إلا بالقضاء على الاسلام ، وقد وجدت هذه الحركات في أحوال خراسان وفي ضعف السلطة الأموية فيها ، وفي تشجيع دعاة الثورة العباسية الفرص للظهور ، فكان أن أعلنت عن نفسها ، وجاء ذلك إما : تحت نفس الاسم والشعار القديم أو تحت اسم وشعار جديد فيه لون اسلامي ظاهري للتمويه والخداع ، وكان من أشهر هذه الحركات على اختلافها :

الراوندية

أطلق اسم الراوندية على عدة حركات متطرفة واكبت ركب الثورة العباسية ، ثم تمزقت واختلفت بعد قيام الدولة وتمتين أصولها من قبل المنصور ، ومن جماعات الراوندية من قال بأن الامامة العباسية ورثت شرعيتها من أبي هاشم عبدالله بن محمد ابن الحنفية ، وقالت جماعة ثانية : « إن الامام كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب ، لأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه ، وقد قال الله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » [٧٥/٨] . وعلى هذا كان العباس أولى بمقام النبي وميراثه من علي ، فكان العباس هو الامام بعد النبي وقد أورث الامامة ابنه عبدالله ، وهكذا حتى محمد بن علي ، حيث أن جماعة عرفت بالخداشية ، نسبة الى داعية عرف بخداش كان محمد بن علي قد وجهه إلى خراسان ، ثم بلغه عنه الغلو ففصله عن الدعوة العباسية ولعنه ، وقد اعتقل خداش هذا من قبل والي

خراسان أسد بن عبدالله القسري « فقطع لسانه ويديه ورجليه وسمل عينيه وضرب عنقه وصلبه على باب مدينة كابل » وهنا قام جماعة من أتباع خداش بالعودة إلى مسار الدعوة العباسية في حين « ثبتت طائفة منهم على قول خداش ، فأظهروا البراءة من محمد بن علي » .

ومن الراوندية جماعة خرجت في خراسان زمن السفاح ، فقام أبومسلم بالقضاء على حركتهم ، وحاولوا اغتياله بالسم فاخفقوا ، وبعد مقتل أبي مسلم الخراساني حدث انشقاق جديد في الراوندية فظهرت جماعة عرفت بالرزامية فقالت بأن الامامة انتقلت من محمد بن علي إلى ابراهيم الامام ومن ابراهيم الامام إلى أبي مسلم ، وعرفت جماعة الرزامية بالأبي مسلمية أحياناً ، وهذه الجماعة كان منها من قال بأن أبا مسلم لم يمت وأنه حي ونسبوا إليه عدد من الخوارق وقدسوه إلى درجة العبادة ، وجماعة اعترفت بموته وقالت بأن الامامة انتقلت بعد موته إلى ابنته فاطمة ، ويربط كثير من الكتاب بين هذه الجماعة والحركة الخرمية التي ستتحدث عنها بشيء من التفصيل .

ومن الراوندية من اعترف بخلافة السفاح ثم بامامة المنصور، وقد تطرف هؤلاء في اعتقادهم بالمنصور فقالوا بأن « ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور » وفي سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م تحرك هؤلاء ، وكان المنصور يسكن الهاشمية قرب الأنبار قبل بناء مدينة بغداد وتحوله إليها « وأتوا قصر المنصور فجعلوا يطوفون به ويقولون : هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فغضب أصحابهم وقالوا : علام حبسوا ؟! وأمر المنصور ألا يجتمعوا ، فأعدوا نعشاً ، وحملوا السرير — وليس في النعش أحد — ثم مروا في المدينة ، حتى صاروا على باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الناس ، ودخلوا السجن ، فأخرجوا أصحابهم ، وقصدوا نحو المنصور وهم يومئذ ستمائة رجل » وأحدق الخطر بالمنصور ، وفي ساعة الخطر تدخل معن بن زائدة ، وكان من كبار القادة العرب ، وكان متخفياً منذ قيام الدولة العباسية ، وقاتل معن مع بعض أعوانه الراوندية وثبتوا لهم حتى

هزموهم ، وبعد القضاء على حركتهم عفا عنه المنصور وقربه إليه وولاه عدة ولايات (١) .

حركة سنباذ

كان سنباذ أحد رجالات أبي مسلم المقربين اليه ، وقد أعلن الثورة في نيسابور سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م إثر مقتل أبي مسلم فاستجاب لدعوته أعداد غفيرة في تلك المناطق التي كانت تعج بالمؤيدين لأبي مسلم والمغالين بحبه ، وخطورة هذه الحركة نبعت من أنها ككل الحركات اللا اسلامية ابتغت القضاء على الاسلام ، وبالتالي اسقاط الخلافة والحكم العربي ، وتجلّت أبعاد هــذه الدعوة حين تحرّك الآلاف من أتباع سنباذ من نيسابور باتجاه العراق ، لكن جيوش المنصور أوقعت بهم هزيمة ساحقة في موقعة وقعت في بقعة بين الريّ وهمذان ، ونتيجة لذلك فرّ سنباذ ملتجئاً إلى حاكم طبرستان الفارسي ، وذلك بعدما أخذت دعوته في الانقراض ، ولجأ اليه وهو يعلل النفس بأن يلقى منه المساعدة ، ولكن أمله خاب لأن هذا الحاكم لم يرد فتح ثغرة في علاقاته مع العباسيين فتخلص منه ودبر أمر قتله (٢) .

حركة اسحق الترك

يلاحظ الباحث في تاريخ حركات الدور العباسي الأول أن معظم الحركات التي انطلقت من القسم الشرقي للأراضي العباسية اتسمت بالطابع الايراني ، واتخذت من أبي مسلم الخراساني رمزاً لها ، لا سيما في الفترة التي تلت مصرعه

---

١ – الناشىء الأكبر : ٣٠ – ٤٢ . الطبري : ٥٠٥/١٧ – ٥٠٨ . الأخبار الطوال : ٣٨٤– ٣٨٥ . مروج الذهب : ٣٠٥/٣ – ٣٠٦ . العباسيون الأوائل : ٢٨٤/١ – ٢٨٥ . دولة بني العباس : ٢٧٠/١ – ٢٧٧ .

٢ – تاريخ خليفة : ٦٣٧/٢ – ٦٣٨ . الطبري : ٤٩٥/٧ . اليعقوبي : ٣٦٨/٢ . مروج الذهب : ٣٠٥/٣ – ٣٠٦ . العيون والحدائق : ٢٢٤/٣ . دولة بني العباس : ٢٧٧/١ – ٢٨٠ . العباسيون الأوائل : ٢٨٦/١ – ٢٨٩ .

وهي الفترة التي قام بها اسحق في بلاد ما وراء النهر ، وقد لقب باسحق الترك نسبة إلى بلاد الترك حيث كان داعية فيها من قبل أبي مسلم ، خرج اسحق بعد موت أبي مسلم وزعم أن أبا مسلم لا يزال حياً وأنه سيظهر في يوم من الأيام ، وقد تمكن من استغواء عدد كبير من الناس ، وأعلن الثورة على الدولة العباسية سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م مستفيداً من الظروف السيئة التي كانت تمر بها خراسان ، لكن النجاح الذي صادفه لم يكن سوى نجاح مؤقت لأن عامل خراسان تمكن القضاء على حركته وقتله سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م (١) .

حركة المقنع الخراساني

وهي أيضاً احدى الحركات الايرانية وقد قام بها في خلافة المهدي رجل اسمه هاشم أو حكيم ، وعرف بلقب المقنع الخراساني، لأنه كان يخفي وجهه بقناع حتى لا يرى الناس وجهه، لأنه كما وصفه بعض المؤرخين كان أعوراً قصيراً ، دميم الخلقة ، أو لأسباب دينية لأن البعض الآخر نسب اليه ادعاء الألوهية والاعتقاد بالتناسخ ، وإذا صح ذلك فإن القناع كان لاخفاء النورانية القدسية ، هذا ويبدو أن حركته كانت متصلة بالراوندية حيث يقال أن المقنع كان من الرزامية التي كانت إحدى فرق الراوندية المتطرفة في تقديسها لأبي مسلم ، وقد ثار المقنع على الدولة العباسية سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م في خراسان بعدما نجح في استقطاب العديد من العناصر الساخطة على هذه الدولة ، ثم انتقل إلى سجستان وتمكن من استمالة الترك في تلك الجهات حتى قوي أمره واشتدت شوكته .

وقام الخليفة المهدي فأرسل ضد المقنع جيشاً كبيراً وذلك بعدما أدرك خطورة حركته ، لكن لم يكن من السهل القضاء عليه وذلك لكثرة أنصاره ومناعة مواقعه ، وبعد أربعة شهور من القتال العنيف تمكنت القوات العباسية من

---

١ – الفهرست لابن النديم : ٤٠٨ . دولة بني العباس : ١/٢٨٠ – ٢٨٢ . العباسيون الأوائل: ١/٢٨٩ – ٢٩١ .

السيطرة على الموقف وايقاع الهزيمة بالمقنع وقتله حيث كان مقيماً في قلعة حصينة بجوار كش من أعمال خراسان ، وقيل بأن المقنع حين أدرك حتمية إنكساره تناول السم مع أهل بيته ورفاقه المخلصين ، ثم احرقوا جميعاً بالنار حتى لا يمثل بهم العباسيون (١) .

حركة بابك الخرمي

كانت الخرميّة أهم الحركات الايرانية ذات الطابع الديني والهدف الاجتماعي التي قامت في الدور العباسي الأول ، وقد تميزت عن غيرها بجهازها المنظم وقيادتها البارعة وقدرتها على الاستمرار ، على أننا قبل أن نمضي في بحث هذه الحركة وملابساتها لا بد من الاشارة إلى أن الخرمية لم تكن فئة واحدة ، وإنما كان هناك أكثر من فئة ، فهناك على سبيل المثال : الخرمية الأوائل أو المحمرة نسبة إلى اللون الأحمر الذي اتصفوا به ، وقد انتشر هؤلاء في منطقة الجبال بين أذربيجان وأرمينية ، وكانوا متأثرين بالعقيدة المزدكية إلى حد بعيد ، والمزدكية كانت عبارة عن حركة اصلاحية اجتماعية قامت في المجتمع الساساني وقادها مصلح عرف بمزدك ، وذلك قبل قيام الاسلام بأمد ليس بعيد ، وقد قضى على هذه الحركة كسرى أنوشروان ، وكانت هذه الحركة ذات محتويات اشتراكية وتطلعات اصلاحية اجتماعية واقتصادية ، وبعد القضاء عليها شهّر بها كثيراً فاتهمت بالاباحية والغاء الشرائع وتحليل زواج الأصول والفروع ، وهي تهم وجهت فيما بعد إلى جميع الحركات الاسلامية التي نادت بالاصلاح الاجتماعي والغاء الاستغلال واحلال المساواة مثل القرامطة وغيرهم .

وهناك أيضاً الخرمية البابكية ، نسبة إلى بابك صاحب الثورة الكبيرة ، وهم أيضاً اعتقدوا بالتناسخ ونزعوا إلى الاشتراكية ، وبذلك لم يكونوا بعيدين عن التأثر أيضاً بالمزدكية التي كانت أذربيجان مهداً لها حيث نشأت الخرمية ، وينسب المؤرخون إلى بابك ادعاءه الألوهية واحداثه مبادىء قائمة على العنف والقتل والتمثيل ، وإباحة كل ما يلذ للنفس وينزع اليه الطبع ما لم يعد على أحد

---

١ – الطبري : ١٣٥/٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ . العيون والحدائق : ٢٧٣/٣ . العباسيون الأوائل : ٢٩٣/١ – ٣٠٣ .

بالضرر ، وسنولي الخرمية البابكية عناية أكثر من غيرها ، بسبب دورها الكبير بعد إعلان ثورتها على الدولة العباسية بزعامة بابك في سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م ، وكان المأمون حينذاك في مدينة مرو في خراسان وكانت قاعدة الثوار البابكيين جبال أذربيجان ، ثم أخذوا يتوسعون في المناطق المجاورة حيث لاقت دعوتهم تأييداً واسعاً خاصة في منطقة الجبال بين همذان وأصفهان ، وانتشروا بعد ذلك في طبرستان وجرجان وبلاد الديلم ، يعيثون فساداً ويثيرون الاضطراب ، يساعدهم على ذلك انصراف المأمون إلى الشؤون الخارجية ، وانهماك قواته بحرب البيزنطيين ، فضلاً عن طبيعة البلاد الجبلية الحصينة التي اعتصم بها بابك وجماعته مما جعل أمر القضاء عليه في غاية الصعوبة ، ومات المأمون دون أن يتمكن من تصفية هذه الحركة ، فلما جاء المعتصم وكانت الظروف أكثر ملاءمة سواء في الداخل أم على جبهة الحدود مع البيزنطيين بادر إلى تضييق الخناق على الخرمية منذ أن تولى زمام الخلافة، ودفع بكل قواته إلى معاقلهم، وفي سنة ٢١٨ هـ / ٧٣٣ م تمكن أحد قادته وهو اسحق بن ابراهيم من تشتيت الخرمية في همذان ، ثم قام قائده التركي الافشين سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥م بشن هجوم عنيف على معقل الخرمية الأصلي في أذربيجان ، وحاصرهم مدة طويلة حتى اضطر قائدهم بابك إلى الهرب سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م ، ثم ألقى القبض عليه ، وبذلك انتهت هذه الحركة وسيق زعيمها إلى سامراء حيث قتل ومُثل به وشهر (١) .

---

١ – تاريخ خليفة : ٢ /٧٨٦ – ٧٨٨ . الفهرست لابن النديم : ٤٠٦ – ٤٠٨ . الطبري : ٨/١١ – ٥٥ . الأخبار الطوال : ٤٠٢ – ٤٠٦ . البدء والتاريخ : ٤/٣٠/– ٣١ . اليعقوبي : ٢/٤٦٢ – ٤٧٧ . مروج الذهب : ٣٠/٣٠٥ – ٣٠٦ ؛ ٤/٢٩ ، ٥٥ – ٥٦ . العيون والحدائق: ٣/٣٨٢ – ٣٩٩ .

نالت حركة بابك بعض الاهتمام من الكتاب المعاصرين ، خاصة ذوي الاهتمامات الاجتماعية، وكان من أحدث من كتب عنها حسين قاسم العزيز اطروحة قدمها لنيل الدكتوراه من جامعة موسكو ١٩٦٦ ، وقد نشرت هذه الاطروحة بالعربية في بيروت – دار الفارابي – بدون تاريخ – وقد بذل صاحب هذه الاطروحة جهداً جيداً ، إلا أنه أضاع قيمة جهوده بسبب تعنته غير الواعي بالتفسير الماركسي ، واستخفافه بكافة الكتابات التي عملت عن الثورة ووسمها بالرجعية و ... ، ذلك أن كل بحث في التاريخ يتم للبرهنة على عقيدة ما هو بحث متحيز ولا يمكن تسميته ببحث تاريخي .

العلاقات الخارجية

العلاقات مع البيزنطيين

اختلفت طبيعة العلاقات العسكرية مع الدولة البيزنطية في العصر العباسي عنها في العصر الأموي ، فبينما كانت في السابق حرباً هجومية منظمة تستهدف التوسع واختراق اسوار القسطنطينية ، تحولت في أيام العباسيين الى حرب دفاعية واشتباكات محدودة هدفها الأساسي المحافظة على حدود الدولة واظهار قوتها أمام العدو ، وباستثناء الرشيد الذي يبدو أنه كان أكثر العباسيين تأثراً بسياسة الجهاد ضد البيزنطيين ، فإن اهتمامات الخلفاء بصورة عامة كانت أشد وضوحاً في الأقاليم الشرقية ، التي أصبحت نقطة الثقل السياسي في الدولة ، منذ الفترة الأخيرة من العصر الأموي ، وهذا ما يفسر اتجاه الخلفاء المتأخرين من بني أمية في هذا العصر صوب الشرق سياسياً وإدارياً ، واهمالهم الأقاليم الغربية وبصورة خاصة الجبهة البيزنطية ، وأصبح هذا التحول الشرقي في سياسة الدولة العامة أكثر عمقاً مع مجيء الحكم العباسي واختيار العراق القريب من فارس وخراسان مركزاً للدولة الجديدة ، ولا شك أن الخلفاء العباسيين أدركوا أن الاهتمام بالأقاليم الشرقية وضمان الاستقرار فيها معناه تثبيت سلطانهم وضمان وحدة الأمبراطورية ، لأن معظم الحركات السياسية والدينية التي قامت ضد الدولة — كما رأينا — كانت تنطلق من هذه الاقاليم .

ومهما يكن من أمر هذه العلاقات مع الدولة البيزنطية ، وبصرف النظر عن طبيعة تقويمها ، فإن العباسيين ورثوا عن أسلافهم عداوة البيزنطيين ووجدوا أنفسهم منساقين في غمرة النزاع الاسلامي البيزنطي التقليدي القديم ، وكان نزاعاً حتمياً فرضته الحدود المشتركة ، والمصالح الاقتصادية والخلافات في العقيدة ، ففي مطلع قيام الدولة العباسية أمر خليفتها الأول أبو العباس ، عمّه

القائد المعروف عبدالله بن علي بالتوجه إلى الحدود البيزنطية لاستئناف حركة الجهاد ، ورداً على الهجوم الذي قام به الامبراطور البيزنطي على ملطيه سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م ، منتهزاً فترة الاضطرابات التي رافقت الثورة العباسية ، ولكن الدولة لم تكن آنذاك في وضع يمكنها من الانصراف الى الحروب الخارجية لأن كل اهتمامها كان منصباً على الجبهة الداخلية والقضاء على حركات المعارضة الجديدة ، ولما استقرت الأحوال بعد مجيء المنصور الى الخلافة ، اهتم هـذا الخليفة بمناطق الحدود وأمر بتحصينها وأخذ يستحث الجند على العمل في الثغور والتوجه إلى الجهاد ، ومن ثم استأنفت الحملات التقليدية من صوائف وشواتي نشاطها في عهد هذا الخليفة وهي قد تمت على قاعدة شبيهة بقاعدة الصوائف والشواتي التي عرفت في العصر الأموي ، غير أن المنصور لم يهدف من وراء هذه الغزوات ما كان يهدف إليه الامويون ، وإنما كانت محاولات منه لكسر شوكة العدو ومنعه من التوغل في أراضي الدولة ، أي أن دوافعه لم تكن هجومية بل وقائية دفاعية .

ويبدو أن انهماك المنصور في السياسة الداخلية طغى على نشاطه الخارجي مما أدّى إلى اعاقته عن اتخاذ موقف أكثر صلابة مع البيزنطيين ، وقد اختلف الحال مع المهدي الذي تسلم حكماً مستتباً قوي البنيان ، لذلك تميّز عهـده بنشاط عسكري حافل ، تعدّى الشواتي والصوائف الى العمليات الحربية الكبرى .

ومن أبرز ما قام به هذا الخليفة ، حملة قادها بنفسه سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م مصطحباً معه ابنه الرشيد والحسن بن قحطبة ، القائد المشهور ، فتوغلت هذه الحملة في بلاد البيزنطيين ورجع بعدها الخليفة إلى بغداد تاركاً القيادة للرشيد وكان لا يزال في مطلع شبابه ، ففتح حصن (سمالو) واحتل (طرسوس) وحصّنها ، ويتحدث المؤرخون بكثير من الاعجاب عن هذه المنجزات التي كان لها أثر كبير في توطيد السلطان العباسي في هذه المناطق .

وحدث أثناء ذلك أن توفي الامبراطور البيزنطي ليون الرابع ، فتولت الحكم بعده زوجته ايريني كوصية على ولدها الطفل قسطنطين السادس، وقد أرادت ايريني أن تبدأ نشاطها السياسي بتجربة عسكرية من أجل دعم حكمها والانتصار على منافسيها في العاصمة البيزنطية ، فقامت بارسال حملة عظيمة لطرد العرب من آسية الصغرى وتدمير حصونهم ، فأنفذ لها المهدي ابنه الرشيد أيضاً ومعه عدد كبير من قادة الدولة الكبار ، فدحروا جيش ايريني وتوغلوا بعيداً في أراضي البيزنطيين حتى وصلوا إلى البوسفور واجبروا الامبراطورة على طلب الصلح لمدة ثلاث سنوات على أن تدفع جزية سنوية تقدر بتسعين الف دينار تقضي على دفعتين ، وأن تجهز الأدلاء والغذاء الى المقاتلة العباسيين وتسهل لهم طريق العودة بكل الوسائل الممكنة (١) .

وتابع الرشيد بعد توليه الخلافة السياسة القتالية ضد البيزنطيين بجد ونشاط ، حتى اضفت أعماله هذه طابعاً خاصاً على عصره ، ولم يكتف هذا الخليفة بنظام الشواتي والصوائف لمناوشة العدو ، وإنما طوّر نظاماً للمناطق الحدودية ، حيث عني بتحصينها وجعلها منطقة عسكرية سماها العواصم ، واتخذ من منبج قاعدة لها لتكون مركزاً للهجوم والدفاع ضد البيزنطيين ، وقد شهدت فترة الرشيد تصعيداً للعمليات الحربية ، خاصة عندما سار الرشيد بنفسه على رأس جيش ضخم مخترقاً آسية الصغرى إلى هرقلة في سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٢ م وذلك في أعقاب انقلاب قام به في القسطنطينية الامبراطور البيزنطي نقفور على الامبراطورة إيريني ولنقضه الصلح مع العباسيين الذي كانت قد عقدته ايريني ، وجاء نقفور لصد الرشيد ولكنه هزم هزيمة مخزية ، وأرغم على دفع جزية باهظة مثلما كانت تفعل ايريني . هذا ولم يقتصر نشاط العباسيين في هذه الفترة على البر بل تعداه

---

١ - تاريخ خليفة : ٦٢٦/٢ ، ٦٤٧ ، ٦٨٥ ، ٦٨٧ . الطبري : ١٤٤/٨ - ١٤٧ ، ١٥٢ - ١٥٣ . اليعقوبي : ٣٦٢/٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢ . العيون والحدائق : ٢٧٨/٣ - ٢٧٩ . العباسيون الأوائل : ٢٣٦/٢ ، ٢٥٠ ، دولة بني العباس : ٣٦٧/١ - ٣٧٠ .

إلى البحر ، حيث عني الرشيد عناية عظيمة بالاسطول (١) .

وفي عهد المأمون توقفت الحروب فترة من الزمن وذلك لانشغال كل من الخليفة بمشاكل دولته الداخلية وبالحركة الخرمية ، والامبراطور البيزنطي بثورة توماس الصقلبي ، وكان كل من الخليفة والامبراطور يحاول الاتصال بالثائرين لدى عدوه ويعمل على تحريضهم ويمدهم بالأموال .

ولكن العمليات العسكرية ما لبثت أن استأنفت بين الدولتين بعد نجـــاح الامبراطور البيزنطي في القضاء على خصمه المتمرد، وبعدما نجح المأمون في اضعاف شوكة الخرمية الى حد كبير ، ففي سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م قاد الخليفة حملة الى آسية الصغرى وتمكن من فتح عدة حصون مهمة ، ثم اعقبها بحملة ثانية في السنة التالية رداً على هجوم البيزنطيين على بعض القواعد التابعة للعباسيين وقد اسفرت عن فتح اثني عشر حصناً ، وفي نفس الوقت وجّه ابنه العباس لمقابلة الامبراطور البيزنطي تيوفيل حيث أوقع به الهزيمة .

ثم قام المأمون بغزوة ثالثة سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، فاستولى على حصن الطوانة وأمر ببناء سور حولها ، ومن ثم أرسل الى عاصمة الخلافة بأن يوافوه بالمزيد من الجند من أجل الهجوم على عمورية ، وهناك من المؤرخين من يعتقد ان المأمون كان يعد خطة للوثوب على القسطينطينية . ولكن خطة الخليفة – ان صحّت – لم يقدّر لها التنفيذ ، فقد مات بعد ذلك بقليل وهو في طريقه الى حصن لؤلؤة ، في مكان بالقرب من طرسوس ، وأهم ما في نشاط المأمون ضد بيزنطة أنه وضع خطة لتهجير بعض القبائل العربية وسواها من سكان دولته

---

١ – تاريخ خليفة : ٧١١/٢ – ٧١٨ . الطبري : ٣٠٧/٨ – ٣١٣ ، ٣٢١ – ٣٢٢ . اليعقوبي : ٤١٠/٢ ، ٤٣١ . الأخبار الطوال : ٣٩٠ – ٣٩١ . العيون والحدائق : ٣٠١/٣ – ٣٠٢ ، ٣٠٩ – ٣١٠ . العباسيون الأوائل : ٢/ ٢٥٠ – ٥٤ .

إلى داخل الأراضي المفتوحة في آسية الصغرى لتحويلها إلى أراضي عربية مسلمة (١) .

وبعد وفاة المأمون انهمك المعتصم الذي تولى الخلافة بعد أخيه ، بمعالجة الأوضاع المتدهورة في الداخل ، لا سيما حركة بابك الخرمي ، بعد استفحال أمرها ، فاستغل البيزنطيون ذلك وأخذوا يشنون غاراتهم على حدود الدولة ودمروا عدداً من الحصون والمدن بينها زبطرة التي يقال أنها كانت مسقط رأس المعتصم ، ولكن المعتصم ما كاد يقضي على حركة الخرمية ، حتى قاد سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م حملة انتقامية ضد الامبراطور البيزنطي ، وصفت بأنها من اكبر الحملات . وقد لوحظ في هذه الحملة بروز العنصر التركي في الجيش ؛ حيث اشترك فيها عدد من كبار القادة الاتراك كان من أهمهم : الأفشين واشناس .

وحين علم الامبراطور تيوفيل بأخبار الحملة أصابه الهلع فسارع بإيفاد بعثة الى الخليفة تعتذر إليه وتطلب الصلح . لكن المعتصم لم يستجب لنداء الامبراطور وتابع تقدمه والبيزنطيون يتراجعون أمامه حتى بلغ عمورية ، وهي المدينة التي شهدت ولادة الامبراطور البيزنطي ، وبعد مقاومة عنيفة سقطت عمورية في أيدي العباسيين الذين استباحوها واعملوا فيها الدمار ، وكان لسقوطها دوياً كبيراً في أرجاء الامبراطورية ، فقد رفع من معنويات الجيش العباسي ولمع فيه عدد من القادة الأتراك وطبقت شهرتهم الآفاق ، الأمر الذي كان فاتحة لتسربهم الى مراكز القوة والنفوذ في الدولة (١) .

---

١ – الطبري : ٨/٦٢٣ – ٦٢٥ ، ٦٢٩ – ٦٥٠ . اليعقوبي : ٢/٤٦٥ – ٤٧٠ . الأخبار الطوال : ٤٠١ . مروج الذهب : ٤/٤٢ – ٤٥ . العيون والحدائق : ٣/٣٧٤ – ٣٧٨ . العرب والروم : ٢٨ – ١١٠ .

٢ – تاريخ خليفة : ٢/٧٨٧ . الطبري : ٩/٥٥ – ٧١ . اليعقوبي : ٢/٤٧٥ – ٤٧٦ . مروج الذهب : ٤/٥٩ – ٦٠ . العيون والحدائق : ٣/٣٨٩ – ٣٩٦ . العرب والروم : ١١١ – ١٥٧ .

هناك أخبار يكتنفها الكثير من الغموض حول علاقات ما قامت بين الخلفاء العباسيين والملوك الفرنجة في أوروبة الغربية ، وبصورة خاصة بين الرشيد وشارلمان ، ومبعث هذا الغموض هو انفراد انهارد من بين المؤرخين الأوربيين بالاشارة إلى هذه العلاقات في معرض كتابته في سيرة شارلمان، واعتماداً على انهارد قام عدد آخر من المؤرخين الأوربيين بالحديث عن هذه العلاقات فأعطوها حجماً غير اعتيادي ، حيث زعموا أن المصالح المشتركة بين الدولتين أدت الى قيامها ، فقد كان هناك مسألة الخلاف بين الفرنجة والبيزنطيين — أعداء العباسيين — فضلا عن رغبة شارلمان بالتودّد للخليفة في اقامة علاقات جيدة معه تسهيلا لمجيء الحجاج الاوربيين الى الاماكن المقدسة — وفي المقابل كانت عداوة المملكة الفرنجية للأمويين في الاندلس وشن الغزوات المتوالية عليهم ، سبباً في زعم المؤرخين الاوروبيين لهذا التقارب الذي حدث بين الرشيد وشارلمان ، وقد وصل الخيال ببعض هؤلاء اعتماداً على انهارد ، الى حد القول بأن الملك الفرنجي صار له — باذن من الخليفة — حق حماية المسيحيين في الاراضي المقدسة .

وفي مصادرنا العربية لا توجد أية إشارة لهذه الصلات بين العباسيين والفرنجة ، وهذا ما يبعث على الشك في صحتها ، والتساؤل عن الهدف التي كانت ترمي إليه ، ومن المستغرب تفسير المؤرخين الاوروبيين المبالغ به لهذه الصلات المزعومة ، وإنه لأمر يثير الدهشة والتساؤل إذا كانت قد وجدت أسباب دعت إلى قيامها ، لأن العرب كانوا في ذلك الوقت هم أصحاب المبادرة في الحرب البيزنطية، ومن المستبعد أيضاً أن يقوم الخليفة العباسي المسلم بالتحالف مع شارلمان لضرب العرب المسلمين في الاندلس .

وهكذا فإن هذه العلاقات — إن صح وقوعها — قد اقتصرت على تبادل للوفود غير الرسمية والهدايا بين الطرفين ، أما نتائجها السياسية المتعلقة بأمر الحماية

على فلسطين فهو محض خيال وهذا ما أشار إليه (رانسيمان) بقوله : إن ما يتعلق بحماية شارلمان للأراضي المقدسة ما هو إلا اسطورة من اختراع أحـد الكتاب الاسطوريين (١) .

العلاقات مع الامويين في الاندلس

كانت الاندلس أول اقليم في الدولة العربية يعلن استقلاله عن العباسيين، وقد تم ذلك على يد الامير الاموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بعد نجاحه في الهروب من قبضة السلطة العباسية ، فقد نجح في إقامة حكم مستقل منذ سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وكان خروج هذا الاقليم بزعامة الامويين تحدياً صارخاً للخلافة العباسية، خاصة وأن الظروف الداخلية وقتذاك حالت دون ارسال جيش الى هذه البلاد النائية ، ولكن المنصور ما كاد ينتهي من ثورة النفس الزكية حتى أمر قائده العلاء بن مغيث اليحصبي في سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م بالتحرك إلى الاندلس واخراج الامويين منها ، وقد عبر اليحصبي فعلا مع أتباعه المضيق واشتبك مع عبد الرحمن في معركة قرب اشبيلية هزم على أثرها الجيش العباسي هزيمة قاسية ، وتكررت هذه المحاولة في عهد المهدي سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م وأسفرت أيضاً عن هزيمة اخرى للعباسيين .

وكانت هـذه آخر محاولات الخلافة العباسية لغزو الاندلس ، وإخراج عبد الرحمن منها ، فقد تمكن عبد الرحمن من ترسيخ سلطته في هذه البلاد ، بينما انشغل العباسيون في عهد الرشيد بأمر إفريقية التي وصلت إليها عدوى الانفصال أيضا بعد نجاح الأدارسة باقامة دولتهم في المغرب الأقصى . هذا وسنعود إلى هذه المسائل فنبحثها بقدر أكبر من التفصيل (٢) .

---

١ - Einhard, 4 2. دولة بني العباس : ١/٣٨٠ - ٣٨٣ . العباسيون الأوائل : ٢/٢٦٠ .

٢ - أخبار مجموعة : ١٠١ - ١٠٧ . ابن القوطية : ٥٧ - ٥٨ . البيان المغرب . قسم الأندلس : ٧٧ - ٧٩ . المعجب : ١٦ . دولة بني العباس : ١/٣٧٦ - ٣٨٠ . العباسيون الأوائل : ٢/٢٦٠ - ٢٦٣ .

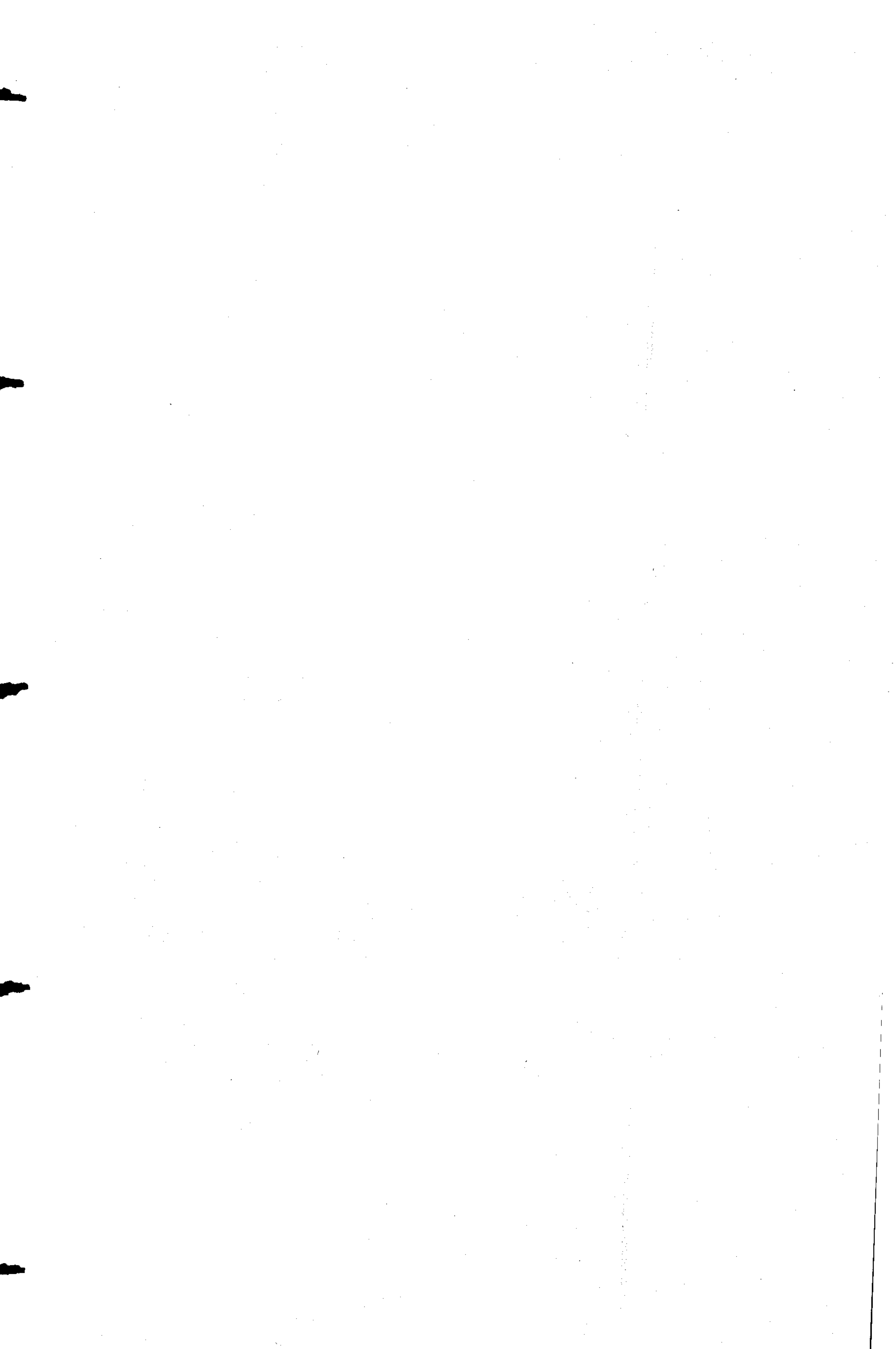
الباب الرابع

الدولة العباسية

الدور الثاني

الفصل الأول

عصر تحكم ضباط القصر



ظهور الأتراك على مسرح السياسة العباسية

بدأت العناصر التركية تشغل دورها البارز في المجتمع العباسي منذ خلافة المعتصم ، حين ضاق بالصراع السياسي بين العرب والفرس ، فأراد القضاء على نفوذهما بابراز عنصر جديد هو العنصر التركي ، كذلك فإن هذا الخليفة كان بحاجة إلى هؤلاء الأتراك ، الذين عرف عنهم البأس في الحروب والشدّة في القتال ، للاستعانة بهم في جيشه بعد أن استفحل أمر الحركة الخرّمية ، واشتدت وطأة البيزنطيين على مناطق الثغور ، وعلى ذلك فقد شهدت تلك الفترة بروز القادة الأتراك ، ومنهم أشناس والأفشين ، الذين حققوا الانتصارات العظيمة في الداخل والخارج ، ثم بدأ نفوذهم يتعاظم منذ ذلك الحين وأدّى الأمر إلى تذمر القواد العرب كالقائد عجيف بن عنبسه الذي لاحظ تفوّق العناصر التركية وتقريب المعتصم لهم في حملة عمورية ، ولعل ذلك كان وراء المؤامرة التي دبّرها هذا القائد العربي بالاشتراك مع العباس بن المأمون — الذي كان يحظى بتأييد الفرس — للاطاحة بالمعتصم ومعاونيه من الأتراك ، ولكن مراقبة هؤلاء وشدة يقظتهم أدّى إلى اكتشاف هذه المؤامرة وقتل زعمائها .

وتعود علاقة العرب بالأتراك إلى الربع الأخير من القرن الأول للهجرة ، عندما أخذوا يتوغلون في فتوحاتهم الشرقية ، إلى بلاد ما وراء النهر ، فاصطدموا بالشعوب القاطنة في هذه الجهات ، وكانت تتحدر من أصل تركي وتتميز بالصلابة والبأس في القتال على نحو لم يعهده العرب في حروبهم السابقة ، ولعل العرب خبروا هذا العنصر المحارب منذ الحملة الفاشلة التي قادها عبيدالله بن أبي بكره سنة ٧٩ هـ / ٦٩٨ م بأمر من الحجّاج ، لقتال زنبيل ملك الترك في أطراف سجستان ، ولكن علاقة العرب بالأتراك أصبحت أكثر تحديداً منذ

فتح بلاد ما وراء النهر على يد القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي ، فقد أشركهم العرب في بعض الحملات العسكرية ، تاركين لهم الحرية السياسية والدينية ، شرط أن يدفعوا الجزية ويكونوا حلفاء للدولة العربية .

وازداد احتكاك العرب بعد ذلك بالأتراك وأخذ هؤلاء ينفتحون على الحياة الاسلامية ويتكاثرون على مسرح الأحداث في عاصمة الخلافة ، إلى أن كان المعتصم فاستعان بهم كما ذكرنا كعنصر جديد في الشؤون السياسية ، بعد أن ضاق بالواقع السائد في بغداد ، وفي الشؤون العسكرية ، لما كان لهم من شهرة وبسالة في القتال ، بالاضافة إلى ارتياب المعتصم في موقف الفرس الذين كانوا يلتفون حول العباس بن المأمون الذي كانت أمه فارسية ، فأراد أن يختار أنصاره من غير العرب والفرس ، فكان أن التجأ إلى الأتراك لا سيما وأن هناك رابطاً عاطفياً كان يشده إليهم ، وهو أن أمه كانت تركية من قبائل الصغد ، وبعدما كثر جنده الأتراك بنى لهم مدينة خاصة عرفت باسم العسكر ، وأحياناً باسم سر من رأى (سامراء) ، ونقل العاصمة من بغداد إليها .

وهكذا انطبعت الحياة السياسية في الدولة العباسية بطابع جديد ، تطور ليصبح الصورة المميزة للعصر ، ذلك أن الأتراك ، وهم قوم امتهنوا الحرب والقتال استطاعوا أن يفرضوا تأثيرهم على مختلف جوانب الحياة العامة في الدولة ، وكان هذا بمثابة انقلاب أزاح تدريجياً نفوذ المدنيين المتمثل بالخلفاء والوزراء ، وجعل السلطة الفعلية في قبضة القواد العسكريين ، بعد وفاة المعتصم مباشرة .

* * *

النظام السياسي

الخلافة والجند

يرى معظم المؤرخين أن خلافة كل من الواثق ابن المعتصم وخليفته المتوكل تمثل مرحلة انتقالية في الدولة العباسية ، فقد ازداد في عهد الواثق نفوذ الاتراك وأخذ التوازن السياسي يختلّ لصالح قواد الجيش ولم يستطع الواثق استعادة سلطانه القديم ، حتى إذا جاء المتوكل احتدم الصراع بين الخلافة والجيش وأخذ كل منهما يعمل على إزاحة الآخر والقضاء عليه . وكان انتصار أحدهما يكون له أبعاده الخطيرة على المستقبل السياسي في الدولة العباسية ، وكانت محاولة المتوكل في غاية الصعوبة ، ومكتوباً عليها بالفشل لأن النفوذ التركي كان يزداد رسوخاً وتعاظماً الأمر الذي أدى إلى اضعاف المتوكل ومقتله أخيراً على يد أحد القواد الأتراك (١) .

على أنه لا ينبغي لنا أن نفهم هذه المرحلة ، بأنها كانت خضوعاً دائماً للسيطرة التركية ، وإنما كان الصراع فيها على أشده بين الخلافة والجيش ، وقد ناضل بعض الخلفاء بشدّة لاستعادة نفوذهم القديم :

ولكن هذه الجهود لم يكتب لها النجاح ، لأن القوة التركية كانت قد استولت على مراكز الحكم في العاصمة الجديدة ، على أن ذلك لم يخلو من فترات تمكن خلالها بعض الخلفاء من اثبات وجودهم فانتعشت في عهدهم سلطة الخلافة ، وساد الهدوء والاستقرار ، ولهذا فإننا نستطيع أن نميّز في هذه المرحلة عدة فترات تختلف باختلاف شخصيات الخلفاء والظروف السياسية التي عايشوها في تلك الحقبة .

---

١ – تولى الخلافة في هذه المرحلة التي امتدت من ٢٤٧ الى ٣٣٤ هـ / ٨٦١ – ٩٤٦ م اثنا عشر خليفة وهم :

المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي ، المعتمد ، المعتضد ، المكتفي ، المقتدر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي .

١ ـ فوضى الحكم والاستبداد التركي

وهي الفترة التي شهدت حكم الخلفاء الأربعة الأوائل بعد المتوكل حيث بلغ التسلط التركي على الخلفاء حداً كبيراً ، وانحدرت مؤسسة الخلافة إلى الحضيض ، خاصة بعد حادثة مقتل المتوكل ، واستسلام خلفائه للجند الأتراك الذين استبدوا بالأمر استبداداً مطلقاً ، وقد دامت فترة الانحطاط هذه ما يقرب من العشر سنوات من ٢٤٧ هـ إلى ٢٥٦ / ٨٦١ ـ ٨٧٠ م وحكم خلالها المنتصروالمستعين والمعتز والمهتدي، وقد تحول كل من هؤلاء إلى سجين في قصره ، إن شاء القواد أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا قتلوه .

وانفرد المهتدي عن هؤلاء الخلفاء بنزعته الاصلاحية ، وتصديه بشجاعة للقواد الأتراك ، فرأى أن خير وسيلة للتخلص منهم ، هي ضرب زعمائهم ببعضهم ، وإثارة الجند عليهم عن طريق استمالتهم بالأموال التي كانت هي كل شيء بالنسبة إليهم ، لكن محاولة المهتدي أصيبت بالاخفاق ، لأن موقف الجند التركي كان لا يزال متماسكاً وقوياً ، وانتهى الأمر بانفجار الصراع بين المهتدي وقواده الأتراك ، ودار قتال عنيف بينهما اشترك فيه الخليفة بنفسه ومعه جنود من المغاربة والفرغانيين ، وقاتل بشجاعة نادرة ولكنه هزم بعدما أصيب بجرح مميت ، وذلك لافتقار جبهته إلى التنظيم وتخاذل أعوانه الذين تهيبوا قوة الأتراك وتفرقوا عنه .

غير أن جهود المهتدي لم تذهب سدى ، دون أن تعكس نتائجها السريعة على تطور الحكم في للدولة ، فعلى الرغم من سقوطه أمام الأتراك إلا إنه نجح في أن يوقع بين قوادهم ويثير عليهم الفئات الأخرى ، مما أدّى الى خروج الدولة من هذه المحنة واثباتها من جديد أنها قادرة على الاستمرار وهي أشد صلابة وأقوى مركزاً(١) .

---

١ ـ تاريخ خليفة : ٧٩٢/٢ ـ ٧٩٨ . الطبري : ١٢٣/٩ ـ ٤٥٦ . اليعقوبي : ٤٧٩/٢ ـ ٥٠٧ . مروج الذهب : ٦٥/٤٠ ـ ١٩٧ . تجارب الأمم : ٥٢٧ ـ ٥٨٣ ، ١/ .

٢ ـ الاستقرار وانتعاش الخلافة

بدأت هذه الفترة بخلافة المعتمد ، وهي تشمل خليفتين آخرين إلى جانبه هما : المعتضد والمكتفي ، وامتدت من سنة ٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ / ٨٧٠ ـ ٩٠٨ م عرفت الدولة العباسية خلالها فترة هدوء واستقرار ، وعادت للخلافة بعضاً من أهميتها ونفوذها القديمين ، ولم يكن المعتمد صانع هذا الاستقرار ، فهو كغيره من الخلفاء الذين سبقوه ، كان مديناً بمركزه للأتراك ، ولائذاً بقصره لا يقوم بأي نشاط يتعدى بعض المهام الروحية ، أما السلطة الحقيقية فكانت في قبضة أخيه ابي احمد الموفق الذي استطاع بقوة شخصيته وما تميز به من مواهب إدارية وعسكرية أن يهيمن على مراكز السلطة دون أن ينافسه أحد سوى زعيم الأتراك وقتذاك موسى بن بغا الذي قبل سيطرة الموفق دون اعتراض. وعلى هذا استعادت الخلافة العباسية سلطتها ومكانتها التي استلبها إياها قادة الترك حين أصبح قائد الجند عباسياً ، وكان هذا العباسي هو الموفق .

والواقع أن الموفق كان يتمتع بمزايا رجال الدولة ، إذ يصفه لنا المؤرخون بأنه كان رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان ، ولعل الظروف السياسية التي أحاطت بالدولة وقتذاك قد ساعدت أخا الخليفة على الظهور بمظهر الرجل القوي فيها ، فقد جاء إلى السلطة وحركات العصيان تعبث بأمن البلاد واستقرارها لا سيما ثورات الزنج والخوارج الصفّارية ، وكان الأتراك قد أنهكهم التفكك ، واستبدت بهم الفوضى ، فجمع صفوفهم تحت قيادته وتمكن من اخضاع حركات التمرّد ومن تطويق المحاولات الاستقلالية التي بدأت تعصف بالدولة . وبذلك أنقذ الخلافة من انحطاطها وتردّيها ، لتستعيد ربما لآخر مرة ، هيبتها ونفوذها ، لكن هذا الانقاذ لم يفد المعتمد ، لأنه ظل سجين قصره متحكم به قائد الجند ، الذي كان أخاً له ، والذي جنى فائدة ذلك خليفة المعتمد وابن الموفق .

فقد توفي الموفق سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م فانتقلت سلطاته إلى ابنه ابي العباس وأصبحت له السيطرة التامة في مؤسسات الدولة ، ولكنه كان أكثر طموحاً من

والده . فلم يقبل بولاية العهد الثانية التي ورثها عنه ، وإنما أراد أن تكون الخلافة هدفاً مباشراً له ، لذلك اضطر المعتمد تحت ضغط أبي العباس إلى خلع ابنه من ولاية العهد الأولى واعطائها لأبي العباس الذي ما لبث أن أصبح خليفة بعد شهور قليلة بلقب المعتضد .

سار الخليفة الجديد على خطى والده وتأثر به إلى حد كبير سواء في الشؤون الادارية أم العسكرية ، فقضى على الاضطرابات في الداخل وتصدى للخارجين على سلطان الخلافة بحزم وشدة لا سيما القرامطة الذين ثاروا في سواد الكوفة والشام والبحرين ، وقد حظيت شخصية المعتضد باهتمام خاص في الكتابات التاريخية ، فقد كان إلى جانب بروزه كقائد شجاع وسياسي بارع ، إدارياً من الطراز الأول ، فهو إلى جانب الشدة التي تميز بها كان كثير الاهتمام برفع الظلم عن الناس وتخفيف الضرائب ؛ والعناية بأوضاع المزارعين ومساعدتهم بمختلف الوسائل ، وقد أدت منجزاته الاصلاحية الى توثيق العلاقة بينه وبين الشعب ، مما زاد نفوذه قوة وسلطاناً .

وخلف المكتفي اباه المعتضد سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م فاقتدى بأبيه أيضاً في إدارة شؤون الدولة ، ولكنه كان يفتقر إلى حزم أبيه وشدته ، فوقع تحت تأثير أعوانه والمقربين إليه من القواد الأتراك ، وفي عهده عادت الأزمات السياسية تعصف بالدولة وتهدد وحدتها واستقرارها ، لا سيما بعد ازدياد نشاط حركة القرامطة . فشغل المكتفي بالقضاء عليها ، وتمكن بعد جهد من اجتياز هذه الأخطار التي احدقت بالدولة من كل جانب ، فأخضع حركات العصيان في الداخل ، وعني بأمر الولايات التي كان لأصحابها جنوح نحو الاستقلال ، فوثق علاقته معها وأخضعها لسلطانه ، بيد أن ذلك أعاد الفرصة من جديد للقواد الأتراك للبروز على المسرح السياسي بعد أن شاركوا فعلياً في تلك الانتصارات ، وبموت المكتفي دون أن يترك وصية بولاية العهد ، أفسح المجال أمام الأتراك للعودة إلى التدخل في الشؤون السياسية واختيار الخليفة الذي يريدون ، بحيث يكون مستعداً للتجاوب مع رغباتهم ومصالحهم ، وبذلك

انتهت فترة الاستقرار باختلال التوازن مرة أخرى بين الادارة والجيش ، وعاد القواد الأتراك إلى مراكز السلطة الفعلية وأخذت الخلافة تتراجع عن مكاسبها (١) .

٣ ــ عودة النفوذ التركي

بعد موت المكتفي سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م أدرك زعماء الاتراك أن مصالحهم تتناقض مع وجود خلفاء أقوياء كالمعتضد ، لذلك لجأوا الى البحث عن شخصية ضعيفة في الاسرة العباسية ، حتى وقع اختيارهم على أخ الخليفة المتوفي جعفر بن المعتضد ، وكان صبياً لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، فولوه الخلافة ولقبوه بالمقتدر .

كان الخليفة الجديد بعيداً عن التأثر بالسياسة التي رسم خطوطها الموفق وتوضحت معالمها في عهد المعتضد ، وعلى العكس من ذلك كان غارقاً في أمور اللهو والمرح تاركاً شؤون الدولة على عاتق غيره من رجال الحاشية وزعماء الأتراك ، وقد ازداد في مطلع عهده نفوذ والدته التي عرفت بالسيدة وأصبح في يدها الأمر والنهي ، كما عظم شأن القائد التركي مؤنس الذي أمسك بزمام السلطة في يده ، وصار سيد الموقف لا يعيقه ، متى أراد ، عائق عن خلع الخليفة ، وقد حدث ذلك فعلا عندما زحف مؤنس مع جنوده الى دار الخلافة فاحتلوها ونهبوها وأخرجوا المقتدر وأفراد عائلته إلى دار مؤنس ، وذلك سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩ م . ثم اجتمع مع جنوده وقواده ، وذهبوا الى الخليفة طالبين منه أن يكتب ورقة يشهد فيها بخلع نفسه ويعترف بعجزه عن الاستمرار في الحكم ، وبعد أن تم لمؤنس ما أراد عمل بيعة لأخ المقتدر محمد بن المعتضد

---

١ – الطبري : ٤٣٨/٩ – ٦٦٧ ، ٧/١٠ – ١٣٩ . اليعقوبي : ٥٠٧/٢ – ٥١١ . مروج الذهب : ١٩٩/٤ – ٢٩١ . العيون والحدائق ١/٤ –١٢٩ . الفخري : ٢٠١ – ٢١١ . الكامل : ٣٥٠/٥ – ٣٦٧ ، ٢/٦ – ١١٨ . الذهب المسبوك : ٢٣٣ –٢٣٧ . ابن كثير : ٢٢/١١ – ١٠٤ .

ولقّب بالقاهر ، غير أن هذا الاجراء لم يكتب له الاستمرار ، فما لبث الجند أن ثاروا وأعادوا المقتدر إلى الخلافة .

وعاد المقتدر بعقلية جديدة الى الحكم ، فحاول تقوية نفوذه في السلطة ، بالعمل على اضعاف الاتراك وتمزيق وحدتهم عن طريق اثارة الفرق العسكرية ضد بعضها ، وجعل هذا الصدام بين الخليفة وقائده مؤنس أمراً حتمياً ، وذلك لانعدام الثقة بين الرجلين ، فزحف مؤنس من جديد على عاصمة الخلافة واشتبك مع الخليفة في معركة انتهت بفوزه ومقتل المقتدر سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢م.

وهكذا انتهى هذا الخليفة بعد حكم دام نحو ربع قرن وصلت فيه الدولة إلى أحط درك من الفوضى والفساد ، وأصيبت الخلافة في صميمها ، بحيث أصبحت عاجزة نهائياً عن النهوض (١) .

٤ ـ انحسار النفوذ التركي

بعد مقتل المقتدر أصبح مؤنس هو الرجل القوي في الدولة والمسؤول عن اختيار خليفة لها . وكان من رأيه تقليد شخصية ضعيفة حتى لا يتعارض ذلك مع مصلحته ونفوذه . واستقر الرأي أخيراً على إعادة تنصيب القاهر بعد أن أخذت عليه المواثيق والعهود .

ولم يطل المقام بالقاهر حتى انقلب عليه مؤنس بعد أن عجز الخليفة عن تنفيذ ما اشترطه لمؤنس من توفير الاموال اللازمة للجند ، وكان القاهر الذي عانى في السابق من صلف القواد الاتراك وجشعهم ، تسلّم الحكم وقلبه يطفح بالحقد والكراهية ضد هؤلاء ، فضلا عما تميزت به شخصيته المتقلبة وتعطشه

---

١ ـ الطبري : ١٣٩/١٠ ـ ١٥١ . مروج الذهب : ٢٩٣/٤ ـ ٣١١ . الفخري : ٢١١ ـ ٢٢٥ . العيون والحدائق : ١٣١/٤ ـ ٢٦٠ . الكامل : ١١٩/٦ ـ ٢٢٠. الذهب المسبوك : ٢٣٩ ـ ٢٤١ . البداية والنهاية : ١٠٥/١١ ـ ١٦٩ . تجارب الأمم : ٢/١ ـ ٢٤١ .

الغريزي إلى سفك الدماء ، كل ذلك دفعه الى ترصد خصومه ومراقبتهم ، حتى اذا سنحت له الفرصة أوقع بهم ، وقتل مؤنس واثنين آخرين من قواد الأتراك . غير أن القاهر رغم ما وصل إليه من نفوذ لم يستطع أن يدفع مؤامرة دبرها ضده الوزير المخلوع ابن مقلة ، وكان قد نجا بنفسه من بطش الخليفة ، وانتهت هذه المؤامرة بمهاجمة الخليفة في قصره وخلعه وسمل عينيه في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م .

وبويع بعده للراضي الذي يرتبط اسمه بظهور منصب جديد في الدولة ، وهو منصب أمير الامراء ، وقد تطور هذا المنصب حتى أصبح نفوذه في أواخر أيام الراضي طاغياً على كل المؤسسات الادارية والعسكرية في الدولة .

وبعد موت الراضي سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م بويع للمتقي وذلك استجابة لرغبة أمير الأمراء الذي رفض تنفيذ وصية الخليفة المتوفي بتنصيب ابنه ، وكانت خلافة المتقي مشحونة بالاحداث الجسام ، ففي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م تعرضت بغداد لأزمة اقتصادية شديدة وخرج على الدولة أبو عبدالله البريدي الذي كان أحد الطامعين بأمرة الامراء ، فهزم الخليفة ونزل جنوده بغداد ونهبوا بيوتها بما فيها قصر الخليفة ، ولم ينقذ الدولة من خطر البريدي إلا الحمدانيين الذين تزعمهم ناصر الدولة الذي أرسل أخاه سيف الدولة الحمداني على رأس جيش أوقع الهزيمة بالبريدي بالقرب من المدائن ، ولم يستطع الحمدانيون التحكم ببغداد طويلا حيث ما لبث موقف المتقي أن تحرج من جديد بعد ظهور شخصية قوية في أمرة الامراء هي شخصية توزون الذي انفرد بالسلطة الفعلية انفراداً تاماً ، وقد وصل الضيق بالخليفة الى حد الابتعاد عن مسرح الحكم ، والهرب الى الرقة حيث وافاه الاخشيد حاكم مصر وعرض عليه أن يسير معه إلى مصر لاتخاذها مقراً للخلافة ، ولكن المتقي آثر العودة الى بغداد بعد دعوة توزون له ووعوده لكن ما لبث توزون أن أخلّ باتفاقه معه ، فأعلن خلعه وسمل عينيه في سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤ م .

وبويع بعد ذلك للمستكفي سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٤ م وهو آخر خلفاء هذه المرحلة وفي عهده ظلت السيطرة التامة لأمير الأمراء ، دون أن يكون له منازع . بيد أن هذه الفترة شهدت تحولا جذرياً في نظام الدولة السياسي والعناصر المهيمنة عليه ، فبعد وفاة توزون الذي يمثل نهاية السيطرة التركية ، كان الأتراك قد وصلوا الى حد كبير من التفكك والانهيار ، ذلك أن التنافس على السلطة والولاء المطلق للمصالح الخاصة ، بما في ذلك من الجشع والاستهتار بالقيم ، أدى الى اضعاف القوة التركية وعجزها عن الاستمرار ، فما لبثت أن اضمحلت تماماً بظهور قوة جديدة على المسرح السياسي في بغداد ، مستفيدة من تحرج الاوضاع وانتشار الفوضى في عاصمة الخلافة ، لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الدولة العباسية هي مرحلة السيطرة البويهية (١) .

* * *

---

١ - تجارب الأمم : ١/٢٤١ - ٤٢٠ ، ٢/٢ - ٨٧ . الأوراق : ١ - ٢٨٥ . مروج الذهب : ٤/٣١٣ - ٣٧٢ . العيون والحدائق : ٤/٢٦١ - ٤٤٣ . الفخري : ٢٢٥ - ٢٣٣ . الكامل : ٦/٢٢٠ - ٣١٤ . الذهب المسبوك : ٢٤١ - ٢٥٥ . البداية والنهاية : ١١/ ١٧٠ - ٢١٢ .

الوزارة

ارتبطت الوزارة دائماً من حيث أهميتها بالخلافة، وكانت انعكاساً لها، فقد عظم شأنها كمؤسسة مدنية، حين كان للسلطة المدنية المتمثلة بالخلافة المقام الأول، وحين كان للخلفاء السيطرة الكاملة على شؤون الحكم، وتضاءل حجمها حين ضعفت الخلافة وغاب عنها الخلفاء الأقوياء بحلول الحكم العسكري محل الحكم المدني، وقد اتضحت هذه الصورة الجديدة للحكم منذ مقتل المتوكل وبروز القواد الأتراك الذين استبدوا بالأمر في جميع مرافق الدولة، فغدت الوزارة تحت تأثيرهم المباشر، وصاروا يختارون لها المرشحين من بين العناصر الموالية لهم، ليقوموا بالدور الذي رسم لهم دون ان يحيدوا عنه، وإلاّ حلت عليهم نقمة الجند الأتراك، وكان عليهم أن ينحدروا الى أساليب رخيصة للحصول على هذا المنصب أو الاحتفاظ به، إذا أرادوا اتقاء العزل أو السجن أو القتل، وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتقهقر نفوذه، واقتصرت صلاحياته على القيام بمهمة الكاتب الذي يشرف على الاموال وتسجيلها، مع محاولة الحصول عليها بشتى الوسائل لتلبية رغبات الجند وجشع القواد.

وتقلّد الوزارة في هذه الفترة عدد كبير من الوزراء قارب الثلاثين، لعل أبرزهم كان محمد بن عبدالملك الزيات الذي ظهر في محاكمة الأفشين، وقد وزر لثلاثة من الخلفاء هم: المعتصم والواثق والمتوكل، وسليمان بن وهب الذي انحدر من اسرة عريقة في الكتابة وقد شغل الوزارة في عهد المهتدي والمعتمد، وأبو الحسن علي بن الفرات أول وزراء المقتدر، وهو من الفريق الذي ساهم في ايصال هذا الخليفة إلى سدة الحكم، وكان إدارياً موهوباً ويتمتع بخبرة عالية في الشؤون المالية، وقد تقلد الوزارة في عهد المقتدر ايضاً علي بن عيسى الذي عرف بجديته ونزاهته وخبرته في الادارة فضلا عن تشدده في مسألة

العطاء ، وهذه صفات كانت في الواقع لا تنسجم مع رجال الحاشية ونساء القصر الذين كان يهمهم الحصول على الأموال بأية وسيلة ، لذلك لجأوا الى اقناع المقتدر بعزله .

وهكذا نجد أن منصب الوزارة في هذه المرحلة قد تقهقر كثيراً وتأثر الى حد كبير بما أصاب الخلافة التي تقلص حجمها أيضاً ، وانعكست عليه صورة العصر بما كان فيها من استبداد واستهتار ، فضلا عن فساد الادارة والأزمات المالية التي كانت أبرز سمات المرحلة .

وثمة شيء آخر نلاحظه في هذا المجال هو أن عدم استقرار الحكم ، وسيطرة العسكريين عليه ، وهم الذين كانوا يفتقرون الى الخبرة الادارية ، ترك تأثيراً واضحاً على الخلافة والوزارة معاً فادى الى اضعافهما ، وفقدان هيبتهما ، ولعل ما أصاب الوزارة كان أشد وطأة مما أصاب الخلافة ، فالسرعة التي كان يتم فيها تقليد وعزل الوزراء ، كانت لها أبعادها الخطيرة على الوضع العام في الدولة ، ذلك أن الوزير كان يشعر بأنه غير قادر على الاستمرار ليتسنى له تنفيذ برنامجه أو القيام بأي عمل اصلاحي ، إذا توفرت النية في ذلك ، وتدهور منصب الوزارة واستمر في التدهور حتى بلغ مداه في عهد الراضي ، بظهور منصب أمير الامراء ، حيث أصبح الوزير مجرّد كاتب لخليفة مجرّد بدوره من كل سلطان (١) .

---

١ – انظر كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابيء . الفخري : ١٩٥– ٢٣٣ . متز : ١١٣/١ – ١٤٠ . المؤسسات الادارية : ٧٨ – ١٩٠ .

الجيش

رأينا في حديثنا عن الخلافة والوزارة ، أن القوة الفعلية التي كانت تمسك بزمام الامر وتهيمن على الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الفترة ، هي قوة العسكريين الاتراك الذين اخضعوا كل مرافق الدولة لمطامعهم وأهوائهم ، ففي عهد الواثق الذي تأثر بسياسة ابيه المعتصم في افساح المجال أمام العناصر التركية لا سيما في قطاع الجيش ، أخذت الدولة تصطبغ منذ ذلك التاريخ بالصبغة التركية ، وبدأت شخصيات عسكرية من هذه العناصر تشغل دورها في سياسة الدولة العامة ، ولعل أبرز القادة الذين اختطوا سياسة التسلط التركي في تلك الفترة هم : أشناس الذي بلغ من نفوذه في عهد الواثق حداً واسعاً للغاية وإيتاخ الذي عظم مركزه في عهد المتوكل ، فكان يشرف على الجيش والمؤسسات الادارية الاخرى في الدولة ، وبعد مقتل المتوكل الذي جاء بتدبير من القائدين وصيف وبغا الكبير ، بلغ هذين الاخيرين ذروة السلطان ولم يعد أحد قادراً على معارضتهما ، وقد شهدت الفترة التي أعقبت هذه الحادثة ازدياد النفوذ التركي وضعف الخلافة الى حد كبير ، ففي أيام المستعين كانت السلطة الحقيقية في يد أتامش ، وفي عهد المعتز كان بايكباك هو الغالب على أمره ، وصاحب الكلمة الأولى في الدولة ، كما تعاظم نفوذ صالح بن وصيف وموسى بن بغا في زمن المهتدي ، واتخذ الصراع بينهما وبين الخليفة طابعاً عدائياً سافراً كان نتيجته اقصاء المهتدي عن الخلافة .

وكانت الفترة الوحيدة التي تقلص فيها نفوذ هؤلاء القواد ، عندما صار قائد الجيش عباسياً فاستطاع أبو أحمد الموفق أن يعيد للخلافة هيبتها وقوتها في عهد أخيه المعتمد ، وقد أدّى ذلك الى ابتعاد بقية ضباط الجيش عن التدخل في الشؤون السياسية وانصرافهم الى العمل العسكري ، وظل هذا التوازن سائداً

في الدولة حتى وفاة الخليفة المكتفي ، وبروز مؤنس واستلامه القيادة حيث أعاد الجيش من جديد الى الانغماس في السياسة .

وكان مؤنس آخر القواد العسكريين الذين تعاقبوا على المسرح السياسي في الدولة ، فبعد مقتله ظهرت وظيفة جديدة فاقت في خطورتها منصب القيادة ، وهي إمرة الأمراء ، وكان العامل المباشر لظهورها ضعف الوزراء وعجز القواد عن اشاعة الاستقرار في الدولة ، فلجأ الخليفة الى شخصية تتوفر فيها صفات القيادة العسكرية والخبرة في معالجة المشاكل المدنية ، أو بعبارة ثانية تكون لها السيطرة الكاملة على كل مراكز السلطة ، بما فيها مشاركة الخليفة بمظاهر الحفاوة والمناسبات الرسمية .

وكان أول من تولى إمرة الامراء محمد بن رائق في عهد الخليفة الراضي ، وكان قبلا يشغل قيادة الجيش والشرطة في واسط ، ولكن ابن رائق الذي وصل قمة السلطة الفعلية جابه متاعب كثيرة من أجل الاحتفاظ بمنصبه فقد نازعه في الامر أكثر من منافس ، كان أبرزهم بجكم الذي تمكن من إزاحة ابن رائق عن إمرة الامراء واتخاذها لنفسه ، وكان بجكم على جانب كبير من القوة بحيث سيطر تماماً على الدولة ، حتى أنه بعد موت الراضي رفض وصية هذا الخليفة بأن تكون الخلافة لأصغر ابنائه ، فبقي هذا المنصب شاغراً بعض الوقت قبل أن يرشح له الرجل الذي كان يتوافق مع سياسته .

وما لبث بجكم أيضاً أن دخل حلبة الصراع على إمرة الامراء وسقط ضحية مؤامرة دبرها أحد رجاله ، وانتقل هذا المنصب إلى كورتكين الديلمي ، حيث أخذت عناصر الديلم تتكاثر في عاصمة الخلافة ، وكانت الفترة التي تولى فيها كورتكين إمرة الأمراء ، مشحونة بالفوضى والاضطرابات فعجز عن انقاذ الوضع المتدهور ، الأمر الذي دعا الخليفة الى استدعاء ابن رائق من الشام حيث تمكن من طرد كورتكين والسيطرة على زمام الموقف .

ولكن خطراً آخراً واجه ابن رائق وجاء هذه المرة من البريدي صاحب

الاهواز ، وأحد الطامعين بامرة الأمراء ، وقد نجح البريدي في السيطرة على بغداد ، في حين هرب المتقي وابن رائق الى الموصل .

وطلب المتقي المساعدة من الحمدانيين – أصحاب الجزيرة آنذاك – للعمل على طرد البريدي فلبوا طلبه وأعادوه الى الخلافة بعد أن أوقعوا بالبريدي هزيمة قاسية ، وتقديراً لهذا الموقف أسند الخليفة الى أبي محمد الحسن بن عبدالله الحمداني إمرة الأمراء ولقبه بلقب ناصر الدولة . ولقب أخاه علياً بلقب سيف الدولة . وقد بقي ناصر الدولة في منصبه ما يزيد على السنة ، عاد بعدها الى الجزيرة إثر حركة شغب قام بها الجند بزعامة توزون .

وقد كان توزون كبير قواد الديلم حينذاك وأقوى الشخصيات التي ظهرت على المسرح السياسي في الدولة العباسية ، فاختاره المتقي أميراً للأمراء حيث بقي في هذا المنصب حتى موته ، منفرداً بالسلطة دون الخليفة الذي لم يعد له أي شأن يذكر ، ومن الملاحظ هنا أن قوة الديالمة أصبحت هي القوة الغالبة في الدولة ، وأخذ أمرها يتعاظم حتى مجيء البويهيين وهم كانوا من الديلم ايضاً ، وقد طبعوا الحكم بطابعهم الخاص ما يزيد على قرن من الزمن (١) .

---

١ – تاريخ خليفة : ٢/٧٩٢ – ٧٩٨ . الطبري : ٩/١٢٣ – ٤٣٨ ، ١٠/٧ – ١٥١. اليعقوبي : ٢/٤٧٩ – ٥١١ . مروج الذهب : ٤/٦٥ – ٣٧٢ . تجارب الأمم : ٥٢٧ – ٥٨٣ ، ٢/١ – ٤٢٠ . العيون والحدائق : ٤/١ – ٤٤٣ . الفخري : ٢٠١ – ٢٣٣ . الكامل : ٥/٣٥٠ – ٣٦٧ ، ٦/٢ – ٣١٤ . الذهب المسبوك : ٢٣٣ – ٢٥٥ . المنتظم : ٦/٢ – ٣٤٥. متز : ٢٢ – ٤٣ .

المشاكل الداخلية

الحركات العلوية

بعد فشل الحركات الثورية التي قام بها العلويون في الدور السابق من الخلافة العباسية ، اتجه هؤلاء الى السرية والعمل المنظّم ، فكانت حركاتهم في هذا الدور أكثر خطورة ، وأعمق تأثيراً في الحياة السياسية للدولة ، وكانت من العوامل الرئيسية التي أدّت الى اضعافها ، نتيجة انسلاخ مناطق واسعة عن السلطة المركزية وممارستها سياسة استقلالية بعيداً عن أي نفوذ للخليفة .

ثورة يحيى بن عمر بن يحيى

من أوائل الحركات التي قامت في تلك المرحلة ، حركة يحيى بن عمر بن يحيى من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب الذي ثار في الكوفة سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤ م أيام المستعين ، فانضم إليه جمع من بغداد وسامراء فضلا عن عدد كبير من الكوفيين . لكن هذه الثورة التي لم يتعد نطاقها عملياً مدينة الكوفة ، سرعان ما أخفقت وقتل قائدها على يد حملة أرسلها الخليفة ضده بقيادة الحسين بن ابراهيم ابن مصعب في نفس السنة التي قامت بها (١) .

ثورة الحسن بن زيد

قام الحسن بقيادة ثورة قامت في نفس السنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م في نواحي طبرستان بسبب سوء المعاملة التي لقيها السكان من عمال طبرستان التي كانت وقتذاك تابعة إدارياً لصاحب خراسان محمد بن عبد الله بن طاهر ، فثار هؤلاء

---

١ – الطبري : ٩/٢٦٦ – ٢٧١ . مقاتل الطالبيين : ٦٣٩ – ٤٦٤ . اليعقوبي : ٢/٢٩٧.
مروج الذهب : ٤/١٤٧ – ١٥٣ . تجارب الأمم : ٥٦٦ – ٥٧٠ . ابن كثير : ٥/١١٠ .

السكان وأرغموا عاملهم على الفرار ، ثم استنجدوا بجيرانهم الديالمة خوفاً من بطش الطاهريين ، فلبوا طلبهم ، ووجد جميع الثوار في الحسن بن زيد العلوي الذي كان يقيم في الريف ، الشخصية المؤهلة لقيادتهم فأرسلوا في طلبه وبايعوه، واستجاب الحسن لطلبهم ، فقادهم وزحف على مدينة آمل عاصمة طبرستان فاحتلها ، ثم انتقل منها الى ساريه معقل الوالي سليمان بن عبدالله بن طاهر ، فانتصر عليه وأجبره على الفرار ، وبذلك تم للحسن بن زيد السيطرة على بلاد طبرستان بالاضافة الى الريّ ، ونجح في إقامة حكومة شيعية في هذه الجهات وقد عاشت هذه الدولة ما يزيد على قرن من الزمن (١) .

حركة القرامطة

لاقت حركة القرامطة في العصر الحديث عناية كبيرة من قبل عدد من الكتاب، كثر عدد العرب بينهم في الآونة الأخيرة ، ومع أن هذه العناية أمر يبعث على الارتياح، إلا أنه من الملاحظ أن بعض الانحراف قد ألم ببعض الكتابات ، حيث أراد بعض الكتاب عصرنة الحركة بجعلها تشبه حركات عصرنا الاشتراكية ثم ان بعض الكتاب بحث في القرامطة اعتماداً على بعض المادة الاخبارية المعروفة، وفي هذا تقصير ، في حين ينبغي فيه العمل على جمع مواد اخبارية جديدة عن القرامطة ، خاصة وأننا نعلم من عدد من المصادر أن عدداً من الكتاب القدماء أولوا القرامطة عناية خاصة وأن بعضاً منهم عاش مع القرامطة ، فجاءت كتاباته كتابات شاهد عيان .

ولقد قام معظم الذين كتبوا في تاريخ القرامطة بالبحث في أصل دعوتهم ومدى ارتباطها بالحركة الاسماعيلية الشيعية ، وقد اختلفوا في ذلك ، وقالوا بأن علاقة ما وجدت في البداية ، ثم حدث انفصام ثم عادت العلاقات وهكذا، وجميع الذين بحثوا في تاريخ القرامطة قالوا بأن حركتهم بدأت في بلاد الهلال الخصيب ، ومن هناك انتشرت إلى شبه الجزيرة العربية والبحرين .

---

١ - الطبري : ٩/٢٧١ - ٢٧٦ . مروج الذهب : ٤/١٥٣ . تجارب الأمم : ٥٧٠ - ٥٧٤ . البداية والنهاية : ١١/٦ .

ومع التقدير لهذه الآراء إلاّ أنه يبدو لي من خلال اطلاعي على عدد كبير من المخطوطات القديمة في التاريخ وغيره ، وأخص بالذكر سيرة الهادي إلى الحق ، وما دوّن حول سيرة منصور اليمن أن حركة القرامطة انطلقت في البداية في شبه الجزيرة في المنطقة الجبلية القريبة من نجران ، فمنذ فترات مبكرة من القرن الثاني للهجرة أصبحت هذه المنطقة مسرحاً لنشاط عدد كبير من رجالات البيت العلوي الذين كان غالبيتهم من أصل حسني ، وقد لفت هذا انتباه قادة الحركة الاسماعيلية ، فوجهت هذه الحركة إليها عدداً من الدعاة ، أصاب بعضهم النجاح ، وأشهر هؤلاء الدعاة واحد عرف بمنصور اليمن ، وهنالك أخبار متناقضة حوله وحول علاقاته مع الدعوة الاسماعيلية الأم ، فبعض هذه الأخبار يذكر أنه قطع علاقاته مع هذه الدعوة ، وأنه خرج عليها، وأنه ادعى الامامة أو حتّى الربوبية .

المهم في الأمر أن نشاط الدعاة هؤلاء كسب إلى جانبهم عدد كبير من رجالات القبائل ، كما سبب جيشاناً عظيماً داخل الجزيرة نتج عنه قيام هجرة بدوية كبيرة ، لعلها كانت الثانية في الحجم بعد الهجرة التي رافقت قيام الفتوحات العربية الكبرى إثر ظهور الاسلام ، وقد جلبت هذه الهجرة إلى بلاد الرافدين والشام قبائل من طيء ، وفزارة ، وهلال ، وسُليم ، ومن عامر بن صعصعة وكلاب وعقيل ونمير وقشير ، ومن أسد وخفاجة ، وقدمت هذه القبائل مادة بشرية فعالة لدعاة الاسماعيلية في هذه البلاد ، فقادوها في الحركات المشهورة باسم حركات قرامطة العراق والشام ثم البحرين .

وهنا نجد أنفسنا أمام السؤال التالي : من أينَ جاء اسم القرامطة وأين استخدم أولاً ؟ وجواباً على هذا السؤال جاء عند ابن العديم في ترجمته لصاحب الخال ــ الذي سنتحدث عنه ــ ما يلي: « وإنما سموا القرامطة : زعموا أنهم يدعون إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي ، ونسبوا إلى قَرْمِط ، وهو حمدان بن الأشعث ، كان بسواد الكوفة ، وإنما سمي قَرْمِطاً لأنه كان رجلاً قصيراً ، وكان رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه متقارباً فسمي بهذا السبب

قَرْمِطاً ، وكان قَرْمِط قد أظهر الزهد والورع ، وتسوق به على الناس مكيدة وخبثاً ..... وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامِطة إنما هو نسبة إلى مذهب يقال له القَرْمَطة خارج عن مذاهب الاسلام ، فيكون على هذه المقالة عزوه إلى مذهب باطل لا إلى رجل » ، وقيل بأن التسمية نسبة إلى «بني قَرْمَطي بن جعفر ابن عمرو بن المهيّأ .... بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة » .

وعلى هذا قد تكون التسمية نبعت من اسم احدى القبائل العربية لشبه الجزيرة واستعملت هناك في ظروف وزمن غير معروفان الآن ، ومع ربطنا للحركة القرمطية بالنشاط الشيعي الاسماعيلي ، علينا أن نبين أن هذا النشاط كان له غايات اجتماعية واقتصادية اصلاحية رغم تدثر الدعاة بدثار الدين والدعوة لحكم إمام له حق شرعي بالسلطة .

والدعوات إلى الاصلاح الاجتماعي واحلال المساواة وانهاء الاستغلال بدأت قبل قيام الثورة العباسية واستمرت بعدها ، ذلك أن أفراد الاسرة العباسية وكبار المقربين منهم ورثوا أراضي أمراء بني أمية ووسعوا من حجم أملاكهم ، وكان ذلك بالاستيلاء والمصادرة والشراء ، وتحوي كتب الأدب والتاريخ أخبار بعض ذلك كما تحوي أخباراً رويت لتصف عدل بعض الخلفاء واستجابتهم لنداء المظلومين ، وفي هذه الأخبار نجد المدعى عليهم الخليفة أو ابنه أو أحد رجالات الدولة ، والمدعي انسان اغتصب قريته أو أراضيه ، هذا وحين نقرأ أخبار أواخر القرن الثاني للهجرة مع بدايات القرن الثالث نلحظ أن الثروات تجمعت في أيدي قليلة ، وعندما تجتمع الثروات مع الأراضي في أيدي قليلة يعني ذلك حرمان الأيدي الكثيرة واستغلالها ، وهذا بالتالي يعني وجود أسباب الشكوى والاستعداد الثوري ، والمجال الرحب لدعاة الاصلاح وأصحاب المطامح ، ويبدو أن دعاة الاسماعيلية كانوا أنشط دعاة الاصلاح وأرقاهم فكراً وفلسفة، فمنذ القرن الثالث كان الفكر السني الاسلامي الذي ساير السلطة العباسية أشواطاً بعيدة قد أصابه الانحطاط والجمود مثلما أصاب الانحطاط والضعف السلطة

العباسية نفسها ، ومع هذا الانحطاط بادر الفكر الاسماعيلي فسيطر على العقلية الاسلامية وأثر بها وسيرها مدة قرون تنوف على الثلاثة .

وعندما ننظر إلى القرن الثالث للهجرة نجد بلدان العالم الاسلامي تشهد في فترة واحدة عدة ثورات ذات مبادىء اصلاحية اجتماعية قدمت بطريقة فكرية فلسفية رفيعة ، وكانت أهم هذه الحركات : الحركة الصفارية ، حركة القرامطة ، حركة الزنج ، وأخيراً التحركات بين بربر شمال أفريقية التي تمخضت عن قيام الخلافة الفاطمية ، والتأثير الاسماعيلي المباشر على هذه الحركات في غاية الوضوح .

إن هناك حاجة ماسة لاعادة النظر في جميع المسائل المطروحة عن الحركات الاجتماعية في الاسلام ، كما هناك ضرورة ملحة لاعداد أبحاث علمية عن الأحوال الاقتصادية للمجتمعات الاسلامية خلال مختلف العصور ، هذا وتحوي الكتب العربية المودعة على رفوف المكتبات العامة والخاصة كمخطوطات معلومات هامة ، يمكن بواسطتها انارة الكثير من الجوانب المظلمة ، هذا ولعله من المفيد إيراد ما جاء في المصادر المتداولة عن بدايات التحرك القرمطي :

في سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م بدأت تحركات القرامطة في منطقة الكوفة ، على يد رجل قدم من خوزستان إلى سواد الكوفة ، وهناك استطاع أن يجذب الفلاحين إليه وذلك بما أبداه من خلق قويم ودعوة جميلة ، واسترعى نشاطه هذا انتباه رجل اسمه الهيصم كان من كبار الملاك ، وسعى الهيصم هذا للقضاء على الحركة في المهد فأخفق ، وأثناء هذا نال هذا الرجل لقب قرمط ، وأخذ قرمط يتنقل بين القرى يدعو إلى عقيدته فاستجاب له عدد كبير من الناس ، وفي هذه الآونة كانت ثورة الزنج قائمة في منطقة البصرة فذهب قرمط إلى صاحب الزنج وتباحث معه وناظره « فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه » .

وأعلن القرامطة الثورة وتحركوا بنشاط في أواخر عهد الخليفة المعتضد ،

فأرسل الخليفة ضدهم قواته فهزمتهم ، وفي الوقت ذاته حول القرامطة نشاطهم إلى بلاد الشام ، وهنا تعاون ضدهم حكام مصر الاسلامية مع جيوش بغداد ، وقرب دمشق هزم القرامطة وقتل قائدهم وكان يعرف بالشيخ ، فخلفه بعد مصرعه صاحب الخال ، وصاحب الخال هذا كان أنشط قادة القرامطة في الشام .

عرف صاحب الخال باسم « احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » ، وقيل اسمه أحمد بن عبدالله بن محمد بن جعفر ، وقيل محمد بن عبدالله بن جعفر ، وقيل عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ، وقيل ان اسمه الحسين بن زَكْرَوَيه ابن مَهْرَوَيه » ، وقد زعم أنه كان أخاً للشيخ قائد القرامطة السابق ، وقضية نسبه هذه أثارت جدلاً وما زالت ، مع أنها ليست بذات بال ، ثم الاسماعيلية لم تكن ابان نشاطها تقيم عظيم اعتبار للانحدار الجسدي في النسب ، ذلك أن النسب الروحي هو المهم والأساسي ، ويمكن للامام أن يحل روحياً بأي شخص آخر يختاره ليكون اماماً بعده .

وبعدما تسلم صاحب الخال قيادة القرامطة تسمى بالمهدي ، واستطاع بفترة وجيزة أن يصبح سيد البادية الشامية مع شمال ووسط بلاد الشام ، وكوّن لنفسه هيئة ادارية وحاشية وكان أقرب الناس منه رجلان عرفا بالمُدَّثِّر ، والمُطَوَّق ، وحاولت سلطات مصر مع سلطات بغداد القضاء عليه فأخفقت مراراً ، وأمام استفحال خطر القرامطة قرر الخليفة المكتفي أن يقود جيشاً ضدهم وكان هذا سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ، وقلد المكتفي « القاسم بن عبيد الله بن سليمان» تدبير أمر « الجيش » فوجه القاسم محمد بن سليمان الكاتب صاحب الجيش خليفة له على جميع القواد وأمرهم«بالسمع والطاعة » واستطاع هذا الجيش مواقعة القرامطة في معركة فاصلة قرب مدينة حماة ، هزم فيها القرامطة ، وبعد ذلك تمت ملاحقة قادتهم فألقي القبض على صاحب الخال وكبار أتباعه وسيق هؤلاء في موكب النصر إلى بغداد حيث تم اعدامهم في مشهد عام .

لكن هزيمة القرامطة هذه لم تفعل أكثر من الحد من نشاطهم في الشام ، ليبدأوا نشاطاً كبيراً للغاية في العراق ، حيث أخذوا منذ سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م في إعمال الغارة على كثير من الأماكن وفي مهاجمة القوافل ، خاصة المتوجهة إلى الحج ، وأخفقت الجيوش العباسية في ايقافهم ، وكان هناك دائماً البادية لتكون ملاذاً عند الحاجة ومصدراً كبيراً وأساسياً للتجنيد، وقاد القرامطة في العراق ووجه أعمالهم زَكْرَويه بن مَهْرَويه ، وبعد وفاة زَكْرَويه صار كبير زعماء القرامطة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجَنّابي ،وقتل أبو سعيد هذا سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، فخلفه أخوه أبو طاهر سليمان ، وكان أبو سعيد قد استولى على الأحساء والقطيف وهجر والطائف وسائر بلاد البحرين ، ومنذ أيامه اتخذت البحرين قاعدة لنشاط القرامطة ، وفي البحرين أقام القرامطة دولة ذات نظام في غاية الرقي « اجتماعياً وديمقراطياً » وقد وصلتنا بعض الأوصاف التفصيلية لهذه الدولة .

وبلغت دولة القرامطة الذروة أيام أبي طاهر ، وقد قام القرامطة خلال ذلك بحملات كبيرة استولوا فيها على العديد من قوافل الحجيج ، وكان أشهر حملة تلك التي هاجموا بها مكة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، فأعملوا السيف بالحجيج وأهل مكة ، وخلع أبو طاهر باب الكعبة ، ووقف يلعب بسيفه على بابها وينشد يقول :

أنا بالله وبالله أنـــــــا يخلق الخلــق وأفنيهم أنــا

« وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، ونهب دور أهل مكة ، وخلع الحجر الأسود من البيت » ووجه به إلى البحرين حيث بقي مطروحاً هنـــاك اثنتان وعشرون سنة ، وفي هذه الآونة كانت الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في اقامة الدولة الفاطمية في افريقية ، وقامت مراسلات بين القرامطة والدولة الفاطمية ، وبعد وفاة أبي طاهر دخل القرامطة في فترة من الفوضى والضعف، وآنذاك أخذ الفاطميون يتحركون للاستيلاء على مصر والمشرق ، وأثر هذا على علاقات قرامطة البحرين بالفاطميين وبالدولة العباسية ، حيث قامت مهادنة

مع الدولة العباسية ومنافرة للفاطميين ، وبعد أخذ الفاطميين لمصر وتوجههم نحو الشام ، قام قرامطة البحرين بقيادة الحسن الأعصم بالتحالف مع سلطات دمشق ضد الفاطميين ، وغزا القرامطة مصر وكادوا يقضون على الحكم الفاطمي فيها .

وحين يبحث المرء في تاريخ القرامطة لا يجد بين الأخبار المتوفرة عنهم ما يوضح المبادىء الاجتماعية الاصلاحية التي أعلنوها في الفترات المبكرة من تاريخهم ، وفي أخبار صاحب الخال ورد أنه كان ينظم الشعر ، وقد وصلنا من شعره عدة أبيات منها قوله :

متى أرى الدُنيا بلا كاذب ولا حَرُوري ولا ناصبي
متى أرى السيف على كل من عادى علي بن أبي طالب
متى يقولُ الحقّ أهل النُهى ويُنْصَفُ المغلوب من غَالب
هل لبُغاة الخير من ناصرٍ هل لكؤوس العَدْل من شارب

ومن هذه الأبيات وغيرها يمكننا أن نستنتج أن القرامطة في ثورتهم كانوا ضد السنة والخوارج من المسلمين وابتغوا إزالة الكذب واحقاق الحق وانصاف المظلوم وقهر الظلاّم ونصرة الخير وإقامة مجتمع العدل والعدالة (١) .

---

١ – الطبري : ١٠/٨٦ – ١٥١ . سيرة الهادي إلى الحق : ٨٥ – ٣٨٤ . تاريخ أخبار القرامطة : ٧ – ١١٣ . مروج الذهب : ٤/٢٨٠ – ٣٥٤ . القرامطة لابن الجوزي : ٢٩ – ٧٢ . المنتظم : ٥/١١٠ – ١١٩ . الكامل : ٦/٩٤ – ٢٤٩ . الفخري : ٢١٠ . العيون والحدائق : ٤/٩١ – ٢٥٧ . ابن خلدون : ٤/١٠٣ – ٢١١ . ابن العبري : ١٤٩ – ١٥٤ . السيوطي : ٣٧٦– ٣٧٧ . ابن كثير : ١١/٨١ – ١٦٨ . المسجد المسبوك : ٦٠ – ٧٧ . رسالة افتتاح الدعوة : ٣٢ – ٥٤ . تثبيت دلائل النبوة : ٢/٥٩٤ – ٦٢٦ . كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة : ١١ – ٤٢ . مقالات الاسلاميين : ١/٩٨ . الملل والنحل – على هامش الفصل : ٢/٢٧ – ٣٣ . فرق الشيعة للنوبختي : ٦١ – ٦٤ . فضائح الباطنية : ١٢ – ١٤ . أصول الاسماعيلية : ٨٣ – ١٨٨ . الدعوة الاسماعيلية الجديدة : ٣٦ – ٤٩ . قرامطة العراق : ١١ – ٢١٧ . مذكرات في حركة المهدي ، مجلة كلية الآداب لجامعة القاهرة ، ١٩٣٦ ، ٤/١٠٥ – ١٠٧ .

W. Ivanow, Ismailis and Qarmatians, J. B. B. R. A S. vol 16, 43–85, the order of Assassins, 7–22.

ثورة الزنج

وهي حركة ترتبط بخيط رفيع بالتيّار الثوري العلوي ، وهو يكمن في زعم قائدها أنه يرجع في نسبه الى العلويين ، ولكنها في الحقيقة تختلف ، الى حد كبير في مضمونها وفي أبعادها عن الثورات العلوية ، وحتّى عن الثورات الأخرى التي شهدتها تلك المرحلة ، فهي أول حركة اجتماعية واضحة شهدها الحكم العباسي ، وكانت عناصرها من الزنج الذين جيء بهم من سواحل افريقيا الشرقية لاستخدامهم في البيوت والأعمال الزراعية .

وكانت الظروف التي عاش بها هؤلاء في منتهى القسوة وفي غاية السوء ، فلم يكونوا يتقاضون أي أجر لقاء الأعمال الشاقة التي كانوا يقومون بها ، اللهم سوى القليل من القوت ، يضاف الى ذلك قساوة الظروف المناخية ، حيث كانوا يعيشون في جوار البصرة حيث المستنقعات تكثر وتنتشر الأوبئة .

وقد أثار وضعهم هذا اهتمام أحد المغامرين الذي عرف أحياناً باسم علي بن محمد فاستغل قضيتهم لتحقيق مآربه السياسية ، وأخذ يبث دعوته في أوساطهم ، داعياً الى رفع مستواهم الاجتماعي والاقتصادي والثورة على الحكم العباسي ، ولكي تكتمل الصورة التي رسمها لنفسه ، ادعى النسب العلوي ليحظى بعطف الفئات الاخرى الناقمة على العباسيين ، وليمنح نفسه ستاراً من الشرعية .

أما أصله الحقيقي فقد اختلف المؤرخون بشأنه ، فالطبري يقول بأنه كان ينتسب إلى قبيلة عبد القيس العربية . وآخرون يرون أنه من أصل فارسي ، وربما هو كان فارسياً ادّعى نسباً عربياً ثم علوياً بعد ذلك . ويبدو أنه كان على جانب كبير من الذكاء ، ونزّاعاً الى السيادة ، وقد بدأ طموحه في الظهور قبل سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م عندما أقام في البحرين وأخذ يبشر بمذهبه ، حتى

كثر أتباعه وعظم مقامه ، ولكنه اضطر الى مغادرة البحرين إثر فتنة وقعت بينه وبين المناوئين له ، فنزل البصرة سنة ٢٥٤ ﻫ / ٨٦٨ م ليجد ضالته في العمال الزنوج الذين كانوا ينوؤن تحت وطأة الجوع والعمل الشاق .

وأخذ صاحب الزنج – وهو الاسم الذي عرف به – يحرض هؤلاء الزنوج على هجر أسيادهم والانضمام إليه واعداً إياهم بتحسين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، واستمر كذلك حتى انضم إليه عدد كبير منهم ، فضلا عن بعض الأعراب الذين كانوا ساخطين على الدولة العباسية ، وفي ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ ﻫ / ١٨ ايلول ٨٦٩ م أعلن الثورة ، وانتشر أصحابه يعيثون فساداً في جنوب العراق ، يساعدهم على ذلك انشغال جيوش الخلافة بالتطاحن على الحكم وفقدان الخبرة العسكرية لدى الجنود، وعندما حاولت الجيوش العباسية القضاء على ثورتهم أخفقت .

وأحرز الزنج عدة انتصارات فتحت أمامهم الطريق لاحتلال الأبله سنة ٢٥٦ ﻫ / ٨٧٠ م ثم عبدان والأهواز والبحرين ، وفي سنة ٢٥٨ ﻫ / ٨٧٢ م خضعت لهم البصرة وواسط . وكانت الاعمال الانتقامية التي كانوا يقومون فيها أثناء انتصاراتهم تنم عن حقد لا يوصف ، فقد استباحوا كل شيء وقتلوا كل من وقع في أيديهم حتى النساء والأطفال لا سيما في البصرة التي تجسدت فيها عمليات الانتقام الوحشية بأبشع صورها وأقصاها عنفاً .

وأخفقت محاولات المهتدي في القضاء على الزنج الذين استفحل خطرهم وباتوا يهددون عاصمة الدولة ، ولكن الفرصة واتت الخلافة فأمسكت بزمام المبادرة على يد أبي أحمد الموفق الذي انتقلت إليه السلطة الحقيقية في الادارة والجيش ، ولم يكد الموفق يفرغ من معالجة مشكلة الصفارين الذين ثاروا في سجستان ، حتى سارع الى تعبئة الجيوش واعدادها للقضاء على ثورة الزنج ، ثم خرج من بغداد الى واسط سنة ٢٦٧ ﻫ / ٨٨١ م ، وتمكن من احراز عدة انتصارات ، إلا أنها لم تكن حاسمة ، لأن الثوار كانوا متحصنين في مناطق

صعبة المسالك ، فاضطر الى حصارهم ما يقارب الثلاث سنوات انتهت بانتصار ساحق عليهم ومقتل زعيمهم في صفر سنة ٢٧٠ هـ / تموز ٨٨٣ .

وبذلك وضع الموفق حداً لهذه الحركة الخطيرة التي أقلقت الدولة وأرقت مضاجع الناس سنوات طويلة ، وهي حركة تحظى الآن باهتمام المؤرخين ، خاصة الجانب الطبقي فيها ، ذلك أنهم رأوا فيها ثورة اجتماعية رمت الى تحرير العمال المعدمين من جشع الأسياد واستغلالهم ، ولم يكن هذا النوع من الثورات غير السياسية سائداً حينذاك ، لأن سواد الناس كانوا يفتقرون الى الوعي الذي يؤهلهم للمطالبة بحقوقهم والثورة من أجلها (١) .

***

١ – اليعقوبي : ٥٠٧/٢ – ٥١١ . الطبري : ٤٣١/٩ – ٦٦١ . العيون والحدائق ١/٤ – ٥٨ . المنتظم : ٢/٥ – ٧٤ . مروج الذهب : ١٩٤/٤ – ١٩٥ . الكامل : ٧/٦ – ٥١ .

السياسة الخارجية

كانت عمورية خاتمة الانتصارات اللامعة التي حققها خلفاء بني العباس ضد أعدائهم البيزنطيين طيلة حقبة من الزمن نافت على التسعين عاماً ، فبعد وفاة المعتصم شهدت الدولة العباسية تحوّلا بارزاً في سياستها البيزنطية ، حيث توقف ذلك الصراع الدموي أوكاد ، وأخذ الطرفان يتبادلان الاسرى والرهائن بعد أن تبادلا طويلا الضربات الأليمة ، منذ الفترة التي خرج بها العرب من جزيرتهم وأنزلوا بالبيزنطيين تلك الهزيمة التي أجبرتهم على التراجع والانكفاء خلف جبال طوروس .

والواقع أن هذا الركود الذي شهدته العلاقات البيزنطية ـ العباسية نجم عن ظروف كل من الدولتين وما تعرضت له من أزمات سياسية حالت دون الاستمرار في النشاط الحربي القديم ، فمن جهة كانت الدولة البيزنطية شديدة الرغبة بأن يسود على حدودها السلام بعد صدمة عمورية وفقدانها معظم قواعدها في البحر المتوسط ، فضلا عن اضطراب الأحوال الداخلية فيها بسبب تطاحن الأمراء والقادة على السلطة ، الأمر الذي أضعفها وأنهك قواها ، ومن جهة ثانية كانت الدولة العباسية تجتاز أصعب مراحلها وتتخبط في مشاكلها الداخلية من دعوات ثورية ، إلى حركات انفصالية إلى تسلط الأتراك على الحكم وانتزاعهم من الخلفاء كل نفوذ وسلطان ، ولهذا عجزت الدولتان عن استئناف نشاطهما المعهود في ميدان العمليات الحربية ، ذلك النشاط الذي عرفناه في الدور العباسي الأول .

بيد أنه رغم ما ذكرناه عن واقع العلاقات العسكرية مع البيزنطيين في تلك الفترة ، فإن جبهة الحدود لم يتوقف النشاط فيها تماماً بل كانت تشتعل بين

الحين والآخر فتعيد بعض الحيوية لهذه العلاقات ، ولكن ذلك لم يسفر عن أي تغييرات في خريطة المنطقة السياسية .

ففي مطلع هذا الدور أغار البيزنطيون على مصر ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م فدخلوا دمياط وأعملوا فيها القتل والنهب ، وسبوا عدداً كبيراً من أهلها ، وفي سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م هاجموا الثغور الجزرية عن طريق سَميساط في أعالي الفرات ونهبوا عدة قرى وأسروا نحواً من عشرة آلاف من سكانها ، فخرج إليهم القائد عمر بن عبدالله الأقطع ، لكنه لم يشتبك معهم ، وبعد عامين وجه المتوكل قائده التركي بغا على رأس حملة لغزو البيزنطيين ، حققت بعض الانتصارات الطفيفة ، ثم توقفت العمليات العسكرية بعد ذلك حتى مجيء المستعين حين قام الأقطع بغزو ملطيه ، والاشتباك مع الامبراطور البيزنطي في معركة أسفرت عن هزيمة الجيش العباسي ومقتل قائده ، وقد شجعت هذه النتيجة البيزنطيين على التوغل في عمق الدولة العباسية فتصدى لهم القائد علي بن يحي الأرمني ، ولكنه لاقى نفس مصير الأقطع ، وكان وقع هذه الهزيمة قاسياً في أوساط الخلافة ، وانعكس بصورة خاصة على الفئات الشعبية التي قامت بعملية عصيان ، كانت في جوهرها موجهة ضد القادة الاتراك أصحاب المسؤولية الأولى عن هذه الهزائم ، وعن عجز الدولة عن مجابهة الأخطار الخارجية .

وتوقفت المناوشات الحربية بعد ذلك حتى عهد المعتمد ، حين قام البيزنطيون بالهجوم على حصن لؤلؤة وبعض الثغور الجزرية ، مستغلّين وضع الخلافة الصعب بسبب اشتداد الأزمات الداخلية ، ولم ينقذ الدولة حينذاك من الخطر البيزنطي إلا انتصار حققه الجيش العباسي عند طرسوس سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م حيث أنزل بالبيزنطيين هزيمة قاسية حملتهم على المهادنة فترة غير قصيرة .

وساد الهدوء على جبهة الحدود وجرى تبادل الهدايا وافتداء الأسرى بين الطرفين حتى سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م حين قام رستم بن برد في عهد المكتفي بحملتين إلى بلاد البيزنطيين أسفرتا عن احتلال عدد من الحصون المهمة ، وعدا

ذلك فإن نشاط الخلفاء الذين جاءوا بعد المكتفي كان نشاطاً محدوداً للغاية ، حتى أنهم توقفوا أخيراً عن القيام بأي عملية عسكرية حتى العلميات التقليدية وفي هذه الآونة انقطعت صلات الثغور ببغداد إلى حد كبير ، وباتت مسؤولية الدفاع عن الثغور مسؤولية حكام مصر ، ثم حكام شمال بلاد الشام والجزيرة من الحمدانيين .

وهكذا كان الذين تولوا عبء الدفاع عن ثغور الدولة العباسية منذ القرن العاشر هم الحمدانيون أصحاب الجزيرة ثم حلب ، وظهر هؤلاء كقوة لها فعاليتها واعتبارها في الوقت الذي كانت الخلافة العباسية تعاني فيه من التفكك والانهيار ، وليس ثمة شك أن بسالة الحمدانيين في مقاومة الجيوش البيزنطية كانت حيناً من أهم العوامل التي حفظت هذه المنطقة من السقوط للبيزنطيين .

* * *

الفصل الثاني

العصر البويهي

الدولة البويهية

يقع إلى شمال الهضبة الايرانية بلاد مرتفعة سكنت من قبل شعب اتسم بالقسوة ، وحب القتال والاستقلال ، وقد اعتبر هذا الشعب من قبل سكان الهضبة الايرانية شعباً اجنبياً ، ونظر إليه بخوف وحذر ، ولم يستطع حكام ايران في العصور القديمة إخضاع هذا الشعب بشكل عام وفعال ، حتى أن الدولة الساسانية قد وجدت من الضروري الاحتفاظ بحصون على الحدود كخطوط دفاعية ضد غاراته .

وبعد قيام الاسلام ، والشروع بالفتوحات الكبرى ، اصطدم العرب بهذا الشعب ، وعرفوه باسم الديلم ، ولم يفلح العرب في اخضاع الديلم بقوة السلاح ، ويروى أن الحجاج بن يوسف عندما أراد فتح بلاد الديلم أمر بتصوير هذه البلاد حتى يعد خطة الفتح ، وحدث أن زاره وفد ديلمي ، فعرض عليه الحجاج الصورة ، ودعا الشعب الديلمي للاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ، ويخرب أراضيهم ، فنظر رجال الوفد إلى الصورة وقالوا : « قد صدقوك عن بلادنا ، هذه صورتها ، غير أنهم لم يصوروا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال ، وستعلم ذلك لو قد تكلفته » (١) .

ومع مرور الزمن اعتنق شعب الديلم الاسلام بواسطة التغلغل السلمي ، ولقد كان هذا الشعب بين آخر شعوب المشرق التي خضعت للاسلام ، وبين أوائل الذين أعادوا تأكيد شخصيتهم الذاتية ضمن اطار هذا الدين سياسياً وعقائدياً : سياسياً بظهور أسر حاكمة مستقلة ، وعقائدياً من خلال تبني مذاهب غير سنية .

---

١ – مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه : ٢٨٣ .

ولقد رأينا أنه منذ نهاية القرن الثامن للميلاد قد وجد عدد من أفراد البيت العلوي الذين هربوا من الملاحقة العباسية ، مأوى عند الديلم ، ولقد حوّل هذا بلاد الديلم إلى مركز للنشاط العلوي ، ودافع هذا المركز عن استقلاله ضد خلفاء بغداد وسواهم من حكام السنة ، وفي القرن العاشر تمكن الديلم من مدّ نفوذهم وسيطرتهم على العراق وايران،وكان ذلك بعدما ظهرت بين صفوفهم الأسرة البويهية ، وسنرى كيف ظهرت هذه الأسرة واستطاعت أن تصبح الوصية على خلفاء بغداد ولفترة طويلة من الزمن .

تنسب الأسرة البويهية إلى رجل ديلمي كان يعمل صياداً على شواطىء بحر قزوين ، كان يدعى بويه ، وكان بويه هذا فقير الحال ، وكان له من الأولاد علي والحسن وأحمد ، وقد دخل هؤلاء في خدمة مرداويج بن زيار ، وكان من قادة الديلم علا شأنه سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وأسس في خراسان دولة عرفت بالدولة الزيارية ، وقد قتل سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م . (١)

وقد أظهر أولاد بويه أيام مرداويج ، مقدرة وكفاية ، وترقى منهم علي حتى ولاّه مرداويج على الكرج ، فأصاب نجاحاً ، وأظهر له الكرج الحب ، فأثار ذلك شكوك مرداويج ، وكاد الشر يقع بينه وبين أبناء بويه ، لكن موت مرداويج أزال ذلك وأتاح الفرصة أمام الأخوة الثلاثة ، فاستولى الحسن بن بويه على أصفهان والري وهمذان ، واستطاع علي بن بويه أن يبسط نفوذه على كرمان .

وبعد هذا أخذ البويهيون يحاولون مدّ سيطرتهم على أملاك الخلافة في العراق، ومن ثم السيطرة على بغداد نفسها ، وكانت أحوال بغداد السياسية في غاية السوء والفوضى ، بعدما أخفق نظام أمرة الأمراء إخفاقاً ذريعاً ، وفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م توفي توزون أمير الأمراء، فخلفه في منصبه قائد آخر كان يعرف بابن شيرزاد(٢)

---

١ – المنتظم : ٦/٢٠٧ – ٢٠٨ ، ٢٦٨ – ٢٧١ .

٢ – مسكويه : ٢/٨١ – ٨٣ .

وبعد تسلمه لمنصبه هذا ببضعة أشهر تحرك أحمد بن بويه من الأهواز يريد بغداد ، وحين سمع الخليفة المستكفي بذلك استتر خوفاً من أتراك بغداد ، واستطاع أحمد بن بويه الوصول إلى بغداد دون كبير عناء ، وهنا ظهر المستكفي وعاد إلى دار الخلافة ، حيث استقبل أحمد بن بويه ، فتقبل بيعته وخلع عليه ولقبه معز الدولة ، كما لقب أخاه علياً بعماد الدولة ،ولقب أخاه الحسن بركن الدولة ، ثم أمر بضرب ألقابهم وكناهم على السكة (١) .

ورأى معز الدولة بعدما أصبح سيد بغداد الجديد أن يقوم بتصفية النظام القديم بكافة عناصره بدئاً بالخليفة ، فبعد أيام من دخوله بغداد قام معز الدولة باعتقال الخليفة المستكفي واهانته اهانة بالغة ، حيث سحب عن عرشه ووضعت عمامته في عنقه وجر نحو دار معز الدولة فسجن فيها ، ثم خلع من منصب الخلافة (٢) .

لقد كان معز الدولة شيعياً ، وكان هدف الشيعة دائماً إزالة الخلافة العباسية لتحل محلها خلافة علوية ، وعندما خلع معز الدولة الخليفة المستكفي كان بإمكانه تعيين خليفة علوي أو الاعتراف بالخليفة الفاطمي ، حيث أن هذه الخلافة كانت قائمة في افريقية ، وتتطلع نحو المشرق للسيطرة عليه ، لكن تعيين خليفة علوي أو الاعتراف بالفاطمي كان يعني طاعته والانصياع لاوامره ، وهذا ما لم يفضله البويهيون ، لذلك قام معز الدولة بتعيين خليفة عباسي جديد ، وكان يستطيع الدفاع عن نفسه بأنه لم يكن للشيعة غير الاسماعيلية إمام آنذاك ، ذلك لأنه لم يكن من أتباع المذهب الاسماعيلي للدولة الفاطمية .

وهكذا وقعت الخلافة العباسية السنية لأول مرة تحت تحكم شيعي ، سيم الخلفاء فيها سوء العذاب ، وأذيقوا مرارة الإهانة ، فبعد خلع المستكفي عين

---

١ - مسكويه : ٢/٨٤ - ٨٥ .
٢ - مسكويه : ٢/٨٦ - ٨٧ .

معز الدولة أبا الفضل بن المقتدر خليفة بلقب المطيع لله ، وجرده من صلاحياته كلها ، وقرر له ولموظفيه راتباً يومياً قدره ألفي درهم [1] .

ولقد نجم عن استيلاء البويهيين على بغداد نتائج كبيرة ، وردات فعل عنيفة عند القوى السياسية للعراق وأعالي بلاد الرافدين ، واصطرع معز الدولة مع دولة الحمدانيين في الموصل ومع البريدية ومع القرامطة وسواهم ، وخرج من هذه الصراعات ودولته الجديدة أعز جانباً وأوسع رقعة [2] .

وفي سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م توفي معز الدولة وقبل وفاته كان قد عين ابنه عز الدولة بختيار ليخلفه في منصبه ، وهذا يعني أن معز الدولة استطاع أن يؤسس في بغداد حكماً وراثياً يتسلط على الخلافة العباسية الوراثية ، وكان معز الدولة قد أوصى ابنه أن يستشير عمه ركن الدولة وابن عمه عضد الدولة حاكم فارس . لكن عز الدولة لم يأخذ بوصايا والده مما جر عليه المشاكل ، ذلك أنه « عكف على اللهو وعشرة النساء والمغنين » وحاول التخلي عن عدد من كبار ضباط الديلم واستبدالهم ، كما أنه جنّد عدداً كبيراً من العناصر التّركية في جيشه ، فأدى هذا إلى زعزعة مركزه وقيام الصراع بين عناصر الديلم وعناصر التّرك .

وبعد ما ساءت أحواله تحرك ابن عمه عضد الدولة على رأس قواته نحـو بغداد سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م فاستطاع أخذها ومن ثم أحل نفسه مكان ابن عمه كسيد جديد للخلافة والخليفة ، وقام عضد الدولة بأمر الخطباء بذكر اسمـه على المنابر ، وكان هذا العمل مشاركة للخليفة في كل شيء إلاّ لقب الخلافة ، وانشغل عضد الدولة مثل عمه وابن عمه في الصراع مع قوى العراق والموصل وخراسان وعُمان ، واستطاع أن يحقق في هذا المجال ما لم يتحقق لهما قبله .

---

١ – مسكويه : ٢/٨٧ – ٨٩ .
٢ – مسكويه : ٢ /٨٩ – ٩٤ .

ويعتبر عضد الدولة أعظم رجالات الأسرة البويهية ، كان نشيطاً بعيد الهمة ، يلتزم بالنظام ، ولا يتورع عن سلوك أي سبيل من أجل تحقيق غاياته ومقاصد سلطته . ولقد توفي سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٣ م وخلفه في منصبه ابنه أبو كاليجار الذي عرف بلقب صمصام الدولة (١) .

ولقد أخذ ملك بني بويه في الانحدار وقوتهم في الضعف بعد وفاة عضد الدولة ودب الانشقاق بين ورثة عضد الدولة ووقع الصراع بينهم ، مما مكن بعض القوى المحلية لأعالي بلاد الرافدين وغيرها بالتحرك وتأسيس دول خاصة بها ، ولم يمض على وفاة عضد الدولة سنتان حتى قام في الأراضي التي كانت تدين له بالطاعة خمس دول مستقلة في : « العراق » ، « والبصرة » ، « والأهواز وفارس وكرمان » ، « والري » ، « وجرجان » ، ولقد دان استقلال جرجان إلى موقعها الجغرافي وكان لا بد من أن تنضم بقية الدول ، إما إلى فارس أو العراق ، وهكذا قام صراع بين العراق وفارس ، وكانت فارس من أملاك شرف الدولة ابن عضد الدولة الأكبر ، واشتبك صمصام الدولة مع أخيه وقد أسفر هذا عن انتصار شرف الدولة ودخوله إلى بغداد في سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م حيث اعتقل صمصام الدولة وأرسله إلى احدى القلاع مع أمر بتكحيله وفي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م توفي شرف الدولة فخلفه في منصبه أخوه ابو نصر فيروز بلقب بهاء الدولة (٢) ، وكان أول ما واجهه هو عصيان الجند ومطالبتهم بالمال ، فاستطاع أن يتغلب على هذه الأزمة ويقوي مركزه حتى استطاع أن يحتفظ بمنصبه لمدة أربع وعشرين سنة ، من سنة توليه حتى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠٢٢ م حيث توفي .

وليس في عهد بهاء الدولة حوادث مثيرة ، إنما تميز بالاستمرارية ، فقد بدأ

مسكويه : ١-٢/٣٨٠ - ٤١٧ . المنتظم : ٣٨/٧ - ١١٨ . ابن خلدون : ٩٤٧/٤ - ٩٧٥ .

٢ - المنتظم : ١٣٣/٧ - ١٥٠ . ذيل تجارب الامم : ٥٣/٣ - ١٧٥ . ابن خلدون : ٩٨٣/٤ - ٩٨٥ .

بصراع اسروي ، وشهد زوال الأسرة السامانية في المشرق وقيام الامبراطورية الغزنوية .

وبعد وفاة بهاء الدولة خلفه ابنه أبوشجاع سلطان الدولة ، وقد وقع منذ بداية حكمه تحت نفوذ عدد من الموظفين استأثروا دونه بجميع السلطات، وأتاح هذا الفرصة أمام أخيه شرف الدولة ، حيث انترع لنفسه بعض الأملاك وتطلع نحو بغداد ، وقام صراع بين الأخوين ، وقد أوقف هذا الصراع سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م باقتسام الدولة بينهما ، ونتيجة لذلك صار العراق لشرف الدولة ، وفارس وكرمان لسلطان الدولة ، وتحرك شرف الدولة نحو بغداد فاستقبله الخليفة ، وكان من حسن حظه أن توفي سلطان الدولة في سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، لكنه لم ينعم طويلا بمنصبه إذ داهمه الموت بعد سنة في ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م . وبات الآن مصير اختيار الأمير الجديد بيد الجيش الذي كان قد صار معظم عناصره مرة أخرى من الأتراك (١).

واحتار الفرقاء في أمر اختيار أمير جديد بين اثنين هما جلال الدولة أخو شرف الدولة وأبو كاليجار بن سلطان الدولة ، وبعد طول خلاف واضطراب وفتن اختير جلال الدولة فاستدعي من البصرة ، وعندما قرب من بغداد خرج الخليفة لتلقيه فدخل بغداد سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ حيث نصب سيداً جديداً للخلافة والخليفة ، وبقي في منصبه هذا حتّى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م حيث توفي ، وكان جلال الدولة شبه ألعوبة في يد جند بغداد خاصة الأتراك منهم، وفي زمنه بدأت منطقة المشرق تشهد تحولات جديدة وخطيرة في القوى بظهور الغُزّ على مسرح الأحداث في خراسان .

وبعدما توفي جلال كان ابنه الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط ، فكاتبه الجند الأتراك واستدعوه إلى بغداد شارطين عليه دفع مبالغ كبيرة من

---

١ – المنتظم : ١٧/٨ ، ٢١ – ٢٤ . ابن خلدون : ١٠٠٤/٤–١٠١٣ .

المال كثمن لبيعته ، ولم يستطع الملك العزيز تلبية مطالبهم ، فتحرك أبو كاليجار صاحب الأهواز نحو بغداد . واستطاع شراء موافقة الجند ، وبعدما دخل بغداد سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م استحصل من الخليفة على أمر تفويضه بأمور سلطات الخلافة ولقب الملك الرحيم ، وأعطاه الخليفة هذا اللقب بعد تردد ، لأن الله تعالى هو الملك الرحيم ولا يجوز لإنسان أن يتسمى باسم من أسماء الله. وكان الملك الرحيم آخر حكام الأسرة البويهية في بغداد ، حيث دخل في زمنه الغز إلى العراق وأقاموا السلطنة السلجوقية ، وكانت سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م آخر سني الملك الرحيم والدولة البويهية ، وسنذكر الغُزّ ، وإقامتهم للدولة السلجوقية في الفصل المقبل (١) .

لقد حكم خلال العصر البويهي خمسة خلفاء هم : المستكفي ، المطيع ، الطائع ، القادر ، وأخيراً القائم ، وكان الخلفاء في هذا العصر قد جردوا من كل شيء إلاّ ألقابهم ، ولقد تعرضوا للاهانة ، وكان حكام بني بويه يرون في الخلفاء العباسيين جماعة مغتصبين للخلافة ، ولم يبق البويهيون على هؤلاء الخلفاء إلا للتمويه ولتسيير الأمور ، وشعر البويهيون بقوة مكانة الخلفاء الدينية لدى شعب العراق ، لذلك حرصوا على اظهار الطاعة لهم أمام الجمهور وفي المواسم الدينية .

ولقد حرص البويهيون على القيام ببعض الإصلاحات في العراق وغيرها خاصة في ميدان الري والزراعة ، وكانت الدولة دائماً بحاجة إلى مزيد من المال ، لذلك لجأ بعض البويهيين إلى منح الجند اقطاعات من الأرض لاستغلالها ، فكان هذا بداية قيام الاقطاع العسكري الذي سيتطور في العصر التالي تطوراً كبيراً ، ويصبح أحد ركائز العمل الزراعي ، وأدى قيام الاقطاع العسكري إلى تحكم الجند بالأراضي وبزراعتها وانصرافهم عن مهنتهم الأصلية ، ثم إن الجند كانوا يستغلون كل موارد الأرض ، ولم يدفعوا شيئاً يذكر لخزانة الدولة ، مما أدى الى العجز المالي للدولة وتقوض النظام السياسي والاقتصادي .

---

١ – المنتظم : ٨/١٦٢ – ١٦٦ . ابن خلدون : ٤/١٠٤٠ – ١٠٤٤ .

واتسم الحكام البويهيون بعد عضد الدولة بقلة التجربة ، وانعدام الحنكة والمقدرة السياسية والادارية ،والانغماس باللهو واللعب ، ونجم عن هذا تضاعف الاضطراب والفوضى . ولقد ارتكب البويهيون خطأ كبيراً حين أكثروا من استخدام العناصر التركية وغيرها في جيوشهم ، فكان أن خرج الأمر من أيديهم ، ووجد صراع دائم بين عناصر الجيش وأسلحته ، وأضعف هذا الصراع الجيش ومنعه عن القيام بوظيفته في المحافظة على وحدة الدولة وحماية حدودها ، ولقد أهملت الجبهة البيزنطية زمن البويهيين اهمالا شديداً ، وترك أمرها لأهل الثغور وللدولة الحمدانية في حلب ، وكانت بيزنطة في هذا العصر قد عاشت فترة انتعاش وقوة ، لذلك استطاعت قواتها أن تستولي على مناطق كبيرة من الثغور وتحتل أنطاكية وتدخل حلب ، وتحاصر دمشق وتدمر وحمص وتتجول في بلاد الشام بدون معارضة تقريباً .

ولقد كانت السياسة البويهية الدينية غير موفقة ، فلقد تعصبوا للشيعة ، وأدى هذا إلى احداث الفرقة بين صفوف الشعب ، فتدمرت الوحدة الوطنية للأمة ، وعاش الناس في صراع مذهبي مستمر .

وشهد عصر بني بويه تحولات اجتماعية كبيرة وتغييرات اقتصادية ، فازداد الفقر وانعدام الأمن بين صفوف الغالبية العظمى للشعب ، فنجم عن ذلك قيام بعض الحركات الاجتماعية كان أبرزها في العراق حركة العيارين ، ووسم معظم المؤرخين العيارين باللصوصية وحب الفوضى والفساد ، لكن عندما يتفحص المرء هذه الحركة يلاحظ أنها كانت وليدة الفوضى السياسية والظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي ، وأنها ابتغت العدالة والمساواة وعدم الاستغلال ، وواضح في سير كثير من رجالات العيارين صفات الرجولة والانسانية ، ويبدو أنه قد كان لحركة العيارين صلة قوية بحركة الفتوة ، الحركة التي ازدهرت في العصور الأخيرة للدولة العباسية (١) .

---

١ ــ ان كتاب المنتظم أفضل مصدر فيه أخبار الفتن الدينية للعصر البويهي مع نشاط العيارين وأعمالهم ، فلينظر .

الفصل الثالث

عصر السلطنة السلجوقية

العرب والترك

سكنت السهوب الواقعة وراء نهر جيحون من قبل شعوب بدوية كان معظمها من الترك أو المغول ، ولقد استطاعت هذه الشعوب أن تقيم خلال فترات التاريخ الطويلة عدداً من الامبراطوريات ، كما هاجرت مجموعات منها إلى الشرق الأدنى وإلى أوروبة ، وأحدثت هذه الهجرات تأثيرات كبيرة للغاية على شعوب العالم القديم والوسيط وبلدانها .

دولة الخزر

وبعد قيام الاسلام اصطدم العرب بالترك على جبهتين : جبهة ما وراء النهر ، وجبهة الخزر وراء أرمينية ، وكان للخزر امبراطورية كبرى على رأسها حاكم بلقب خاقان ، ولقد كان الصراع مع الترك أقسى صراع لاقاه العرب ، وكانت جبهة الخزر أعنف جبهة قاتل عليها العرب ، وقام حكام الخزر في القرن الثامن باعتناق اليهودية ، فغدت امبراطوريتهم امبراطورية يهودية بقيت حية حتى القرن الثالث عشر حيث قضى عليها نهائياً الروس ، ولقد حمت امبراطورية الخزر هذه أوروبة وصانتها من دخول العرب إليها ، كما أن يهودها قد تفرقوا في أنحاء أوروبة بعد القضاء عليها ، فاندمجوا مع بقايا يهود أوروبة ، فكثر عدد هؤلاء ، وعلى هذا فغالبية يهود أوروبة أصلهم خزري وليس بسامي أبداً .

التركمان

ولقد كان من جملة القبائل التركية التي خضعت للامبراطورية الخزرية قبائل الغُزّ ، وفي نهاية القرن الثامن انفصل الغُزّ عن هذه الامبراطورية وأصبح لهم زعامتهم الخاصة ، ولقد دعا العرب الغز أحياناً باسم التركمان ، وأخذوا منذ القرن العاشر بالاكثار من استعمال هذا الاسم ، بحيث أصبح التركمان كأنما هم

اتحاد عدد من القبائل الغزّية ، ربما كانت اثنتان وعشرون ، وكانت قبيلة قنق أكثر هذه القبائل قوة وشهرة ، وبرز من هذه القبيلة مقاتل اسمه دُقاق ، وقد وصل دقاق إلى مرتبة الزعامة ، وولد له مولود سماه سلجوق ، ولقد ولد لسلجوق أربعة أولاد عاش منهم ثلاثة هم : ميكائيل ، وموسى ، وأرسلان .

وفي أواخر القرن العاشر سار دُقاق على رأس أصحابه نحو البلدان الاسلامية فاعتنق الاسلام ، وتورط في أعمال تصفية الامبراطورية السامانية ، وفي صراعات منطقة ما وراء النهر ، وأثناء هذه الصراعات قامت بعض العلاقات بينهم وبين الامبراطورية الغزنوية ، وأخذت جموع كبيرة من التركمان بالهجرة من منطقة ما وراء النهر إلى داخل الأراضي الغزنوية ، ودخلوا في خدمة هذه الدولة ، وبنفس الوقت سببوا الكثير من القلاقل والمشاكل لها ، واستطاع محمود الغزنوي أن يحد من نشاط التركمان وخطرهم (١) .

وكثر عدد التركمان في خراسان ، وتفجرت أزمتهم زمن مسعود بن محمود ، ولم يستطع مسعود انهاء مشكلتهم ، وقامت بين التركمان وبين جيوش الدولة الغزنوية معارك كبيرة كانت معظمها لصالح التركمان ، وخلال الصراع الطويل كثر عدد التركمان في خراسان وازدادت هجرتهم ، وصارت زعامتهم إلى ثلاثة من أبناء الأسرة السلجوقية : طغرل بك ، وجغري بك والبيغو .

واستطاع التركمان خلال هذا الصراع الطويل انتزاع خراسان كلها من

---

١ - تاريخ بخارى : ١٣١ - ١٣٣ . تاريخ البيهقي : ١٢ - ١٤١ ، ٤٣٧ . ابن فضلان : ٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ . الكاشغري : ٢/٢٤ - ٣/١١٧ . صورة الارض لابن حوقل : ٣٨٧ . المقدسي : ٢٧٤ . بغية الطلب ، احمد الثالث ، ٣/٢٧٩ - ٢٨٦ . ابن الاثير : ٨/٧٢٢ - ٣٣٧- ٣٩ ، راحة الصدور : ١٤٥ - ١٥٤ . الحسيني : ١ - ٣ .

The Ghaznavids P.P. 210–214.

Turkestan : 274–302, The Cambridge history of Iran : V, 11–20

أيدي الغزنويين خاصة بعدما أوقعوا هزيمة نكراء بمسعود في معركة دندانقان وذلك في سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م وقامت أثناءها صلات بينهم وبين الخلافة في بغداد ، وأخذ السلاجقة بعد انتزاعهم لخراسان يستعدون للزحف على بغداد، وكان من أهدافهم فتح الطريق إلى أرمينية فبلاد الامبراطورية البيزنطية حتى تهاجر جموع التركمان إليها (١) .

طغرلبك وإقامة السلطنة السلجوقية

وبعدما انتزع التركمان خراسان من الغزنويين صارت زعامتهم إلى طغرل بك، وكانت بغداد تعيش في هذه الآونـــة صراعاً بين وزير الخليفة ، وكان اسمه ابن المسلمة ، وقائد الجيش البويهي وكان اسمه أرسلان البساسيري ، وكان من أصل تركي ، وتطلع ابن المسلمة أثناء هذا الصراع نحو طغرلبك ودعاه للقدوم إلى بغداد ، كما اتصل البساسيري بالخلافة الفاطمية ، وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م دخل طغرلبك إلى بغداد ، واحتاج طغرلبك إلى بعض الوقت لتصفية الدولة البويهية ، وإقامة دولة جديدة مكانها .

وأثناء ذلك قام انشقاق بين التركمان ، وأدى تصدع صف التركمان والحرب الداخلية بينهم إلى انسحابهم من العراق ، واستغل البساسيري هذه الفرصة فانحدر نحو بغداد ، فدخلها سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فاستطاع قتل ابن المسلمة وألقى القبض على الخليفة العباسي ، وأودعه في سجن عانة عند أحد البداة ، وفي نفس الوقت أعلن انتهاء الخلافة العباسية ، وحلول الدعوة الفاطمية مكانها.

ولقد بقي البساسيري سيداً لبغداد لمدة سنة ، انتهت خلالها الحرب بين التركمان لصالح طغرلبك ، فعاد على رأس قواته نحو العراق ، حيث هزم البساسيري وقتله ، وأعاد الخليفة العباسي إلى منصبه ، ومن ثم انصرف إلى ارساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، ولقد نجم عن قيام العهد الجديد نتائج

---

١ ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٤٥ ـ ٦٤ .

على غاية من الخطورة ، فقد طويت صفحة من تاريخ العرب والاسلام وبدأت واحدة جديدة ، ويمكن اعتبار سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م سنة حاسمة في تاريخ الاسلام فكرياً وحضارياً وعقائدياً . فلقد كان التركمان سنة متعصبين لسنتهم ، وكانوا يعتمدون على العنف والقمع والتهديد في سبيل إعادة الناس إلى السنة وترك التشيع ، فلقد حل التعصب محل التسامح في العصر السلجوقي ، وأغلق باب الاجتهاد في الفكر الاسلامي ، وبدأ الفكر بالتجمد وحل التقليد محل الابداع .

وبعدما عاد طغرلبك إلى بغداد ، وقام بإحياء الخلافة العباسية ، شعر أنه لم يبق أمامه إلا إخضاع الشام ومصر ، وقبل أن يأخذ في الإعداد لذلك رأى أن يرفع من مكانة نفسه ، فقابل الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، فمنحه لقب سلطان ، وذلك لأول مرة في تاريخ الإسلام ، وطلب من الخليفة أن يزوجه ابنته .

ولقد رأى الخليفة أن من الصعوبة الاستجابة لذلك ، فلقد كان الخليفة برغم خوفه من طغرلبك ورهبته — يرى فيه عبداً من عبيد الخلافة ، أعجمياً لا يمت إلى العروبة بنسب ، وبدوياً شبه متوحش جديد على الحضارة ، وكان فوق هذا قد جاوز السبعين ، في حين أن ابنته لم تتجاوز العشرين . وبعد وعود وتهديدات واسعة استجاب الخليفة مكرهاً لطلب طغرلبك ؛ وأراد الخليفة أن تتم مراسيم الزواج تبعاً للعادات الاسلامية ، فرفض طغرلبك ، وأقيمت المراسم تبعاً للعادات التركية ، لكن طغرلبك لم ينعم طويلا بزواجه من ابنة الخليفة ، فبعد ثلاثة أشهر أو أربعة توفي دون أن يخلف ولداً يصبح سلطاناً من بعده ، وكان ذلك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١) .

سلطنة ألب أرسلان

وبعدما توفي طغرلبك ، برزت مشكلة خلافته إلى الوجود ، غير أن هذه

---

١ — مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٦٠ — ١٢٤ .

المشكلة حسمت بتولي ألب أرسلان ابن أخيه جغري بك السلطنة ، ويعد ألب أرسلان من أعظم الحكام السلاجقة ، وهو مع ابنه ملكشاه كانا أعظم سلاطنة بني سلجوق على الاطلاق .

ولقد توطدت دعائم الامبراطورية السلجوقية زمن ألب أرسلان ، وانساح التركمان في أراضي الامبراطورية البيزنطية ، ومنها دخلوا إلى الشام ، وسبب التركمان لأراضي بيزنطة خراباً عظيماً ودماراً مريعاً ، مما دفع أباطرة هذه الدولة للعمل على ايقاف التركمان ومنعهم من غزو أراضيها ؛ وأرادت اغلاق حدودها في وجههم باحتلال بعض المواقع الحصينة داخل الأراضي العربية ، وقام الامبراطور رومانوس دايجينوس بقيادة ثلاثة حملات وذلك في السنوات ٤٦١ – ٤٦٣ هـ / ١٠٦٨ – ١٠٧١ م .

وفي سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م تحرك السلطان ألب أرسلان على رأس جيش كبير للغاية نحو حلب يريد احتلال بلاد الشام ومن ثم التحرك نحو مصر، ولقد أخفق ألب أرسلان في احتلال حلب بعدما حاصرها لمدة طويلة ، فقرر العودة شرقاً إلى خراسان ، وقرر عدم متابعة طريقه نحو مصر ، وفي طريق العودة سمع ألب أرسلان بتحرك جيش بيزنطي عظيم على رأسه الامبراطور نفسه يريد إغلاق طرق أرمينية ومنع التركمان من الدخول إلى الأراضي البيزنطية ، وعندما سمع ألب أرسلان بذلك انحرف مع قواته نحوه واصطدم به في مناز كرد قرب بحيرة وان ، وفي مناز كرد قامت معركة فاصلة بين جيوش بيزنطة وجيوش ألب أرسلان ، ولقد تحطمت قوات بيزنطة العسكرية في هذه المعركة،ووقع الامبراطور أسيراً ،فكان أول امبراطور بيزنطي يأسره المسلمون ولقد مكنت هذه المعركة التركمان من الانسياح بحرية في آسية الصغرى ، وكذلك بلاد الشام وكانت بداية تحول بيزنطة إلى تركية ، ولقد أطلق السلطان سراح الامبراطور وعاد شرقاً (١) .

---

١ – مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ١٣٨ – ١٥١ .

وانشغل ألب أرسلان بعد هذا في العمل في الشرق داخل خراسان وفي منطقة ما وراء النهر وأثناء عمله هناك لقي مصرعه وكان ذلك سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م(١).

سلطنة ملكشاه

وبعدما توفي السلطان ألب أرسلان ولي عرش السلطنة بعده ابنه ملكشاه ، ويعتبر هذا السلطان آخر عظماء سلاطنة السلاجقة، ولقد كانت إدارة الدولة زمن كل من ألب أرسلان وابنه في يد وزيرهما نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ، وكان نظام الملك من أعظم رجالات الادارة والسياسة في تاريخ الاسلام، ومن الجدير ذكره أن الوزارة قد عادت إلى الازدهار زمن السلاجقة، وذلك بعدما انحط شأنها بعد قيام نظام امرة الأمراء واستيلاء الأسرة البويهية على مقاليد الأمور في بغداد . ويرى البعض أن الأمبراطورية السلجوقية تدين بعظمتها إلى وزيرين هما الكندري ، وزير طغرلبك ، ونظام الملك وزير ألب أرسلان وملكشاه ، وبعدما اغتيل نظام الملك في سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، إنهار صرح الامبراطورية السلجوقية ، فتوفي ملكشاه وتفتت الامبراطورية السلجوقية بعده إلى عدة دول متصارعة (٢) .

ولقد بلغت الامبراطورية السلجوقية غاية اتساعها وعظمتها زمن ملكشاه ، فلقد دانت له بالإضافة إلى خراسان والعراق بلاد الشام كلها مع مناطق من آسية الصغرى، وفي زمنه استطاع التركمان الانسياح في بلاد الشام ، فتمكنوا من اعمال التدمير والخراب فيها بشكل مريع للغاية ، مما كان له كبير الأثر في نجاح الصليبيين عندما وصلوا إلى مشارف الشام سنة ١٠٩٨ م (٣) .

---

١ – انظر ترجمة الب ارسلان في ملاحق كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٧٨ – ٢٩٣ .

٢ – انظر ترجمة نظام الملك في ملاحق كتاب مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٣٤٩ – ٣٧٣ .

٣ – مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ١٢٥ – ٢٠٦ .

ويلاحظ المرء أن الخلفاء العباسيين عادوا إلى التحرك نحو استرداد سلطاتهم زمن ملكشاه ، فلقد قام صراع بين السلطنة والخلافة ، وأحب ملكشاه أن يتخلص من وزيره نظام الملك ، كما أراد في ذات الوقت أن يخرج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة ، وتآمرت أطراف النزاع هذه ضد بعضها البعض ، وسقط الوزير نظام الملك أولا، ثم لحقه بعد فترة مسموماً السلطان ملكشاه في ٦ شوال ٤٨٥ هـ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢ م ، وأخيراً لم تطل أيام الخليفة — وكان لقبه المقتدي— بعد ملكشاه حيث توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م « فجأة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة أشهر » .

سلطنة بركيا روق

وعندما مات ملكشاه كان عمره « ثمان وثلاثون سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرون يوماً » . وقد خلف عدداً من الأولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر ، وقام صراع بين السلاجقة من أجل خلافة ملكشاه ، واحتضنت كل فئة من التركمان وحزب ، أحد الصبية وجهدت — باسمه — من أجل السيطرة على الامبراطورية (١) .

وتم في البداية اعلان محمود الابن الاصغر لملكشاه سلطاناً جديداً ، وقام صراع بين تركمان خراسان رجحت فيه كفة بركيا روق الابن الأكبر لملكشاه ، وأثناء هذا الصراع قام تتش ، أخو ملكشاه وحاكم دمشق بإعلان نفسه سلطاناً ، وتحرك نحو خراسان ، وبعدما حقق بعض النجاح لقى مصرعه في سنة ١٠٩٥ م في معركة خاضها ضد ابن أخيه بركيا روق (٢) .

ولم تطل أيام سلطنة بركيا روق حيث توفي سنة ٤٩٨ هـ / ١٠٦٤ ، وتميز عهده بدوام الحرب الأهلية بين التركمان ، وبانفراط عقد وحدة الدولة السلجوقية وتمزقها إلى عدة دول ، ثم بدخول الصليبيين إلى بلاد الشام وبنجاحهم في احتلال أجزاء كبيرة منه .

---

١ — مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٢١ .
٢ — نفسه : ٢٢١ — ٢٣٢ .

سلطنة محمد طبر

وبعدما توفي بركيا روق تقرر منصب السلطنة لأخيه محمد طبر ، وكان محمد هذا قد صارع بركيا روق على السلطنة ، وتدخل في الصراع أخ ثالث لهما عرف بسنجر ، وقبيل وفاة بركيا روق تم الاتفاق بين الأخوة الثلاثة على أن تكون خراسان ومنطقة ما وراء النهر إلى سنجر ، وأن يكون العراق لبركيا روق ، وبلاد الشام والموصل وبعض المناطق الأخرى لمحمد طبر ، وحمل كل واحد من الثلاثة لقب سلطان ، وأصبحنا الآن نرى بين السلاجقة نوعين من السلطنة : سلطنة عظمى تسيطر على الخلافة في بغداد ، وسلطنة أدنى يسيطر صاحبها على بعض المناطق ، ويدين بالطاعة الاسمية للسلطان الأعظم .

وليس في عهد السلطان محمد طبر ما يميزه على سواه ، سوى أنه انشغل في حل المشاكل الداخلية ، خاصة مشكلة الحشيشية ، الفرقة الاسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح ، فاستولت على عدد من القلاع الحصينة على رأسها ألموت ولمسر ، وباشرت تمارس الاغتيال السياسي ، ولقد جرد طبر عدة حملات ضد الحشيشية ، لكن جميع هذه الحملات لم تأت بنتيجة حاسمة وتوفي السلطان محمد طبر سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، وبعد وفاته تجدد الانشقاق بين التركمان وقام صراع من أجل خلافته (١) .

سلطنة سنجر

لقد أوصى السلطان محمد طبر بولاية عهده إلى ابنه محمود ، وكان عندما توفي أبوه في الرابعة عشر من عمره ، ووافق الخليفة المستظهر بالله العباسي على ذلك، لكن السلطان سنجر صاحب خراسان وجد أن من حقه أن يعلن سلطاناً أعظم للسلاجقة وأن يعترف به الخليفة، فقام ونازع ابن أخيه وأعلن نفسه سلطاناً على جميع السلاجقة ، وسبب اعلانه هذا وقوع الحرب بينه وبين محمود ، ولقد

---

١ – الحسني : ٧٩ – ٨٤ . العماد الاصفهاني : ٨١ – ١٠٦ . الراوندي : ٢٣٤ – ٢٥٥ . الحشيشية : ٦٨ – ٨٣ .

هزم سنجر جيوش محمود ، ثم استقبل ابن أخيه وعفا عنه وعينه نائباً له في العراق وعاد إلى خراسان حيث شغل نفسه هناك لمدة تزيد على الأربعين عاماً .

وتأثر سنجر ومملكته بأحوال الصين آنذاك ، فقد تخلصت الصين من حكم سلالة لياو Liaeo التي كانت من شعوب الخطا التركية ، وتحرك الخطا غرباً مغادرين للصين فضغطوا على سواهم من قبائل الترك في منطقة ما وراء النهر ، وهكذا تهددت أملاك سنجر في هذه المنطقة ، وكانت القبائل التي هددت أملاكه من الغز والقرلق ، وفي سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م هزم هؤلاء السلطان سنجر في معركة قرب سمرقند ، واستمر الصراع بين سنجر وهذه القبائل بعدما نزلت في مناطق من خراسان ، وتمكن الغز من هزيمة سنجر وأسره سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م ، وقد بقي سنجر في أسرهم مدة ثلاثة سنوات هرب بعدها ، ووصل إلى مرو حيث توفي بعد قليل في سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م[١] .

وبموت سنجر انتهى عصر مهم من تاريخ الدولة السلجوقية ، فلقد تفتتت السلطنة إلى عدة سلطنات ودول أتابكية كان أشهرها : دولة سلاجقة العراق ، ودولة سلاجقة الروم ، ودولة سلاجقة كرمان ، وأشهر الدول الأتابكية : أتابكية الموصل ، وأتابكية الشام ، وأتابكية سنجار ، وأتابكية الجزيرة .

نتائج قيام السلطنة السلجوقية

لقد استطاع السلاجقة تأسيس امبراطورية واسعة ضمت لأول مرة منذ أمد بعيد أجزاء من الأرض لم تعرف الطاعة للعباسيين منذ عهد حكم الخلفاء . ولقد كان السلاجقة مسلمين سنة ، ولقد احتفظوا بالخلفاء كحكام اسميين ، لكن قيام الامبراطورية السلجوقية قد قوى الخلافة وبعث الحياة فيها ، فلقد امتد نفوذ الخليفة — ولو كان اسمياً — على مناطق جديدة ، كما أن محاربة السلاجقة للشيعة قد قوى من مركز الخليفة العباسي السني .

---

١ — الحسني : ٨٤ — ٩٦ . الراوندي : ٢١٤ — ٢٩٩ . العماد الاصفهاني : ٢٢٠ — ٢٥٧ . ابن الاثير : ٣١/٩ — ٤١ ، ٥٠ .

وكان لقب السلطنة الذي أطلقه حكام السلاجقة على أنفسهم تطوراً لمنصب أمرة الأمراء ، واستمر استعمال هذا اللقب فيما بعد من قبل الحكام وأصحاب السلطة دون الخلفاء . ولقد اعتمد السلاجقة في حكمهم وإدارتهم على طبقة من الاداريين الفرس ، وكانت تقاليد السلطة عندهم مزيج من التقاليد التركية والفارسية التي نمت زمن الدولة السامانية ثم الدولة الغزنوية بعدها .

ولقد تطور نظام الاقطاع العسكري زمن السلاجقة ، كما وجد لديهم نظام الأتابكية ودول الأتابكة ، فلقد كان من عادة سلاطين السلاجقة الزواج من أكثر من امرأة ، ولما كان الاسلام لا يسمح بالجمع بين أكثر من أربع حرائر ، ثم لوجود عدد من الضباط سادة العشائر التركمانية بين حاشية السلطان ، فقد كان السلطان يقوم بتطليق بعض زوجاته ويمنح المطلقة إلى أحد أمرائه ويعهد إليه بتربية ابنه منها ، ويصبح الأمير عند قيامه بهذا العمل أتابكاً ، ولفظة أتابك مؤلفة من كلمتين : اتا – وبك ، وتعني أتاعم أو أب وتعني بك أمير ، فالأتابك هو الأمير العم ، وأسس بعض الاتابكة دولا كان أشهرها دولة أتابكة الموصل التي أقامها عماد الدين زنكي والتي اشتهر منها ابنه نور الدين رجل الحروب الصليبية الأول .

ولقد أحدثت هجرة التركمان إلى ايران والعراق والجزيرة والشام تأثيراً بشرياً واجتماعياً كبيراً ، فلقد أزالت الهجرة طبقات الارستقراطية المحلية وأحلت محلها طبقات تركية جديدة ، كما أن الهجرة جلبت أعداداً وفيرة من الترك ، ولقد اختلط الترك بسكان المنطقة المحليين أو طردوهم ، وأدى هذا إلى ردود فعل كبيرة تجلت في عدة مظاهر كان أبلغها وأخطرها حركة الحشيشية ، وهي حركة أسسها حسن الصباح بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر في سنة ١٠٩٤ م ، فلقد انقسمت الدعوة الفاطمية بوفاته إلى قسمين ، قسم أيد نزار كبير أولاد المستنصر ، وقسم آخر أيد المستعلي ثاني أولاده ، ولقد عين المستعلي على عرش القاهرة وقتل نزار في الاسكندرية ، وكان حسن الصباح ممن خرج على المستعلي وقال بإمامة نزار ، واستطاع حسن الصباح أن يستولي على عدد من

القلاع الحصينة ، ومارس الاغتيال السياسي كوسيلة للقضاء على الخلافة السنية وعلى دول السنة .

وعلى الرغم من قيام حركة الحشيشية فلقد عجل قيام الدولة السلجوقية في انتعاش الفكر السني وإعادة سيطرته على العالم الاسلامي بعد ما كان واقعاً تحت نفوذ الشيعة ، وانحسر النفوذ الشيعي وتقلص في كل مكان ، وأدى الانتعاش السني مع تفتت السلطنة السلجوقية إلى انتعاش مؤسسة الخلافة وأخذ خلفاء بني العباس يعملون من أجل التحرر من نفوذ السلاجقة ، وخاضوا في هذا السبيل عدة معارك سياسية وحربية واجتماعية ، وحقق العباسيون نجاحات كبيرة في هذه الميادين ، وبرز هذا خاصة في عهد الخليفة الناصر لدين الله [٥٧٥ — ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ — ١٢٢٥ م] ، فلقد شجع هذا الخليفة حركة الفتوة وأراد أن يجعل من مبادىء هذه الحركة رابطاً يوحد ممالك الدولة العباسية (١) . كما أن هذا الخليفة قام بأعمال كثيرة في سبيل تقوية دولته ودخل في تحالفات داخلية وخارجية .

انهيار الدولة العباسية وسقوط بغداد

وفي زمن الناصر شهدت منطقة سهوب ما وراء النهر تحركات جديدة ، فلقد استطاع الأمير المغولي تموجين توحيد صفوف قومه وأخضع لسلطانه قبائل التتر ، وأبدع لشعبه نظاماً وشريعة جديدة عرفت بالياسا ، وبعد ما صار سيداً لشعوب سهوب ما وراء النهر أطلق على نفسه لقب جنكيزخان .

واستطاع جنكيزخان في فترة وجيزة أن يقيم امبراطورية واسعة للغاية واصطدم أثناء تأسيسه لأمبراطوريته بدولة خوارزم شاه المسلمة فحطمها ، وبعدما احتلت جيوشه سنة ١٢٢٠ م بخارى وسمرقند ، عبرت هذه الجيوش النهر وأخذت تحتل بلاد خراسان وتشق طريقها نحو العراق بسرعة مخيفة .

---

١ — انظر كتاب الفتوة لابن المعمار الحنبلي .

وتوفي جنكيزخان سنة ١٢٢٧ م ، وبعد ثلاث سنوات من موته استأنف المغول زحفهم المدمرالمحرق نحو العراق،واستطاعوا أثناء هذا الزحف احتلال جميع قلاع الحشيشية ، وتحطيم دول السلاجقة وقواهم ، وفي سنة ١٢٥٨ م حاصر المغول بغداد ، وأخفق الخليفة المستعصم في الدفاع عن عاصمته فسلم نفسه لهولاكو قائد المغول ، فقتله مع معظم أفراد أسرته ، ودخل المغول بغداد فأتوا على الخلافة العباسية وأرادوا أن يزيلوا معظم تراثها وآثارها .

وبعد بغداد تحركت قواتهم نحو بلاد الشام فأخذت حلباً ثم مدينة دمشق وزحفت تريد مصر فصدت على أعقابها في معركة عين جالوت (١) .

* * *

---

1 – The Cambridge Medieval History IV, 659–661.

الباب الخامس

الدول المستقلة عن الخلافة العباسية

الفصل الأول

دور المشرع

مقدمـــة :

عندما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد ، وسيطر الجند عـــلى مقاليد الأمور ، أخذت كثير من مقاطعات الدولة العباسية تنفصل لتقيم دول مستقلة أو شبه مستقلة ، ولقد قام في المقاطعات دول متفاوتة من حيث القوة والحجم والعظمة ، ولقد دان معظمها اسمياً بالطاعة لخليفة بغداد العباسي ، ورفض البعض الآخر الاعتراف به ، ويمكن تقسيم هذه الدول إلى قسمين : الدول التي قامت شرقي دار الخلافة ، والدول التي قامت في غربيّها ، وأشهر دول المشرق هي :

الدولة الطاهرية (٢٠٥ ـ ٢٥٩ هـ / ٨٢١ ـ ٨٧٣ م) ، والدولة الصفارية (حوالي ٢٥٣ ـ ٢٩٨ هـ / ٨٦٧ ـ ٩١٠ م) ، والدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥ هـ / ٨١٩ ـ ١٠٠٥ م) والدولة القراخانية (٣٨٢ ـ ٦٠٧ هـ / ٩٩٢ ـ ١٢١١ م) ، والدولة الغزنوية (٣٦٦ ـ ٥٨٢ هـ / ٩٧٧ ـ ١١٨٦ م) . ودولة طبرستان (٢٥٥ ـ ٣٥٥ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٦٥ م) .

وأشهر دول المغرب تلك التي قامت في الجزيرة ، والشام ، ومصر ، وشمال افريقية ، وأهمها :

١ ـ الدولة الحمدانية في الموصل : (٢٩٣ ـ ٣٨٩ هـ / ٩٠٥ ـ ٩٩٨ م) وفي حلب (٣٣٣ ـ ٣٩٤ هـ / ٩٤٥ ـ ١٠٠٤ م) والدولة المروانية في ميافارقين وديار بكر (٣٧٢ ـ ٤٧٨ هـ / ٩٨٣ ـ ١٠٨٥ م) ، والدولة العقيلية في الموصل (٣٨٠ ـ ٤٨٩ هـ / ٩٩٠ ـ ١٠٩٦ م) والدولة المرداسية في حلب (٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ / ١٠٢٣ ـ ١٠٧٩ م) .

٢ ـ والدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) ثم الدولة الاخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) ثم الدولـــة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٠٩ ـ ١١٧١ م) .

٣ ــ والدولة الزنكية في الموصل وبلاد الشام (٥٢١ ــ ٦١٩ هـ / ١١٢٧ ــ ١٢٢٢ م) ثم الدولة الأيوبية (٥٦٤ ــ ٦٥٠ هـ / ١١٦٩ ــ ١٢٥٤ م).

٤ ــ الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ ــ ٤٢٢ هـ / ٧٥٦ ــ ١٠٣١ م)، والدولة الادريسية (١٧٢ ــ ٣١٤ هـ / ٧٨٩ ــ ٩٢٦)، ودولة الأغالبة، (١٨٤ ــ ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ ــ ٩٠٩ م) ودولة المرابطين ٤٤٨ ــ ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ ــ ١١٤٧ م)، ودولة الموحدين (٥٢٤ ــ ٦٦٧ هـ / ١١٣٠ ــ ١٢٦٩ م).

الدولة الطاهرية

أسس هذه الدولة طاهر بن الحسين في خراسان، وهو فارسي الأصل قام بدور رئيسي في الصراع الدموي الذي نشب بين الأمين والمأمون. فقد كان على رأس الجيش الذي قضى على جيش الأمين ودخل بغداد ظافراً، ممهداً لعودة المأمون إليها، ورغم تقدير هذا الأخير لجهود طاهر في استعادة حقه بالخلافة، إلا أنه على ما يظهر خشي طموحه السياسي وحاول ابعاده عن خراسان (١) تلك الولاية التي كانت دائماً تستأثر باهتمام أصحاب الطموح في الدولة. وظل طاهر يتطلع إلى خراسان وحدها دون بقية الولايات والمناصب حتى حظي بها أخيراً.

وما لبثت شكوك المأمون بقائده أن أصبحت يقيناً بعدما رآه من نزوعه إلى الاستقلال حتى أنه أسقط اسم الخليفة من الخطبة، ولكن موته المبكر حال دون تحقيق ما سعى إليه وهو الانفصال عن السلطة المركزية. على أن ذلك لم يمنع استمرار أسرته في الحكم لأنها كانت تتمتع بنفوذ قوي في تلك الجهات، فقامت بذلك دولة وراثية شبه مستقلة عرفت بالدولة الطاهرية.

---

١ ــ د. عبد العزيز الدوري : دراسات في العصور العباسية المتأخرة ١٠٨.

ولكن هذه الدولة برغم نزعتها الاستقلالية ، ظل حكامها يدينون بالولاء التام للخلفاء العباسيين لا سيما عبدالله بن طاهر الذي تمتع بثقة المأمون ، وتعاون باخلاص مع السلطة المركزية ، وفي المقابل لم يتردد الخلفاء في دعم موقف الطاهريين أثناء النزاعات السياسية والعسكرية التي اتخذت من تلك المنطقة مسرحاً لها ، لا سيما نزاعهم ضد الصفاريين ، على أن ذلك لم يكفل للدولة الطاهرية الاستمرار ، فقد سقطت تحت وطأة الثورات العلوية وضغط الصفاريين بعد أن عاشت نحو نصف قرن من الزمن .

الدولة الصفارية

قامت هذه الدولة على أنقاض دولة الطاهريين ، ومؤسسها هو يعقوب بن الليث ، وكان فارسي الأصل ، وقد عرف بالصفاري لاشتغاله كأجير عند أحد الصفارين (١) . وقد ظهر طموحه السياسي منذ أن التحق في الجيش الذي أرسلته الدولة لقتال الخوارج في اقليم سجستان ، فأظهر من الشجاعة ما أوصله إلى قيادة الجيش بعد موت قائده . ثم أخذ يوطد نفوذه في سجستان حتى تمت له السيادة عليها ؛ فضلا عن اخضاعه بعض المدن والمواقع التابعة لخراسان معقل الطاهريين .

وكانت سياسة التودد التي أظهرها يعقوب ازاء الخلافة واتخاذه المناطق الشرقية البعيدة عن مركز الحكم مسرحاً لأعماله العسكرية ، تلقى تشجيعاً من الموفق الرجل القوي في الدولة الذي كان منهمكاً حينئذ بالقضاء على ثورة الزنج ، ولكن ازدياد أطماعه التوسعية باستيلائه على طبرستان في الشمال وفارس وكرمان والأهواز في الغرب أثار حفيظة الخلافة فتنبهت للخطر الصفاري وأبعاده خاصة بعد أن قام يعقوب بضرب ما تبقى من نفوذ الطاهريين في خراسان واحتل عاصمتهم نيسابور في سنة (٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م) .

---

١ – الصفار : الذي يشتغل بالنحاس .

لم يعد هناك ما يسوغ أعمال يعقوب التوسعية ، لذلك صممت الدولة العباسية على التصدي له ، وتحالفت من أجل ضربه مع قوة جديدة كانت قد ظهرت في بلاد ما وراء النهر ، وهي الدولة السامانية . وفي نفس الوقت استعدّ الموفّق لمجابهة يعقوب الذي أعمته الانتصارات عن الاستجابة لتحذيرات الخلافة ومحاولاتها لاسترضائه . تقدم يعقوب بجيوشه باتجاه عاصمة الخلافة ، فخرج الموفق لقتاله مصحوباً بأخيه الخليفة وجرت معركة بينهما عند (دير العاقول) على بعد خمسين ميلا من بغداد[1] هزم فيها الصفاريون هزيمة قاسية في سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) وانسحب يعقوب مع نفر من أتباعه إلى سجستان حيث توفي بعد ذلك بقليل .

خلف يعقوب أخوه عمرو بن الليث ، وكان كأخيه راغباً في التوسع والاستقلال ، ولكنه كان أكثر منه تقديراً للأمور ، فعمل على اكتساب مودة الخليفة الذي استجاب له وعينه والياً على خراسان وسجستان وفارس واصفهان وكرمان . ثم طمع في بلاد ما وراء النهر معقل السامانيين ، وكتب إلى الخليفة بذلك، ولكن الخلافة التي رضيت بمهادنة الصفاريين لانشغالها بأمر الزنج رفضت طلبه وأخذت تشجع الصراع الذي بات انفجاره وشيكاً بينه وبين السامانيين. وما كادت تخرج من أزمتها الداخلية حتى سارعت بارسال جيش لقتال عمرو ابن الليث في فارس ، فانتصر عليه وأجبره على التراجع إلى سجستان ليخوض المعركة الحاسمة مع السامانيين الذين الحقوا بالصفاريين هزيمة ساحقة وقبضوا على ابن الليث وأرسلوه إلى الخليفة .

وهكذا انتهت دولة الصفاريين بعد فترة قصيرة من الزمن لم تتجاوز خمساً وثلاثين سنة على الرغم مما توفر لها من الامكانيات العسكرية والمادية ، ولكن تطرف أصحابها ومعاداتهم للدولة العباسية في وقت كانت تنهض فيه من سباتها وتستعيد قوتها كان من أهم الأسباب التي أدت إلى فشلها وسقوطها بهذه السرعة .

---

١ – الطبري : ٩/٥١٦ – ٥٢٠ .

تنسب هذه الأسرة الى سامان خداه الذي كان في مطلع القرن الثامن للميلاد دهقانا لمدينة بلخ ، ولقد اعتنق الاسلام في مرو — بعد أن فر إليها — على يد أسد بن عبدالله القسري والى خراسان المتوفي في بلخ سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م ، وكان قد أكرم أسد ، سامان خداه «وحماه وقهر أعداءه وأعاد إليه بلخ» ، لذلك لما رزق سامان خداه بغلام اسماه أسداً لمحبته إياه . ولقد خدم أولاد أسد الاربعة الخليفة المأمون العباسي ، الذي كافأهم بأن عين نوحــاً والياً على سمرقند وأحمد على فرغانه ، ويحيى على الشاش ، والياس على هَراة ، وبهذا وطد السامانيون أنفسهم وحصلوا على مكانة طيبة في منطقة ما وراء النهر ، وفي سنة ١٦٣ هـ / ٨٧٥ م قام الخليفة المعتمد بتعيين نصر بن احمد والياً على كل بلاد ما وراء النهر ، وبهذا التعيين قامت الدولة السامانية فعلا، وغدت منطقة ما وراء النهر الغنية قلباً لها ، ولقد أخذ السامانيون على عاتقهم أمر حماية الاراضي الاسلامية من غزوات بداة السهوب الاتراك ، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع ، ونجحوا في تحقيق ذلك بواسطة الدفاع : بإقامة الرباطات في الثغور ، وبواسطة الهجوم : بالقيام بحملات على مناطق الاتراك داخل السهوب ، وبذلك أضعفوا تجمعات الاتراك ومدوا نفوذهم وهيبتهم الى داخل السهوب ، وهكذا أمن السامانيون الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم مما مكنهم بعد ذلك من الالتفات نحو خراسان ، ومنذ القرن التاسع تدفق من أراضي السامانيين سيل من العبيد الاتراك على بغداد وغيرها من مراكز الإسلام وعواصم دياره ، ولقد استخدم غالبية هؤلاء العبيد في جيوش خلفاء بغداد وحكام الدويلات .

وكانت مدينــة بخاري مركز الدولة السامانية ، وفي بلاط السامانيين في بخاري عاشت الثقافة العربية الاسلامية مزدهرة ، ولكن الاهم من هذا هو أن هذا البلاط شهد بعث اللغة الفارسية مع الثقافة الايرانية وأسهم في نموها ، ففي زمن السامانيين بدأ الفردوسي بنظم الشاهنامة ملحمة فارس القومية .

وفي عام ٢٨٧هـ / ٩٠٠ م ربح إسماعيل بن احمد ثقة سلطات بغداد والخليفة وذلك بعد أن هزم عمرو بن الليث الصفار ، لذلك عين والياً على خراسان بالاضافة الى بلاد ما وراء النهر ، وبهذا غدا السامانيون قوة هائلة تحكم اراضي شاسعة تمتد من جهة الى الاراضي والممتلكات البويهية في العراق ومن جهة اخرى الى أطراف افغانستان المتصلة بحدود الهند ، ولما كان السامانيون سنّة وكان البويهيون شيعة ، وبسبب هذا الخلاف في العقيدة مع تضارب المصالح والمطامح بالتوسع فقد كان لا بد من أن تصطدم قوى الطرفين ، وهذا أمر لا يعنينا الحديث الآن عنه هنا .

وفي منتصف القرن العاشر بدأت علامات الضعف والتفتت تظهر على الامبراطورية السامانية ، ولقد بدا هذا في عدد من ثورات وانقلابات البلاط التي قادها بعض القادة العسكريين ، لهذا لم يكن صعباً ان انفصلت خراسان عن سلطة بخاري ، ثم لم يكن صعباً على الغزنويين والقراخانيين الاجهاز على الدولة السامانية ووراثتها : القراخانيون فيما وراء النهر ، والغزنويون في المناطق الاخرى (١) .

الدولة القراخانية

لقد احتلت بخارى عاصمة الدولة السامانية وطُرد منها آخر امير ساماني من قبل بغراخان هارون (أو حسن) الذي كان يعرف بلقب إيلك خان ، ولقد عرفت اسرة هارون باسم الإيلك خانية ، ولكن بما أن الكثير من أفراد هذه الاسرة استعملوا كلمة قره — التي تعني اسود أو شديد القوة — رديفاً لاسمائهم

---

١ — تاريخ بخاري ، ٨٦ — ٨٧ ، ١٠٥ — ١٤٩ ،
Four studies on the History of central Asia 1, 12–13, 21 : Turkestan, 222–45 ; The Cambridge History of Iran, V, 10–11 ; The Ghaznavids, 27–34 : the Islamic Dynasties, 101–102.

فقد اطلق المستشرقون اسم « القراخانية » على هذه الاسرة ، وهكذا فان اسم « القراخانية » إذاً هو اسم محدث بديل للايلك خانية .

لقد ادعى افراد هذه الاسرة انهم من نسل افراسياب البطـــل التّركـــي الاسطوري للشاهنامه ، ولكن يبدو انهم كانوا في الواقع عبارة عن البيت الحاكم لاحدى المجموعات التّركية المعروفة باسم القَرلق ، وهي مجموعة قد قامت بدور هام ومؤثر في التاريخ القديم للتّرك سكان السهوب ، ولقد اعتنق القراخانية الاسلام ، كما يبدو في منتصف القرن العاشر ، وتبنوا اسماء — وحتّى ألقاباً — اسلامية ، ويظهر أن بغراخان جد فاتح بخاري هو أول من اعتنق الاسلام وتسمى باسم عبد الكريم ، ولقد اقام القراخانية بعد قضائهم على السلطة السامانية امبراطورية واسعة سيطرت على أجزاء واسعة من بلاد ما وراء النهر وأقامت هذه الدولة علاقات خاصة بالامبراطورية الغزنوية ، ولقد شكل نهر جيحون الحد الفاصل بين هاتين الامبراطوريتين .

ولقد كانت الامبراطورية القراخانية عبارة عن اتحاد قبلي ولم تك قط دولة مركزية متحدة ، فعلى الرغم من انه كان على رأسها حاكم حمل لقب خان فلقد وجد أحياناً عدد من أفراد الاسرة الحاكمة ادعوا لأنفسهم نفس اللقب أو ألقاباً من الدرجة الثانية ، وبسبب انه وجد في نفس الوقت اكثر من حاكم من نفس الأسرة حمل نفس الاسم واللقب ، ثم بسبب قيام الخلافات والحروب الداخلية بين امراء الامبراطورية فانه من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، الوصول الى صورة واضحة يقينية ومفصلة حول سلسلة حكام القراخانية(١) .

---

١ – تاريخ بخاري ١٤٣ – ١٤٩ . الكاشغري ، ١/٣٩٣ .

Four studies on the History of central Asia, 21–26 ; Turkestan, 245–305 ; The Islamic Dynasties, 112–114 ; the Cambridge History of Iran, V, 11–12.

لقد ذكرنا بأن الدولة الغزنوية كانت شريكة الدولة القراخانية في الاستيلاء على ميراث الدولة السامانية ، وتنسب هذه الدولة إلى مدينة غزنة – احدى مدن افغانستان الحالية وتقع الى جنوب غربي كابل – ، ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين الذي كان عبداً تركياً من ضباط الجيش الساماني ، ولقد كان استلامه لحكم غزنة في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م .

وفي الحقيقة إن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي عام ٣٥٠ / ٩٦١ م توفي الامير الساماني عبد الملك بن نوح ، « ولما دفنوه ثار العسكر وتمردوا وطمع كل شخص في الملك وظهرت الفتن» (١) ، « وكان الاسفهلار (أي القائد) البتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير ... فقصد الحضرة للقبض على الأمير الساماني الجديد ، ومن ثم احلال نفسه مكانه على عرش السامانيين » ، وأخفق البتكين ، وأجبر على الفرار ، فذهب الى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ، وبعد فترة تصالح البتكين مع الامير الساماني الجديد لبخاري وهو منصور بن نصر ، ونظراً لقرب الاراضي الافغانستانية من أراضي الهند غير المسلمة ، فقد شغل ضباط البتكين وجنده أنفسهم بالغارة على هذه الاراضي ، وكان القصد الاساسي من هذه الغارات هو كسب المغانم ولم يكن قط هدفها نشر الإسلام ، ومع أن الكثيرين ممن كان يقوم بها لقّب نفسه بلقب غازي ، فقد ظل البتكين وضباطه تابعين اسمياً للدولة السامانية ، وبعد وفاته خلفه أحد ضباطه واسمه سبكتكين .

---

١ – تاريخ بخاري ، ١٣١ – ١٣٣ .
Four studies-on the History of central Asia, 1, 25–26 - Turkestan, 274–302 ; the Combridge History of Iran, V. 11–16.; the Islamic Dynasties, 181–183. ان كتاب C. E. Bosworth The Ghaznavids. Edinbergh, 1963, هو احسن ما كتب حتى الآن عن تاريخ الغزنونيين .
Four studies on the History of central Asia 1, 25.

وبعدما استلم سبكتكين زعامة الجيش لم تنقطع أعمال الغارة على السهول الهندية ، واستمر بالاعتراف بالسيادة السامانية ، ولكن عقب وفاة سبكتكين في سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وعندما اصبح ابنه محموداً صاحب السلطة في غزنة ، غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانيين ، ونظم محمود اعمال الغارة على الاراضي الهندية وحولها الى أعمال توسع وفتوح تحت عنوان الجهاد ، وبذلك نال محمود لقب غازي عن جدارة ، وأصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة .

ولقد استطاع محمود توسيع رقعة دولته ، فأوصل حدودها الشمالية الى جيجون ، وبعد ذلك تجاوزه فقام بضم واحة خوارزم الى امبراطوريته وحقق الاتفاق مع الدولة القراخانية ، ثم التفت نحو خراسان فأخذها ، وبات يتطلع نحو بغداد ونحو القضاء على الاسرة البويهية الشيعية فيها ، وأخذ مكانها في التحكم بخلفاء بغداد ، ذلك لأن محمود كان سنياً شافعياً متعصباً . ومات محمود سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، وخلفه بعد بعض الصراع الداخلي ابنه مسعود .

وعندما مات محمود كانت امبراطوريته من أضخم امبراطوريات عصره ومن أعظم ما قام في التاريخ الاسلامي ، وكان جيشه وقواته الحربية على غاية من القوة والعظمة وجودة التسلح ، وفي زمن محمود وبسبب طبعه وشغفه بالابنية تطورت التقاليد الفارسية الاوتوقراطية في الحكم مع الثقافة الايرانية .

ولقد واجه محمود في أواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة فاستطاع أن يتدارك تفجيرها، وتمكن من أن يؤجل هذا التفجير ، وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة ، ولكن لما كان ابنه وخليفته مسعود لم يكن يتمتع بصفات والده ، فقد أخفق في حل مشكلة التركمان عندما واجهها ، ولقد استطاع التركمان أن يقهروا مسعوداً ويستخلصوا منه خراسان ، ولكن هزيمة الغزنويين لم تعن أبداً نهاية الدولة الغزنوية ، بل استمرت هذه الدولة تحكم شرقي افغانستان وشمالي الهند واستمر هذا الحال حتى قيام الدولة الغورية التي

استطاعت تصفية الغزنويين والقضاء على دولتهم في سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م (١).

ولقد احتاجت الامبراطورية الضخمة التي أسسها محمود مع قواته العسكرية الكبيرة وبلاطه الضخم الى تكاليف باهظة ومبالغ من المال هائلة ، وما كانت المبالغ التي كانت تحصل من الغارات على الهند لتكفي سد أكثر من جزء من النفقات ، لهذا فرض الغزنويون ضرائب ثقيلة على خراسان ، وحصلوها دون تهاون وبأعنف الوسائل ، ولقد أفقرت هذه السياسة المالية خراسان وجعلت الحكم الغزنوي غير محبوب على كافة المستويات ، كما أن هذه السياسة سببت تدهوراً في اقتصاد خراسان وفقراً عاماً ، مما أدى الى هجرة بعض التجار والدهاقين من خراسان الى بلاد ما وراء النهر حيث دولة القراخانية ، ولا شك أن هذه الحالة كانت من أسباب نجاح السلاجقة – فيما بعد – في انتزاع خراسان لأنفسهم ، ورغم سوء الاحوال الاقتصادية وثقل الضرائب فقد كانت غالبية عامة الخراسانيين ساكتة عن الحكم الغزنوي أو راضية عنه ، لقوة هذا الحكم ولاستطاعته تأمين الحماية الخارجية مع الأمن الداخلي ، ولكن ما أن مات محمود حتى بدا بأن خليفته مسعوداً لا يستطيع ، ولن يستطيع أن يؤمن هذه الأمور ، لذلك تطورت الامور بسرعة ولغير صالح الغزنويين ، كما سبق وذكرنا أثناء حديثنا عن السلطنة السلجوقية .

دولة طبرستان

قامت هذه الدولة في طبرستان جنوب بحر قزوين ، وجاءت نتيجة للمعارضة الشيعية للحكم العباسي ، ويعود تأثر اقليم طبرستان بالتيار الشيعي الى الثلث الاخير من القرن الثاني للهجرة حين فرّ الثائر العلوي يحي بن عبدالله الى بلاد

---

١ - تاريخ بخاري ١٣١ – ١٣٢ ،
Four studies on the History centarl Asia, 1, 25–26 ; Turkestan, 274–302 ; The Cambridge History of Iran, V, 11–16 ; the Islamic Dynasties, 181–183 ; The Ghaznavids

الديلم إثر هزيمة العلويين في موقعة فخ – كما مر معنا – ومنذ ذلك الحين تحولت طبرستان الى ملجأ للهاربين من وجه السلطة وارتبطت تاريخياً بالحركة الشيعية .

وظلت طبرستان رغم ميولها الشيعية خاضعة للحكم العباسي ومرتبطة ادارياً بولاية خراسان ، ثم حدث ما قلب الاوضاع في هذا الاقليم بعد ثورة يحي بن عمر العلوي في الكوفة واخمادها على يد حاكم خراسان محمد بن عبدالله بن طاهر ،فكافأه الخليفة المستعين بتقليده حكم البلاد الواقعة بين طبرستان والديلم ، ولما جاء عامله لاستلام هذه القطائع اصطدم بالسكان الذين اغضبهم ما لاقوه من فظاظته وتجاوزاته المتكررة واعتداءاته على حقوقهم. فبدأت عوامل الثورة تتفاعل في نفوس الطبريين وكتبوا الى سكان الديلم الذين كانوا متأثرين أيضاً بنفس المبادىء وخاضعين لنفس الظروف ، فتحالفوا معهم ، وبذلك قوي امرهم وصار بامكانهم مقارعة السلطة والصمود أمامها ، ونظراً لافتقارهم الى الزعيم الذي يستطيع أن يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم ، اتجهت انظارهم الى الحسن بن زيد العلوي أحد زعماء الشيعة الزيدية ، وكان موجوداً حينذاك في الريّ ، فبايعوه ووضعوه على رأس الثورة ، فاستجاب الحسن لطلبهم وتمكن من السيطرة على طبرستان بكاملها فضلا عن بلاد الديلم والريّ وجرجان ، وبذلك امتدت سيطرته حتى قزوين ، وتأسست دولة علوية في هذه النواحي عرفت بدولة طبرستان الزيدية .

ولم يستطع الطاهريون اصحاب الشأن في هذه المناطق أن يتصدوا لهذه الدولة الناشئة ، وذلك لانهماكهم بدفع الخطر الصفاري ، كما أن الخلافة كانت منهمكة في معالجة حركة الزنج في جنوب العراق .

ولكن الدولة الطبرية تعرضت لخطر السامانيين الذين هاجموها سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م ، وفرضوا عليها سيطرتهم نحو اربعة عشر عاماً (٢٨٧ – ٣٠١ هـ / ٩٠٠ – ٩١٣ م) حين قام أحد الدعاة العلويين وهو الحسن الملقب بالأطروش

على رأس الديالمة وأخرج السامانيين من طبرستان وأعاد إليها الحكم العلوي، وقام الاطروش بحكم هذه الدولة ومن بعده أبنائه وأصهاره حتى سقوطها سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م(١) .

* * *

---

١ – الطبري : ٢٧١/٩ – ٢٧٦ . مروج الذهب : ١٥٣/٤ . تجارب الأمم : ٥٧٠ – ٥٧٤. العيون والحدائق : ١٧٦/٤ . الكامل : ١٤٦/٦ – ١٤٧ . البداية والنهاية : ٦/١١ .

دول بلاد الشام والجزيرة

احوال بلاد الشام

الشام عند الجغرافيين العرب هو صقع يحده من الشرق الفرات ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الاحمر وعريش مصر ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل طويلا حتى ما بعد طرسوس في تركية اليوم ، وقد جعل العرب المسلمون ، بعد فتحهم للشام ، هذه البلاد خمسة أجزاء أو مناطق عسكرية أطلق على كل منطقة منها اسم جند ، وهي جند فلسطين ، وجند الاردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قِنّسرين ، ومن حيث الواقع العملي كان عمر هذا التقسيم قصيراً واستمر نظرياً ليس اكثر (١) .

سكن الشام قبل قيام الفتوحات الاسلامية عدد من القبائل العربية كان اكثرها – تبعاً لروايات النسابين العرب – منحدراً من أصل يماني ، ومن أشهر هذه القبائل قبيلة كلب ؛ ولقد استقرت كلب في جنوب بلاد الشام وكان لها دورها البالغ الأهمية في العصر الأموي ، كما هاجر مع الفتح وبعده عدد من القبائل الى شمالي بلاد الشام ، ولقد كانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من أصل قيسي ، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ ﻫ / ٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الأموي ، يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك بن قيس بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ؛ ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت

---

١ – صورة الارض لابن حوقل ، ١٥٣ ؛ الاعلاق النفسية ، ١٠٧ ؛ مختصر كتاب البلدان ، ٩١ – ٩٢ ؛ الاصطخري ، ٤٢ ؛ أحسن التقاسيم ، ١٨٦ ؛ معجم البلدان ، مادة الشام ،

قبيلة كلاب اكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فرّ زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان ان يقسره على مثل هذا الاعتراف (١) . ولعل من اهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام الى قسمين : شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه ، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، وخاصة كلب وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين ، دار لكلب في الجنوب ودار لكلاب في الشمال ، وكان الحد الفاصل بين ديار كلب وديار كلاب نقطة وهمية تقع جنوب حمص وغالباً ما كانت عند الرستن على نهر العاصي .

لقد كانت كلاب كما ذكرنا قبيلة قيسية وكلب يمانية وتبعاً للنسابين العرب ، انحدر العرب من ابوين : واحد جنوبي وآخر شمالي ، ومن العجيب أن تقطن القبائل ذات الاصل الجنوبي جنوبي بلاد الشام وتقطن القبائل الشمالية شمالي بلاد الشام ، متبعين هكذا نمط التقسيم الذي كان موجوداً ، في الجزيرة العربية – الوطن الام – قبل الاسلام ؛ ويتساءل المرء : احدث هذا بعامل الصدفة ، أم تم عن قصد وعمد ، أم أن القضية كلها عبارة عن جزء من اسطورةالانساب العربية المخترعة ؟

إن قضية الانساب العربية مع تشكل القبائل العربية قبل الاسلام ، وتأثر هذا التشكل بالهجرة بعد الفتوحات الاسلامية بحاجة الى دراسة علمية على ضوء الدراسات الاجتماعية الحديثة وقوانينها ؛ إنما يبدو أن من الأسباب التي ساعدت على تركز القيسيين وسكناهم شمال الشام هو أن اليمانيين دخلوا بلاد

---

١ – انظر تاريخ خليفة : ٣٢٦/١ ؛ الطبري : ٥٤٠/٥ – ٥٤٢ . ابن عساكر : ٢١١/٦ و – ٢١٢ ظ .

Hudud al-Alam 148 ; Nuzhat al. Qulub, 262.

الشام واستقروا في جنوبيها قبل الفتوحات الاسلامية ، ثم إن هجرة القيسيين تمت بالاتجاه الى الشام عن طريق بلاد الرافدين فالجزيرة فالشام .

المهم اننا لم نسمع بعد معركة مرج راهط بسكنى اية قبيلة قيسية في جنوب بلاد الشام والعكس هو صحيح أيضاً ، ومع مرور الزمن اعتبرت قبيلة كلاب شمالي بلاد الشام دياراً لها واعتبرت أي تحرك قبلي من الجنوب هو عملا عدائياً موجهاً ضدها ، ويلحظ المرء هذا بشكل واضح في القرن الخامس للهجرة حينما أقام الكلابيون الدولة المرداسية في حلب . فقد دخلت الدولة المرداسية في صراع مستمر مع الخلافة الفاطمية ، واستعان الفاطميون دائماً بالكلبيين في حملاتهم ضد حلب ، وقاتلت كلاب بضراوة ضد الحملات الفاطمية لأن جنودها كانوا كلبيين وليس لسبب حماية حلب فقط ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا في شعر ابن ابي حصينة ، شاعر المرادسيين ، وفي ما عمله المؤيد في الدين داعي الدعاة الفاطمي حينما ارسل من القاهرة في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م لمساعدة البساسيري في ثورته . فبعدما وصل المؤيد في الدين الى دمشق جاءته التعليمات من الوزير في القاهرة بتجنيد قوة كلبية واصطحابها معه والتوجه شمالا الى حلب ومنها الى الرحبة حيث كان البساسيري ، ولقد تجاهل المؤيد أوامر القاهرة ، وراسل ثمال بن صالح امير حلب ليسمح له بدخول اراضيه . لأنه كان يعلم بأن اصطحاب قوة كلبية وإدخالها إلى ديار كلاب سيؤدي الى فشل مهمته .

ويلحظ المرء انه منذ القرن الخامس / الحادي عشر ان اسم الشام بات يطلق احياناً ليعني القسم الشمالي منه ، وكلمة الشام الاعلى لتعني القسم الجنوبي ؛ روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م الى اخيه تُتُش « ان لا يتعرض الى الشام الاعلى ويقصد

ناحية حلب » (١) .

لقد كانت مدينة حلب دائماً مركزاً لشمالي بلاد الشام وفيها قامت عدد من الدويلات المستقلة ، ولقد كانت دمشق كبرى مدن جنوبي بلاد الشام ، وأقول كبرى وليس مركزاً لأن الجنوب انقسم الى قسمين : قسم فلسطيني ومركزه الرملة والنفوذ فيه كان لقبيلة طيء ، وقسم دمشق والنفوذ فيه بقي لقبيلة كلب . ولقد كان الصراع دائماً بين دمشق وحلب ، وكانت بلاد الشام ممزقة دائماً سياسياً ، ولم تنعم بالوحدة السياسية ولا حتى الدينية والاجتماعية في تاريخها أبداً ، وغالباً ما تورطت طيء بمشاكل ذات صلة بمصر وسياستها .

الدولة الحمدانية

يعود الحمدانيون في أصلهم الى قبيلة تغلب ، وكانت هذه القبيلة من أشهر القبائل العربية وأكبرها ، وكانت تقطن أعالي منطقة الجزيرة قبيل قيام الاسلام وأثناء فترة الفتوحات ، وكانت تدين بالنصرانية ، ولقد رفضت تغلب بعد الفتح دفع الجزية ، وسبّب ذلك مشكلة كبرى للخلافة ، عالجها عمر بن الخطاب بأن ضاعف ضريبة الصدقة عليها ، وأن لا تقوم بتعميد أولادها .

ولقد حافظت قبيلة تغلب على مكانتها في العصر الاموي ، إنما تأثرت هذه المكانة بتدفق قبائل جديدة من شبه الجزيرة ، كذلك تأثرت بما شهدت منطقة الجزيرة في أواخر العصر الاموي وأثناء الحكم العباسي المبكر ؛ من ثورات

---

١ – ديوان ابن أبي حصينه ، ١/١٥٩ – ١٦٣ ، وخاصة قوله :

فما رعت حقنا كلب ولاحفظت ... لنا الصنيعة قحطان ولا أردد

قصدت الشام اذا غابت فوارسه ... والذئب يرقص حتى يحضر الاسد

واطمعتم حمـاه في ممالكـنا ... والمطمع السوء مقرون به الحسد

انظر أيضاً ، مرآة الزمان حوادث سنتي ٤٥٢ هـ و ٤٧١ هـ (مخطوطة احمد الثالث) . سيرة المؤيد في الدين ١٠١ ، هذا وقد بحثت ثورة البساسيري ودور المؤيد في الدين فيها في فصل خاص وبشيء كبير من التفصيل في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، فلينظر .

وحركات سياسية خاصة ثورات الخوارج ، وأثناء هذه الحركات ظهرت بين صفوف تغلب أسرة زعامة هي الاسرة الحمدانية ، وقامت الصلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ عهد المعتضد ، وعمل أفراد هذه الاسرة مع الخلافة ضد الخوارج ثم بشكل أنشط وأوسع ضد القرامطة ، وأثناء ذلك تكونت شخصية الاسرة الحمدانية وأصبحت تشكل إحدى القوى العسكرية — لكن الصغيرة — للدولة العباسية ، واستخدمت الخلافة هذه القوة في أكثر من مناسبة وبقعة ، وقد وطد هذا من مكانة الحمدانيين وورطهم في قضايا الدولة العباسية ، وأخذوا ينجذبون أكثر فأكثر نحو السلطة ونحو بغداد .

دولة الموصل

اتخذ أوائل أفراد الاسرة الحمدانية من مدينة ميافارقين مركزاً ، وتطلعوا في نفس الوقت نحو الموصل ، وسعوا للسيطرة عليها ، فكان أن تحقق ذلك سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م إذ عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل ، ولم يستطع أبو الهيجاء أن يولي الموصل عنايته الكلية ، بل اهتم بمشاكل الصراع في بغداد ، وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً ، وهكذا فقد قضى معظم وقته في بغداد ، واضطر بسبب ذلك أن ينيب ابنه الأكبر الحسن (الذي عرف فيما بعد باسم ناصر الدولة) في امرة الموصل .

وهنا لا بد قبل الاستطراد في الحديث عن ناصر الدولة وحكمه من أن نطل ، ولو بسرعة ، على أهمية الموصل ومكانتها ، لقد كانت الموصل بسبب موقعها الجغرافي مدينة هامة ذات موارد اقتصادية كبيرة ، كانت تأتيها من الزراعة والتجارة ، وهي كمدينة تقع وسط سهل خصب ، يمدها دجلة بالماء ، وهي قريبة من البادية وقبائلها العربية ، وهي لم تكن بعيدة عن الاراضي البيزنطية ، لكنها منذ قيام الدولة العباسية كانت دائماً وثيقة الصالة ببغداد ومشاكل العراق السياسية ، أي أنها كانت قطعة من العراق ، وقد بقيت هكذا

حتى نهاية النصف الاول من القرن الخامس هـ / الحادي عشر م ، **فعند ذاك** تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام تشارك في مشاكلها وقضاياها .

لقد أصبحت الموصل في تلك الفترة جسراً يوصل للسيطرة على شمال بلاد الشام ومن ثم الجنوب ، ذلك أن القرن الخامس قد شهد هجرة التركمان بقيادة السلاجقة الذين جاءوا من المشرق ، فكانت الموصل المحطة الأولى للانطلاق نحو بلاد الشام والانقضاض عليها ، وفي تاريخ قيام الدولة الزنكية والحروب الصليبية مثال مبرهن على صحة هذا .

ومع أن الموصل كانت قبل القرن الخامس قطعة من العراق ، إلاّ أنها شاركت جزئياً وبشكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام ، لكن هذه المشاركة كانت جزءاً من المشاركة في الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية .

امرة ناصر الدولة

أصبح الحسن بن أبي الهيجاء أميراً للموصل بعد أبيه ، ويمكن اعتباره الباني الفعلي للدولة الحمدانية هناك ، لكنه كان مثل أبيه قد انغمس في مشاكل الصراع من أجل السلطة في بغداد ، وكان اثناء ذلك يساعده أخوه علي ، ويقود قواته ، ولم يبرهن علي في جميع المعارك التي خاضها لصالح أخيه على تمتعه بمواهب عسكرية ، ذلك أنه خسر معظم المعارك التي خاضها .

ولقد نجح ناصر الدولة لفترة قصيرة من الزمن في تسلم منصب امرة الامراء في بغداد ، لكنه أكره على ترك بغداد والعودة الى الموصل ، وعندما وقعت بغداد في حوزة البويهيين قام نزاع بين هذه الاسرة وناصر الدولة ، وقد اضطر ناصر الدولة أثناء هذا الصراع الى اخلاء الموصل ، واللجوء الى حلب ، وفي سنة ٣٥٣ هـ عزل معز الدولة البويهي ناصر الدولة عن امارة الموصل وعين مكانه ابنه ابو تغلب فضل الله ، وعندما ضعف ناصر الدولة بسبب شيخوخته

ضيق ابنه ابو تغلب عليه وأعرض عن مشورته ، ثم قام أخيراً في سنة ٣٥٦ هـ بسجنه في احدى القلاع ،وقد توفي ناصر الدولة في سجنه سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩م

وقبل أن يتوفى ناصر الدولة كانت مقاليد الموصل في يد ابنه ابو تغلب الذي لقب نفسه بالغضنفر ، وبعد وفاة ناصر الدولة قام صراع بين أولاده ، وقد أضعف هذا الصراع قوة الاسرة الحمدانية ، وقد استغل هذا الخلاف من قبل الدولة البويهية ، ومن قبل عناصر أخرى محلية في الجزيرة ، كان أبرزها قبيلة عقيل وجموع أكراد ميافارقين ، وفي سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م استطاع البويهيون احتلال الموصل ، وجاء هذا كنهاية فعلية للدولة الحمدانية ، وفي سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨١ م حاول الحمدانيون استعادة الموصل ، وحققوا في هذا السبيل نجاحاً مؤقتاً ، وأخيراً سقطت الموصل في يد قبيلة عُقيل ، وورث أملاكها الدولة العقيلية والدولة المروانية الكردية .

دولة حلب وامرة سيف الدولة

بعدما قامت الدولة الاخشيدية في مصر ، قام الاخشيد بمد نفوذه الى بلاد الشام ، ولقد دخلت حلب سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م في حوزة الدولة الاخشيدية ، ولقد عين الاخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلابي والياً على حلب، وفي هذه الفترة وصل الى شمال الشام والجزيرة جموع جديدة من بداة شبه الجزيرة العربية ، وضمت هذه الجموع مجموعات من قبيلة كلاب ، وقبيلة نمير ، وقبيلة قشير ، وقبيلة عقيل ، ولقد سببت هذه الهجرة فوضى سياسية كبيرة في شمال بلاد الشام والجزيرة، وهكذا لم تستقم الامور للأخشيد في حلب ، وفي سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م فوض الخليفة الراضي لمحمد بن رائق أمور حلب، فجاء الى حلب وانتزعها من نواب الاخشيد ، لكن الاخشيد استرد حلب ، وقام محمد بن رائق سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م ، نتيجة للصراع على امرة الامراء في بغداد بالالتجاء الى ناصر الدولة في الموصل ، وقام ناصر الدولة بقتل محمد بن رائق ، ومد بصره نحو بلاد الشام يريد السيطرة على القسم الشمالي منها ، وهكذا

حصلت المواجهة بين الحمدانيين والاخشيد ، ولم تكلّل جهود ناصر الدولة الأولى بالنجاح، وأبقى الأخشيد ولاية حلب في يد احمد بن سعيد الكلابي .

وكانت قبيلة كلاب متميزة بالتمزق والخلاف بين رجالاتها ، وقد دفع هذا بعض أمراء كلاب إلىالسفر نحو الموصل ، فاتصلوا بعلي بن عبدالله أخو ناصر الدولة ، ودعوه للقدوم الى حلب ، وتسلم مقاليد الأمور فيها ، وكان علي الذي عرف باسم سيف الدولة حاكماً لمدينة نصيبين ، فعرض الأمر على أخيه، فوافق بعد تردد ، وتحرك سيف الدولة نحو الشام ، واستطاع دخول حلب دون مقاومة في ٨ ربيع الاول سنة ٣٣٣ هـ / ١٧ تشرين الاول ٩٤٤ م وهكذا بدأ عهد جديد في تاريخ شمالي بلاد الشام .

ولم يقبل الاخشيد باستيلاء سيف الدولة على حلب ، وقام صراع بين سيف الدولة والأخشيد ، وجر هذا الصراع سيف الدولة للسيطرة على دمشق ، لكن الدولة الاخشيدية استطاعت ايقاع الهزيمة في صفوف سيف الدولة ، ولم تكتف بانتزاع دمشق منه ، بل انتزعت مدينة حلب منه لفترة قصيرة، وأخيراً عقد اتفاق في سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م بين الدولة الاخشيدية وسيف الدولة ، ترك بموجبه حكم شمالي بلاد الشام لسيف الدولة ، ويمكن اعتبار هذه السنة البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حاب .

والتفت بعد هذا سيف الى دولته فوطد أمورها ، وأقام لنفسه بلاطاً فخماً أراد أن يضاهي به بلاط بغداد وغيرها من مراكز ديار الاسلام ، وجمع فيهذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن والشعراء ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء المتنبي ، ولقد استخدم سيف الدولة رجال بلاطه للدعاية له ولحكمه، والواقع أن شهرة سيف وعظمته قائمة على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية له ، وليست نابعة من أعمال جليلة قام بها ، أو تمت في عصره .

لقد شغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية ، وكانت هذه الامبراطورية تعيش فترة استفاقة وتجميع قوة ، وقد

تهيأ لها عدد من القادة والأباطرة العظام ، وقد خاض سيف الدولة بامكاناته القليلة حروباً طويلة ضد هذه الامبراطورية ، ولم تكن هذه الحروب حروباً هادفة ، بل امتازت بأنها كانت مجرد غارات بدون هدف واضح سواء أكان دفاعياً أو هجومياً ، ولقد نجم عن سياسية سيف الدولة العسكرية ، وتكوينه لبلاطه عدة نتائج خطيرة ، فلقد احتاج بلاطه ، واحتاجت حملاته الى نفقات كبيرة للغاية ، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات والضرائب الثقيلة ، ولقد شكا الناس من معاصريه من ثقل ضرائبه وغلظة ادارته المالية ، وبرز هذا بشكل واضح في كتابات ابن حوقل الجغرافي والمهلبي صاحب كتاب المسالك والممالك الذي كتبه للخليفة الفاطمي العزيز ، وتجلى في كتاب سير الثغور للطرسوسي وغير ذلك ومفيد هنـــا أن نسوق ما قاله المعز لدين الله الفاطمي في رسالة له أرسلها لجوهر الصقلبي : « بنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب ، يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة » .

ولقد اضطرت سياسة سيف الدولة المالية بقايا قبيلة تغلب وكان عددهـا يقدر بحوالي العشرة آلاف ، وكانوا يدعون ببني حُبيب ، اضطرتهم الى ترك الجزيرة والهجرة الى داخل الأراضي البيزنطية ، والتخلي عن الاسلام وتبني النصرانية والحرب مع بيزنطة ضد المسلمين .

ونظراً لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الد لة فقد قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك والديلم ، مثلما جرت العادة في بغداد ، ولم تنفعه قواته هذه وقام بعض أفرادها في أواخر عهد سيف الدولة بالثورة عليه .

وآل الصدام مع بيزنطة الى تمكنها من احتلال جميع مناطق الثغور الحصينة وأخذها لطرسوس وانطاكية ، وأخيراً تمكن البيزنطيون في سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م من اختراق مدينة حلب ، عاصمة سيف الدولة ، ولقد دمر الجيش

البيزنطي هذه المدينة تدميراً مريعاً ، وجمعوا منها غنائم هائلة الكمية، وأخذوا عدداً كبيراً جداً من الأسرى .

وأثّر سقوط حلب على سيف الدولة تأثيراً كبيراً سبّب مرضه الشديد ، كما سبّب له كثيراً من المشاكل ، ولقد انفرط عقد دولته ، وأخذت الثورات تتفجر ضده في كل مكان ، واستمر الضغط البيزنطي عليه يبغي تصفية دولته نهائياً، وأصيب سيف الدولة بالفالج وفي صفر من عام ٣٥٦ هـ كانون ثاني ٩٦٧ م ، اشتد مرض سيف الدولة فتوفي في حلب ، وحمل تابوته منها الى ميافارقين فدفن بها .

امرة سعد الدولة شريف

عندما توفي سيف الدولة كان ولده سعد الدولة ، أبو المعـــالي شريف في ميافارقين مع والدته . فاستدعي الى حلب فقدمها ودخلها ، وتسلم منصب الأمرة فيها ، لكن مقاليد الأمور كانت في يد حاجب أبيه قرغويه ، وفي مطلع عهد سعد الدولة ثار ضده خاله ابو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان في منطقة حمص ، وتمكن سعد الدولة من القضاء على الثورة وقتل خاله الشاعر المشهور.

ولم يتوقف نشاط بيزنطة وأعمالها ضد بلاد الشام زمن سعد الدولة ، وكان على رأسها الأمبراطور نقفور فوقاس ، وقد أضعف ذلك حكم سعد الدولة ، وقام قرغويه بالاستيلاء على الأمور في حلب ومنع سعد الدولة من الدخول الى المدينة ، وكان ذلك سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، واستطاع سعد الدولة تكوين قوة قادها ضد حلب فحاصرها ، فاستنجد قرغويه بيزنطة ، واستغل البيزنطيون الفرصة فاستولوا على أنطاكية وعلى حلب أيضاً ، ولم يتركوا حلب إلا بعد وضع معاهدة مفصلة احتفظ لنا ابن العديم مؤرخ حلب بنصها . وتعتبر هذه المعاهدة من أهم وثائق القرن العاشر ، وفيها مادة سياسية وتجارية واجتماعية ودينية هامة للغاية .

وظلت حلب تحت حكم غلمان سيف الدولة حتّى ما بعد سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م

حيث استطاع سعد الدولة العودة إليها ، ولقد خاض سعدالدولة بعض المعارك ضد بيزنطه لكنه استنجد بها أكثر من مرة لحمايته من المخاطر التي جاءته من دمشق وغيرها ، ثم تعرض للخطر الفاطمي ، وفي لجة الفوضى والاضطراب توفي سعد الدولة سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م فخلفه ابنه ابو الفضائل سعيد .

امرة سعيد الدولة

أصبح سعيد الدولة أميراً على حلب غداة وفاة أبيه ، ولكنه أصبح أميراً بالاسم فقط حيث أن مقاليد الأمور آلت الى يد أحد غلمان جده واسمه لؤلؤ ، وتمتاز فترة حكم أبي الفضائل سعيد الدولة مع الفترات التي تلتها في محاولات الخلافة الفاطمية الملحة والمتكررة للاستيلاء على حلب ، وتدخل بيزنطة المباشر وغير المباشر لحماية حلب ومنع الفاطميين من اخذها ، وقد بقي أبو الفضائل في منصبه حتى توفي مسموماً في سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ ، ويعتبر موته هذا كتاريخ فعلي لانتهاء الحكم الحمداني في حلب .

وبعدما توفي حكم لؤلؤ لفترة وجيزة باسم طفلي سعيد الدولة وكانا يدعيان بأبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم قام بنفيهما الى مصر وأعلن نفسه حاكما منفرداً لحلب ، وساعده في حكمه ابنه منصور ، ويعتبر حكم لؤلؤ مع ابنه فترة انتقال مرت ما بين زوال الدولة الحمدانية وقيام دولة جديدة أخرى في حلب هي الدولة المرداسية ، وأهم ما حدث زمن لؤلؤ وابنه منصور كان محاولات قبيلة كلاب بزعامة صالح بن مرداس السيطرة على حلب (١) .

الدولة العقيلية في الموصل

حكمت الجزيرة في أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد من قبل

---

١ – من أجل تاريخ الدولة الحمدانية في الموصل وحلب يمكن الرجوع الى المصادر التالية : تجارب الامم وذيله . كتاب العيون . كتاب الكامل في التاريخ . تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ، تاريخ الفارقي . بغية الطلب وزبدة الحلب لابن العديم . أخبار سيف الدولة لكنار . ديوان المتنبي. ديوان أبي فراس الحمداني .

الدولة الحمدانية في الموصل ، وأيام حكم هذه الدولة وصلت قبيلة عقيل الى الجزيرة مثلما وصل غيرها من قبائل عامر بن صعصعة كما اسلفنا الحديث ، وعندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م سهل القضاء عليها وورثتها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية ، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية .

استولى في سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م محمد بن المسيب العقيلي على نصيبين وبلد ، ثم ضم بعد سنة الموصل الى أملاكه وذلك بعدما قتل الامير الحمداني ابو طاهربن ناصر الدولة الحمداني (١) ، واعترفت السلطة البويهية في بغداد بحكم محمد بن المسيب ، لكن ما لبثت أن عزلته في سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، وباشر البويهيون حكم الموصل بانفسهم ، لكنهم فقدوها في سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م حين تمكن المقلد بن المسيب أخو محمد من الاستيلاء عليها وإقامة الدولة العقيلية فيها (٢) . وظل المقلد بن المسيب يحكم الدولة العقيلية حتى اغتيل في سنة ٣٩١هـ/١٠٠٠م(٣) وخلف عقب اغتياله من قبل ابنه قُرواش الذي ظل يحكم حتى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين سجنه اخوه بركة . وحكم بركة قرابة السنة ، ثم توفي ، وهنا اجمعت عقيل على انتخاب قريش بن بدران اميراً جديداً ، فأخرج قريش عمه قرواش بن المقلد من السجن ودبر قتله .

ولقد كان قرواش بن المقلد من أعظم شخصيات عصره البدوية . فقد كان أديباً شاعراً ، نهاباً وهاباً على دين الاعراب وجاهليتهم ، وقد جمع بين اختين في الزواج . فلامته العرب على ذلك لأنه محرم بالإسلام ، فقال : «خبروني

---

١ – انظر ذيل مسكويه ، ١٧٦ – ١٧٩ ، الكامل ٩٨/٧ ، دولة بني عقيل في الموصل ، ٥٠ – ٥١ .

٢ – ذيل مسكويه ، ٢٨٠ – ٢٨٤ ، الكامل ١٨١/٧ – ١٨٢ .

٣ – ذيل مسكويه ، ٣٨٩ – ٣٩٠ ، الكامل ٢٠٩/٧ – ٢١٠ .

بالذي نستعمله مما تبيحه الشريعة ، وكان يقول في مجالسه : ما على رقبتي غير خمسة او ستة من البادية قتلتهم ، وأما الحاضرة فلا يعبأ بها الله » . وقد استطاع قرواش أن يقيم علاقات شبه متوازنة بين الخلافتين العباسية والفاطمية (١). وفي أيام قرواش تعرضت الموصل لأول غارة غزيّة ، الأمر الذي سنأتي على ذكره بالتفصيل بعد قليل .

حكم قريش بن بدران سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م حيث خلفه ابنه مسلم بن قريش أعظم شخصيات الأسرة العقيلية ، وعقب مقتل مسلم خلفه أخوه ابراهيم في سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ولم يطل حكم ابراهيم فقد قتل في الصراع مع السلاجقة ، وتوزع امارة الموصل ولدا أخيه محمد وعلي ، وبقي الحال هكذا حتى أزال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل نهائياً في سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م.

الدولة المروانية

لقد ذكرنا بأن الدولة الحمدانية في الموصل قد ورثها عندما سقطت بالاضافة الى الدولة العقيلية الدولة المروانية الكردية ، فلقد سكنت المناطق الواقعة الى شمال الموصل من قبل عدد من القبائل الكردية ، وغالباً ما كانت هذه القبائل تغير على الأراضي البيزنطية ، ولقد ظهر من بين أفرادها عدد من الغزاة الذين تجمع حولهم عصابات خاصة ، وكان من بين هؤلاء رجل عرف باسم باذ ، ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع هـ / العاشر م ، فاستغل باذ ضعف الدولة الحمدانية ، ثم ضعف السلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي ٣٧٩ هـ / ٩٨٣ م) فأخذ يقيم لنفسه دولة ، فاستولى على أهم بلدان منطقة ديار بكر ، مثل آمد ، ونصيبين وميافارقين « ودخل باذ الموصل واستولى عليها ، وقويت شوكته ، وحدث نفسه بالتغلب على بغداد وإزالة الديلم عنها ، وخرج من حد المتطرفين وصار في عداد اصحاب الاطراف » وأثناء توسعه في منطقة الموصل اصطدم باذ ببقايا الحمدانيين وبقبيلة عقيل ، وحصلت بين

---

١ - دولة بني عقيل بالموصل ، ٥٧ - ٥٨ .

الفريقين عدة معارك كان من أهمها واحدة في سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م فقد باذ فيها حياته بعدما انهزمت قواته الكردية (١) .

بعدما قتل باذ ورث مملكته ابن اخته الحسن بن مروان الذي بقي في الحكم حتى مقتله سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، وفي زمن الحسن توطد حكم المروانيين في منطقة ديار بكر ، وبعيد مقتله خلفه أخوه سعيد الذي عرف بلقب ممهد الدولة ، وحكم ممهد الدولة حتى قتل سنة ٤٠١ هـ / ١٠١١ م ، وهنا خلفه أخوه احمد الذي عرف باسم نصر الدولة .

ويعتبر نصر الدولة المرواني من أشهر حكام الاسرة المروانية ، وقد استمر حكمه لمدة زادت على الخمسين عاماً ، استطاع خلالها أن يرفع من مكانة الدولة المروانية ، وبالتالي أن يبسط نفوذها حتى على بعض من اجزاء جورجيا الحالية (في الاتحاد السوفياتي) ، ولقد أحسن استغلال الموقع الاستراتيجي لديار بكر الذي كان يتحكم بطرق المواصلات والتجارة بين العراق وبلاد المشرق الإسلامي من جهة وبلاد الشام والاناضول من جهة اخرى .

كما تمكن ببراعته السياسية وحكمته الدبلوماسية من المحافظة على دولته وعلى استمرار حكمه بين قوى متعادية قوية كان كل منها يطمح ويسعى للتوسع والسيطرة ، ولقد كانت علاقاته مع الخلافة العباسية في بغداد جيدة ، وكذلك كانت هي الحال مع الامبراطورية البيزنطية ، وأيضاً مع الخلافة الفاطمية حيث كانت العلاقات طيبة رغم أن آل مروان كانوا سنّة وكانت رعيتهم على العموم شوافع .

لم تكن العلاقات بين الدولة المروانية والدولة العقيلية في الموصل على العموم جيدة ، ومع ذلك فقد جهد نصر الدولة في تجنب الاصطدام المباشر او المستمر مع عقيليي الموصل فتنازل لهم سنة ٤٢١ / هـ ١٠٣٠ م عن مدينة نصيبين ، كما

---

١ – ذيل تجارب الامم : ١٧٦ – ١٧٨ . تاريخ الفارقي : ٤٩ – ٥٨ . الكامل : ١٢١/٧ – ١٢٢ ، ١٤٢ – ١٤٣ .

دفع لهم الجزية لفترة من الزمن . وكانت علاقة نصر الدولة بالدولة المرداسية في حلب طيبة بشكل عام وكذلك كان الحال بالنسبة لعلاقاته بالقوى البدوية الاخرى التي كانت موجودة في الجزيرة كقشير أصحاب قلعة جعبر ، وقبيلة نمير أصحاب حرّان ، ولقد استطاع نصر الدولة التخفيف من آ ثار مضار هجرة التركمان على بلاده ؛ فقام بمراسلة طغرلبك واعترف له بالسلطة والسيادة وأقام الخطبة باسمه .

وكانت آمد وميافارقين وحصن كيفا اشهر بلدان الدولة المروانيـــة ، فازدهرت في عهد نصر الدولة ازدهاراً كبيراً ، وشهدت قيام نهضة ثقافية وتطور اقتصادي عظيم ، ويقدم لنا المؤرخ ابن الازرق الفارقي في كتابه تاريخ الفارقي (أو تاريخ ميافارقين) صورة جيدة عن هذا الرفاه الاقتصادي مع الازدهار الحضاري الذي كان ذا ملامح واصول عربية واسلامية .

وبعد وفاة نصر الدولة في سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م قسمت أراضي دولته – كما سيمر معنا – بين اولاده ، وبدأت قوة المروانيين تسير في طريق الانحدار والضعف ، واستمرت آخذة بالاضمحلال شيئاً فشيئاً حتى تمكن السلاجقة أخيراً من القضاء عليها نهائياً سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ (١) م .

الدولة المرداسية في حلب

أسس هذه الدولة صالح بن مرداس ، أمير قبيلة كلاب في مطلع القرن الخامس للهجرة ، وحتى نفهم تاريخ هذه الدولة علينا أن نتعرف أولا الى قاعدتها القبلية مع الأوضاع القبلية في شمالي بلاد الشام والجزيرة . وقبيلة كلاب صاحبة هذه الدولة كانت احدى مشاهير قبائل عرب ما قبل الاسلام ، ولقد هاجر قسم منها بعد قيام الاسلام الى بلاد الشام ، وقطن هذا القسم شواطىء

---

١ – صورة الارض : ١٩٥ . ذيل تجارب الامم : ١٧٨ – ١٨٠ . الكامل : ٣/٧ : ١ – ١٤٤ . تاريخ الفارقي : ٥٩ .

الفرات الشامية (١) ومد نفوذه وسيطرته على شمالي بلاد الشام ، لكنه لم يعمل لاقامة حكم دولة مستقلة تحكم شمال بلاد الشام حتى جاء القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، ويعود السبب الرئيسي لذلك الى أوضاع الخلافة العباسية وقوتها آنذاك ، ثم الى التأثيرات الحضارية التي لا بد وقد اثرت في الكلابيين ، إنما أصاب قبيلة كلاب منذ مجيء القرن العاشر للميلاد تغييرات كبيرة ، ففي هذا القرن الذي شهد حركات القرامطة ونشاطهم في شبه الجزيرة العربية والشام والعراق والجزيرة ، وصل الى شمالي بلاد الشام وأعالي الجزيرة موجة كبيرة جديدة من المهاجرين البداة من قبائل عامر بن صعصعة وهي : كلاب وعقيل ونمير وقشير وخفَاجَة ، وبعد فترة من الزمن سكنت كل قبيلة من هذه القبائل في ديار اتخذتها لنفسها ، فعقيل قامت بسكنى منطقة الموصل ، وبمد نفوذها وسيطرتها عليها ، حيث استطاعت بعد أمد وراثة الدولة الحمدانية في الموصل واقامة الدولة العقيلية مكانها ، أما نُمير فقد اتخذت من منطقة حرّان والرها دياراً لها ، واتخذت من حرّان مركزاً لنفوذها ، وأما قبيلة قشير فقد توطنت حول قلعة دوسر التي تبدل اسمها الى قلعة جَعبَر نسبة الى جَعبَر بن سابق احد شيوخ قشير الذين حكموها ، ويقول ابن حوقل الذي عاصر وصول الموجة الجديدة واصفاً حال الجزيرة في أيامه : « وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الأقطار تنتجع لامتيار الملح والاشنان والقلي ، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر . أهل خيل وغنم وابل قليلة ، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة ، فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نُمير وبني كلاب ، فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها ، وملكوا غير بلد وإقليم منها ، كحرّان وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة ، في أيديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها (٢) .

---

١ – صبح الاعشى : ١/٣٤٠ . قلائد الجمان : ١١٦ .
٢ – صورة الارض : ٢٠٥ . انظر أيضاً جمهرة ابن حزم : ٢٧٤ – ٢٧٥ . بغية الطلب ، أياصوفيا : ٤٨٢ – ٤٨٤ . ابن خلدون : ٤/٥٤٥ . صبح الاعشى : ١/٣٤٠ – ٣٤٣ .

وكما استقرت قبائل عُقيل ونُمير وقُشير في الجزيرة فقد استقر الكلابيون الجدد في شمالي بلاد الشام مع اخوانهم الكلابيين القدماء ، لكن عملية استقرار هذه القبائل كلها لم تمر بسلام ، بل ان هجرة هذه القبائل قد سببت الكثير من الفوضى وبعض الدمار لأراضي شمالي الشام والجزيرة ، وقد هيأت الفوضى السياسية التي نشأت الفرصة لظهور عدد من المغامرين مثل المتنبي الشاعر والأصفر الغازي ، كما أكرهت عدداً من القبائل القديمة في الجزيرة وخاصة بقـايا قبيلة تغلب على الهجرة الى الأراضي البيزنطية ، ويتحدث ابن حوقل عن خروج بني حبيب « بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم وخفهم الذي يمكن بمثله النقلة ، ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغصب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس » الى الأراضي البيزنطية حيث استقروا ثم « تنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم » .

ذكر ابن العديم أن قبيلة بني نمير وصلت الجزيرة في سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م كما روى أنه في ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وصلت كلاب الى شمالي بلاد الشام ، وبيّن أن قبيلتين من هؤلاء الكلابيين الجدد وهما سبيعة وذؤيبة قد أغارتا في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ م على معرة النعمان وذلك بعد أن نخروا الشام الشمالي .

لقد تألفت كلاب من عدة قبائل متفاوتة الحجوم ولا بد أن قدوم المهاجرين الجدد واختلاطهم بالقدماء قد أثر عليها فغير من تركيبها ، إنما على العموم تميزت هذه القبيلة مثلها مثل بقية قبائل عامر بن صعصعة بتحكم روح الفوضى والفرقة بينها، فلقد آثر الكلابيون وغيرهم دائماً التمزق ولم يدينوا باخلاص لقائد واحد ، ولقد كانت لديهم « مثلهم » الخاصة في الاخلاص السياسي .

وكانت جميع قبائل عامر بن صعصعة شيعية تدين بمذهب الاثني عشرية ، ونحن لا نعرف مدى التعلق الجدي بهذا المذهب ، سوى أن بعض الأسماء الشيعية ، مثل ، علي ، عليان ، علوان ، جعفر قد تبناها بعض أفراد هـذه القبائل ، وفيما خلا هذه الأسماء التي كانت قليلة جداً فان اسماء الكلابيين

والقشيريين والنمريين والعقيليين كانت عربية صرفة وغير متأثرة بالأسماء التي عم انتشارها بعد قيام الاسلام خاصة الأسماء المركبة التي تبدأ بعبد وتنتهي باسم او صفة من صفات الله(١) .

استولى في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م صالح بن مرداس على بلدة الرحبة (قرب الميادين في سورية) على الفرات ، وبعد ما فعل هذا ، اعترف صالح بن مرداس بسلطان الخليفة الفاطمي في القاهرة(٢) ، ولقد كانت الرحبة من أكثر مدن الشام أهمية نظراً لموقعها الاستراتيجي الخطر ، فقد كانت هذه البلدة تقع على الفرات ، وهذا يعني توفر الماء والأراضي الزراعية ، كما كانت قريبة من العراق غير بعيدة عن حلب ولا عن دمشق أيضاً ، ثم أن البادية كانت وثيقة الصلة بها ، وفي البادية أقامت العشائر البدوية التي شغلت أعظم الأدوار السياسية في تاريخ بلاد الشام ، وبايجاز لقد كانت الرحبة أول محطة نحو الشام للبداة المهاجرين من شبه الجزيرة العربية ، وكان الذي يملك الرحبة بامكانه أن يملك شمال بلاد الشام وأجزاء من الجزيرة . وهذا ما حدث لصالح بن مرداس.

ولقد حافظت الرحبة على أهميتها هذه ومكانتها حتى أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م حيث حلت محلها مدينة الموصل ، التي كانت قصبة ديار ربيعة التي كانت احدى كور الجزيرة الثلاث : ديار بكر وديار مضر وديار ربيعة ، والجزيرة كانت أصلا تشتمل على البلاد التي بين دجلة والفرات Mesopotamia ولقد ضم بعض من الجغرافيين العرب قسماً من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات من بر الشام الى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها .

وكانت الموصل أعظم مدن الجزيرة(٣) وكانت دائماً متورطة في مشاكل

---

١ ــ صورة الارض ، ١٩١ ــ ١٩٢ ، The Emirate of Aleppo, 69-84.

٢ ــ The Emirate of Aleppo, 89.

٣ ــ أحسن التقاسيم ، ١٣٥ ــ ١٣٧ ، المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ٩٤ ــ ٩٧ ، الاعلاق النفسية ، ١٠٦ ، مختصر كتاب البلدان ، ١٢٨ ، الاصطخري ، ٥٢ ، صورة الارض ، ١٨٩ ، معجم البلدان ، آثار البلاد للقزويني ، ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، نخبة الدهر ، ١٩٠ ، Hudud al-A'lam, 140

العراق السياسية وغيرها ، وقلما كان لها دورها في مشاكل الشام ، وظل الحال هكذا حتى أواخر القرن الحادي عشر م عندما ازداد تدفق الغزّ على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغزّ من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وكانت الموصل أول محطة لهم نحو الشام ، وسبّب هذا تحولا هاماً في تاريخ الموصل مع الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بالتدريج جزئاً من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام وربما على الشام بأسره ، وسنرى في تاريخ الدولة العقيلية والدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

وبعدما احتل صالح بن مرداس الرحبة أخذ يتطلع بمطامحه نحو حلب ، فتورط من أجلها في صراع طويل أثمر في سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م عن احتلال حلب واقامة الحكم المرداسي فيها . ولم تقف مطامح صالح عند حدود حلب وشمال بلاد الشام بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين وساهم في العمل من أجل طرد الفاطميين من الشام ، فذهب ضحية مطامحه حيث قتل في سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م ، في معركة الاقحوانة ، في وادي الاردن قرب طبرية(١) ، ومقتل صالح لم يقض على وجود الدولة التي أقامها ، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب ، فحكم ثلاثة منهم بعده بشكل متوالٍ وهم : نصر ثم ثمال ثم عطية ، ثم حكم بعد عطية حفيد صالح محمود بن نصر ، ثم نصر بن محمود، وأخيراً سابق بن محمود الذي سقطت الدولة المرداسية في زمنه .

بعد وفاة ثمال في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م دخلت اول جماعة غزّية بلاد الشام ثم تبعتهاموجات اخرى سببت تدمير بلاد الشام، كما سببت سقوط الدولة المرداسية وعملت على إزالة القوة العربية من الشام .

لقد كانت الدولة المرداسية دولة بدوية ، تطبعت بالاخلاق العربية ،

---

١ — The Emirate of Aleppo, 97–101.

وبالمفهوم العربي البدوي في الحكم ، لذلك ازدهرت في ظلالها الحضارة العربية وثقافتها ، ففي زمن المرداسيين وفي ظلهم عاش المعري وكتب نثره وشعره، وكذلك فعل ابن ابي حصينة الشاعر . وابن سنان الخفاجي الكاتب الشاعر ، وأخيراً ابن حيوس كبير شعراء الشام في اواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م .

ولقد كانت علاقات الدولة المرداسية بالخلافة الفاطمية سيئة بشكل عام ، رغم ان المرداسيين قد اعترفوا اسمياً بسلطان خليفة القاهرة ، ولم يكن لهم اية علاقة — حتى ما قبل ١٠٧٠م — بالخلافة العباسية ، ولكن في نفس الوقت الذي اعترف فيه المرداسيون بسلطان الفاطميين كانت علاقتهم بالامبراطورية البيزنطية جيدة بشكل عام ، وغالباً ما وضع الأمراء المرداسيون انفسهم تحت الحماية البيزنطية ودفعوا جزية سنوية للقسطنطينية .

اعتادت بيزنطية ان تقيم دولا بدوية على حدودها ، لحماية هذه الحدود من غارات البدو بشكل عام ، ولتكون هذه الدول حاجزاً بين بيزنطة وقوى كبرى اخرى ، وعلى هذا فقد عمدت بيزنطة للعمل على حماية الدول البدوية التي اقامتها وعلى مساندتها بالمال وغير ذلك من الأسباب ، أما ان تدفع دولة بدوية الجزية لبيزنطة ، فلا بد ان ذلك حالة شاذة لها اسباب غير اعتيادية ! ويعود سبب دفع المرداسيين الجزية للامبراطورية البيزنطية الى وجود التهديد الفاطمي الدائم ، ثم الى طبيعة قبيلة كلاب من فوضى وتمزق وعدم اخلاص ، وعدم انقياد لزعيم واحد .

جمهوريات ساحل جنوبي بلاد الشام

بعدما سيطر الفاطميون على مصر ، تابعوا زحفهم الى الشام فدخل جنوبه مع سواحله في حوزتهم ، وكان للفاطميين اسطولهم القوي الذي مكنهم ، لفترة ، مع حامية دمشق وقوات فلسطين من الاحتفاظ بالسيطرة على مدن هذا

الساحل التي كان اهمها طرابلس ، وصور ، وصيدا ، وعكا . وفي النصف الثاني للقرن الخامس هـ / الحادي عشر للميلاد ضعف الفاطميون وبدأ نفوذهم ينحسر وقد افسح هذا المجال لقيام بعض من انواع « الجمهوريات » المستقلة في كل من طرابلس وصور .

تولى عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور عليها ، وامتنع بها عن الاعتراف بالنفوذ الفاطمي . وعقب موته ولي صور اولاده واستمروا يحكمونها حتى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م حيث جاءت حملة فاطمية قوية استطاعت انتزاع المدينة منهم واعادتها للحظيرة الفاطمية (١) .

لقد كانت الدولة التي قامت في طرابلس أطول عمراً وأبعد شهرة وأكثر أهمية من دولة صور ، ويعتقد أن مؤسس هذه الدولة هو القاضي ابو طالب الحسن بن عمار الذي كان من شخصيات الشام البارزة ، ومن المرجح انه استقل بحكم طرابلس بعد سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٩ م وبعد وفاته في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٨٢م استبد ابن اخيه جلال الدولة ابو الحسن علي بن عمار بحكم طرابلس وظل يحكمها حتى سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، ويعتبر جلال الدولة أعظم أفراد آل عمار الذين تولوا حكم طرابلس ، وفي عهده ازدهرت طرابلس ، ولقد استطاع جلال الدولة الحفاظ على استقلال طرابلس وحماها ودفع عنها الفاطميين والسلاجقة ، وبعد وفاة جلال الدولة خلفه اخوه فخر الملك ابو علي الذي ظل محتفظاً بطرابلس حتى قبيل سقوطها بيد الصليبيين في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٥٩م (٢)

* * *

١ – ابن القلانسي : ٩٦ – ٩٧ ، ١٢٠ . الكامل ٨/١٥٠ .

٢ – انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي : ٦٤ – ٧٦ .

الحروب الصليبية

كانت بلدان العالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر ، وخاصة في المشرق تعيش حالة من التمزق السياسي والضعف العام ، وبرز هذا الحال على أشده في بلاد الشام وأعالي بلاد الرافدين ، فقد عانت هذه المناطق الشيء الكثير من الدمار إثر هجرة التركمان إليها ، كما عاشت الفوضى والاضطراب وفقدان الأمن والاستقرار إثر قيام الفتح السلجوقي لها وتعاقب الحكام التركمان عليها ، وفي ذروة الدمار والعنف والعذاب وصلت إلى مشارف أنطاكية سنة ١٩٠٨ م حشود من فرنجة أوروبة الغربية ، كانت تهدف أول ما تهدف الوصول إلى القدس ، ثم القضاء على العرب حضارة وجنساً وعقيدة ، ودخلت هذه الجموع الشام وعاثت في دياره ، واستولت على كثير من مدنه وبلدانه ، وقتلت وأحرقت وهدمت دون أن تلقى مقاومة تذكر ، واستقرت هذه الحشود في بلدان الشام دون أن يزعجها أحد ، أو يقلق راحتها بشكل جدي ، ذلك أن حكام الشام من السلاجقة الذين لم تسقط مدنهم ، لم يتوقفوا عن الصراع بين انفسهم ، ونادراً ما اكترثوا أو اهتموا بنشاط الفرنجة .

ودعا المؤرخون ما قام به الفرنجة في بلاد الشام باسم الحروب الصليبية ، وقام هؤلاء المؤرخون بالبحث في أسباب قيام هذه الحروب ، فربطوها بعوامل أوروبية داخلية ، سياسية دينية ، واجتماعية اقتصادية ، وحين بحثوا في تاريخ هذه الحروب جعلوها في سبع حملات وأحياناً أكثر من ذلك ، وفي هذا العمل الشيء من المنطق بالنسبة للباحث الأوروبي ، إنما يحوي على جزء كبير من المغالطة مع تغافل عن حقيقة الأمور ووقائع التاريخ ، ذلك أن الجيوش والجموع الصليبية عندما وصلت الشام لم تكن أول قوات نصرانية ـ دافعها الأساسي ديني ـ تغزو هذه البلاد ، ثم لم يكن الكثير من الفرنجة يتعرفون للمرة الأولى على آسية

الصغرى مع مشارف الشام وأعالي بلاد الرافدين ، ذلك أن أعداداً كبيرة من الفرنجة كانت قد خدم أفرادها كمرتزقة في الجيوش البيزنطية ، وقاتلوا ضد المسلمين في الشرق ، وعرفوا طرائق الحرب ، وفنون القتال لديهم ، وشعر شعراء الشام للقرن العاشر والحادي عشر – مثل المتنبي وسواه – مع كتب المؤرخين حاوية لاشارات صريحة لهم ، ثم ما جاء في خطبة البابا أوربان الثاني – المبشر الأول بالحروب الصليبية – من نصائح قتالية لهو برهان كاف للتدليل على صحة هذا ، ولا حاجة للتذكير بأن الفرنجي الذي لم يسبق له القتال ضد مشارقة الشام ربما كان قد نال حظه في القتال ضد المغاربة .

لا ريب أن الحملات الصليبيـــة كانت حلقة من حلقات الصراع بين الاسلام والمسيحية ، لكن الأوروبي مهما تجرد ، تبقى هذه الحروب جزءاً من تاريخه وأمجاده خاصة في عصر مثل هذا العصر الذي ينادى به بالوحدة الأوروبية الشعبية ، وفترة الحروب الصليبية هي الفترة الوحيدة التي أجمعت فيها شعوب أوروبة على تحرك واحد ، ورجال الحروب الصليبية هم رجال الباحث الأوروبي ، وهم أبطاله الذين نشأ على حبهم واتخاذهم مثلاً أعلى ، لذا لا عجب أن قام الباحثون الأوروبيون بتمجيد رجال الصليبيين ، فأضفوا عليهم صوراً من القدرة والشجاعة والطاقات هي في كثير من الأحيان فوق الصفات العادية للبشر ، لقد جعلوا منهم أنصاف آلهة على طريقة الاغريق وأنصاف قديسين تبعاً لآراء الكنيسة الكاثوليكية ومعتقداتها ، مع أن واقع الحال لم يكن هكذا أبداً ، فالصليبيون كانوا بشراً أدنى من سواهم ثقافـــة وحضارة ، وحتى شجاعة ومعرفة بفنون القتال ، ولقد انتصروا حين وصلوا بلاد الشام ، لا لأنهم تمتعوا بصفات التفوق الطبيعي ، بل لأنهم واجهوا خصماً كان على درجة عظيمة من التفكك والهزال والضعف ، وكان وجودهم في المشرق مرتبطاً لا بقوتهم بل بضعف العرب وتمزق قواهم .

إنه لمن الخطأ والحال كما وصفت أن تتم دراسة تاريخ الحروب الصليبية وكأن هذا التاريخ قطعة من التاريخ الأوروبي البحت وجزء منه لا يتجزأ ؛ ذلك أن

أحداث الحروب الصليبية قد تمت في المشرق ، وفي المشرق فقط يمكن أن نتعرف إلى أسرار نجاح الصليبيين في البداية مع مراحل تاريخهم ، ثم اخفاقهم في النهاية .

بعدما احتل الصليبيون أنطاكية في ٢٨ تموز سنة ١٠٩٨ م أخذوا يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوباً ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية ، وحتى قبل أن يصل الفرنجة إليها ، أن انفصلت فئة منهم بقيادة واحد من زعمائهم واسمه بلدوين ، وتوجهت هذه الفئة من مرعش الى المشرق ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور السورية — البيزنطية ، ووصلت هذه الفئة أخيراً إلى مدينة الرُها ، فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاولى امارات الصليبيين الأربع في المشرق .

ومن أنطاكية تابعت جموع الفرنجة زحفها جنوباً، وذلك بعدما جعلوا من أنطاكية مركزاً لثاني الامارات الأربع ؛ وبعد مرحلة حافلة بالحوادث ، ومليئة بالدم العربي المسفوك بلا حدود ، وصلت هذه الجموع القدس ، وبعد حصار شديد عجزت فيه كل من دمشق والقاهرة وسواهما عن تقديم النجدة والمعونة ، تمكنوا من اجتياحها في « ١٦ تموز سنة ١٠٩٩ م » ، فقتلوا كل من كان فيها من المسلمين ، ثم جعلوها مركزاً لثالث دولهم وأعلاها مرتبة ، وبعد احتلالهم القدس أخذوا يوسعون أملاكهم ، وهدفوا آنذاك نحو أمرين أساسيين هما : الاستيلاء على كل من حلب وطرابلس .

وفي سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م استولوا على طرابلس ، لكنهم أخفقوا في أخذ حلب ، فكان لذلك أثره العظيم المحول على بقائهم في المشرق ، ولم يحل صمود حلب فقط بين الصليبيين وبين إكمال سيطرتهم على بلاد الشام ، بل هيأ الفرصة أمام العرب لتجميع قواهم ،فمن حلب انطلقت أولى حركات التحرر ،واستفاقة العرب ويقظتهم ، وبفضل حلب حفظ المشرق من التحول إلى شيء أوروبي .

لقد كانت الضربة التي حلت بعرب الشام إثـــر احتلال الصليبيين لأجزاء من بلادهم ضربة مروعة ، ولم تعد هذه الضربة رغم فظاعة وقائعها ونتائجها

حكام الشام إلى وعيهم ، حيث استمروا يتنازعون من أجل السلطان ، وكان الشعب في حلب هو الذي أحس أولاً بفداحة الضربة ، وشعر بمدى الذل الذي ألم بالأمة العربية فتحرك ، ونقل هذا الاحساس والتحرك إلى الموصل .

فعندما دخل الفرنجة بلاد الشام كانت أبرز دوله دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما : دقاق ابن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلاً خاصاً من أجيال السلاجقة ، فقد وقفا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلباً من جميع أراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا إلاّ بعض أراضيها الجنوبية والشرقية .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وأرادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعوراً ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب – الميليشيا المحلية – ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تُتُش ، حاكم المدينة التركماني وكان هذا الثائر يعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحاً من قرية الفوعة القريبة من حلب ، وكان شهماً ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تُتُش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين أفراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبياً دينياً ، وأدى هذا إلى إخفاق الثورة والقاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان : « عذبه عذاباً شديداً بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحمى الطست حتى صار كالنار ، ووضعه على رأسه ، ونفخ في دبره

بكير الحداد ، وثقب كعابه وضرب فيها الرزز والحلق » .

ولما وضع النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لا تعرف ، أحضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقرر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلاّ ما أقرّ به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأُخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شابان ، مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك » .

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الثوار أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفداً من بينهم غادر المدينة سراً وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ إلى مطالبيهم ، وأمام هذا التجاهل حرك الوفد أهالي بغداد ، واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم يوم الجمع وكسروا بعض المنابر ، وهاج الناس في بغداد ، فأخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير جعل قيادته لمودود حاكم الموصل آنئذ ، وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت حلباً ، أغلق رضوان ابن تُتُش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب حلب وأودعهم كرهائن عنده في القلعة ، لئلا يفتح الشعب الأبواب ، ويسلموها للقوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثر اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد ، وترك الركوب بينهم ،

وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر – أي عساكر مودود وأصحابه – فيأخذونه » .

واضطر هذا الحال مودوداً وأصحابه إلى الرحيل جنوباً ، وأثناء تحركهم اصطدموا قرب شيزر بقوة صليبية فانتصروا عليها ، وعندما وصل مودود إلى دمشق قام تحالف بينه وبين حاكم دمشق ، ودخل مودود المدينة ، وبينما كان يعد العدة للتحرك ضد فرنجة فلسطين اغتيل على يد واحد من الحشيشية ، وحدث اغتياله في مسجد جامع دمشق ، فأدى اغتياله إلى اخفاق المهمة التي جاء من أجلها ، وإلى تبعثر قواته .

ومات رضوان في نفس السنة التي اغتيل بها مودود ، وكان من المحرضين على قتله ، وكان ذلك سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ، وساءت الأحوال بعد هذه الفترة ، واستفحلت الفوضى في بلاد الشام ، فازداد الجيشان الشعبي ، وخاصة في مدينة حلب ، حيث استطاع الحلبيون السيطرة على مقاليد أمور دولتهم ، وجمدوا أصحاب السلطة الرسمية عن التحرك ، وأوقفوهم عن مباشرةالأعمال ، ولكن قبل الاستطراد في الحديث عما عمله أهالي حلب في سبيل التحرير ، من المفيد أن نذكر أن الصليبيين كانوا قد وصلوا مشارف الشام جمعاً واحداً ، لكن ما أن توغلوا فيه ، وفتحوا بعض أراضيه ، حتى دب بين صفوفهم التمزق فانقسموا إلى عدة دويلات ، وبما أن كثيراً من صليبيي « سنة ١٠٩٨ م » قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديداً تمتع بصفات خاصة . ولما كان تدفق الفرنجة من أوروبة على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفاً من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة إلى هذا فقد قامت بين الصليبيين تنظيمات غالباً ما كانت ذات صبغة عسكرية ، وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الأيام ، وازدادت الفرقة عمقاً ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح الحماسية التي وجدت في التحرك الأول ، خاصة بين صفوف المعدمين Ta'urs – « الطفرانين » منهم .

وفي الوقت الذي حصل فيه هذا بين صفوف الصليبيين ، كان العرب في الشام قد أصابهم انقلاب هائل أيضاً ، فقد أزال الشعب القيادات القديمة ، اللامبالية والأنانية الظالمة ، وتكونت قيادات جديدة ، وخلق انسان عربي جديد مع روح جديدة ، وعاش الشعب وقياداته مع الجهاد ، ونبذت الأمة الفرقة ، وجاهدت من أجل الوحدة ، وصار الحكم بالنسبة لكثير من الحكام رسالة ومسؤولية للتحرير ، لا وسيلة للسيطرة ، وأداة من أجل النفوذ والكسب الفردي أو الأسروي .

وجرت العادة على تقسيم الحروب الصليبية إلى سبعة أقسام أو أكثر ، وذلك حسب عدد الحملات العظمى التي جاءت من الغرب ، ومرة أخرى في هذا مغالطة ، ذلك أن الصليبيين لم يتوقف تدفقهم على الشام براً وبحراً ، إنما كان هذا التدفق متفاوت الحجوم ، ولهذا فمن العبث الحديث عن حملات — ذلك انه كان هناك حملة واحدة بدأت قبل سنة ١٠٩٨ م ، وانتهت بتصفية آخر معاقل الفرنجة بالشام .

وعندما أقوم برفض التقسيم المعهود — الذي أبدع في الغرب ، ومن هناك استورده كتاب المشرق ، أي من عند حفدة الصليبيين — أتصور أن تاريخ الحروب الصليبية قد مرّ بمراحل أربع ، ولقد ارتبطت كل مرحلة من هذه المراحل باسم مدينة من مدن العرب ، وتأثرت أبعد التأثير وأعمقه بدرجات الاستفاقة والوحدة التي حلت بين صفوف العرب ، خاصة في المشرق .

وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، ثم مرحلة حلب ، ثم مرحلة دمشق ، وأخيراً مرحلة القاهرة ، فمن الموصل انطلقت أول قوات التحرير المنظمة ، وبقوات الموصل أمكن الانتقال من حالة الدفاع والانحسار العربي ، إلى حالة الهجوم واسترداد الأرض ، ومن حلب أمكن صنع الوحدة بين شمال الشام وجنوبه ، ومن دمشق قيدت جيوش حطين ، وأخيراً تحملت القاهرة العبء الأكبر في أعمال تصفية الصليبيين .

ومن الملاحظ أنه بعد ما استولى الصليبيون على طرابلس ، رأوا أن عليهم

الاستيلاء على مدينة حلب من أجل سد الثغرة الفاصلة بين اماراتيهم في الرها وأنطاكية ، وفي سنة « ٥١٨هـ / ١١٢٤ » حضروا كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت حلباً – في هذه الآونة تتبع رسمياً تمرتاش بن ايلغازي – أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية – ، وقام الصليبيون بالاتصال بدُبيس بن صدقة ، صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب ، مقابل تعيينه أميراً عليها شرط أن يسمح لحامية من القوات الصليبية بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران صاحب قلعة جعبر ، ومع إبراهيم بن رضوان بن تُتُش ، الذي كانت أسرته تحكم حلب أيام بدء الحروب الصليبية ، وتحركت قوات الصليبيين مع قوات حلفائهم وزحفت على مدينة حلب ، وأخذوا في حصارها ، وعدل الاتفاق أثناء هذا الحصار ، بأن تكون مدينة حلب لابراهيم بن رضوان « لأنها كانت لأبيه » .

وقام أهل حلب بتنظيم أمور الدفاع عن مدينتهم ، وتولى زمام المقاومة قاضي المدينة أبو الفضل بن الخشاب ، وأعانه بعض زعماء شعب المدينة ، واشتد الحصار على حلب وطال ، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوارها « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين ، وعمله ثفرا (الثفر : السير الذي في مؤخر السرج) لبرذونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ، ومذاكيره ودفعوه إلى المسلمين » .

ولم يؤثر هذا على معنويات الحلبيين بل داوموا الدفاع ، وازدادوا اصراراً على المقاومة « وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات ، والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا ابن العديم مؤرخ مدينة حلب عن أبيه

وكان من شهود العيان أن الحلبيين «كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه » .

« ولما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها ، وضاق الأمر » بالحلبيين فاتفق رأيهم على تسيير وفد إلى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك في ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلاً من البلد وعلم الفرنج بخبر الوفد ، وحاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت قصير بوصول وفدهم إلى ماردين ، وفي ماردين لقي الوفد مفاجأة كبرى ، وتحدث أبو غانم جد ابن العديم — وكان أحد رجالات الوفد — عما حدث في ماردين فقال : « لما وصلنا إلى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه إليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وأنزلنا في مكان بماردين وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا : ما هذه إلاّ فرصة ، وقلنا له : لا تفعل ، ولا تسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ، فقال له القاضي أبو غانم : وايش هم حتى لا تقدر عليهم ، ونحن أهل البلاد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم .

قال القاضي أبو الفضل — عم ابن العديم وراوي الخبر له — فكتبت كتاباً من حلب إلى والدي أبو غانم أخبره فيه بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يـــــد تمرتاش ، وشق عليه وغضب ، وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة ، وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغروني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم !

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا، فوكل بنا من يحفظنا خوفاً أن ننفصل عنه إلى غيره، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي — صاحب الموصل — ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ، ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ، ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الأرض ، قال القاضي أبو غانم: فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلاّ غلامي ياقوت ، وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ، ولا تنتظروني فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم ، حتّى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا أعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلاّ وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعاً وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتّى وصلنا الموصل » .

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البُرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكر الموصل على مدينة حلب ، رحلت قوات الصليبيين متسحبة ، وهكذا نجت مدينة حلب ، وكان هذا الحادث بداية عهد جديد في تاريخ العرب مع تاريخ وجود الصليبيين ، فسنة « ٥١٨ » هـ هي سنة بداية التحرير ، ففي ظل قيادة

البُرسقي توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين وأخذ بتجميع طاقات الأمة ضد الصليبيين ، وشُرع في وضع خطط واضحة المعالم لتصفية الوجود الصليبي في المشرق ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي إلى مرحلة الهجوم الايجابي والتصفية، لكن من سوء حظ الأمة أن البرسقي اغتيل على يد الحشيشية بعد عامين من انقاذه لحلب ، وبدئه حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله إلى انتكاسة مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة ، لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، فلقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، كان يعرف ما يريد عن إيمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل إلى مدينة بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سُنْقُر قسيم الدولة، وتعاقدوا معه على تولي حكم الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعدما تم التعاقد ، أجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكماً جديداً على الموصل ، واستبعاد سواه ، وكان أهل الموصل يعرفون زنكي معرفة جيدة ، ذلك أنه عاش القسط الأكبر من صباه وشبابه في مدينتهم .

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي الأمور بالموصل ، وكان زنكي هذا عسكرياً من الطراز النادر ، له من الحزم والشجاعة ، وحب النظام والتقيد بالقانون مع المطامح العالية ، ما أحله محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك ، وقد أوكلته إليه ، وعهدت بمسؤولياته الجسام إلى اخلاصه وكفاءته .

وأدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه ، فقام بها خير قيام ، وأدرك أن عليه ــ حتى يحقق النجاح ــ أن يوحد بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً، ويزيل جميع العوائق والفوارق، ويطور حركة اليقظة وينميها فينفي عنها الفوضوية ، ويلزمها بالجدية والنظام والعمل البناء ، وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف إلى إزالة مملكة الرُها ثم اسقاط أنطاكية ، وبهذا تسد الثغرة

ما بين أعالي الرافدين وشمالي الشام ، ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين من آسية الصغرى إلى الشام .

وعندما يطالع المرء سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، ووصفه ابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب بقوله : « كان زنكي ملكاً عظيماً ، شجاعاً ، جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ، ووصفه واحد من معاصريه بقوله : « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقاً من الزرع ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلاّ بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه — أي راتبه — وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، وأحسن إلى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد ، ... ونهى عن الكلف والمغارم والسخر ، والتثقيل عل الرعية ، وأقام الحدود في بلاده » ، وفرض زنكي على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الالزامية، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب .

وما أن مكّن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت إلى جهاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام ، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب فيها نشأ وأمضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه ، ويحملون ذكريات طيبة عن أبيه الذي حكمهم لعدة سنوات ولذلك قاموا عند قدومه إلى الموصل فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الأسرة الأرتقية التركمانية الذين استولوا عليها بعد اغتيال البُرسقي ، وذهبت جماعة منهم إلى زنكي فاستدعوه إلى حلب ، وسخر زنكي طاقات دولته للتحرير ، ووقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين

معرة النعمان ، وكفرطاب ، وبارين ، والأثارب ، والمنطقة الشمالية والغربية لمملكة حلب .

وكان همّ زنكي وشغله الشاغل احتلال الرُها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وسد الثغرة بين شمال الشام والجزيرة ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلاً وأفراداً ، استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرُها ، والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق ، وكان لمبادرات أفراد من الشعب الشخصية الفضل الأكبر في نجاح زنكي في اقتحام مدينة الرُها .

ففي أثناء حصار الرُها نزل رجل اسمه موسى إلى السوق فاشترى لباساً من ألبسة الأرمن ، وتزيا بزيهم ، وكان موسى هذا أشقر اللون شكله شكل الأرمن وكان جهوري الصوت ، واستطاع موسى هذا التسلل إلى داخل الرُها ، فذهب إلى جامعها ، وصعد منارة الجامع المهجور ، وأخذ يكبر ويؤذن ، فسبب ذلك حدوث صخب وفوضى في المدينة حيث ظن المدافعون عنها أنها قد خرقت واحتلت ، لذلك تخلى المدافعون عن جزء من الأسوار ، فصعدت عساكر زنكي إليها ، واقتحمت المدينة ، وقام زنكي بعد احتلال الرُها بمنح هـذا الرجل جائزة كبيرة ، ولقد عم لسقوط الرُها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكان ذلك أروع ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة ألمت بهم .

وبعد مضي عامين على سقوط الرُها قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر ، وحدث اغتيال زنكي في الليل بينما كان نائماً ، وجاء الغلام الذي قتله إلى تحت القلعة « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا له : إذهب إلى لعنة الله ، قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

وكان لمصرع زنكي أثر مفجع على نفوس العرب ، فدعوه «بالشهيد » ،

ورغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم، لكن لم يؤثر موت زنكي كثيراً على أوضاع الأمة، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثيراً بفقدان القادة، لأنها تخلقهم الواحد تلو الآخر.

فقد تسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه، وكان نور الدين الذي اتخذ من حلب مقراً له، مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده وسلامة نيته، فقد كان يعتقد بأن الله قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار العرب، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة، ولهدف واحد..

وكانت فاتحة أعمال نور الدين محمود استعادة مدينة الرُها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي، وتوقعوا انشغال أسرته بالصراع حول ميراثه، كما هي كانت العادة آنذاك، فاحتلوها ثانية، وبعد هذا بذل نور الدين جهد ما أوتيه من قوة وطاقة في سبيل اثارة الأمة، وبعث روح الجهاد فيها وزرع مشاعر التضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الأراضي العربية والاسلامية، ويعتبر نور الدين من أعظم الرجال الذين أسهموا في ايجاد جيل عربي جديد، له روح جديدة، تضحي في سبيل الجهاد والتحرر وتخترع وتبدع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرر، وبنفس الوقت هي روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والجماعة وتتعشق التعاون والتكاتف، وتكره الفرقة وتمجها وتجسدت هذه الروح الجديدة في معظم أفراد الأمة، وفي شخص نور الدين، فكان مثلاً أعلى ونموذجاً يقتدى به، ومكنت هذه الروح نور الدين سنة ١١٥٤ م من الذهاب الى دمشق بناء على دعوة أهلها، فوحّد لأول مرة منذ قرون شمال الشام مع جنوبه، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة، وهي أيضاً التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي، وهي التي رعت الثقافة، وشجعت المثقفين، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبار، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير

الأمم وتواريخها (١) .

وإذا كان حادث وفاة عماد الدين زنكي قد أنهى المرحلة الأولى من مراحل التاريخ العربي زمن الصليبيين ، فإن تسلم نور الدين لمدينة دمشق قد أنهى مرحلة حلب وابتدأ المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق ، وبلا شك كانت هذه المرحلة أهم المراحل وأخطرها ، فبعدما وحّد نور الدين بين شمال بلاد الشام وجنوبها اتخذ من مدينة دمشق مركزاً لأعماله ، ولقد خاض ضد الصليبيين عدة معارك ، وكانت جميع المعارك التي وقعت بين العرب والصليبيين حتّى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع ، لذا كان كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتاً مديداً ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما كبير نتائج ، وكان إذا ما حدث ووقع اشتباك في أحد السهول ، فإن المهزوم غالباً ما كان ينسحب إلى أحد مواقعه المحصنة القريبة ، فيتخذ موقف الدفاع ، ولهذا طال أمد الحروب الصليبية ، فاحتاجت إلى تكاليف باهظة ، وبات على العرب وقادتهم تأمين

---

١ – جدير بنا هنا أن نلاحظ أن وحدة الأمة العربية عبر الأجيال قد تجلت حضارياً وعقائدياً واجتماعياً وأهدافاً في هذا التاريخ العظيم ، فغالبية الذين ترجم ابن عساكر لهم في كتابه قد ولدوا خارج دمشق وخارج بلاد الشام ، ونشأوا في احدى بلدان الوطن العربي والعالم الاسلامي ، وقد جاءوا إلى دمشق عابري طريق ، أو زائرين بقصد الإقامة أو التعليم ، أو العمل ، أو السياحة أو التجارة ، أو العبادة ، أو أي أمر آخر ...

ويلاحظ المرء أن هناك تشابهاً بين مشكلة فلسطين حالياً وقضية الحروب الصليبية ، ولعله ليس من قبيل الصدفة أن الرغبة والعمل في سبيل نشر تاريخ ابن عساكر قد تعايشت زمنياً مع الرغبة والعمل في سبيل تحرير فلسطين من الصهيونية ، وقد قطع العمل في هذا الكتاب نفس الشوط الذي قطعه العمل من أجل تحرير فلسطين ، ويخيل لي في كثير من الأحيان أن نشر تاريخ ابن عساكر سيعني عندما يتم أن العرب أصبحوا مؤهلين لتحرير فلسطين ، ذلك أن كل عمل سياسي لا يقوم على دعامة فكرية حضارية هو حتماً عمل مكتوب له الاخفاق .

الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبنفس الوقت العمل من أجل خلق ظروف وحالات مؤاتية لقيام معركـة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية وتدمر.

وبعدما وحّد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بمواردها الهائلة وطاقاتها الجبارة ، وموقعها الممتاز ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها ، وكي يدخل إليها الروح الجديدة التي حلت بالشام، وحتى تستخدم موارد مصر، وتزج طاقاتها في المعركة بدلاً من التبعثر والهدروالضياع.

ولقد أراد الصليبيون احتلال مصر للاستفادة منها ومن مواردها ، ولكي يحولوا بين العرب وبين تطويقهم والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم ، لهذا جردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين سارع إلى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين وتجاوب شعب مصر معهـا أخفقت جهود الصليبيين، وأحبطت خططهم ، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧ م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية ، كما استولى على ليبيا واليمن ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطُوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل المعركة الفاصلة ، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وكانت استعدادات نور الدين كاملة ، حتى أنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريزه (١) .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين ، أصدر أوامره إلى صلاح

---

١ – أحرق هذا المنبر منذ فترة وجيزة عند احراق المسجد الأقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن — ولكل عظيم سقطة — غلبت أنانية صلاح الدين وشهواته للسلطة على نفسه — وذلك بتحريض من جهازه الذي أحاط به نفسه، وتخويفه من نور الدين — فتلكأ صلاح الدين ، ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللاً بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ م ، وخلفه ابنه الصالح اسماعيل ، وكان صبياً ، فلم يستطع القيام بأعباء الملك، وحل الضعف والتمزق في جسم دولة نور الدين ، وأخفق أمراء الموصل من آل نور الدين في أخذ محله ، ذلك أنه بعد وفاة عماد الدين زنكي انقسمت دولته التي أسسها، وعرفت بالدولة الأتابكية، إلى قسمين : قسم الموصل ، وقسم الشام ، وبوفاة نور الدين حلت النهاية الفعلية للدولة الأتابكية الشامية ، ذلك أن صلاح الدين تحرك من مصر وجاء الشام ، وبعد عمل متواصل استمر عدة سنين استطاع أن يرث دولة نور الدين ، ويقيم مكانها دولة جديدة هي الدولة الأيوبية .

وبعدما أنجز صلاح الدين إقامة دولته الموحدة ، الممتدة من ليبيا إلى الموصل ، والشاملة لليمن والحجاز أيضاً ، قاد قواته المحترفة مع جموع كبيرة من المتطوعة من الشعب وذلك سنة ١١٨٧ م ، قادها نحو فلسطين ، وقام باستدراج قوات الصليبيين نحو حطين ، وعند حطين حطمت قوات صلاح الدين القوة العسكرية للصليبيين في معركة تجلت فيها العبقرية العسكرية والسياسية لإدارة صلاح الدين ، وبعد حطين حررت مدينة القدس ، وجلب صلاح الدين إلى المسجد الأقصى المنبر الذي صنعه نور الدين ، فخطب عليه أولى خطب الجمعة بعد التحرير .

وبعد نصر حطين بات أمر وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا أكثر ، وأنهى نصر حطين المرحلة الثالثة من مراحل تاريخ وجود الصليبيين في المشرق ، وافتتح المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة التصفية ، وكان للقاهرة شرف قيادة العرب في هذه المرحلة .

ذلك أن استيلاء نور الدين على مصر ، فك طوق العزلة عنها ، ثم إن الروح الجديدة التي حملت إليها من الشام ترعرعت ، فجعلت بعد فترة وجيزة من القاهرة عاصمة لديار العرب ، ذلك أن معالم الوطن العربي ضمن العالم الاسلامي أخذت تتوضح الآن ، وصارت القاهرة مركزاً لقوى العرب ، ومعهداً لثقافتهم ووصياً على حضارتهم .

وعندما يتفحص المرء دولة صلاح الدين في أواخر أيامه يجدها قد أصبحت أشبه بامبراطورية ، تضم عدداً من الدول ، يربطها بالسلطان نظام الاقطاع العسكري ، هذا النظام الذي تطور أيام السلاجقة ، وأدخلت عليه تعديلات كبيرة ، وقد ورث صلاح الدين هذا النظام ، وبعد وفاة صلاح الدين غدت مصر أكبر دول الأسرة الأيوبية ، وصار سيد القاهرة أكبر حكام الأيوبيين وأجدرهم بحمل لقب سلطان ، وقاد خلفاء صلاح الدين في القاهرة بشكل خاص العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

وأدركت أوربة أهمية مصر وعرفتها حق المعرفة ، فأخذت بتوجيه قواها الصليبية ضدها ، وفي مصر تطور جيش محترف جديد ، كانت عناصره من الأرقاء ، الذين ابتيعوا وهم أطفال ، ودربوا تدريباً عسكرياً خاصاً ، ومع الأيام عظمت قوى هذا الجيش ، وضعفت قوى الأسرة الأيوبية ، فقام جيش القاهرة ، الذي عرف بجيش المماليك ، بالاستيلاء على السلطنة ، وبذلك أنهى الحكم الأيوبي .

وقام سلاطنة المماليك بأعباء تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، كما جلبوا الاخفاق لمحاولات أوربة في احتلال أجزاء جديدة في المشرق ، كما أنهم تمكنوا من حماية الوطن العربي في مشرقه ومغربه وصيانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي ، ففي عين جالوت هزم المماليك المغول ، واستطاعوا بعد هذا تحرير مدن الشام منهم، كما أنهم حموا الشام من غاراتهم .

وطور العرب زمن الحروب الصليبية نظاماً اقتصادياً خاصاً ، توافق مع حاجات الحرب الطويلة ، كما أنهم طوروا صناعات الأسلحة ، فاخترعوا العديد من أنواع الأسلحة الجديدة ، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحرب ، وكلها تعود لهذه الفترة .

وفي زمن الحروب الصليبية ازدادت أهمية القادة العسكريين ، فتسلموا زمام الادارة المدنية والعسكرية معاً ، وبهذا تعاظمت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وعندما توقفت الحروب أصبح الجند عالة على الأمة ، يضاف إلى هذا أن الشعور بالنصر والسلم والأمان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، دفع بالعرب نحو الاخلاد إلى الراحة والسكينة ، وحيث أن الأمة قد وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، فقد عطل هذا الكثير من جوانب الابداع والحيوية والتجديد في الثقافة والحضارة ، وكانت ظروف الحرب قد زادت من أهمية رجال الدين، فولد الاقطاع الديني ، وتحالف هذا الاقطاع مع الاقطاع العسكري السياسي ، فنجم عن كل ذلك تعصب شديد ، وولد التعصب الإهمال للحضارة والثقافة ، كما جمد حالات الخلاف المذهبي والديني وعمقها،وأودعها أشياء جديدة ما زالت بقاياها واضحة حتى الآن .

وبينما كان العرب المنتصرون في الحروب الصليبية يخلدون إلى الراحة ،

كانت أوربة تشهد نهضة جديدة ، كان لثقافة المشرق وحضارته النصيب الأوفر في قيامها، وآتت نهضة أوربة أكلها في قيام حضارة الغرب الجديدة ، وآتى اخلاد العرب إلى الراحة تخلفاً وانحطاطاً (١) .

* * *

١ – لقي تاريخ الحروب الصليبية العناية في الغرب ، بحيث تم نشر مصادره الغربية كما عني بنشر بعض المصادر العربية والفارسية والسريانية والأرمنية، وقام الدكتور عزيز سوريال عطية بتأليف كتاب عن مصادر الحروب الصليبية سماه :

The Crusade, Historiography and Bibliography, London 1962.

وبعد نشره لكتابه هذا تم نشر العديد من الأبحاث الحديثة لعل من أهمها كتاب : Nur AD - Din تأليف Nikita Elisseeff ونشر في دمشق سنة ١٩٦٧ ، وقام بعده دكتور محمود زايد بنشر سيرة نور الدين لابن قاضي شهبه – بيروت ١٩٧١ ، كما نشر دكتور عماد الدين خليل كتاباً عن عماد الدين زنكي – بيروت ١٩٧١ ، وبعده قام جوشكون ألبتكين باعداد اطروحة دكتوراه في لندن عن عماد الدين زنكي .

هذا وما تزال المكتبة العربية تحوي مصادر كثيرة عن الحروب الصليبية لعل أهمها كتاب بغية الطلب لابن العديم ، ففي هذا الكتاب تراجم للعديد من قادة الفترة الصليبية على رأسهم آمد سنقر البرسقي وزنكي ، ويحوي تاريخ دمشق لابن عساكر مادة مفيدة كما يحوي كتاب المقفى للمقريزي عدداً من التراجم المهمة ، وهذه الكتب كلها مخطوطة لم تطبع بعد . وأعتقد أن أهم مصدر نشر مؤخراً عن الحروب الصليبية كان سنا البرق الشامي الذي هذب به البنداري كتاب العماد الأصفهاني – البرق الشامي ، ونشر القسم الأول من الكتاب في بيروت عام ١٩٧١ . كما نشر في بيروت عام ١٩٧٣ . كتاب السمط الغالي الثمن لمحمد بن حاتم الهمداني ، وفيه أوفى المعلومات عن الدولة الأيوبية في اليمن .

الفصل الثاني

دول المغرب

مصر ـ شمال أفريقية ـ الأندلس

دول مصر

الدولة الطولونية

اسس هذه الدولة في مصر أحمد بن طولون في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، وكان من أصل تركي ، من مواليد سامراء المدينة التي كانت تعج بالعسكريين الأتراك فتأثر بجوّها الى حد كبير وكان لذلك تأثير كبير في مجرى حياته ، ثم تولى أولى مهامه السياسية عندما جاء الى مصر نائباً لواليها (بايكباك) الذي كان أحد البارزين حينئذ في البلاط العباسي. وكانت مصر حين قدمها تعاني من التمزّق والاضطرابات الداخلية ، فعمل ابن طولون على انقاذها من الفوضى والانهيار الاقتصادي، واستغل سير الاحداث لمصلحته وما يتوافق وطموحه الكبير للاستقلال بهذه البلاد ، والقيام بدور بارز تحت سلطان الخلافة.

وجاءت الظروف بدورها تمهد الطريق أمام ابن طولون لبلوغ ما طمح إليه ، فلم تكد تمضي فترة وجيزة حتى قتل سيده صاحب مصر ، فأسندت هذه الولاية إلى قائد تركي آخر هو (يارجوخ) وكان ابن طولون متزوجاً من ابنته ، فأقرّه الوالي الجديد في مركزه . وبذلك أتيحت الفرصة أمامه لتحقيق طموحه في حكم هذه البلاد ، فبدأ يتصرف وكأنه الوالي الشرعي لها ، وما لبث أن أصبح الحاكم الرسمي بعد موت (يارجوخ) واعترف به الخليفة .

والواقع أن ابن طولون برغم انتمائه الى مجموعة العسكريين الأتراك المسؤولة عن انهيار الحكم في عاصمة الخلافة ، اختلف سلوكه السياسي تماماً عن سلوك أقرانه الأتراك . فقد بذل جهوداً عظيمة من أجل بناء دولة قوية ، تمثل فيها الاستقرار والانتعاش الاقتصادي خير تمثيل .

ولم يتوقف طموح ابن طولون عند حدود مصر ، فسرعان ما اتجه بانظاره الى الشام ، وهذا أمر كاد أن يكون حتمياً بالنسبة للسياسيين الذين حكموا مصر خلال الادوار التاريخية ، وقد ساعده على تحقيق هذه السياسة التوسعية ما كان يجابه الحكم المركزي في بغداد من أزمات داخلية خطيرة . وبذلك نجح ابن طولون في اقامة دولة مستقلة تمتد من العراق شرقاً الى برقه غرباً ، وكانت دولة قوية متماسكة بفضل ما تميز به مؤسسها من بعد في النظر وميل للاصلاح .

ولكن سياسته التوسعية هذه جرّت الى صدام بينه وبين الموفّق حيث تمكن هذا الأخير برغم الانتصارات التي حققها ابن طولون من اثارة الأمراء في البلاد والثغور عليه ، وإظهاره أمام الناس بمظهر الخارج على الخلافة ، وبذلك استطاع للموفق أن يعزل صاحب مصر في المناطق التي استولى عليها ، دون أن يمكنه من القيام بالدور الذي كان يطمح إليه وهو مد نفوذه السياسي ليشمل الخلافة نفسها .

وبعد موت ابن طولون (٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م) خلفه ابنه خُمارويه في حكم مصر ، والشـــام ، وورث عنه الصراع ضد الخلافة العباسية الممثلة بالموفق ، فما كاد هذا الأخير ينفض يديه من ثورة الزنج حتى بادر بارسال جيش للقضاء على الطولونيين ، فاستولى على الشام وتابع سيره متعقباً خمارويه حتى الحدود المصرية ، ولم ينقذ الطولونيين إلاّ القائد سعد الأيسر الذي كمن للموفق وتمكن من هزيمتـــه وانتهى الأمر برجوع الطولونيين إلى دمشق وانعقاد صلح بين الطرفين يقضي بترك الشام ومصر لخمارويه وأولاده من بعده .

وقد ظلت الدولة الطولونية تشغل دورها البارز الذي أراده لها مؤسسها أحمد ابن طولون حتى موت خمارويه سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م . ومنذ ذلك التاريخ عصفت بهذه الدولة رياح التمزق والتنافس بين أمراء البيت الطولوني ، كما هبت عليها رياح الأخطار الخارجية بظهور الدعوة الفاطمية في المغرب والدعوة القرمطية في الشام ، ولم يتمكن خلفاء خمارويه من مجابهة هذه الاخطار وأظهروا

عجزاً ظاهراً في مجابهتهم للقرامطة ، الأمر الذي نبّه الخلافة العباسية لذلك فعملت على استعادة مصر الى سلطانها المباشر قبل أن يتسرب إليها الخطر القرمطي (١) .

الدولة الاخشيدية

كانت تشهد كل فترة انتقالية كان يتغير فيها الحكم من سلطة الى اخرى، بروز بعض المغامرين الذين كانوا يرقبون سير الأحداث باهتمام ويستغلونها لمصلحتهم ، وكان من هؤلاء محمد بن طغج بن جف مؤسس الدولة التي قامت على أنقاض دولة الطولونيين ، وعرفت بالأخشيدية نسبة اليه . والأخشيد كلمة تركية كانت تطلق على ملوك فرغانه في بلاد ما وراء النهر . وكان جدّه (جف) في عداد الأتراك الذين بدأوا يتوافدون على عاصمة الخلافة في عهد المعتصم ، فخدم في جيش الخليفة كما خدم ابوه في جيش ابن طولون وتولى امارة الشام في عهد خمارويه . وقد ظل في هذا المنصب حتى سقوط الحكم الطولوني ، فانتقل مع ابنه محمد (الأخشيد) الى بغداد حيث مات فيها .

وفي تلك الأثناء كانت مصر تتعرض لخطر الفاطميين فاشترك محمد بن طغج في الحملة العسكرية التي ارسلها الخليفة لقتال الفاطميين، وأبدى شجاعة فائقة حتى صار مقرباً من قائد الحملة . ولم يكن يعوز هذا الرجل ، الطموح، فأخذ يرنو الى مصر ويأمل في السيطرة عليها . معتمداً على اجتذاب العناصر التركية في عاصمة الخلافة واكتساب عطف الخليفة . وقد جاءته الفرصة بعد تولي الخليفة الراضي في وقت كانت فيه مصر تنوء بمشاكلها ، وهي فترة اشبه ما تكون بالفترة التي سبقت حكم ابن طولون . لذلك كان لا بد من رجل

١ – تحوي كتب التاريخ العامة مادة جيدة عن الدولة الطولونية ، هذا ونملك سيرة لأحمد ابن طولون صنعها البلوي ، كما أن هناك تراجم في غاية الجودة لكل من أحمد بن طولون ، وخمارويه بن أحمد ، ثم جيش ابن خمارويه ، وردت في بغية الطلب لابن العديم وكتاب المقفى للمقريزي ، وهي تراجم جديرة بالدراسة والنشر .

قوي يتولى أمر هذه البلاد لتكون قادرة على صد هجمات الفاطميين. فكان أن عهد الخليفة الى محمد بن طغج بحكم مصر ولقبه بالأخشيد بناء على طلبه .

وليس ثمة شك ان الاخشيد تأثر بسلفه ابن طولون الى حد كبير ، سواء في الاصلاحات التي قام بها في الداخل ، ام في سياسته الخارجية حين تطلع الى تأمين حدوده الشمالية والسيطرة على بلاد الشام . ولكن سياسته الشامية كانت مثار متاعب لا حد لها . فقد فرض عليه مجابهة أمير الأمراء ابن رائق التي كانت له السيطرة على جنوب الشام ، والأمراء الحمدانيين المسيطرين على شمالها ، وعلى ذلك فإن حروباً طويلة كانت تنتظره في الشام من الطرفين، فضلا عن هموم الجبهة الغربية الناجمة عن تهديدات الفاطميين .

ولقد اشتدت المعارك بين الأخشيد وخصمه العنيد ابن رائق دون ان يحقق أحدهما نصراً حاسماً . على أن الرجلين توصلا في النهاية الى عقد صلح يقضي باقتسام جنوب الشام بينهما . ثم سارت الظروف لمصلحة الأخشيد في الشام ، فبعد فترة وجيزة من المعاهدة قتل خصمه ابن رائق على يد الحمدانيين . وبذلك صار باستطاعته ان يتحرك بحرية اكثر ، فاستغل هذه الفرصة واستولى على دمشق ، ليصبح في موقف المجابهة مع الحمدانيين . على أن سيف الدولة تصدّى للجيش الأخشيدي الزاحف شمالا وأوقع به هزيمة قاسية وطرد الاخشيديين من دمشق . ولكن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما انتقم الأخشيد لنفسه وحقق انتصاراً باهراً على الحمدانيين في معركة جرت عند حمص . وظلت قواته تتقدم شمالا حتى هددت عاصمتهم حلب . ثم تراجع عنها الى دمشق بعد اتفاق بين الطرفين يقضي باقتسام الشام بينهما لقاء ضريبة سنوية .

وتصدى الأخشيد ايضاً لحملات الفاطميين وأصاب نجاحاً كبيراً في ابعاد خطرهم عن مصر . وعلى صعيد الجبهة البيزنطية فقد كان الطابع العدائي هو المسيطر على علاقاته مع البيزنطيين برغم محاولات هؤلاء للتحالف معه . ولكن الأخشيد ظل على ولائه للخلافة حتى موته سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م فترك لابنه (ابو القاسم أونو جور) دولة قوية سادها الرخاء وعمّها الاستقرار .

كان ابو القاسم صغير السن حين توفى ابوه فتولى الحكم بالنيابة عنـــه مربيه (كافور) وهو من اصل حبشي ، اسود الوجه كان قد اشتراه سيده الأخشيد ثم اعتقه ليصبح من كبار القواد في الدولة . وقد حكم كافـــور كوصي نحو اثنين وعشرين عاماً حتى اذا مات اونوجور اصبح هو الحاكم الرسمي من قبل الخليفة ، وكان مثال الحاكم المخلص لسيده والمتفاني في خدمة دولته وازدهارها .

كانت متاعب كافور السياسية تكاد تنحصر على الجبهة الغربية حين نشط الفاطميون في هجماتهم واشتدت وطأتهم على حدود دولته . والواقع ان كافور اتجه الى مهادنة الفاطميين في كثير من الأحيان ، وحرص على اقامة توازن في علاقاته مع الخلافتين العباسية والفاطمية باعلان ولائه للأولى والمهادنة مـــع الثانية .

غير ان جهوده السياسية وإن كانت قد اخرت بعض الوقت تحقيق أطماع الفاطميين ، فإنها لم تقضِ عليها تماماً . وعلى العكس من ذلك فهي قد أتاحت لهؤلاء التسلل الى الدولة الأخشيدية والدعوة لمذهبهم بين المصريين . وبذلك أصبحت البلاد مهيأة مذهبياً وسياسياً لغزو فاطمي مرتقب بين يوم وآخر حتى جاءها أخيراً بعد سنة من موت كافور على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م (١) .

---

١ – يحوي تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مادة في غاية الجودة عن الدولة الاخشيدية وحروبها مع الحمدانيين ، كما أن ابن العديم أثبت في كتابه : زبدة الحلب وبغية الطلب مادة في غاية التفصيل عـــن نشاط الاخشيديـــين في الشام استقاها من مصادر شامية وعراقيـــة سواء . يضاف إلى ذلك نجد عند مسكويه وابن الجوزي وابن الأثير والمقريزي مادة إخبارية هامة عن الدولة الاخشيدية وسقوطها على يد الدولة الفاطمية .

الخلافة الفاطمية

الدعوة الاسماعيلية

بعدما توفي النبي محمد قامت أزمة في داخل المسلمين حول مسألة خلافته ، وتجاوز المسلمون هذه المحنة باختيار أبي بكر خليفة ، ومنذ أيام أبي بكر الأولى وجدت جماعة من الناس شعرت بأن عليا ابن عم الرسول وصهره كان أحق بأن يخلف النبي من سواه ، وكان هذا الشعور ناجماً عن الاعتقاد بجدارة علي وصفاته الشخصية ثم عن قرابته للنبي .

ومع مرور الأيام وحرمان علي من تولي الخلافة ، تطورت الجماعة التي رأت حقه بالخلافة إلى نواة حزب عرف أولا باسم شيعة علي ثم بعد ذلك بالشيعة . وكان الشيعة في البداية أتباع حركة سياسة ، لكن ما لبثت حركتهم أن اكتسبت بعض الصفات الدينية . وبعد مقتل الخليفة عثمان تولى علي بن أبي طالب الخلافة ، لكن خلافته شحنت بالحرب الأهلية ، وكان أن اغتيل علي وانتقلت الخلافة إلى منافسيه من البيت الأموي . لكن لم تختف حركة الشيعة بموت علي بل استمرت قوية ، ولقد قام الشيعة زمن حكم بني أمية بالعديد من الثورات وتطور حزبهم مع عقائده تطوراً كبيراً ، وأصبح هذا الحزب مأوى لجميع الساخطين على النظام القائم والراغبين بالعدل والمساواة ، وبازالة الفوارق الطبقية والاجتماعية والسياسية .

وفي البداية قدم أفراد هذا الحزب الولاء لأبناء علي من فاطمة بنت النبي أو سواها ، لكن بعد قيام الدولة العباسية ، وتخلي الدولة عن أبناء علي ومطاردتها لهم وتنكيلها بهم ، ركز الشيعة آمالهم على أبناء علي من فاطمة ، وخاصة هؤلاء

الذين انحدروا من الحسين بن علي شهيد كربلاء ، ووُجد بين صفوف الشيعة جماعات معتدلة وجماعات متطرفة وغير ذلك ، وبعدما حافظت الحركة التي ركزت على أبناء الحسين وقالت بإمامتهم على وحدتها حتى الامام السادس جعفر الصادق ، قام بعد موته في ٧٦٥ م انشقاق قسم الحركة إلى قسمين .

فلقد كان لجعفر الصادق عدداً من الأولاد كان اسماعيل أكبرهم ، وكان من المفروض أن يتولى اسماعيل الامامة بعد أبيه ، ولكن لأسباب غير واضحة قام جعفر الصادق بخلع اسماعيل عن ولاية عهده وعين مكانه ابنه الآخر موسى الكاظم كإمام سابع ، ولقد رفضت جماعات كبيرة هذا التغيير واستمرت تعتقد بإمامة اسماعيل ، وقبلت جماعات أخرى بإمامة موسى الكاظم ، وتابع خط موسى الكاظم حتى الامام الثاني عشر الذي اختفى في حوالي سنة ٨٧٣ ، وهو ما يزال يعتبر الامام المنتظر أو المهدي بالنسبة لأكثرية شيعة هذه الأيام ، ويعرف أتباع الأئمة الاثناعشر باسم الإمامية أو الاثنا عشرية .

تابعت الجماعات التي آمنت بإمامة إسماعيل ولاءها له ولسلالته ، وعرفوا بالسبعية أو الاسماعيلية ، وشكلوا بعد عمل طويل في السر فرقة دينية لم يعرف لها نظير في النظام وطرق الدعوة والتحرك ، وتدور العقيدة الاسماعيلية حول شخص الامام ، وذلك أنه بعد ما خلق الله العالم ، مر الكون بعدة أدوار ، بدأ كل واحد منها بظهور إمام ناطق أو نبي ، ولم يحدث أبداً أن خلا دور من أدوار حياة الكون من إمام ، إنما الأئمة هم على نوعين : مستترين وظاهرين ، ويكون الاستتار بسبب عوامل كثيرة سياسية أو احتجاب في مهمة علوية ، والامام هو قطب الكون وأصل المعرفة ، وينبوع السلطة ، وهو مصدر معارف حقائق الباطن والظاهر ، وهو دائماً صاحب سلطة وأوامر ينبغي أن تنفذ وتطاع طاعة عمياء .

ولقد بقي الأئمة الاسماعيليون متخفّون قرابة قرن ونصف بعد موت اسماعيل ، ومعلوماتنا عن شخصيات هؤلاء الأئمة وحتى أسماؤهم غــــير

يقينية ، ومنذ أن أخذت الخلافة العباسية في الانحدار والضعف ، وصار الخلفاء ألعوبة في أيدي الجند ، وحلت الفوضى وعم الظلم والاستغلال والجشع ، فزال اليقين وحل محله الشك ، وهنا تحرك دعاة الشيعة ونشطوا ولقوا نجاحاً كبيراً ، ولقد تهيأت الفرص أمام الاثنا عشرية لتسلم الخلافة لكن عدم وجود إمام لديهم حال دون ذلك .

وفي هذا الوقت شهد العالم الاسلامي تغييرات اقتصادية واجتماعية كبيرة للغاية ، ولقد جلبت هذه التغييرات ثروة وقوة لقلة من الناس وشقاء وتعاسة للكثرة الساحقة ، وتطلع الناس حولهم يبحثون عن طريق للخلاص ، فكان ان وجدوا الاسماعيلية بأفكارها ومبادئها ، وحقق الاسماعيلية نجاحات كبيرة ، وكانوا وراء حركات القرامطة وغيرها من الحركات ، ولقد ربح الاسماعيلية بعض مناطق اليمن ، ومن هناك أرسلت الدعوة اليمنية أحد دعاتها وعرف باسم أبي عبدالله الداعي إلى مكة للاتصال بالحجاج خاصة البربر القادمين من شمال أفريقية ، ونجح أبو عبدالله في مهمته ، وكوّن صداقات مع حجاج البربر ورافق احدى قوافلهم إلى تونس ، وهناك نشط نشاطاً كبيراً مكنه من إزالة دولة الأغالبة حيث أحل محلها دولة جديدة عرفت باسم الخلافة الفاطمية .

الخلافة الفاطمية في افريقية

وكان أول خلفاء الفاطميين في أفريقية عبيدالله المهدي . ولقد فر من المشرق إلى المغرب بعد نجاح الدعوة وانتصارها على الاغالبة ، وفي سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م أعلن خليفة جديداً ، وبعدما وطد أموره تخلص من أبي عبدالله الداعي ، وأسس لنفسه عاصمة جديدة سماها المهدية ، وأخذ يتطلع نحو المشرق للقضاء على الدولة العباسية ولقد حكم في المهدية بعد عبيدالله اثنان من أئمة الفاطميين هما : القائم (٣٢٢ – ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ – ٩٤٦ م) والمنصور (٣٣٤ – ٣٤١ هـ / ٩٤٦ – ٩٥٣م) ، وفي عهد خليفة المنصور الامام المعز لدين الله انتقلت الخلافة الفاطمية من أفريقية إلى مصر بعدما فتحتها في سنة ٩٤٩ م ، وبعدما احتلت قوات

الفاطميين مصر زحفت نحو بلاد الشام ، ولقد بنى الفاطميون لأنفسهم في مصر عاصمة جديدة قرب الفسطاط دعوها باسم القاهرة وبنوا في القاهرة مسجـــد جامعة جديد دعي بالأزهر ، وقام المعز بالانتقال من أفريقية إلى مصر .

وفي مصر تم احكام نظام إداري للدولة يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته ، كما أحكم نظام الدعوة بشكل رائع للغاية ، ويعتبر يعقوب بن كلّس ، وزير الفاطميين أهم بناة النظام الاداري والدعوي للدولة الفاطمية ، ولقد استطاع هذا النظام أن يبقي الدولة الفاطمية حية لمدة تفوق القرنين رغم أنه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة بعد المعز من اتسم بالمقدرة والكفاءة السياسية والإدارية .

وبعدما توطد الفاطميون في مصر صار تحدي الاسماعيلية للنظام العباسي والفكر السني أكثر قرباً وأشد خطراً ، وصار للفاطميين امبراطورية واسعة شملت وهي في ذروة قوتها ، مصر ، وسورية ، وشمال أفريقيا ، وصقليـــة والشاطىء الافريقي للبحر مع الحجاز واليمن بما في ذلك المدينتين المقدستين : مكة والمدينة، وسيطر الفاطميون على جيش هائل من الدعاة ، وعلى ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في أراضي كانت خاضعة للحكم العباسي فعلياً أو اسمياً .

وكانت ردات فعل السنة مع الخلافة العباسية تجاه قيام الدولة الفاطمية في البداية محدودة وغير فعالة ، لم تتعد بعض اجراء ات أمن ضد الدعاة ، وحرب دعائية ضد السلالة الفاطمية التي اتهمت في محضر نشر في بغداد سنة ١٠١١ هـ ، بأنها لا تمت بنسب صحيح إلى فاطمة وعلي بن أبي طالب ، ومع الأيام بدأت جذوة الحركة الفاطمية تخبو وأخذ الاسلام السني يسترد نشاطه ، وكانت أهم أسباب اخفاق الدعوة الفاطمية ، ما عانته من تمزق داخلي ، وفي أنها لم تستطع الوفاء بالوعود التي قطعتها الحركة على نفسها قبل استلامها للحكم ، وأخيراً في ظهور الأتراك على مسرح الأحداث واقامتهم للامبراطورية السلجوقية .

وليس في تاريخ الدولة الفاطمية الداخلية والخارجية حوادث مميزة كبيرة ،

ولعل أهم الأحداث الخارجية انفصال شمال أفريقيا عن جسم الدولة بقيام الدولة الباديسية ، وعندما لم تستطع الخلافة الفاطمية إيقاف حركة الانفصال هذه حركت عدداً من القبائل العربية التي كانت قد هاجرت إلى مصر ، وعلى رأسها هلال وسليم ، حركتها للهجرة إلى شمال أفريقية ، ولم تحقق هذه الهجرة عودة أفريقية للحكم الفاطمي ، بل حققت بعض التغيير واستطاعت ان تصبغ شمال أفريقية بالصبغة العربية نهائياً .

ومن المشاكل الخارجية التي عانت منها الخلافة الفاطمية أمور السيطرة على فلسطين وغيرها من أجزاء الشام ، وقد نجم عن ذلك ردات فعل شديدة خاصة بين صفوف القبائل ، وسكان المدن ، فلقد ثارت قبيلة طيء في وجه الفتح الفاطمي ، وحاول زعماء هذه القبائل انشاء خلافة في فلسطين ، فجلبوا أحد أفراد الأسرة الحسنية من الحجاز ونصبوه خليفة ، ولقد فشلت هذه المحاولة .

ومرة أخرى تحالفت بعض قبائل الشام مثل طيء وكلب وكلاب لطرد الفاطميين من الشام وحقق هذا التحالف بعض النجاح ، ولكن كان نصيبه في النهاية الاخفاق الكلي . كما ان احتلال الفاطميين لبلاد الشام سبب ردات فعل شديدة بين صفوف سكان المدن التي كانت تحوي تنظيمات محلية شبه عسكرية تدعى بمنظمات الأحداث ، ولقد قاوم الأحداث الفتح الفاطمي وتحالفوا مع القرامطة ، وتمكن القرامطة من طرد الفاطميين من الشام إلى مصر وهددوا الخلافة بالسقوط ، لكن الاخفاق كان نصيبهم في النهاية .

وأهم المشاكل الداخلية التي تعرض لها الفاطميون كانت تتعلق بالدعوة ثم ببعض الازمات الاقتصادية وأخيراً باستيلاء الجند على مقاليد الأمور . فمنذ بداية قيام الخلافة الفاطمية كان هناك خلافات داخل جسم الحركة الاسماعيلية بين فئات يمكن تسميتها بالمتطرفة وأخرى يمكن دعوتها بالمحافظة ، وكان على الخلفاء أن يواجهوا بين الحين والآخر انشقاقاً في الحركة وحتى مقاومة مسلحة ، ولعل أهم حركات الانشقاق تلك التي بدأت زمن حكم الحاكم بأمر الله — الخليفة

السادس – وتتوجت بعد اختفائه في سنة ١٠٢١ م في ظروف غامضة ، فاعتقد جماعة من الاسماعيلية بأن الحاكم كان ذا صفات ربانية وأنه لم يمت بل ذهب إلى الستر والغيبوبة ، لذلك رفضوا الاعتراف بخليفة على العرش الفاطمي ، وانفصموا عن الجسم العام للفرقة ، ونالوا بعض النجاح خاصة في بلاد الشام ، وعرفوا باسم الدروز ، وما زالت فئات كبيرة منهم تعيش في بلاد الشام .

وفي عصر الخليفة المستنصر المديد (١٠٣٦ – ١٠٩٤ م) وصلت الدولة الفاطمية إلى ذروتها ، ثم هوت بسرعة كبيرة ، وعندما توفي تمزقت الدعوة الاسماعيلية ففي أوائل الحكم الفاطمي سيطر الخلفاء على جميع فروع السلطة الثلاثة وهي الادارة والدعوة مع الدعاة ، والجيش ، وكان الوزير الذي رأس قسم الادارة ، الشخصية الأولى في الحكم بعد الخليفة ، وكان داعي الدعاة يرأس الحزب ويأمر جيشاً هائلا من الدعاة الموزعين في كافة أنحاء عالم آسية وشمال أفريقية . وكان قائد الجيش رئيساً للجند وثالثاً في الترتيب في حكم كان في الاساس مدنياً .

ومنذ أن توفي الحاكم بدأ قائد الجند مع قواته يزيدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وتطور ذلك حتى استطاع الجند في سنة ١٠٧٤ م بقيادة بدر الجمالي السيطرة على مقاليد الأمور ، ومنذ ذلك الحين صار أمير الجيوش سيد البلد يحمل ألقاب : الوزير ، وداعي الدعاة وذلك بالاضافة إلى لقب أمير الجيوش . وصار منصب أمير الجيوش منصباً وراثياً ، وقد أيقظ هذا التسلط والتغيير عدم رضا ومعارضة بين صفوف الحركة الاسماعيلية ، وبعد وفاة المستنصر واجه امير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر وكان معيناً لولاية العهد ، وكان أمامه أخوه الأصغر المستعلي ، وكان حدثاً بدون مساندة أو جماعة ، فاختاره أمير الجيوش خليفة ، وصاهره ، وهرب نزار إلى الاسكندرية ، فقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش وقضت عليه وعلى حركته .

وأدى اختيار المستعلي إلى انشقاق الدعوة الاسماعيلية إلى قسمين ، فقد رفض

الاسماعيلية في المشرق الاعتراف بالخليفة الجديد ، وقامت بين صفوفهم حركة الحشيشية . وبعد سنة ١١٣٠ م بعدما قتل الخليفة الآمر بن المستعلي ، رفض الاسماعيلية المستعلية الاعتراف بالخليفة الجديد في القاهرة ، وتبنوا عقيدة فيها أن طفلا رضيعاً للآمر يدعى الطيب كان قد فقد حيث استتر ، وهو سيكون الامام المنتظر ، وهكذا لم يعد لدى المستعلية أئمة بعده .

وحكم بعد الآمر أربعة خلفاء من الأسرة الفاطمية ؛ لكنهم كانوا بلا صلاحيات أو نفوذ خارجي ، وضعفت في زمنهم مصر ضعفاً شديداً ، وكانت الحروب الصليبية قد قامت ، وحاول الصليبيون احتلال مصر ، فتدخل نور الدين محمود بن زنكي ومنعهم ، وقام في سنة ١١٧١ م صلاح الدين الأيوبي والي نور الدين على مصر بإلغاء الخلافة الفاطمية وأعاد مصر إلى حظيرة الدولة العباسية ، ولم يؤد هذا الإلغاء إلى ردات فعل شعبية في داخل مصر ، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى أن العقيدة الاسماعيلية لم تتعد سيطرتها على مصر أطر السياسة ، وكان عدد الاسماعيليين في مصر قليلا ، ذلك أن الحركة الاسماعيلية التفتت بعد سيطرتها على مصر إلى النشاط الخارجي ، وأهملت الوضع الداخلي ، وكان هذا من أعظم الأخطاء التي وقعت فيها (١) .

---

١ – رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان . تثبيت دلائل النبوة : ٢/٥٦٠ – ٦٥٥ . تراجم : جوهر الصقلبي ، جعفر بن فلاح ، جيش بن الصمصامة ، الحسن بن علي بن ملهم . بدر الجمالي في ملاحق مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٩٨ –٣٧٦ . تاريخ اخبار القرامطة : ٧ – ١١٣ . أصول الاسماعيلية : ٨٣ – ١٩٨ . الدعوة الاسماعيلية الجديدة : ٣٣ –٥١ .

فتوحات شمال أفريقية

دعا العرب البلاد الواقعة غربي مصر باسم المغرب ، وهي البلاد التي تتضمن الآن الأقاليم العربية في شمال أفريقية ، وتبعا لروايات المصادر العربية احتك العرب لأول مرة بهذه البلاد أيام خلافة عمر بن الخطاب ، بعد فتح مصر و كان ذلك بعد سنة ٢٢ ﻫ وقبل ٢٦ ﻫ [٦٤٣ – ٦٤٧ م] وعرف العرب سكان المغرب قبل الفتح باسم البربر ، ولعلهم حين عرفوهم بهذا الاسم قد ورثوا التسمية الرومانية « Barbari » التي أطلقها الرومان ومن قبلهم اليونـــان ثم بيزنطية من بعدهما على جميع الشعوب ، غير شعوب مقر ممالكها .

ومع ذلك فاننا نجد الكتاب العرب يقدمون تفسيرات لأصل هذا الاسم بعيدة عن الواقع ومختلفة ،وهذا البعد عن الواقع وقع فيه العرب إلى حد لا بأس به حين بحثوا في أصل البربر وأنسابهم الأولى،ويرى العلماء الآن أن بربر شمال افريقية لا يشكلون شعباً له جنسه الخاص بل البربر يتكونون من عناصر بشرية مختلفة في أصولها وأشكالها وأنماط معيشتها .

وعلى العموم نجد البربر عند علماء الأنساب الأوائل يتألفون من جماعتين كبيرتين الأولى اسمها البرانس والثانية البتر ، وتضم كل جماعة من هاتين الجماعتين عدداً من القبائل والمجموعات المتفاوتة الحجوم . على أنه يبدوأن جماعات البربر تكونت من الشعوب التي هاجرت إلى شمال افريقية خلال حقب التاريخ المديدة ، من آسية ، من البلاد العربية ، ومن مصر ومن أوربة ، وعندما قام الفتح العربي للمغرب وجد العرب جماعات كبيرة من البربر تشابههم في العادات وأنماط العيش والطبائع .

ولقد عانى العرب كثيراً أثناء إخضاعهم للمغرب ، وبذلوا جهوداً كبيرة في فتحه ، ثم في تعريبه ، ويمكن تقسيم تاريخ المغرب إلى فترتين واحدة سبقت قيام الهجرة الهلالية والسُّليمية للمغرب وأخرى جاءت بعدها ، ذلك أن هذه الهجرة كانت حدثاً فاصلا في تاريخ المغرب وصبغه نهائياً بالصبغة العربية .

ويمكن القول بأن بلدان شمال افريقية خضعت قبل الاسلام لتأثير تيارين حضاريين جاء الأول من المشرق ومثله الفينيقيون أصحاب قرطاجنه ، وجاء الثاني من أوربة ومثلته روما وريثة الحضارة اليونانية ، وقد ورثت روما الشرقية روما الغربية . وحين طرق العرب شمالي افريقية كانت بعض المناطق خاضعة لحكم بيزنطة ، كما أن أعداداً من السكان كانوا يدينون بالنصرانية ، وعلى العموم شابه المغرب المشرق من حيث المواريث الدينية ، فقد كانت هناك مؤثرات كتابية مع مواريث مانوية ، وكانت هناك وثنية طاغية ومنتشرة في غالب المناطق ،وكما في المشرق أيضاً ارتبطت الوثنية في المغرب بالبداوة كنمط للحياة ، وارتبطت الديانات الأخرى بالحياة المستقرة ، ونظراً لأن بلدان شمالي أفريقية ارتبطت بشكل مباشر بأفريقية السوداء فقد وجد فيها عناصر سوداء ، وهي قد أثرت في أفريقية السوداء وتأثرت بها.وفي الحديث عن فتوح المغرب نجد أنه :

بعدما فرغ عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية ، زحف نحو ليبيا فافتتح طرابلس ولبدة وصبراته وانتزعهم من البيزنطيين ، ثم أخذ يوجه سراياه في غزوات نحو الداخل لاخضاع القبائل وللقيام باستطلاع أعمق نحو تونس التي دعاها العرب باسم « افريقية » ، وهنا كتب إلى عمر بن الخطاب ليخبره بما قام به من انجازات ويستأذنه في متابعة الزحف لكن عمر رفض أن يأذن له وقال « لا إن افريقية غادرة مغدور بها » ؟ !

ومن هذا يستنتج بأنه كانت لدى العرب خطة موضوعة للتحرك في شمال افريقية وأنه كانت لديهم معلومات وافية عن الأرض والسكان ، ومع ذلك نتجه أنه إذا كان فتح مصر وليبيا شبه بنزهة عسكرية ، فإن فتح بقية أجزاء

المغرب قد كان من أقسى المهمات وأعنفها (١) .

ولم يلبث أن توفي عمر واستخلف عثمان فتغير الحال في مصر وبالتالي في شمال أفريقية ، ذلك أن عثمان قام بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وأفرد ولايتها مع ولاية المغرب إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وكان قبل ذلك شريكاً لعمرو في ولاية مصر لكن حين أبى عمرو أن يبقى « كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » عزله عثمان ، ويذكر خليفة ابن خياط أن عزل عمرو جاء سنة ٢٧ هـ / ٦٤٨ م ، وذكر ابن عبد الحكم أن ابن أبي سرح أخذ بعد تسلمه لمنصبه « يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف افريقية » وعندما أكملت هذه القوات أعمال استطلاعها بعث ابن أبي سرح إلى عثمان يستأذنه في غزو افريقية ويستمده ، وكانت إفريقية تحكم من قبل البيزنطيين ، وكان على رأسهم قائد اسمه جرجير ، وجرجير هذا تذكر مصادرنا بأنه كان قد ثار على الامبراطور البيزنطي وأعلن استقلاله ، واتخذ من مدينة سبيطلة مقراً لملكه ، وبعدت سبيطلة سبعون ميلا عن القيروان وكانت في غاية الحصانة .

لقد عني عثمان بن عفان بالجيش الذي أمدّ به ابن أبي سرح ، فجعله يحوي مشاهير رجال العرب وعدداً من الصحابه وأبناء كبار الصحابة مثل العبادلة الثلاث : عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله ابن الزبير ، وبالاضافة إلى هؤلاء كان هناك : مروان بن الحكم ، معبد بن العباس بن عبد المطلب ، عبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم كثير .

وعندما التقى الجيش العربي بجيش جرجير ، وجد العرب أنفسهم أمام جيش أكثر عدداً وأحسن تسليحاً وعُدداً ، وقامت مناوشات بين الجيشين لعدة

---

١ – ابن عبد الحكم : ١٧١ – ١٧٣ . تاريخ خليفه : ١/١٤٩ –١٥٠ . البيان المغرب : ١/٢٠١ . تاريخ المغرب العربي : ٣ – ٩٤ . المغرب عبر التاريخ : ١٤ – ٨٧ . قادة فتح المغرب العربي : ١/١١ –٤٨ .

أيام ، ثم قام ابن أبي سرح بوضع خطة محكمة للالتحام بأن قسم جيشه إلى قسمين . واحد شارك في القتال بينما كمن القسم الآخر ، وعندما تعب المتحاربون خرج الكمين العربي فأوقع هزيمة ساحقة بالبيزنطيين ، وسقط جرجير بين القتلى ، وفتح هذا النصر شمال أفريقية أمام العرب ، لكن الحال هنا اختلف عنه في المشرق ، ففي المشرق عندما هزم العرب جيوش بيزنطة في الشام وجيوش الفرس في العراق وايران خلصت لهم البلاد ، ودان لحكمهم السكان المحليون ، لكن هنا في المغرب اختلف الحال فقد كان على العرب خوض حروب طويلة مريرة ، عانوا فيها هزائم كثيرة .

وحصل جيش ابن أبي سرح على غنائم عظيمة ، وجاء توزيع هذه الغنائم مثل شرارة أولى أدت بعد تطورها إلى الثورة على عثمان وقيام الفتنة الكبرى ، ويبدو أن النصر على جرجير كان آخر معركة كبرى يخوضها العرب في المغرب في العهد الراشدي ، هذا ويبدو أن مشكلة الغنائم تفجرت ساعة النصر ، ولعل تفجرها هذا أجبر عبدالله بن سعد بن أبي سرح على العودة نحو مصر ، دون أن يتابع استغلال ما حصل عليه من نصر حيث قام بمصالحة بقايا البيزنطيين على « ثلاثمائة قنطار من الذهب ، على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم » . (١)

وقامت الفتنة التي أودت بحياة عثمان ، وأثناء خلافة عليّ تقلب على حكم مصر عدد من الولاة ، لم تخلص الولاية لواحد منهم ، وعندما آلت الخلافة إلى معاوية صارت ولاية مصر لعمرو بن العاص وعندها عاد النشاط لاستئناف حركة الفتوح ، ففي سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م (عام الجماعة) « ولىّ عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، عقبة بن نافع الفهري —وهو ابن خالة عمرو — افريقية » ، وقام عقبة بعدة غارات في داخل إفريقية ، وكذا فعل في العام التالي

---

١ — تاريخ خليفه : ١/١٦٤ — ١٦٥ . ابن عبد الحكم : ١٨٣ — ١٨٧ . البيان المغرب : ٣/١ — ١٠ . الكندي : ١١ — ١٤ . تاريخ المغرب العربي : ٩٨ — ١٢١ . المغرب عبر التاريخ : ٩٢ — ٩٣ . قادة الفتح : ١/٥٤ — ٧٤ .

ثم في العام الذي تلاه ، وهو العام الذي توفي فيه عمرو بن العاص (١) .

وفي سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م أفرد الخليفة معاوية بن أبي سفيان لسميه معاوية ابن حديج شؤون افريقية ، وبهذا فصلها عن ولاية مصر وأفردها ، وجاء هذا بالأساس نتيجة لما حدث في داخل افريقية بعد ابن أبي سرح ومصرع جرجير ، حيث يبدو أن أحد قواد جرجير إسمه جناديوس قبض على ناصية الأمور بعده، وظل وفيا للعهد الذي قُطع للعرب بقيادة ابن أبي سرح ، وفي أثناء انشغال العرب بالحروب الأهلية حاولت بيزنطية اعادة نفوذها إلى افريقية فأرسلت أحد قادتها إلى هناك ، لكنه أخفق بعدما التقى في معركة مع جناديوس ، واضطر إلى مغادرة شمال أفريقية والعودة إلى حيث أتى ، على أنه ما لبث جناديوس نفسه أن واجه تحركاً داخلياً لم يستطع قهره ، لذلك غادر افريقية واتجه نحو معاوية بن أبي سفيان ، فكان أن أرسل معه جيشاً بقيادة ابن حديج بلغ تعداده عشرة آلاف مقاتل ، وضم بين صفوفه عدداً من المشاهير كان من بينهم عبد الملك بن مروان،وسار جيش ابن حديج هذا ــ بعد ما وصل مصر ــ من الاسكندرية إلى برقة وطرابلس ، وعندما توغل ابن حديج نحو المنطقة التي ستقام فيها مدينة القيروان علم بنزول حملة بيزنطية بين سفاقس وسوسه وهي منطقة كانت تعرف بالساحل لكثافة غابات الزيتون فيها ، وقد استطاعت قطعة من قوات ابن حديج طرد البيزنطيين ، ثم تمكن هو من احتلال عدد من المواقع الهامة والحصول على كمية كبيرة من الغنائم ، ومرة أخرى حدث خلاف حول توزيع الغنائم ، ومع ذلك فقد بقي ابن حديج يبث سراياه ويعمل الغارة داخل افريقية أكثر من عام ، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر ، ولا ندري ما الذي حل بجناديوس الذي رافقه ، وكل ما نعرفه أن ابن حديج عاد دون أن يوقع عهداً أو اتفاقية مع طرف من أطراف السلطة في افريقية ، على أنه رغم عودته فقد استمر العرب

---

١ ــ تاريخ خليفه : ١/٢٣٤ ــ ٢٣٨ . ابن عبد الحكم : ١٨٠ ــ ١٨٣. البلاذري : ٢٢٧ــ ٢٣١ . الكندي : ١٤ ــ ٣٤ . البيان المغرب : ١/١٠ ــ ١٣ . تاريخ المغرب العربي : ١٢٠ ــ ١٢٤ . المغرب عبر التاريخ : ٩٢ ــ ٩٣ .

بإرسال سراياهم تطرق داخل أراضي افريقية متخذة من طرابلس قاعدة لها (١).

ويمكن اعتبار ما تم حتى الآن من أعمال عسكرية في شمال أفريقية ما كان إلاّ تمهيداً للفتح الدائم والعمل على نشر الاسلام وتعريب المنطقة ، وكان هذا مع سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م وارتبط باسم عقبة بن نافع الفهري ، ففي هذه السنة « وجه معاوية عُقبة بن نافع إلى افريقية فخط القيروان وأقام بها ثلاث سنين » ، ومع أن عقبة لم يكن قائد الجيش الوحيد الذي عمل في هذه السنة في شمال افريقية حيث أن مسلمة بن مخلد والي مصر بعث معاوية بن حديج على رأس جيش توغل داخل الأراضي المغربية ، فإن ما حققه عقبة كان بعيد الأثر ، وما حققه كان اقامة مدينة القيروان ، التي صارت قاعدة عربية متقدمة للفتوح في المغرب ، ومركزاً أساسياً لنشر الاسلام ولتعريب الأرض والسكان ، ويحيط العرب أخبار بناء القيروان بهالة خاصة وقدسية فائقة ، فقد كان مع عقبة في عسكره خمسة وعشرون من أصحاب النبي (ﷺ) وحينما قرر تأسيس مدينة جديدة « جمع وجوه أصحابه وأهل العسكر ، فدار بهم حول مدينة القيروان وأقبل يدعو لها ويقول في دعائه : اللهم املأها علماً وفقهاً ، واعمرها بالمطيعين والعابدين ، واجعلها عزاً لدينك وذلا لمن كفر بك ، وأعزّ بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » ، وبعد هذا وقف على واديها فقال « يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون ، وإنّا من وجدناه قتلناه » « ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب من أن السباع تخرج من الشعار تحمل أشبالها ، والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها » وهنا نادى عقبة في الناس : « كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا » .

يبدو أن هذا ما كان إلا تحريفاً اسطوريا لما قام به عقبة حين شرع في بناء مدينته ، حيث أنه أمر بطرح النار في البقعة التي اختارها لتنظيف ما كان بها

١ - تاريخ خليفة : ٢٤١/١ - ٢٤٤ . الطبري : ٢٢٩/٥ . فتوح البلدان : ٢٢٩ . ابن عبد الحكم : ١٩٢ - ١٩٤ . البيان المغرب : ١٠/١ - ١٥ . رحلة التجاني : ٦٥ - ٦٨ . تاريخ المغرب العربي : ١٢١ - ١٣٢ . المغرب عبر التاريخ : ٩٣ - ١٩٤ . قادة الفتح : ٧٥/١ - ٨٩ .

من أشجار وأعشاب وغير ذلك . وعرفت المدينة الجديدة باسم القيروان ، وهي لفظة معربة عن الفارسية تعني معسكر الجيش كما تعني القافلة ومعظم الجيش . ولا ندري من أطلق عليها هذا الاسم ، فالمنطقة التي أقيمت بها لم تكن من مناطق النفوذ اللغوي الفارسي ، كما حدث في حالة مدينة الفسطاط التي أقيمت في منطقة فيها مواريث يونانية لاتينية من حيث نبعت الكلمة؟ !

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ففي هذه السنة أو قبلها وضع معاوية ولاية افريقية تحت إدارة والي مصر مسلمة بن مخلّد ، فقام بعزل عقبة وأرسل جيشاً إلى افريقية جعل على رأسه خالد بن ثابت الفهري « وأمره أن يستخلف أبا المهاجر ديناراً » وكان الوالي الجديد هذا من الأنصار وكان مولى لمسلمة بن مخلّد ، ويبدو أنه أساء معاملة عقبة عندما تسلم أعماله منه . (١)

ولا نعلم الكثير عن أعمال أبي المهاجر ، سوى أنه لم يقم في قيروان عقبة واتخذ لنفسه معسكراً خاصاً على ميلين منها عرف باسم تيكروان ، وظل أبو المهاجر في منصبه حتى ما بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ، لكن يبدو أن الولاية لم تكن له وحده ففي سنة ٥٧ هـ / ٦٧٧ م « وجه معاوية بن أبي سفيان حسان بن النعمان الغساني إلى افريقية فصالحه من يليه من البربر ووضع عليها الخراج ، فلم يزل عليها حتى مات معاوية » . (٢)

وبعدما عزل عقبة من منصبه توجه نحو الشام حيث لقي معاوية فعاتبه على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة

---

١ – تاريخ خليفة : ٢٤٧/١ – ٢٦٦ . الطبري : ٢٤٠/٥ . ابن عبد الحكم : ١٩٤ – ١٩٦ . طبقات علماء إفريقية وتونس : ٥٦ – ٥٩ . البلاذري : ٢٣٠ . البيان المغرب : ١٣/١ – ١٦ . تاريخ المغرب العربي : ١٤٢ – ١٥٠ . المغرب عبر التاريخ : ٩٤ . قادة الفتح : ٩٠/١ – ١٠٦ .

٢ – تاريخ خليفة : ٢٦٩/١ – ٢٧٢ . الطبري : ٢٤٠/٥ . البلاذري : ٢٣٠ . ابن عبد الحكم : ١٩٧ – ١٩٨ . طبقات علماء إفريقية : ٥٧ . الكندي : ٣٨ – ٤٠ . البيان المغرب : ١٧/١ . تاريخ المغرب العربي : ١٤٩ – ١٥٢ . المغرب عبر التاريخ : ٩٤ .

معاوية واستتبات الأمور لابنه يزيد ، حيث قام بإعادته إلى ولاية افريقية ، وربما تم هذا سنة ٦١ هـ / ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات العربية إلى أقصى المغرب وفي ذروة النجاح هذه أصيب العرب بنكسة كبيرة كادت أن تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين الماضية .

خرج عقبة من الشام ، وسار مسرعاً نحو مصر ، وكان بصحبته بعض القوات الشامية ، وعندما مرّ بمصر اعتذر له مسلمة من فعل أبي المهاجر « فقبل منه عقبة ومضى سريعاً لحنقه على أبي المهاجر حتّى قدم افريقية فأوثق أبا المهاجر في الحديد ، وأمر بخراب مدينته ، وردّ الناس إلى القيروان » .

ثم عزم بعد هذا على الغزو ، وعندما تحرك ترك في القيروان جنداً استخلف عليهم زهير بن قيس البلوي ، وتحرك عقبة فاجتاح في تحركه المغرب الأوسط فهزم من تصدى له من بقايا القوات البيزنطية والقبائل البربرية ، ودخل المغرب الأقصى فهزم كل من تصدى له ، ودخل طنجة « فلقيه رجل من الروم يقال له اليان » وبعدما حصل عقبة على بعض المعلومات توجه نحو السوس الأدنى فهزم من تصدى له من البربر « ومضى كذلك حتّى دخل السوس الأقصى ، فاجتمع به البربر في عدد لا يحصى فلقيهم فقاتلهم قتالا شديداً ما سمع أهـــل المغرب بمثله ، وقتل منهم خلقاً عظيماً وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن » . وكان هدف عقبة الاساسي في حملاته دعوة الناس إلى الاسلام ، ويبدو أن كثيراً من قبائل البربر أعلنت عن قبولها بالعقيدة الاسلامية ، ويذكر المؤرخون العرب أن عقبة تابع زحفه حتّى وصل أقصى المغرب ، فاقتحم المحيط بفرسه حتّى وصل الماء إلى تلابيبه وقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ، وهذا يعني أنه كان يرنو ببصره نحو أوربة ولم يفكر قط في التوغل داخل أفريقية السوداء .

لقد كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة للغاية ، وكانت الغنائم كبيرة للغاية ، وعندما فكر عقبة في العودة نحو القيروان أرسل القسم الأكبر من قواته مع الغنائم وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه أحد زعماء البربر واسمه

كسيلة ، وقد استطاع كسيلة هذا أن يهرب ويقوم بحشد رجال قبائله ، وبنفس الوقت تحالف مع البيزنطيين ، وعندما قرب عقبة من منطقة القيروان ، سعى للاستيلاء على مدينة تدعى تهودة ، ويبدو أن حصاره لهذه المدينة أتاح الفرصة أمام كسيلة للتحرك وقطع الطريق على عقبة ، وقرب تهودة وعلى حين غرة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة ، فلم يتردد في الاشتباك مع هذه الجموع في معركة انتحارية سقط فيها هو وجميع من كان في صحبته ، ولعل هذا كان سنة ٦٨٤ م ، ودفن عقبة حيث استشهد وبعد فترة غاب اسمه على الاسم القديم فأصبحت تهودة تعرف بسيدي عقبة ، وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب ، وصورة عقبة في المغرب صورة المثل الأعلى للبطل المسلم .

وعقب مصرع عقبة زحف كسيلة بجموعه نحو القيروان « فخرجت العرب منها ولم يكن لهم بقتاله طاقة لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم ، وأسلموا القيروان ، وبقي بها أصحاب الذراري والأثقال ، فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان ، فأمنهم وأجابهم ، وأقام كسيلة حتى نزل القيروان وأقام أميراً على افريقية ، وقد بقي من بقي من المسلمين تحت يده ، فما زال على ذلك إلى أن ولي عبد الملك بن مروان » .(١)

لقد جاء مصرع عقبة مع الفترة التي تمخضت عن وفاة يزيد بن معاوية والحروب الأهلية في الشام والعراق والجزيرة العربية ، لكن ما أن استقرت الأمور وخلصت الخلافة لعبد الملك بن مروان حتى بادر بالايعاز إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة في القيروان ، الذي كان انسحب منها ورابط في برقة فبعث إليه « يأمره بالخروج على أعنة الخيل إلى افريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين ، وكتب له زهير بن قيس يعرفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم ويستمده الرجال والأموال » واستجاب عبد الملك

---

١ – طبقات علماء إفريقية : ٥٦ – ٦٤ . تاريخ الرقيق : ٣٩ – ٤٧ . البلاذري : ٢٣٠ . ابن عبد الحكم : ١٩٤ – ١٩٩ . البيان المغرب : ١/١٧ – ١٩ . تاريخ المغرب العربي : ١٥٣– ١٦٩ . المغرب عبر التاريخ : ٩٥ – ٩٦ . قادة الفتح : ١/٩٧ – ١٣٦ .

لطلبه فأوعز إلى اخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر بتوجيه الإمدادات إلى زهير ، وقام هو بدوره « فوجه إليه وجوه أهل الشام . . . وبعث إليه الأموال » وكان هذا سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وزحف زهير باتجاه القيروان ، وعندما دنا منها انسحب كسيلة من قربها إلى مكان يدعى ممش على مسيرة يوم واحد من القيروان وكانت قوات كسيلة أكبر من قوات زهير ، والذي دعاه إلى الانسحاب خشيته أن يخرج عليه أهالي القيروان من العرب فيقع بين فكي الكماشة ، والتقى الجيشان في ممش ، والتحما « في القتال ، ونزل الصبر ، وكثر القتل في الفريقين حتّى يئس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك حتى انهـــزم كسيلة وقتل » . وقامت قوات زهير بملاحقة فلول جيش كسيلة وبإعادة السيطرة العربية على المغرب واستمر هذا حتّى سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م حيث « رحل زهير قافلا إلى المشرق » وكان سبب عودته ما بلغه من أخبار عن قيام بيزنطة بإنزال قوات أغارت على برقة وغيرها من المناطق مستغلة بذلك غياب زهير ، وأصاب البيزنطيون سبياً وأموالا للمسلمين كثيرة ، وعندما شرع زهير بالعودة « أمر العسكر أن يمضوا على الطريق ، وأخذ على ساحل البحر في عدة من أشراف الناس مجدّين مبادرين ، رجاء أن يدرك سبي المسلمين ، فأشرف على الروم ، فرآهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابه . « النزول رحمكم الله»فنزلوا، «وكانوا رؤساء العابدين وأشراف العرب ، فنزل إليهم الروم فتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال وأعانوا بعضهم بعضاً ، وتكاثر عليهم الروم ، فقتلوا زهيراً ومن معه من المسلمين جميعاً فما أفلت منهم رجل » .

ووصلت أنباء مصرع زهير وصحبه إلى الشام إلى عبد الملك « فعظم ذلك عليه وبلغ منه لفضله ودينه ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة » ، وكانت جهود عبد الملك آنئذ مصروفة كلياً للقضاء على ابن الزبير ، لذلك كان لا بد من الانتظار لاعداد حملة جديدة ، وستأتي هذه الحملة مع استتباب أمور الدولة الأموية في المركز مما سيمكّن من صرف الجهود لتثبيت السلطة العربية ولنشر

الاسلام في المغرب (١) .

وبعدما توطدت الأمور لعبد الملك وتم القضاء على ابن الزبير ، التفت نحو قضية المغرب ، فجهز جيشاً كبيراً أولى قيادته إلى حسان بن النعمان الغساني ، ويبدو أن هذا كان سنة ٧٢ هـ / ٦٩٢ م ، وبعدما وصل إلى مصر غادرها إلى طرابلس ، ومن هنا قرر التوجه نحو قرطاجنة طبقاً لخطة جيدة وواضحة ، فقد أراد أولا أن يقضي نهائياً على الوجود البيزنطي في المغرب ، وكان هذا القضاء يزيل من الوجود القوى العسكرية النظامية ، ولعل حسان اعتقد أنه إذا نجح بذلك سهل عليه ما بقي وهو القوات البربرية للقبائل ، وفعلا نجح حسان في قهر قرطاجنة ، وذلك بعد جهود كبيرة ، وما كاد يظن أن المغرب قد دان له حتّى عرف بقيام تحالف بين قبائل أوراس تحت زعامة امرأة عرفت بالكاهنة ، ووسمت بممارسة السحر والتنجيم ، وزحف حسان نحو الكاهنة والتقى بقواتها في معركة عنيفة انهزم فيها حسان بعدما فقد عدداً كبيراً من أفراد قواته ، وقام بالانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة أخرى عن افريقية ، وأقام حسان في طرابلس ما يقرب الخمس أعوام حتّى وصلته امدادات كبيرة من الشام ، فعاود أخذ طريق افريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة ، فاستطاع أن يوقع فيها الهزيمة ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقد لقي حسان في صراعه مع الكاهنة مساندة بعض البربر وبعض السكان المحليين ، ذلك أن الكاهنة عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في افريقية فقد قالت لأتباعها : « إن العرب إنما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب افريقية حتّى ييأسوا منها ، ويقل طمعهم فيها » .

وبعد القضاء على الكاهنة خلص المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الاسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافر من الاستقرار ، وبدأ العرب

---

١ – الرقيق : ٤٩ – ٥٣ . ابن عبد الحكم : ٢٠٠ . البلاذري : ٢٣٠ – ٢٣١ . البيان المغرب : ١/٢٠ – ٢٤ . تاريخ المغرب العربي : ١٧٢ – ١٧٩ . المغرب عبر التاريخ : ٩٦ . قادة الفتح : ١٥٠ – ١٧٠ .

ينظمون أحوال البلاد ويقيمون ادارة خاصة بها ، وكان حسان بعد هزيمته للكاهنة قد هدم مدينة قرطاجنة العاصمة القديمة لإفريقية ، وبعد هذا قام ببناء مدينة جديدة ، جعلها مركزا جديداً لافريقية وداراً لصناعة المراكب وعرفت هذه المدينة باسم تونس ، واستعارت هذا الاسم من قرية كانت قريبة منها عرفت باللاتينية بـ Tynis .

ويبدو أن نجاحات حسان وأعماله في المغرب ضايقت عبد العزيز بن مروان ، أخو الخليفة وولي عهده وحاكم مصر ، فقام عبد العزيز بعزل حسان وولى مكانه موسى بن نصير ، ولعل هذا كان سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م (١) .

وتختلف المصادر في تحديد سنة استلام موسى بن نصير لولاية المغرب ، فالبعض منها يذكر أنه استلمها أيام عبد الملك وقبل وفاة عبد العزيز بن مروان ، وعبد العزيز توفي سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م وكان ذلك قبل وفاة عبد الملك بعامين ، ويمكن القول بأن موسى ولي افريقية لعبد العزيز ثم وليها منفصلا عن ولاية مصر منذ سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م أي منذ بدء خلافة الوليد بن عبد الملك .

وجاء حكم موسى للمغرب حدثاً حاسماً في تاريخه ، فقد نشط موسى نشاطاً عسكرياً كبيراً أوصله إلى أقصى المغرب ومكنه من الحصول على طاعة جميع قبائل المغرب واعلان قبولها للاسلام ، كما أنه استطاع تصفية جميع جيوب المقاومة في مدن وقلاع وحصون المغرب ، ولم ينشط موسى في البرفقط بل قامت بعض قواته بغارات على سواحل صقلية وشبه الجزيرة الايبيرية ، وبعدما

---

١ - تاريخ خليفة : ٣٤٠/١ ، ٣٤٥ ، ٣٩٢ . طبقات علماء افريقية : ٨١ - ٨٢ . البلاذري : ٢٣١ . ابن عبد الحكم : ٢٠٣ . الرقيق : ٥٤ - ٦٧ . البيان المغرب : ٢٢/١ - ٣١ . تاريخ المغرب العربي : ١٧٩ - ٢٠٦ . المغرب عبر التاريخ : ٩٦- ٩٧ . قادة الفتح : ١٧٢/١ - ٢٢٠ .

دان المغرب جميعه لموسى وبعدما جمع موسى الكثير من الأموال والغنائم والأسلاب ، وكان مغرماً بذلك أخذ يخطط لفتح جديد (١) .

فتح الاندلس والتوسع في أوربة

لاشك أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات وليداً لعصر الوليد ابن عبد الملك ، ومع ذلك فإن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازين ذاتية ، ذلك أننا عندما نبحث في تاريخ الفتوحات العربية نجدها في كثير من الجوانب كانت أعمال توسع للدولة العربية ونقلا للاسلام إلى أراضي متاخمة للأراضي الاسلامية ومتصلة بها ومتداخلةمعها ، فالتوسع في المشرق سار على هذا المنوال وكذا التوسع في الشمال الافريقي ، وههنا بالنسبة للشمال الافريقي يبقى هناك تساؤل هو : لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول إلى الحبشة ، ثم لم لم يتوسعوا داخل افريقية السوداء بعد إكمال سيطرتهم على الشمال الافريقي ؟

لهذا كله تعليلات كثيرة حديثة وقديمة، فهذا ابن خلدون يروي في تاريخه «أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق وموسى بن نصير إلى الأندلس ، بعد أن دوّخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الاسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ورسخت فيهم كلمة الاسلام وتناسوا الردة » .

هذا وفي الحين الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلا لمشاكل المغرب

---

١ – تاريخ خليفه : ١/٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٤ . البلاذري : ٢٢٩ – ٢٣٢ . ابن عبد الحكم : ٢٠٣ – ٢٠٤ . الرقيق : ٦٨ – ٧١ . البيان المغرب : ١/٣٢ – ٤٣ . تاريخ المغرب العربي : ٢٠٦ – ٢١٧ . المغرب عبر التاريخ : ٩٧ – ٩٩ . قادة الفتح : ١/٢٢١ – ٢٤٠ .

نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت ـ هكذا ـ حملة المسلمين على الأندلس هجوماً وقائياً وليس توسعاً مثل بقية الفتوحات .

إن في كل من هذين التعليلين الكثير من الصواب إنما يمكن أن يضاف اليهما تعليلات أخرى يجلها المؤرخ المعاصر أكثر من سواها ، فالعرب لم يتوسعوا داخل افريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت افريقية السوداء عالماً مجهولا بالنسبة للعرب ، كما أنه كان عالماً في غاية الفقر ، مرابحه قليلة ، يصعب نشر الاسلام بين شعوبه الوثنية المتخلفة ، يضاف إلى هذا أن فتحه كان سيكون في غاية الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك من يقول : يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون، هذا وقد كان للعرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التوسع في أراضي النوبة والتوغل في وادي النيل .

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب إلى حد كبير افريقية السوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوربة وخاصة عن الأندلس وصقلية ، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط وتعمل الغارات وتخوض المعارك ضد أساطيل بيزنطة وغيرها ، ولهذا كانت لديهم معلومات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الايبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم إلى العبور إلى شبه الجزيرة الايبيرية وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجد أنفسنا بحاجة إلى القيام باستعراض لأحوال شبه الجزيرة الايبيرية وتاريخها قبل قيام الفتح الاسلامي وأيام حدوث الفتح .

لقد كانت شبه الجزيرة الايبيرية تحت حكم الفيزقوط الذين دخلوها في سنة ٤١٤ م ، وتملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، وكانوا يؤمنون بالنصرانية إنما تبعاً للعقيدة الاريانية التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها إلى طبيعة

السيد المسيح ، هذا في حين كان السكان المحليين يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعدماً بينهم وبين الفيزقوط ولم يكن هناك وحدة وطنية ، وفي عام ٥٨٩ م اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهكذا أمكن بعيد ذلك قيام دولة موحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الايبيرية أي اسبانية اليوم مع قطعة من جنوب فرنسة الحالية .

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفسها السلطات الزمنية مع الكنيسة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة لأن الملك كان ينتخب من بين رجالات طبقة النبلاء وبواسطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرر لوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل بعض الملوك لتأمين العرش لأبنائهم بعد موتهم بواسطة اشراكهم في الحكم أيام حياتهم أو بالتنازل لهم عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء ، مما كان يسبب الاضطرابات الدائمة والقلاقل المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتولي الحكم بعد وفاة الملك .

يضاف إلى هذا أن ملوك الفيزقوط كانوا يعانون الضعف بسبب طبيعة جيوشهم وأحوالها ، فقد كان – نظرياً – على كل حر قادر على حمل السلاح القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش وأسباب أخرى نجد الملوك الفيزقوط يجدون – فعلياً – منذ القرن السابع من الصعب جداً جمع جيش قادر .

وإلى جانب النبلاء فقد تشكل شعب شبه الجزيرة الايبيرية من الأحرار الذين انحدروا من أصل اسباني – روماني ، أي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية في اسبانيا أيام الامبراطورية الرومانية ، وبالاضافة إلى طبقة الأحرار وجدت كميات كبرى من الأقنان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال وبالتالي كان هناك شكوى وتذمر دائمين .

ولا شك أن هذا سهل عملية الفتح العربي ، حيث نظر الناس للمسلمين كمحررين ، ولهذا ساعدوهم أيام الفتح ، وكانت المدن الاسبانية أيام الفيزقوط سيئة ، حيث أنهم كانوا قوماً بدائيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة وكلما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الاسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وأساءت السلطات الاسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ونظرت إليهم نظرة سوء ، وأصدرت عدة قوانين لتنصير اليهود ، وجعلتهم في أوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل كتجار ، وقد جعل هذا يهود اسبانيا يتآمرون مع يهود شمال افريقية ضد الحكم الفيزقوطي ، ولقد قدم اليهود للعرب ما احتاجوا له من معلومات عن اسبانيا ، وبعدما نزل العرب في اسبانيا وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم كل مساعدة ممكنة وعملوا أدلاء لجيوشهم .

وحين نستعرض أخبار العرش الاسباني قبيل الفتح العربي نجد أباً وابناً يحكمان شبه الجزيرة الايبيرية منذ ٦٨٧ م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه أحد أولاده واسمه آخيلا ، فقام بتعيينه دوقاً Dux على القسم الشمالي الشرقي من المملكة، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بآخيلا ويبدو أنهم انتخبوا رودريك Roderick (عند العرب لذريق) ملكاً ، ولقد احتفظ آخيلا بدوقيته حتى أنه ضرب نقوده الخاصه ، واعتبر رودريك مغتصباً ، وسعى لخلعه عن العرش واعتلائه بنفسه .

لقد خاض رودريك ضد آخيلا أكثر من معركة ، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الايبيرية كان منشغلا في الحرب في الشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر أن آخيلا أو أحد إخوانه اتصل بطارق بن زياد الذي كان معسكراً في طنجة مع قوة مؤلفة من / ١٢ / ألف مقاتل وقال له : « إن أبي مات ووثب على مملكتنا بطريق [أي نبيل] يقال له لذريق ، وبلغني أمركم ، وجئت إليكم أدعوكم إليها [اسبانيا] وأكون دليلكم عليها » ، ولاقت هذه الدعوة أذناً صاغية من طارق فعزم « على غزو الأندلس ، واستنفر البربر . . . . وجعل يحمل البربر في مراكب التجار التي

تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس . . . . فلما لم يبق إلاّ لوح واحد ركب طارق ومن بقي معه فجاز إلى أصحابه ، فنزل بهم جبلا من جبال الأندلس حريراً منيعاً ، فسمي ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق ، فلا يُعلم إلا به . وموسى بن نصير بافريقية لا يعلم شيئاً من هذا » .

وتذكر روايات أخرى أكثر عدداً أن الذي اتصل بالعرب كان حاكم سبتة البيزنطي واسمه اليان [يوليان — جوليان] وأنه هو الذي حرضهم على غزو شبه الجزيرة الايبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهو قد أراد أن ينتقم من لذريق ، لأنه كان قد أودعه في بلاطه ابنته ، فاعتدى لذريق عليها ودنس شرفها ، فعادت إلى أبيها فشكت إليه ما بليت به ، ولما كان إيليان بوضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتقم من لذريق ، فقد حرض العرب على حربه ، وأمدهم بما أرادوه من معلومات عن الأندلس ، ثم أعارهم سفناً عبروا بها إلى شاطىء الأندلس .

وتكمن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي ،فاليان كان بيزنطيا يتبع بلاط القسطنطينية ولا يتبع بلاط لذريق ، هذا إن وجد لديه بلاط ، وكان من غير المعقول لبيزنطي أن يرسل ابنته إلى عند الفيزقوط البدائيين ويترك القسطنطينية البلد الحضاري المتقدم ، يضاف إلى هذا أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة خاضوا بها عدداً من المعارك وهاجموا بها صقلية وسواها مرات عديدة .

ولقد شك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية اليان شخصية تاريخية ، هذا وحين نرجع إلى أخبار عقبة بن نافع نسمع بشخصية بيزنطية اسمها اليان تتصل به قرب طنجة وتمده بمعلومات عن بحر الأندلس « بأنه محفوظ لا يرام » كما تمده ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى .

ونحن إذا ما عدنا إلى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق أن يقوم طارق بالعبور إلى شبه الجزيرة الايبيرية دون الرجوع إلى رأي موسى بن نصير وأوامره، ثم أيضاً يصعب علينا أن نتصور أن يقدم موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الايبيرية دون أخذ موافقة الخليفة في دمشق . ولعل الذي حصل هو أنه تجمع عند العرب معلومات جيدة عن أحوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات ووعود بالعون من قبل التجار الذين كان غالبيتهم يهود ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا حين أتموا فتح المغرب قد دانت لهم مدينة سبته وصالحهم حاكمها البيزنطي فأبقوه في منصبه ، وقام هذا الحاكم بإمدادهم بما لك من مساعدة مادية ، ورأي ، ومعلومات .

لقد عرف عن موسى بن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوته الطاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجند في صفوف قواته عدد كبير من البربر ، أراد أن يقوم بمغامرة مربحة ، فكان أن أخذ موافقة دمشق ثم قام عام ٩١ هـ / ٧١٠ م بإرسال أحد قادته واسمه طريف ابن مالك على رأس قوة تتألف من / ٤٠٠ / مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطىء جنوب اسبانيه ، ونجحت غارة طريف التي وقعت في مكان ما يزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمل الغنائم والمعلومات ، وشجعت الغنائم والمعلومات على الاقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام في عام ٩٢ هـ / ٧١١ م بإرسال طارق بن زياد وكان قائداً بربرياً أدخله موسى في قواته ، قام بارساله على رأس / ٧٠٠٠ / رجل من البربر ثم أمده بـ / ٥٠٠٠ / رجل آخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الايبيرية ، ولم يرسل موسى جنداً عرباً مع طارق ، ذلك أنه ــ كما يبدو ــ أراد أن لا يضحي بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة أن طارقاً عبر مع جنده على سفن قدمها له اليان ، وبعد العبور قام طارق باحراق السفن ، أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيباً بعربية في غاية الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : « البحر من

وراءكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر » ، وبديهي أن هذه القصة مصنوعة لعل صانعها استعارها من قصة مشابهة وردت في الأغاني أثناء الحديث عن غزو الأحباش لليمن ، فطارق كان بربرياً وكذلك كان جنده ولا ندري كم من الكلمات العربية عرف آنذاك مع جنده ، بدون شك لم يكن كثيراً ، هذا ولا حاجة بنا لطرح مشكلة السفن مرة أخرى ومناقشتها ثانية .

لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسان أو مايس من عام ٧١١ م ، وكان رودريك آنذاك غائباً مع قواته في الشمال ، وقد مكن غيابه طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في منطقة الجزيرة الجنوبية ، وحين سمع رودريك بخبر طارق أسرع نحو الجنوب فالتحم بالمسلمين في معركة في ١٩ تموز ، وتعرف هذه المعركة بمعركة وادي لكة ــ أي وادي البحيرة ــ ويقال أن قسماً من جنده تخلى عنه ساعة الالتحام ، وكانت المعركة معركة حامية اقتتل فيها الطرفان « قتالا شديداً ، فوقع الصبر حتى ظن الناس أنه الفناء ، وتواخذوا بالأيدي ، وضرب الله عز وجل وجوه أعدائه ، فانهزموا وأدرك لذريق فقتل بوادي الطين وركبت آثارهم ، وكان الجبل وعراً ، فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم . ووضعوا فيهم السيف » فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية للفيزقوط كما هدم نظامهم وأتى على جهاز مؤسسة الحكم في شبه الجزيرة الايبيرية ، ولا شك أنه لاحظ أن اسبانية أصبحت بلداً مفتوحاً أمامه ، لن يحول بينه وبين تملكها قوة لها أثر يذكر ، فاندفع أولا نحو مدينة قرطبة فاخذها ، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة عاصمة البلاد ، وأهم المراكز الاستراتيجية فيها ، ونال أثناء تحركه مساعدة اليهود وبعض العناصر المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل طارق طليطلة دون أن يلاقي مقاومة معتبرة ، وبعد ذلك أرسل بعثات استكشافية نحو سرقسطة .

وبلغ موسى بن نصير ما تحقق لطارق بن زياد فتحرك هو بدوره من افريقية نحو طنجه ثم عبر على رأس قوة عربية تعدادها / ١٨٠٠٠ / رجل وكان ذلك

في تموز سنة ٧١٢ م ، واندفع نحو مدينة اشبيلية فاحتلها بعد مقاومة ثم احتل عدة أماكن أخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالاً ضد بقية من الفيزقوط قوية كانت انسحبت إلى ماردة حيث تحصنت وظلت تقاوم الحصار الاسلامي حتى يوم الفطر لسنه ٩٤ هـ / ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣ م .

وبعدما اتجه نحو ماردة يبدو أنه التقى بطارق ، ولعل هذا اللقاء وقع في جهات طلبيرة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقاء لوناً « دراماتكياً » خاصاً ، حيث تذكر غالبيتها بأن موسى قد عاقب طارقاً ووبخه ، لا بل ضربه ، ويبدو أن شيئاً من هذا القبيل لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاب لطارق على توغله دون الرجوع لأوامره ، فكان أن ترضاه طارق بقوله : « إنما هذا الفتح لك ، وإنما أنا مولاك » فقبل موسى منه ، وسار بعد ذلك الإثنان إلى طليطلة حيث أمضيا شتاء — ٧١٣ — ٧١٤ م ، وفي هذا الوقت بالذات بدأت أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة وضرب موسى أول النقود الاسلامية في أوربة .

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح ومولى الخلافة مغيث إلى دمشق ليخبرا الخليفة الوليد بأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى مع طارق فاحتلا سرقسطة ، ومن المحتمل أنهما أرسلا من هناك حملة استكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزقوطية كان من ضمنها أراضي من جنوبي شرقي فرنسة ، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر الأبيض المتوسط .

يبدو أن موسى قرر هنا أن مشاكل المناطق الغربية لشبه الجزيرة كانت أكثر إلحاحاً وأهمية ، لهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة أستوريش الساحلية وكان أثناء ذلك قد قام طارق باحتلال ليون وأشتورقة كما أخضع أرغون ، وتشير بعض المصادر بأن موسى أخذ يعد العدة للتوغل في داخل أوربة ، وذهب بعض المعاصرين إلى القول بأنه كان في رأسه خطة للوصول إلى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، ولا شك أن في هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان إلى جهل القائلين فيه بجغرافية أوربة ، ولا شك أن موسى كان يعرف

ما لديه من قوات وكان لا يعرف ما وراء البيرنية من أراضي وشعوب ، ولا يدرك مدى قوتها ، وتذكر مصادرنا بأن موسى بعدما انتهى إلى مدينة أربونة أراد لقاء ملك إفرنجة فأخذ حنشي الصنعاني —وكان من كبار التابعين — بلجامه وقال : سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما حتى أتيت أنصحك اليوم، فارجع فقد توغلت بالمسلمين».

في هذا الوقت بالذات — نهاية صيف ٧١٤ م — استدعي الفاتحان إلى دمشق ، ونحن لا نملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، فلعل الخليفة أراد أن يعرف من قائدية ما فتح الله على المسلمين ويدرس معهما خطط المستقبل ، ولعله أراد أيضاً أن يحاسبهما ويعرف منهما ما حصلاه من غنائم وما أنفقاه ، يضاف إلى ذلك أن تكون الخلافة قد خشيت من النزعات الاستقلالية عند موسى ، خاصة بعد ما رأته يعين ولده عبدالله على افريقية وولده عبد الملك على المغرب ثم ولده عبد العزيز على اشبيليه ليحكم اسبانيه منها ، وبعدما سمعت عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال .

المهم أن موسى غادر مع مولاه طارق شبه الجزيرة الإيبيرية في خريف — ٧١٤ م — وكان بصحبتهما قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان .

وبعدما جاوز موسى مصر وكان « بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص ، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضاً بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال إلى الوليد ، . . . فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض . . . وأخبره أن موسى تعدّى في أموال المسلمين وأنفقها . . . فصدقه الوليد . . . وكذب موسى وأمر بحبسه . . . ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات . . . .

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى

وقال له : يا يهودي ، كتبت إليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة ألف ، قال : يا أمير المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة ألف ؟ فقال : لا بد من مائتي ألف دينار ، فاعتذر إليه ، فقال لا بد من ثلاثمائة ألف ، وأمر بتعذيبه وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير إلى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان ، فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده . »

هكذا كانت نهاية موسى ، ولا ندري بشكل أكيد ما حلّ بطارق ، لا شك أن الزمن والنسيان طواه مع موسى في المشرق ، لكن ما كان للتاريخ أن يطوي خبر جليل ما حققاه . (١)

* * *

١ – ابن عبد الحكم : ٢٠٤ – ٢١١ . تاريخ خليفه : ١/٤٠٤ – ٤٠٩ . الطبري : ٦/٤٦٨ ، ٤٨١ . ابن القوطية : ٢٨ – ٣٧ . أخبار مجموعة : ٢ – ١٩ . الرقيق : ٧٣ – ٩١ . البلاذري : ٢٣٢ . البيان المغرب : ١/٣٦ – ٤٣ ؛ ٢/٥ – ٢٩ . ابن خلدون : ٦/٢٢٠ . المعجب : ٩ – ١٢ . جذوة المقتبس : ٤ – ٦ . دوزي : ١٣١ – ١٣٤ . أرسلان : ٢٨ – ٤٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢١٤ – ٢٢٧ .

the Moors in spain : 2 – 28. A History of Islamic spain : 5 – 16.

أورد المقري في نفح الطيب : ١/٢١٤ – ٢٥٩ روايات كثيرة عن فتح الأندلس ، وأثبت خلال ذلك نص الخطبة المعزوة إلى طارق : ٢٢٥ – ٢٢٦ وفي كتاب الأغاني : ١٧/٣٠٤ . أن أرياط الحبشي قام عند غزوه لليمن «في جنده خطيباً» فقال : يا معشر الحبشة قد علمتم أنكم لن ترجعوا إلى بلادكم أبداً ، هذا البحر بين أيديكم إن دخلتموه غرقتم ، وان سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيداً ، وليس لكم إلا الصبر حتى تموتوا أو تقتلوا عدوكم » . ولعل هذه الرواية هي الموحي باختراع قصة خطبة طارق ، علماً بأن هذه الرواية تقص خبر موت ذي نواس مثلما حدث مع لذريق تماماً .

عصر الولاة

دعا العرب البلاد الجديدة التي سيطروا عليها باسم الأندلس ، ويعتقد أن هذا الاسم قد جاء من لفظة Vandalicia نسبة إلى الغزاة الفنـــدال Vandal ، وقد استعمل هذا الاسم ليشمل الجزء الذي احتله العرب من شبه الجزيرة الايبيرية ، ويطلق هذا الاسم الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من اسبانية حيث عاش بقية العرب في الفترة ما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر .

وبعدما تم فتح الأندلس ، لم يتركها الفاتحون ، كما تخيل بعض الذين دعوهم إليها وحرضوهم على فتحها ، بل تحولت الأراضي المفتوحة لتشكل جزءاً من ولاية من ولايات الدولة العربية العظمى ، وكانت هذه الولاية هي ولاية افريقية أو المغرب وشملت شمال افريقية مع شبه الجزيرة الايبيرية ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين إلى شواطىء عدن ومن شواطىء المتوسط في بلاد الشام حتى جنوب فرنسة ، إن هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مرة في التاريخ أراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت حكم أسرة واحدة وعقيدة واضحة ولغة مقدسة .

وأديرت هذه الدولة من قبل خليفة كان مقره في دمشق ، لكن رغم ذلك فقد كان بلاط هذا الخليفة متحركاً ، وكان النظام الاداري لهذه الدولة بسيطاً في طور التكوين والتطور ، وكان كل شيء في هذه الدولة الكبيرة متعلقاً بالخليفة ، لكن إشراف هذا الرجل على السلطات كان له وضعه الخاص الذي تولد عن أحوال المواصلات في العصور الوسطى وعن طبيعة الادارة الأموية وعلاقات الخليفة بالقوى التي أحاطت بعرشه ، ولقد رأينا كيف تصارعت هذه القوى فيما عرف عند المؤرخين باسم العصبية القبلية .

وعين الخلفاء عدداً من النواب لممارسة بعض الوظائف المختلفة في الدولة ، وكان أهم هذه الوظائف وظيفة قائد الجيش ، وكان قائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بها إلى حاكم مدني يعاونه جهاز إداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين أحياناً الجباة والقضاة أو تترك أمر تعيينهم إلى القادة ، وكان كل واحد من هؤلاء القادة يعرف بالعامل أو الوالي ويلقب بلقب أمير ، ونظراً لطبيعة الدولة فقد كان كل واحد من الولاة حاكماً مستقلا إلى حدود بعيدة .

وفي الدولة الاسلامية منح حق المواطنة للمسلمين ، وكانت الجماعات غير المسلمة تعرف بالذمة ، وكان للذمة أوضاع خاصة وادارة ذاتية ، فقد أديرت شؤون كل طائفة من طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، وكان على كل فرد من أفراد الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأملاك .

وكان العرب هم المسلمون في كل ولاية جديدة ، وهؤلاء العرب كانوا في نفس الوقت هم الجند ، وعلى هذا انحصر حق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، وقد رأينا في ولايات المشرق وغيرها كم من المشاكل قد تولدت بعد دخول أعداد من السكان المحليين في الاسلام ومطالبتهم بحقوق المواطنة الكاملة.

وكان لكل واحد من الجند عطاء خاص ونصيب محدد في الغنائم ، كما كان يحق للحاكم منح ، أو إقطاع بعض الأراضي للمسلمين ، وعلى هذا فقد شكل العرب منذ البداية طبقة عليا في كل ولاية واستمروا كذلك حتى بعد توقف الفتوحات حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، فتحولوا إلى ملاك كبار ، وحين صار رجال الجند ملاكاً انصرفوا عن خدمة مهنتهم الأولى ، وغدا العطاء بالنسبة إليهم ليس بذي بال أو كبير اعتبار ، وبات كل واحد منهم يعمل جاهداً لزيادة رقعة أملاكه على حساب أملاك غيره ، وخلق هذا تنافساً أو صراعاً داخلياً صرف الطاقات نحو الداخل وحولها عن الخارج .

إن ما ناله الجند وما تمتعوا به جعلهم لا يشجعون سكان البلاد المفتوحة

على الدخول في الاسلام ، لا بل وجـــدت حالات حيل فيها دون الدخـــول بالاسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند إلى سكنى المدن ، ونظراً لاستمرار الحاجة إلى جيش وقوات مقاتلة فقد قام مبدأ بقبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على أساس قاعدة الولاء ، فقد كان على غير العربي أن ينال النسب العربي على أساس عرفي اسمه الولاء كان موجوداً قبل الاسلام ثم تطور بعده تطوراً خاصاً ، ومنح الولاء المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى بكثير من درجة العربي ، ونشد الموالي رفع درجتهم وطالبوا بالمساواة ، وكان هناك حركات كثيرة وثورات سعت نحو هذا الهدف .

وإذا كانت هذه هي الحالة العامة في جميع الولايات فإن الحالة في الأندلس قد اختلفت بعض الشيء ، ذلك أن فتح الأندلس لم يكن فتحاً عربياً مثل فتح بقية الولايات بل كان فتحاً اسلامياً ، لأن الذين تحملوا أعباء الفتح الأولى كانوا من البربر ، وجاء العرب بعد البربر ليقطفوا ثمار هذا الفتح ، واضطروا هكذا منذ البداية لمشاركة البربر ، وعليه صار النزاع الآن ليس نزاعاً عربياً على قاعدة العصبية بل نزاعاً عربياً بربرياً ثم نزاعاً عربياً داخلياً على قاعدة العصبية . يضاف إلى هذا أن أوضاع الأندلس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب اعطاء بعض التنازلات حتى وإن خالف ذلك أحكام الاسلام وقواعده ، فبعدما نزل العرب في شبه الجزيرة الايبيرية تعذّر عليهم فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها آنئذ بتدمير Theodemir ، وقاوم تدمير العرب ورفض الدخول بالاسلام كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعدما هزمه العرب لم يعاملوه معاملة المقهور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣ م تعهد المسلمون بها بالمحافظة له على نفسه وماله مع نفوس رعيته وأموالهم مع السماح بممارسة الحرية في العقيدة والعبادات .

* * *

وكان بعدما حل بموسى بن نصير ما حل أن قام الخليفة سليمان بن عبد الملك بتعيين محمد بن يزيد مولى قريش والياً على افريقية ، وبعدما تسلم منصبه كتب

إليه « أن يأخذ آل موسى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة ألف دينار ، ولا يرفع العذاب عنهم ، فقبض على عبدالله بن موسى فحبسه في السجن » ثم قتله بناء على تعليمات أخرى وردت من الخليفة .

وكان عبد العزيز بن موسى يحكم الأندلس منذ رحيل أبيه ، وقد اتخذ عبد العزيز اشبيلية قاعدة لحكمه متخلياً بذلك عن طليطلة عاصمة البلاد السابقة ، وذات أفضل موقع لحكم شبه الجزيرة الايبيرية ، وقام عبد العزيز بإكمال أعمال أبيه الحربية في الأندلس ، كما أكمل تنظيمات الولاية الادارية،وتذكر مصادرنا أنه تزوج إمرأة فيزقوطية اختلفوا في اسمها الحقيقي واتفقوا على لقبها الجديد وهو « أم عاصم » ، وذكر بعضهم أنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزقوطي السابق ، وقال البعض إنها كانت ابنته ، ومهما كان وضع هذه المرأة فإن زواج عبد العزيز منها يعني عدة أمور أولاها أن العرب الذين فتحوا الأندلس بدأوا يتخذون البلاد الجديدة موطناً لهم ، وثانيها أن هؤلاء العرب الذين عبروا إلى الأندلس فاتحين لم يجلبوا أهليهم ونساءهم من المغرب ، بل تزوجوا من النساء المحليات وسيكون لهذا أثراً واضحاً على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك .

و « بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته،فخلع طاعة بني مروان ، وخالفهم ، فأرسل إليه — سليمان — يتهدده ، فلم يرجع إلى الطاعة » وهنا راسل سليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله أحدهم وهو يؤدي صلاة الصبح وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

وأنهى اغتيال عبد العزيز بن موسى عهد فتح الأندلس وابتدأ عهداً جديداً يدعى بعصر الولاة وقد دام هذا العصر نيف وأربعين عاماً توالى على الحكم خلالها قرابة العشرين رجلا ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، وثلاثة من هؤلاء فقط حكم كل واحد منهم لمدة زادت على الخمس سنوات ، وكانت ولاية البعض قصيرة للغاية ومؤقتة حيث تسلموا مناصبهم غالباً بعد مصرع أحد الولاة

المعينين في حرب خارجية أو فتن أهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة والي القيروان وارتبطوا به ، لكن نظراً لبعد المسافة بين الأندلس والقيروان فقد عاش ولاة الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في شمال أفريقية بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الاسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوربي بعالم المشرق، إلاّ أنه استمر يتأثر بجميع الأشكال بما كان يجري في الغرب ويؤثر فيه .

وعندما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين اخضاع جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم يدخلها العرب ، كما أن بعض أطراف البلاد الأخرى كان الحكم الجديد فيها غير مكين القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الاسلامي للأندلس لم يمر دون احداث أصداء واسعة في الغرب مع ردات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الايبيرية ويدعموا الحكم الاسلامي حيث كان ضعيفاً ، ثم كان عليهم التصدي بالهجوم الوقائي لردات فعل العالم الغربي ، يضاف إلى هذا كله كان عليهم مواجهة مشاكل انشاء مجتمع اسلامي جديد في جزء من أوربة . (١)

وسنرى أن هؤلاء الولاة قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما أنهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل أوربة ، فكان ذلك بداية الخسران وفقدان الأملاك .

---

١ - ابن عبد الحكم . ٢١١ - ٢١٥. تاريخ خليفه : ٤٣٠/١ . العذري : ٤ - ٧ . ابن القوطية : ٣٧ - ٣٨ . أخبار مجموعة : ١٩ - ٢٢ . الرقيق : ٩٣ - ٩٦ . البيان المغرب : ٣٠/٢ - ٣٢ . المعجب : ١٢ - ١٣ . جذوة المقتبس : ٦ . أرسلان : ٤٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢٣٠ - ٢٣١ .

A. History of Islamic Spain : 16.

وبعدما اغتيل عبد العزيز بن موسى قدم أهل الأندلس أيوب بن حبيب ، وكان ابن أخت موسى بن نصير ، قدموه ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصورة رسمية من قبل والي افريقية ، وقد بقي أيوب في منصبه بضعة أشهر إلى أن وصل الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧ هـ / آب ٧١٦ م ، ولعل أهم ما حدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة ولاية الأندلس من اشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي رقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان من سنة ١٠٠ هـ / نيسان ٧١٩ م ، ويبدو أن ما من شيء ذي أهمية قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته مع ما أصاب الدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمر بن عبد العزيز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عن ولاية افريقيه ، حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمح بن مالك الخولاني « وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفه الأندلس وأنهارها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها واخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك . »

وما أن تسلم السمح منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد أركان الولاية الجديدة والعناية بمدينة قرطبة التي صارت مقراً لها ، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناءه لجسر على نهرها . ، على أنه يبدو من مصادرنا بأن السمخ قد وقف معظم جهوده في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، ولقد سبق وذكرنا بأن المملكة الفيزقوطية كانت تشمل جزءاً من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة أصبح جنوبي فرنسا عبارة عن أراضي فارغة ، وقد توجه العرب للسيطرة عليها ، ولعلهم سيطروا أثناء الفتح على مدينة أربونة = نربونة Norbonne أو أن ذلك حصل بعد ذلك مباشرة أيام السمح ، إن هذا واحداً

من الأمور التي لا نملك معلومات يقينية حوله ، والمعروف لدينا هو أن السمح كان في سنة ٧١٩ م مسيطراً على هذه المدينة ، وأنه زحف منها نحو مدينة تولوز Toulouse ، وهناك اصطدم بقوات أود Eudo دوق أكويتين Aquitaine التي كانت نشطة هناك ، وقد استطاع أود صد المسلمين وقتل قائدهم السمح ، وكان هذا سنة ٧٢١ م .

ولم توقف هذه الصدمة المسلمين عن العمل في سبيل احتلال أجزاء من فرنسة ، فقد تابعوا نشاطهم ، إنما بعد ما اتخذوا لأنفسهم طريقاً ، وبالفعل حقق العرب بعض النجاحات واندفعوا في وادي الرون Rhone ، وكان أهل الأندلس قد اختاروا عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي أميراً مؤقتاً ، يدير شؤونهم ، حتى يتم تعيين أمير يخلف السمح المقتول ، وقد بقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت من كانون ثاني سنة ٧٢١ م حتى شهر آب من نفس العام .

ومرت أعوام عشرة تولى فيها إمرة الأندلس ولاة سبعة كان ثامنهم عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي للمرة الثانية ، وهؤلاء الولاة كانوا :

١ ــ عنبسة بن سحيم الكلبي :
من صفر ١٠٣ إلى شعبان ١٠٧ هـ / آب ٧٢١ ــ كانون ثاني ٧٢٦ .

٢ ــ عذرة بن عبدالله الفهري :
من شعبان ١٠٧ إلى شوال ١٠٧ هـ / كانون ثاني ٧٢٦ ــ آذار ٧٢٦ .

٣ ــ يحيى بن سلمة الكلبي :
من شوال ١٠٧ إلى ربيع الأول ١١٠ هـ / آذار ٧٢٦ ــ شباط ٧٢٨ .

٤ ــ حذيفة بن الأحوص :
من ربيع الأول ١١٠ إلى شعبان ١١٠ هـ / شباط ٧٢٨ ــ تشرين ثاني ٧٢٨ .

٥ ــ عثمان بن أبي نسعة :
من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ / تشرين ثاني ٧٢٨ ــ نيسان ٧٢٩ .

٦ — الهيثم بن عبيد الكناني :

من محرم ١١١ إلى ذي القعدة ١١١ هـ / نيسان ٧٢٩ — شباط ٧٣٠ .

٧ — محمد بن عبدالله الأشجعي :

من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢ / شباط ٧٣٠ — نيسان ٧٣٠ .

٨ — عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :

من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤ / نيسان ٧٣٠ — تشرين أول ٧٣٢ .

وعاشت الأندلس هذه السنوات العشر في ظل بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة ثانية، ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية، وقد تطرف دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محوراً أدار عليه جميع حوادث تاريخ الأندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن ما دعاه بالعصبية القبلية ، ما كان صراعاً بين قبائل اختلفت أنسابها ، بل كان صراعاً بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل منها في مكان أو بقعة محددة وادعت لنفسها نسباً يمت إلى إحدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام نزاع بين المجموعات المتحاربة [illegible] من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس .

وفي الفترة التي جاءت ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع أود عن نفسه وعن أراضيه مستغلا أحياناً النزاع بين العرب والبربر ، وبين العرب أنفسهم ، ومسهماً فيه أحياناً أخرى ، وخلال ذلك صنع زواجاً دبلوماسياً مع عثمان بن أبي نسعة ، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة » أمن بها من غارات العرب ولكن إلى حين .

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية وقد تمتع بشعبية واسعة بين صفوف الأندلسيين ، ولما أدرك استقرار أحوال ولايته رأى أن يقوم من جديد بإكمال حركة الفتوح ، وقرر أن يوجه

طاقاته ضدّ أود ، وبدأ تحركه بأن بعث إلى عثمان بن أبي نسعة ، وكان قائداً لمنطقة الحدود مع أراضي حميّه كونت أود ، بعث إليه بأن يشاغل العدو بالغارات إلى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ووقع هذا الأمر من عثمان موقع الكراهية الشديدة ، حسداً لعبد الرحمن ، وضنا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الرحمن إلى عثمان « وقع في حيص بيص وراجع الأمير عبد الرحمن قائلا له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه ، فأرسل إليه يشدد عليه بتنفيذ أوامره ، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن اعمال الغارة في بلاد أود أرسل إلى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشاً إلى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله ، وأمره بأن يأتيه بعثمان حياً كان أم ميتاً ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذت زوجته الحسناء إلى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها إلى دمشق » .

ولما وصل خبر مصرع عثمان إلى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لا محالة ، فتأهب للدفاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرانه ، فاحتل عدداً من المواقع وحصل على كميات هائلة من الغنائم ، وحاول أود ايقاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التفت نحو خصمه شارل مارتل أمير الفرنجة فاستصرخه ، وامتد الصريخ في كل أرجاء فرنسه ، وزحفت القوات المتماثلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت راية شارل مارتل الذي عرفه العرب باسم « قارله » ، وعندما وصل العرب قريباً من مدينة تور Tours الواقعة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشاً عظيماً يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال جيشه فرأى جنده يحملون غنائم لا حصر لها ، وأن الحفاظ على هذه الغنائم هو شغلهم الشاغل ، ورأى في هذا مخاطر لا حد لها ،

ولعله همّ بإعطاء الأمر للجند بترك الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، فآثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر قربها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارل مارتـــل وقـــواتـــه ، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل خلالها وضع الجند العربي ، وجاء ذلك عن طريق مهاجمة قوات شارل مارتل لمنطقة الغنائم ، وعندما دب الخلل في الجيش العربي ، ألقى عبد الرحمن بنفسه في وسط المعمعة ، فنال الشهادة ، وفي المساء توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي فوجىء الفرنجة بمعسكر العرب قائماً كما كان ، لكن خالياً بدون جند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا بعد وقت أن العرب انسحبوا تحت ستار ظلام الليل .

هذا وقد لاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث ، واعتبروها إحدى معارك التاريخ الفاصلة ، وقالوا بأنها أبقت أوربة نصرانية وحاولت دون انتشار الاسلام فيها ، وفي هذا الكثير من التطرف والشطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في كثير من الأحيان شيئاً وانتشار الاسلام شيئاً آخر ، فقد حكم العرب أقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك إلى انتشار العقيدة الاسلامية والأخذ بها .

يضاف إلى هذا أن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسة دون العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسة ، لكن ليس على معيار كبير ، ولعل هذه المعركة قد أعطت العرب درساً قاسياً بأنه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسة ، وهنا ينبغي أن نقف قليلا عند قضية الغنائم ، لنقول بأن فرنسة القرن الثامن لم تكن بلداً غنياً يمكن للمغير عليه أن يحصل على غنائم ثمينة ، وعـــرب القرن الثامن وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم ما كانوا ليغامروا داخل فرنسة ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وأرباح كبيرة مضمونة ، لقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسة أعلى بكثير من المرابح ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسة البارد،وكانوا يؤثرون العيش في المناخ المتوسطي .

هذا وقد عانى العرب في الأندلس وافريقية ثم في المشرق ، بعد هزيمة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم ، وشتت قواهم ، فلم يحاولوا الثأر لهذه المعركة ، وظلوا يعانون المشاكل والانقسامات حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير ألم بشؤون السلطة في الأندلس .

لقد كانت معركة بواتيه نهاية المد العربي ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، وما كانت الغزوات التي توغلت داخل فرنسه بعد ذلك إلا أمواجاً ضالة ذهبت قواها وانهدرت حيث وصلت دون أن تترك أثراً ، ومع الأيام استمر الجزر حتى غطى الأندلس بقعة بقعة . (١)

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي إلى مسامع والي إفريقية أنفذ عبد الملك بن قطن الفهري والياً جديداً على الأندلس ، وأنفذ معه قوة من خيل ورجل وبعث إلى الخليفة الأموي يعلمه ويستمده ، ويبدو أن عبد الملك أخفق في اثارة همم الناس ودفعهم إلى الغزو من جديد، وهنا عُزل من منصبه وكان هذا سنة ١٢١ هـ / ٧٣٩ م وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي إفريقية ، عبيد الله بن الحبحاب .

وكانت جموع كبيرة من بربر المغرب قد دخلت الاسلام ، وأساء ابن الحبحاب معاملة بربر المغرب ، وفي نفس الوقت انتشرت أفكار الدعوة الخارجية بين صفوف جماعات من البربر ، فما كان أن تهيأت الفرصة حتى ثار البربر سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠م بزعامه أحدهم الذي عرف باسم ميسرة المدغري ، وجهد عبيد الله في القضاء على هذه الثورة ، واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الاخفاق ، وقام البربر باغتيال زعيمهم ميسرة المدغري وانتخبوا زعيماً جديداً اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خالد هذا ايقاع

---

١ — ابن عبد الحكم : ١٢٦ — ٢١٧ . ابن القوطية : ٣٩ . أخبار مجموعة : ٢٢ — ٢٥ . البيان المغرب : ٣٣/٢ — ٣٥ . أرسلان : ٧١ — ١٠٤ .

A. History of Islamic Spain : 21–24.

هزائم ماحقة بالقوات العربية التي كانت مرابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السيطرة العربية عن معظم أجزاء المغرب واضطر ابن الحبحاب إلى مغادرة المغرب إلى دمشق حيث أخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بما آلت إليه الأمور ، فانفعل وتأثر كثيراً حتى قال « والله لأغضبن لهم غضبه عربية ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي » .

وكان لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على أوضاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بدورهم ، ومعروف أن البربر قد تحملوا العبء الأكبر في فتح الأندلس ، لكن رغم هذا كان ما نالوه من ثمرات الفتح أدنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك أنه عندما وزعت أراضي الأندلس على الفاتحين أعطي البربر أراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود، هذا في حين نال العرب أحسن أراضي الأندلس وأكثرها خصباً ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بإيداع واليها السابق عبد الملك بن قطن مع اعوانه ومؤيديه السجن ، وقد مثل عبد الملك حزب أهل المدينة في الأندلس ، وحين أخفق حاكم المغرب في القضاء على ثورة البربر ، وبعدما أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، وأصيب عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قام جماعة الحزب المدني وأرغموه على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكـــذا ، وللمرة الثانية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس ، إنما بموجب إرادة قوى أندلسية وليس تبعاً لارادة والي افريقية أو الخليفة الأموي .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشاً كبيراً جعل على رأســـه كلثوم بن عيـــاض القشيري وعهد إليه بولاية افريقيه ، وأمره بأن يعمل على القضاء على الثورة فيها وزحف كلثوم نحو المغرب ، وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه

بلج بن بشر ، وكان فيه رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن أحواله وقوع الخلافات بين صفوف العرب قوات من كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في إفريقية ، لذلك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعرب ، وفر بلج مع ما يقارب العشرة آلاف من جنده نحو سبته ، وهناك اتخذ موقف الدفاع .

وضاقت الحال ببلج وصحبه وحينذاك طلب بلج من عبد الملك أن يعينه على المضي إلى اسبانيا ، ولم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثاً حاول استدرار عطفه عليه ، بما كان يذكره له في رسائله من أنه هو ورفقاؤه يموتون جوعاً في سبتة . وأنهم — قبل كل شيء — عرب مثله ، فلم يُحنّن بؤسهم قلب ذلك الشيخ المدني العجوز عبد الملك ، الذي حمد الله أن أتاح له — وهو في التسعين من عمره — فرصة تذوق لذة الانتقام . ومن ثم أشرف على الموت جوعاً أبناء أولئك « المتبربرين الكفرة » الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وأبناء عشيرته ، والذين أوشكوا أن يذيقوه — هو نفسه — الموت بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة ودنسوا قبر الرسول . . . أفيطمع أبناء أولئك القساة أن يرق [عبد الملك] لهم ؟ ! وهل يتأتى لروح الانتقام عند العربي أن تغفر أمثال هذه الخطايا ؟ وهل تستطيع آلام الشامي أن تحنن قلب المدني عليه ؟ .

لم يكن لعبد الملك سوى رغبة واحدة ، وهمّ واحد ، وشغل واحد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية لأهل الشام وبين مدهم إياهم بالميرة ، وعلى الرغم مما اتخذه من الاحتياطات ، فقد استطاع شريف رؤوف من قبيلة لخم أن يفلت من رقابته ، وأن يرسي في ميناء سبتة مركبين مشحونين بالحنطة ، فلم يكد يتناهى خبر ذلك إلى عبد الملك حتى قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمائة جلدة ، ثم أمر بسمل عينيه وقتله متهماً إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته إلى المشنقة ، وقد صلبوا إلى يمينها كلباً إيغالا في النكاية به ، وخيل إلى الشاميين أنه قد حكم عليهم بالموت جوعاً « غير أنه جد فجأة أمر لم يكن في الحسبان ، أرغم عبد الملك على تغيير مسلكه » .

لقد استشرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس حماساً تحرج وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها البربر هناك « وتحرج موقف عرب اسبانيا إذ ذاك ، وأصبح ينذر بالخطر ، وأوشك على الزوال حتى لقد وجد عبد الملك نفسه . رغم ما هو فيه — مضطراً لالتماس معونة أهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى هذه اللحظة يكابدون مصيرهم التعس دون أن تأخذه فيهم شفقة ولا رحمة ، إلا أنه اتخذ الحيطه لنفسه فوعدهم بأن ينفذ إليهم مراكب تنقلهم على شرط أن يقطعوا العهد على أنفسهم بمغادرة اسبانية حالما يقضي على الثورة ، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخه يضعهم في إحدى الجزر تكون رؤوسهم ضماناً لصدق تنفيذ الاتفاق ، واشترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك أن ينقلهم جملة إلى إفريقية ، وأن ينزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان » .

أقر الجانبان هذه الشروط ، وأبحر أهل الشام ودخلوا الأندلس « عراة لا يواريهم إلا دوابهم ، وقد بلغ بهم الجهد غايته ، وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس » ، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس زحفوا نحو البربر الثائرين فهزموهم في أكثر من معركة وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وتعرف عرب الشام على الأندلس ، فأعجبتهم وأعجبهم غناها ، وأدركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما أن تلاشت ثورة بربر الأندلس وقضي عليها ، حتى طلب عبد الملك من بلج وصحبه مغادرة الأندلس والعودة نحو إفريقية ، وهنا اختلق بلج أسباباً للبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، وأودع عبد الملك السجن ، وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فثار جند بلج وأخرجوا عبد الملك « كأنه فرخ نعامة من الكبر ، وهم ينادونه : أفلتّ من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبتنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود ثم أردت إخراجنا إلى القتل ، ثم قتلوه وصلبوه ، وصلبوا خنزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله » .

ولم يمض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونما جرائر ، فقد انقسم عرب الأندلس إلى قسمين متصارعين وقامت معارك بين الشاميين والعرب الأندلسيين القدماء — أو البلديين — ولقي بلج مصرعه في الحرب ، لكن أصحابه حققوا لأنفسهم النصر ، فاستمروا متسلمين لمقاليد الأمور . وخلف بلج ثعلبة بن سلامة العاملي ، وكان هذا سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، وجاء اختيار ثعلبة بسبب « أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم ، فإن أصيب فابن أخيه بلج ، فإن أصيب فثعلبة » .

واستمرت الحرب الأهلية أيام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعاً بين العرب والبربر وأخرى بين العرب أنفسهم شاميين وبلديين ،وبقي النصر حليفاً للشاميين ، ووقع أثناء هذه الحرب في أيديهم عدد كبير من الأسرى ، كما أقدم ثعلبة على اقتراف أمر لم يعهده العرب في تاريخهم بعد الاسلام ، الا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق أطفالهم ، وكان ذلك حدثاً ليس له سابقة جاء في منتهى الفظاظة والقسوة .

وأخافت تدهور أوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شاميين وبلديين والتمسوا مخرجاً لذلك ، فتوجهوا بابصارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت إلى الاستقرار النسبي ، بعدما وجه إليها هشام حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحدث ذلك عندما بلغه ما صار إليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء الأندلس بحنظلة سألوه أن يندب إليهم والياً يكون قادراً على إعادة النظام والامن والطمأنينة إلى الأندلس ، فاستجاب لمطلبهم واستعمل أبا الخطار الكلبي حسام بن ضرار ، ووصل أبو الخطار قرطبة على حين غرة ، فألفى ثعلبة بن سلامة « وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبطر ،فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لا ممن يزيد » .

وتسلم أبو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن أنهى الحرب الأهلية ، فنفى عدداً من شخصيات القوى المتصارعة وكان

من جملة المنفيين ثعلبة بن سلامة ، وأعاد النظر في توزيع أراضي الأندلس على العرب فأعطى طالعة بلج الشامية أملاك أندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من أهل الأندلس وسكانها الدائميين .

ونجح أبو الخطار في ادارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم، لكنه لم يُمتّع نفسه بذلك طويلاً ، حيث ما لبث أن تخلى عن حياده ورزانته وتعصب لليمانيه ضد القيسية ، وبهذا عاد الانقسام من جديد إلى صفوف عرب الأندلس، وتزعم الجماعات القيسية الصميل بن حاتم الكلابي وكان حفيداً لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، وكان أعرابياً عنده عنجهية البداوة وصلفها ، ولم يكن صاحب ثقافة أو حتّى معرفة بالاسلام ، وكان لا يحسن القراءة والكتابة ، ويروي أنه مرّ بمؤدب يُقرأ ولداً له القرآن فسمع منه الآية « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فوقف الصميل وقال للمؤدب: نداولها بين العرب ، فقال له المؤدب : «بين الناس » ، فقال الصميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصميل : والله إني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل .

وجمع الصميل أعوانه من قبائل قيس ووثب بأبي الخطار فانتزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شيء من الفوضى والصراع عين الصميل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، عينه والياً على الأندلس ، ولم يلق أتباع الحزب اليماني السلاح ، فخاضوا — بزعامة أبي الخطار — عدة معارك ضد القيسيين كان أشهرها واحدة وقعت سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م بمكان عرف بشقندة ، وكان قريباً من قرطبة ، وقد تلاقى رجال الفريقان المتصارعان « حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتّى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا إلى البراز فتنازلوا بالسيف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن في الاسلام صبر مثله » وعندما أنهك الفريقان أسرع الصميل نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم حضور هؤلاء المعركة

لصالح الصميل وحزبه ، وأعقب المعركة عمليات تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الحوادث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمرّ بـــــدور الحشرجة النهائي ، لذلك سارت الأمور في الأندلس دون أن يكون للخلافة أو والي إفريقية أي دور في ايقاف المذابح التي وقعت ، وازدادت أحـــوال الأندلس سوءاً أن حل بها منذ سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م وحتى سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م قحط شديد ومجاعة دفعت الكثير من العرب إلى هجر الأندلس والعودة إلى المغرب ، وكان ذلك فرصة اهتبلها رجال المقاومة الاسبانية ، فبدأوا حرب الاسترداد التي ستستمر أجيالا طويلة وتنتهي بطرد العرب من الأندلس . (١)

وفي المشرق سقطت أثناء هذا الخلافة الأموية وقام مكانها خلافة بني العباس، وكان لذلك أثر حاسم على مستقبل الأندلس وعلى تاريخها ، فقد أنهت هذه الثورة العصر الذي كان فيه الأندلس ولاية ، وسببت قيام عصر جديد ، غدا فيه الأندلس أول قطر اسلامي يخرج عن الاجماع الاسلامي بالطاعة لخليفة واحد .

عصر الامارة الأموية

بعد معركة شقنده خلصت ولاية الأندلس ليوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك كان ظاهرياً فقط ، ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب أمير ولاية الأندلس إلا الاسم ، لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الأيام ضجر يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص مـــن الصميل ، واستطاع ذلك بأن أبعده عن قرطبه إلى سرقسطة ، وبلغ الصميل

---

١ – أخبار مجموعة : ٣٠ – ٦٧ . ابن القوطية : ٣٨ – ٤٦ . ابن عبد الحكم : ٢١٦ – ٢٢٥ . الرقيق : ١٠٤ – ١٢٢ . البلاذري : ٢٣٣ . البيان المغرب : ١/٤٨ – ٦٤ ، ٢/٣٩ – ٥٥ . دوزي : ١٣٨ – ١٧٦ . أرسلان : ٧١ – ١١٣ .
The Moors in Spain, 39–58. A History of Islamic spain, 21–29.

هذه البلدة سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب جماعات الحزب اليماني .

ولم يلق الصميل – حين وصل سرقسطة – أية معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك إلى أن وصوله جاء مع احتدام آثار القحط والمجاعة ، وعمل الصميل طيلة سني المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء ومأوى إلى جميع المحتاجين دونما تمييز ، ومضت فترة من الزمن ساد فيها التفاهم بين القيسيين واليمانيين ، ولكن ذلك لم يعد كونه هدنة على دخن ، فما أن زال الجفاف وعاد الخصب حتى تحركت النفوس بأحقادها من جديد ، وعقدت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة ان تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة وبنفس الوقت واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق واتخذ موقف الدفاع ، أعوزته الحاجة لطلب النجدة من يوسف ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل كما أنه لم يكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب في التخلص من الصميل ومن نفوذه .

وضاق الحصار بالصميل وأضربه « حتى يئس من الحياة وهم بالإلقاء بيده » ولمّا لم يلق من يوسف استجابة ، كتب إلى زعماء قبائل قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت مسرح أحداث الأندلس ، وتجيشت قوة من قبائل قيس ومن جماعة عرفت بموالي بني أمية وانطلقت نحو سرقسطة وكان برفقة هذه القوة رجل طرق الأندلس حديثاً عرف ببدر مولى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدته نحو قرطبة ، وقام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره أنه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس واحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البدء « واتفق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال : تأملت الأمر

فوجدته صعب المرام »،وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل.

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم « قوماً قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلا لطلب ثأرهم » وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية إلى الأندلس ، وعاد بدر إلى مولاه ومعه / ٥٠٠ / دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق .

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور ، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨ هـ/ ٧٥٥ م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا إلى طليطلة لامضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ / ١٤ آب من سنة ٧٥٥ م نزل عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقه ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقراً في قرية قريبة دعيت بطُرُّش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنـــا لا بد لنا قبل متابعة الحديث عما آلت إليه أمور عبد الرحمن مع أمور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلا كيما نعود إلى الوراء لنتعرف إلى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك المشرق والقدوم إلى الأندلس .

عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م وكانت أمه بربرية من سبي المغرب تسمى راحاً أو رواحاً » ، وقد توفي أبوه عندما كان طفلا صغيراً ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، ودربه فأحسن تدريبه ، وفي مصادرنا أن سبب ذلك يعود إلى أن عبد الرحمن ذهب مرة مع إخوته الأطفال نحو قصر جده هشام ، وعندما كانوا بالباب جاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك إلى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية ، فنظر إليهم متفحصاً واستعرضهم واحداً واحداً ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه إلى صدره في حنو ، وصادف أن خرج

الخليفة هشام فرآه يفعل ذلك فسأله : « من هذا يا أبا سعيد » ؟ فأجابه مسلمة : ولد لمعاوية ابنك ، ثم مال عليه وأسر إليه بصوت سمعه عبد الرحمن وكان مما قاله : دنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام : « أهو » ؟ فأجابه مؤكداً : « أي والله ، وقد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه » .

وتفسير هذه القصة أن بني أمية كانوا يعرفون عن طريق النبوءآت أن ملكهم آيل إلى الزوال في المشرق، لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر آله معرفة بما سيحل بملك بني أبيه وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد .

وتبعاً لهذه القصة لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني أمية وقامت الدولة العباسية تذكر النبوءة ، فتوجه إلى المغرب ليعمل على احيـاء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك .

لا شك أن طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي استهدفت اضفاء الشرعية النابعة من الارادة الالهية على نجاح أعمال عبد الرحمن ، ولا ريب أن مثل هذه الأقاصيص كانت تلقى قبولا في مجتمع مثل المجتمع الاسلامي، للعصور الوسطى الذي كثرت فيه النبوءآت وتعددت إلى حد عجيب غريب ، والذي كان يؤمن بحتمية الأقدار ، وأن الانسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءآت لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت .

والذي حدث هو أن عبد الرحمن اختفى مع بعض من أفراد أسرته في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه إلى التستر هو البطش العباسي وعمليات الابادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع أفراد الأسرة الأموية .

وفي أحد الأيام فوجىء عبد الرحمن بثلة من الجند العباسي تقتحم القرية التي كان فيها ، فهرب من وجهها مع أخ له وألقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة في حين لم يستطع أخاه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباسي فذبحوه على الفور .

ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ولعله تخفى عند أحد أنصار بني أمية السابقين وفي فلسطين لحق به مولاه بدر مع سليم مولى أخته أم الأصبغ وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه أخته ، ومن فلسطين توجه إلى مصر فاجتازها إلى المغرب .

وكان المغرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت أموره بيد عبد الرحمن بن حبيب ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، وقد استولى عبد الرحمن هذا على أمور المغرب استيلاءاً ، فقد كان في البداية من أهل الأندلس ، هرب منها إلى المغرب ، ثم تدبر أموره فأحدث انقلاباً استولى فيه على حكم المغرب كله .

وشجع بعد المغرب ، ووضعه السياسي أفراد البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت إلى المغرب وقدم لها المساعدة ، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا المغرب ولقوا مساعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويين ، ذلك أنه كان فيمن قدم من الأمويين « ولدان للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، يقال لأحدهما القاضي والآخر المؤمن . . . فأنزلهما عبد الرحمن بدار . . . وكانت معهما عجوز في الدار ، فدسّ إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضع تُسمعه منه كلامهما ، فقالت : إن البيت الذي هما فيه في سقفه غُرّة ، فإن شئت فأنا أوصلك ليلا إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال : افعلي ، فلما كان في الليل اطلع عليهما وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضي : ما أغفل عبد الرحمن ، أيظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحن أولاد الخليفة» ؟ ! وبعدما سمع عبد الرحمن هذا بطش بالأميرين الأمويين وأخذ بملاحقة بقية الأمويين ، فبادروا إلى الفرار والتجأ بعضهم إلى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بن معاوية .

و« مضى عبد الرحمن ينتقل من قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر ، وذرع

أفريقية الشمالية من أدناها إلى أقصاها ، فاختفى حينا في برقة ، ولاذ حيناً آخر ببلاط بني رستم ملوك تاهرت [من المغرب الأوسط] ، كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلا بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات — وهي فترة غير قصيرة — دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظه في اسبانيا ، بل كانت افريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، المملق ، العديم الأصدقاء ، ودأب على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له ، فطردته مكناسة من أرضها ، فتركها إلى قبيلة نغزة البربرية التي منها أمه — وكانت تسكن قرب سبته » .

ومن هناك عرف حال الأندلس ، فأرسل مولاه بدر إليه ، فاتصل بدر هناك بجماعة كانت من موالي الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالي زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لعبور عبد الرحمن ابن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز زعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

ويبدو أن نشاط بدر والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن إلى الأندلس لم تكن سراً البته ، والذي كان سراً هو وقت العبور ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ، ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، كتبت زوجة يوسف ابن عبد الرحمن إليه : « ابن معاوية قد دخل ونزل بُطرُّش عند الفاسق عبيد الله ابن عثمان ، وأصفقت بنو أمية معه ، وإن خليفتك على إلْبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه . »

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فارفض أكثرهم عنه ، وعاد البعض إلى مواطنهم وانضم البعض الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وحاول يوسف جهده جمع قوة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت ملائماً لذلك ، فأخفق رغم بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، وأفاد ذلك عبد الرحمن ، فزاد

من نشاطه وصار يبيت في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفرص ، وازداد عدد أعوانه ويبدو أن حركته قد أخذت بعض الطوابع الاجتماعية ولعلها بذلت الكثير من الوعود الاصلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين من عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رسالة وجهها يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبّش من تأبّش إليك ونزع نحوك من السرّاق ، وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب ، فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته ألا أغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره ».

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته ، ولا شك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغرير به ، لكن عبد الرحمن كان أكثر نباهة وحذراً ، فرفض طلب يوسف ، وأهمل عروضه ، وطلب منه التنازل له عن حكم الأندلس وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومع الأيام إزداد أتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العدة للزحف على قرطبة ، وعندما تحرك نحوها حاول يوسف ايقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبه التقى جيش عبد الرحمن بجيش يوسف والصُميل فاستطاع عبد الرحمن ايقاع هزيمة ساحقة بهما وبقواتهما وأجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن من دخول قرطبة وكان ذلك صباح الجمعة يوم عيد الأضحى لسنة ١٣٨ هـ / ١٤ أيار ٧٥٦ م .

وقام جند عبد الرحمن اليمنيون بنهب قرطبة ، وعندما حاول عبد الرحمن ايقافهم عن النهب ومنعهم من القيام من عمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضباً شديداً ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ،

ولحسن حظ عبد الرحمن أنه علم بخبر المؤامرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها مما دفع المتآمرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان آنذاك هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدواً للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة، ذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك، ومع أن عبد الرحمن لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولا ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الاسلامية الشرعية، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الاسلامية فصلا سياسياً كاملا ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي ، فعملياً كانت الأندلس دائماً مستقلة ، يربطها خيط واهي بالسلطات الشرعية لإفريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهداً جديداً في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ووحدة أراضيـــــه السياسية .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المسائل الفائقة الأهمية، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس وأن يقوم بمعالجـــة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن أعداداً لا بأس بها من هؤلاء بدأوا بالتحول إلى الاسلام ، وكانت أسباب التحول هذه أسباباً نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة

الكنيسة الاسبانية وافلاسها أمام الدعوة الاسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في المشرق كما شابهتها في بعض الوجوه .

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الابـداع في ثقافتـهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الاسلامي وتبنوا كل ما كان للعرب إلاّ دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفاؤه العديد من الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للابقاء على نوع من التوازن بين القيسيين واليمانيين وفي نفس الوقت أخذ في اعداد جيش من المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السابق ، كما أن تجنيده لجيش خاص جعله يختلف عن سابقيه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبيين العربيين ، وبدلاً من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى ، واستدعى هذا انشاء بلاط ، واضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لانشاء البلاط واقامة الجيش المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة ممـا دعا إلى العنـاية بموارد البـلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها ، وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل ، ومشاكل مستحدثة معقدة .

وبسبب أن عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضـل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني ، فقد وجد أن عليه أولا أن يعالج مشكلة الحزب

القيسي ، ذلك أنه بعدما دخل قرطبة ، وسيطر على عاصمة الأندلس ، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشيرته في جندجيان ، وأخذا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد ، وسار أولا ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة كسبها عبد الرحمن ، استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصماه على الاستسلام له ، وجلبهما معه إلى قرطبة ، حيث عاملهما معاملة كريمة وكان يشاورهما أحياناً ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصميه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بلا منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل اقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م منها ، وأخفق جند عبد الرحمن في تعقبه والقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف وألقاه في السجن مع ولدي يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت أخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين ألف من عرب وبربر ، وزحف على قرطبة ، وكان أن اصطدم أولا باشبيلية ، وهناك هزم ولوحق فقبض عليه قبيل طليطلة وهناك قتل ، واثر ذلك أجهز عبد الرحمن على أبي زيد بن يوسف وأبقى الولد الآخر حياً في السجن .

وكان هذا الولد يعرف بأبي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره فانطلى ذلك على سجانيه ، وهيأ له الفرصة للهرب ، وقد أثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد .

ولم ينعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلا بعد تفرغه من معالجة مشاكل الحزب القيسي فقد انجر نحو معالجة مشاكل الحزب اليماني ، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عبد الرحمن لا حباً به بل سعياً وراء الانتقام من الحزب القيسي وحباً لنيل السلطة ، وكان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليماني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمانيين ، إلا أنه كان مضطراً للتعاون معهم ، ولهذا نجده يلجأ إلى سياسة التوازن فلم

يحاول إبادة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصر اليمانية تسكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أخمدها واحدة تلو الأخرى .

ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م بتحريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ، وكادت هذه الثورة أن تقضي على جهود عبد الرحمن وتعيد الأندلس ولاية من ولايات الخلافة ، لكن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه من تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعداداً كبيرة من الثوار وبعث بعدد من رؤوس القتلى فرميت بسوق القيروان ، ويقال بأنه بعث ببعض الرؤوس إلى مكة ، وكان المنصور حاجاً آنذاك فرميت قريباً من خيمته ، فلما رآها وعرفت رأس العلاء بينها أصابه الذعر وقال : « إنّا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان » .

وفي سنة ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى بقيادة سعيد اليحصبي ، الذي عرف بالمطري ، واستطاع المطري احتلال اشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي نفس السنة قتل عبد الرحمن زعيماً يمانياً آخر هو أبو الصباح بن يحي اليحصبي ، وفي سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٢ واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى في منطقة اشبيلية بقيادة عبد الغافر اليحصبي فقضى عليها أيضاً وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبد الرحمن الكثير من البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمن جميعاً ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا إلى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداء قوى غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان ابن يقظان العربي الكلبي حاكم برشلونه مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلبي « لأنه كان طويلا ، أشقر ،

أزرق ، أمعر » وأبي الأسود ابن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر إلى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٧ م ، فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من أخذ سرقسطة كما تمكنهم من اشغال عبد الرحمن في مناطق أخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الأندلس عرف بأن الصقلبي قد لاقى حتفه ، وأن أبا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كان سليمان بن يقظان قد استولى عليها ، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقسطة بخطط سليمان بن يقظان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفر سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه ، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبراً قضى بالاخفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعاً إلى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتنمين فرصة غيابه .

وفي طريق العودة وأثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال البرانس انقض رجال البشكنس على مؤخرة قواته حيث مؤن الجيش وذخائره ، فأتلفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراستها ، وهكذا أوقعوا كارثة كبيرة بجيش شارلمان ، وكان بين القتلى عدد من النبلاء من بينهم رولاند Roland ابن أخت شارلمان نفسه .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوربية تتناقل أخبار الكارثة التي حلت بجيش شارلمان ، محيطة ذلك بهالة خاصة أثرت على الفكر الأوربي للعصور الوسطى ودفعت نحو كتابة واحدة من أشهر ملاحم العصور الوسطى ألا وهي الملحمة المعروفة باسم « نشيد رولاند » The song of Roland .

وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هذه المرة ،

وكانت حملة شارلمان آخر محنة خطيرة يتعرض لها عبد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث توفي في ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ / ٣٠ أيلول ٧٨٨ م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قرن يعمل على تأسيس ملك لبني أمية في المغرب بعدما انقطع في المشرق ، وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما أثار هذا النجاح اعجاب الكتاب والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير الكثير مما يمكن الكتابة عنه . (١)

هشام الرضا

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا عادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى وبعلو الثقافة ، ودعوته بالرضا لا شك أنها كانت متصلة بتيارات الربع الأخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوءات وتطلعات الأمة الاسلامية ، فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الامام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون ولياً لعهده فترة من الزمن .

فهشام أراد أن يقطف ثمار ما صنعه والده ، ويتمم العمل في احلال رابطة الأمير محل رابطة العصبية ، وجعل شخصية الأمير محور الأمور في الأندلس تدور حوله وليس حول سواه ، ولقد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة ماسة إلى الهدوء والأمن بعدما فقدت ذلك فترة مديدة .

---

١ – ابن القوطية : : ٤٥ – ٦٥ . العذري : ١ ، ٢٥ – ٢٦ ، ١٠١ ، ١١٧ – ١٢٠ . أخبار مجموعة : ٤٦ – ١٢١ . ابن الأبار : ١/٣٥ – ٤٢ . الرقيق : ١٢٣ – ١٤٨ . البيان المغرب : ١/٦٥ – ٧٨ ، ٢/٥٦ – ٩٠ . جذوة المقتبس : ٩ – ١٠ . العذري : ١١ ، ٢٥– ٢٦ ، ١٠١ ، ١١٧ – ١١٨ ، ١٢٠ . المعجب : ١٦ – ١٨ . نفح الطيب : ١/٣٠٦ – ٣١٣ . دوزي : ١٦٨ – ٢٣٦ . أرسلان : ١٢٠ – ١٢٣ .
Einhard : 33–34. The song of Roland : 51–203. The Moors in spain: 58–71. A History of Islamic spain : 30–35.

ويشبّه هشام الرضا بعمر بن عبد العزيز ، وهو قد نال بتقواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق ، حتى تمناه بعض المشارقة أن يكون إمامهم بدلا من الامام العباسي ، فهذا مالك بن أنس يقول : « وددت أن الله زين موسمنا – أي موسم الحج – به » .

وشهد عهد هشام الذي امتد حتى سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي اعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجح في البداية في التغلب على منافسة أخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه ، كما أن قواته تمكنت من استرداد مدينة أربونة ، واستأنفت النشاط داخل أوربة .

واهتم هشام بقرطبة فأكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطبة ، كما شيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم أسوار المدينة ، ولعل من أهم الحوادث التي حصلت في عصره واحدة كانت تتعلق بانتشار المذهب المالكي في الأندلس وحلوله محل مذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة على مستقبل الأندلس والمغرب معاً ، كما أنه يمكن أن يقوّم ضمن إطار السياسة الدينية لهشام ، والسياسات الدينية للدول التي عاصرت هشام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثل الامبراطورية الكارلونجية ، والامبراطورية البيزنطية ، وأخيراً الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمة سواء أكان ذلك قسراً أم تم بالرضا ، ومما يثير الانتباه أن السياسة الدينية لهشام نالت حظاً أكبر من النجاح ، مما نالته محاولات أباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وايجاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الايقونات وغيرها من المسائل ؛ ومما نالته أيضاً سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتزال واعلانه عن أن القرآن مخلوق ، وسعيه لاجبار الناس للأخذ بهذا الرأي .

وحين توفي هشام كان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتوه قد جاوز سن الأربعين ، فهو كان قد ولد سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م ، وكانت أمه أم ولد تدعى جمال ، ومن ينظر في تاريخ الأسرة الأموية في الأندلس يجد أن غالبية أفرادها

انحدروا من إماء ، وهذه الظاهرة كانت إحدى سمات مجتمع الأندلس بشكل عام ، فالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوها رجالاً بدون نساء، وحين تزوجوا كانت زوجاتهم في غالب الأحيان من شقراوات أوربة تم الحصول عليهن من أسواق النخاسة ولم يؤثر هذا على ملامح وأعراق الأندلسيين فحسب، بل كانت له آثار خطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات أفراده في الملبس والمطعم وحتى في طرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها . (١)

الحكم الربضي

قبلما يتوفى هشام الرضا أوصى بالحكم من بعده لابنه الثاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعرف الحكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيث واجه ثورة عارمة فيه ، سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسفك دماءهم، ولعل أهم سمات عهد الحكم حمامات الدم التي أقيمت ، وكثرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحكم اللذين كانا قد ثارا على أبيه وأجبرا بعد أخفاقهما على مغادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخواه عبدالله وسليمان ، إلى الأندلس ، ودخل عبدالله أولاً ، حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجده ويستعديه ، وكان هذا سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م ، وفي سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م عاد سليمان [والبعض يقول عاد قبل ذلك] وأعلن الثورة ضد الحكم ، وخاض ضد قوات الحكم عدداً من المعارك هزم فيها ، وكان

---

١ – ابن القوطية: ٦٤ – ٦٧ . أخبار مجموعة : ١٢٠ – ١٢٤ . العذري : ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧١ . البيان المغرب : ٩١/٢ – ١٠١ . جذوة المقتبس : ١١ . ابن الأبار : ٤٢/١ – ٤٣ . المعجب : ١٩ . نفح الطيب : ٣١٣/١ – ٣١٧ . أرسلان : ١٢٦ – ١٢٩ .

The Moors in spain : 71-73.

آخر هذه المعارك سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، حيث أسر فأتي به إلى الحكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سليمان عاد عبدالله من بلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته.

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الاسلامي ، كما أنها تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هذا مأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ، ويروى أن ثورة أعلنت فيها سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧ م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بارسال جيش بقيادة قائد عرف بعمروس بن يوسف ، وأخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ إلى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي أهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا أن يقنع أهل المدينة بفتح باب المدينة له وادخاله إليها ، وتذكر المصادر الأندلسية أنه بنى قصراً عند مدخل طليطلة ، وعندما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرافهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين « ٧٠٠ إلى ٥٣٠٠ » وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار الحكم الأموي فيها .

وأهم من ثورة طليطلة وأكثر شهرة ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك أنها كانت مدينة مسورة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها ، وعادة الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو أن غالبية العناصر التي هاجرت إلى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه أن يكون مدينة جديدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها ومجتمعها عن قرطبة .

وحين نقوم بالبحث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار شخصية الحكم وطبيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو ريعان

الشباب ، في السادسة والعشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن ابن معاوية باقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين من حيث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ أن مجتمع الأندلس كان قد أخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين، ولقد رأينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالاسلام ، ووصف ابن عنداري الحكم بأنه كان « شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تتقى ، . . . وكانت [له] ألف فرس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر ثار في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به » .

وأكمل الحكم عملية تطوير أسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الأمير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدأت التحركات ضد الحكم في الربض منذ فترة مبكرة ففي سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م كشف مؤامرة استهدفت الإطاحة به ومبايعة أحد أقربائه ، وقد قام هذا القريب بافشاء سرّ المؤامرة ودل الحكم على المتآمرين ، فألقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلا وأعدمهم جميعاً جملة واحدة ، ثم « أتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها » .

وجلب هذا الاعدام السكينة والهدوء ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة إلى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك أنهم « أنكروا عليه أشياء رابتهم فأرادوا خلعه » ، وأحدث هؤلاء الفقهاء « انشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ، أعني صوامع المساجد ورأوا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا : « أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك » .

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في ايجاد السبيل لايقافه ، فلقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبد ، ويبدو أنه ألقى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم ، وكانت ثورة عارمة، إن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرضت عليها، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الأندلس .

وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضني استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا أطبقت قوات الحكم على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هائل، قتل فيه آلاف من العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم اطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على أقاليم الأندلس ، كما سمح للقسم الأكبر بمغادرة الأندلس إلى المغرب وفي المغرب لم يستطع جميع هؤلاء العيش طويلا ، فتوجه قسم منهم نحو الاسكندرية « فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة » ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبار قادتها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية ، وتفاوض معهم بعد ذلك على ترك الاسكندرية على أن يزودهم بالسفن والمؤن والسلاح ويدعهم يذهبون حيث شاءوا ، وغادروا الاسكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها حكماً عربياً استمر قرابة القرن والنصف حيث قام في سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزاعها من العرب .

لقد تم الاستيلاء على كريت سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م ، وكان الحكم قد توفي منذ عدة سنوات ، أي في سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م ، وكانت ثورة أهل الربض آخر ما واجهه من مخاطر ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن (١)

---

١ - ابن القوطية : ٦٧ - ٨٠ . أخبار مجموعة : ١٢٤ - ١٣٥ . العذري : ٢٧ ، ٩٣ ، ١٠٩ - ١١١ . جذوة المقتبس : ١١. ابن الأبار : ١/٤٣ - ٥٠ . المعجب : ١٩ - ٢٢ نفح الطيب : ٣١٧ - ٣٢٢ . البيان المغرب : ٢/١٠٢ - ١٢٠ . أرسلان : ١٣٢ - ١٤٦
The Moors in spain : 74-77. A History of Islamic spain : 32-35.

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم ألفى الملك قد مهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . »

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدأ في عهد أسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عبد الرحمن الحكم في الأندلس في أيام أبيه الأخيرة التي قضاها بالمرض ، وكان انساناً متحضراً ، ورجلا ليناً ، طيب الأخلاق مرناً ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرض الشعر ، ويمكن القول أنه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية واقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخلو عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، إنما لم تكن أي من هذه الثورات بدرجة ما حدث أيام أبيه ، ولعل من أبرز دلائل الرفاه والازدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس ، وبنيت أماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطىء الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفاندال) ، كما اهتم بانشاء اسطول خاص بالأندلس .

وقام عبد الرحمن باعادة بناء الهيكل الاداري لدولته ، فعدد مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد الذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني آنذاك أنه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب.
وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطاً فكرياً كبيراً خاصة في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من أبرز الشواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته أن زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتل الأمين ، ووفد على أمير قرطبة ، الذي استقبله بحفاوة بالغة وأكرمه خير اكرام .

وفي سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاماً وقد خلف من البنين الذكور خمسة وأربعون ومن الاناث ثلاث وأربعون ، وبعدما توفي خلفه ابنه محمد الأول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس . (١)

من الامارة الى الخلافة

عندما توفي عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان شاباً ذلك أنه ولد سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م ، وكانت أمه أم ولد اسمها بهير ، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حياً وعند وفاته أوحت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار ، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على أن هذه الصورة كانت خداعة ، وأن بناء الدولة كان متماسكاً لكن بروابط ضعيفة ، وكان فقط ينتظر حدوث بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه .

وحيث يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء ، واحداً تلو الآخر ، وكانوا :

أ ــ محمد الأول : ٨٥٢ ــ ٨٨٦ م
ب ــ المنذر : ٨٨٦ ــ ٨٨٨ م
جـ ــ عبدالله : ٨٨٨ ــ ٩١٢ م

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد ، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة ، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عدداً من الثورات ، ولقد سارت هذه الثورات على نفس

---

١ ــ ابن القوطية : ٨٠ ــ ٩١ . أخبار مجموعة : ١٣٥ ــ ١٤١ . المقتبس : ١٦٣ ــ ٢٢٩. العذري : ٥ ــ ٦ ، ٢٩ ــ ٣٠ ، ٩٣ ، ٩٨ ــ ١٠٠ . جذوة المقتبس : ١١ . البيان المغرب: ١٢١/٢ ــ ١٤٠ . ابن الأبار : ١١٣/١ ــ ١١٩ . نفح الطيب : ٣٢٢/١ ــ ٣٢٨ . أرسلان : ١٣٩ ــ ١٥٩ .
The Moors in spain : 77–84. A History of Islamic spain : 35.

المنحى الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي ، أي أن الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن ، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك ، ذلك أن سكان المدن كانوا غير راضين لسبب أو لآخر ، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية ، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات ، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار أصيلة يمكن أن تحل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم ، والعجز في تقديم مثل هذه الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح أحداث الأندلس عدد من الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلته لمآربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور البشري والعسكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها أخلاطاً ، صلاتهم أكثر متانة وتفاعلا مع الجانب الأوربي أكثر من الجانب المسلم من البلاد ، ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصينة ، فيها المنعة والسلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العسكري كان يمنح بشكل دائم ، حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالباً ما كان قادة الثغور أفراد أسر توارثت السلطة واحداً تلو الآخر ، ويرى البعض أن نظام ثغور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الاقطاعي الأوربي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شيئاً من هذا بعدما نبين أن منطقة الثغور في الأندلس كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي : الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة ، ثم الثغر الأوسط ويشمل منطقة طليطلة ، وأخيراً الثغر الأدنى وكانت مدينة ماردة مركزاً له ثم

حلت محلها مدينة بطليموس ، وكانت أشهر أسر الثغور أسرة القسي ، وكانت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشهرهم موسى ابن موسى ، وقد بدأ بتحركه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلا وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الاسبانية النبيلة ، وكان له أقرباء عدة من الاسبان وخاصة مع أفراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار ، وكانت هذه الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة بامبلونا ، وأعطت علاقات الزواج مع آل القسي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهنا لا بد لنا من وقفة نتبين فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام ربط زواج بين أسرتين : واحدة مسلمة وأخرى نصرانية ، خاصة وأن الأسرة المسلمة لم تكن في مركز ضعف ؟ لقد راق للبعض أن يفسر هذه العلاقات على أساس النظام الاقطاعي الذي كان سائداً آنذاك في أوربة الكارلونجية ، وفي ظل هذا النظام كانت هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن يشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع أن نفهم بعض ما أورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الأمر يقودنا نحو طرح سؤال أكبر : هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطاً أساسياً يشد أزرها ، كما أنه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الاسلام ؟ ولقد رأينا أن أمراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وبنفس الوقت لم يتخذ أمراء بني أمية ألقاباً دينية كما لم يقوموا بالسعي الدعائي نحو إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك أنه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين أمير قرطبة واحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه

الشخصية يسارع إلى نقض العقد واعلان عدم الاعتراف بسيادة أمير قرطبة، ويلاحظ أن عدداً من أمراء قرطبة أدركوا خطورة الحال ، فعملوا من أجل احلال رابط الاسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا أنفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، وأثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الاسلام ، ولا شك أنهم هيأوا السبل نحو تبدل الوضع السياسي في الأندلس من إمارة إلى إمامة ، ذلك أننا سنشهد بعد فترة وجيزة قيام أمراء الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وابداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه هذه السياسة ، قام بين صفوف الاسبان حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحركة على ظهور عقيدة تعرف بعقيدة القديس جيمس كومبوستلا ، وكانت هذه العقيدة مسيحية بالأساس ، اعتمدت على أفكار دينية ايبيرية قديمة ، وكانت هذه تؤمن بالتوأم الإلهي، وهكذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس أخا توأما للمسيح.

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للاسبان، ذلك أنهم اعتقدوا بأن الله أرسل جيمس مع مساعدة سماوية للاسبان في حروبهم ضد المسلمين ، وأنه حتماً سينتصر الاسبان ، وقد اعتبرت هذه الحركة أساس القوة الروحية لحرب الاسترداد الاسبانية .

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فظل سيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفاته في ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م ، وحاول من بعده ثلاثة من أولاده ثم عدد من أحفاده الاحتفاظ بأملاكه فلم يوفقوا كثيراً .

وفي الوقت الذي كانت فيه أسرة آل القسي صاحبة السيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صاحبة النفوذ في الثغر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبد الرحمن الثالث .

ومهما بلغت ثورات أسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءاً مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابن حفصون تفجرت أيام الأمير محمد الأول واحتاجت إلى

وقت مديد حتى قضي عليها ، وتمثل هذه الثورة إحدى حركات جماعة المولدين في الأندلس ، ومع أننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن نقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قام الفتح الاسلامي للأندلس ، أصبح مجتمع هذا البلد يضم : (١)العرب ، (٢) البربر (٣) السكان الأصليون ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان أبيضاً وأسوداً ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر أو بين العرب والسكان الأصليين ، وجاء من هذه النماذج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضاً من السكان الأصليين اعتنق الاسلام ، وبعض تبنى الثقافة العربية وبقي البعض الآخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الاسلام باسم المولدين ، كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البربر وسنسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها .

وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شتيم بن . . . . . ، ويعود به نسبه إلى احدى أسر اسبانيا المحلية التي صارت أسرة ذمية بعد الفتح الاسلامي ثم قام أحد أفرادها ولعله جعفر بتبني الاسلام .

وبدأ ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصابات ، شارك في العديد من أعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الأندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل ببشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م ، ويوصف جبل ببشتر بالحصانة وتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف في تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث ألقي القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م حيث هرب منها وعاد إلى ببشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية متميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحبب إلى أتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف أنصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضامين أفكار ابن حفصون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييداً شديداً من المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشبه شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعاً ، وعجزت سلطات قرطبة وأخفقت في التصدي لها ، وإذا ما صدقنا كتبه بعض المؤرخين العرب نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية اسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الاسلامية، ابتغت الانتقام من العرب، وأرادت التخلص من حكمهم، ومن هنا نجدها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشعوبية ، هذا وان عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الاصلاح الاجتماعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالافلاس والخسارة النهائية .

وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما آوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وارضاء جميع الرغبات ، ولقد ترك زعماء العصابات أحراراً وأعطاهم صلاحيات جمع المال والنهب كيفما شاءوا ، ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصفون بما يسمى « الشهامة » ، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ، وكان صارماً للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى آخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون العديد من الظروف المشجعة ، كان أهمها الأزمات

التي قامت في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبدل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة ، ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

وفي عهد الأمير عبدالله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبدالله ضعفاً وتدهوراً ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديدة ضد حركة المولدين الموجهة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنّوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بها على إمارة قرطبة ويقيم حكماً جديداً فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك من المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيب قواته وأعوانه ، وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة وأخيراً لكن ليس آخرا انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهالك التي اودت بثورته ، ذلك انه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعتمدت على رجال عصابات ذوي أهواء شخصية وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها ، وعاملين على تطبيق مبادىء معينة لها ، كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية. أما في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصابات ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع أول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، او اضرار بها كان العقد سينفرط ، وهذا ما حصل .

فلقد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبدالله بن محمد ، وقام

هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة أخرى طالباً منه تقديم الطاعة له شرط أن يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأماكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون ، وركب رأسه وتمادى في غروره وشططه ، وأخذ يعمل غاراته ويوجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبدالله أسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩٠ م يئس الأمير عبدالله من الحال التي كان فيها ، وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشاً وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض ، وحقق الأمير عبدالله في هذه الملحمة نصراً ساحقاً، كان له أثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد أخذت الحياة تدب من جديد في جسم الادارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع أمير قرطبة ، وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من أتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاقت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان أمامه افريقية وأمراء الثغور وأوربة ، فاتصل بالأغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الاهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع آل القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي أخذت أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيط الثوار ، وضرب فئاتهم بعضها بالبعض الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م بإعلان نصرانيته وردته عن الاسلام ، ومع أن ذلك أكسبه عطف بعض المستعربين وتأييدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطى الذريعة الكاملة لسلطات قرطبة لاعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في ارسال الحملات ضده ومضايقته عسكرياً ، وفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حاول

ابن حفصون أن يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت الحملات ضده ، فانتزعت أراضيه قطعة تلو الأخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبدالله فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شاباً في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فاستطاع عبد الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة الى جسم الأندلس ، وأن يقلب الامارة الى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م توفي ابن حفصون، واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث ، الذي سيعرف بالناصر ، أن يصفي هذه الحركة نهائياً . (١)

عبد الرحمن الثالث واعلان الخلافة

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت « الفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاشٍ في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحداً ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها، واستذل رجالها، وهدم معاقلها... حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد » .

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وان يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من افريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية، وجاء ثانيها من مملكة ليون ، ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وابعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

---

١ – ابن القوطية : ٩٦ – ١٣٣ . أخبار مجموعة : ١٤١ – ١٥٣ . العذري : ٢٧– ٣٩ ، ٤١ – ٤٩ – ٥٣ – ٦٥ . جذوة المقتبس : ١١ – ١٢ . البيان المغرب : ١٤١/٢ – ٢٣٤ . ابن الأبار : ١١٩/١ – ١٢٤ . نفح الطيب : ٣٢٨/١ – ٣٢٩ . أرسلان : ١٥٦ – ١٦٧ .

The Moors in spain : 82–93. A History of Islamic spain : 35–38.

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبد الله ، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف ، فقتله أبوه عبدالله به ، وقام الأمير عبدالله بضم حفيده إليه ، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه و كان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده بويع بالامارة .

و كان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه اعادة إقامة الوحدة الداخلية للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأول من حكمه عدداً من الحملات كما وجه العديد ، و كانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في نفس الوقت بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في أيدي أمينة مخلصة له .

واستطاع سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م استعادة مدينة اشبيليه ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفاً شديداً ، وبعد وفاته سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م تنازع أولاده من بعده فتمكن عبد الرحمن من انتزاع أملاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائياً سنة ٩٢٨م.

وخلال هذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماماً شديداً وسعى نحو إعادة سيطرة قرطبة عليها، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨م باعلان نفسه خليفة ، وشجعه على القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالمشرق ، ونجاح الشيعة الاسماعيلية في المغرب وإعلانهم عن إقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذه هذه الخطوة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهمته نحو طليطلة فحاصرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن الثالث ، الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخاذه لقب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه اعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون ،

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف بعد انهيار الامبراطورية الكارلونجيه [امبراطورية شارلمان] ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون Leon نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة أشتورش Asturias التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ م حتى سنة ٩٥٠ م يعرف برذمير Ramiro II ، وتصدى رذمير هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصاراً ساحقاً سنة ٣٢٧ هـ ٩٣٩ م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة ألف مقاتل ، وعلى الرغم من هذا فإنه لم ينجم عن هزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رذمـير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية .

ويمكن القول أنه منذ منتصف القرن العـاشر للميلاد وحتى نهـايته سيطر المسلمون لأول مرة تماماً على جميع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهراً وليس فتحاً ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الايبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسة ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم إلى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة .

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الأندلس فقط بل أخذ بالتوسع في شمال

أفريقية ، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد من السيطرة على الأراضي التي تضم جزائر اليوم مع أجزاء من مراكش ، وفي زمن المعز لدين الله الفاطمي [٣٤١ — ٣٦٥ ﻫ / ٩٥٣ — ٩٧٥ م] استطاع قائده جوهر الصقلبي استرداد معظم أملاك قرطبة ما عدا طنجة وسبته ، وبقي الحال هكذا حتى بعد وفاة عبد الرحمن الثالث ذلك أن الفاطميين انصرفوا نحو مصر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم في المغرب .

ومن الواضح أن اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار شمال أفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك .

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الامبراطوري مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه أوضاعاً جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالمواكب الفخمة ، وبنفس الوقت ايكال الأمور إلى رجال الادارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الادارة ، مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الادارة والجند تهيأت الفرص لاضعاف قوة الخليفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة متأخراً وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء .

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم أن يوطد أركان الادارة في قرطبة وأن يقطف ثمار ما صنعه من أمن واستقرار في الأندلس ،

ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه ثم أيام ابنه الحكم التي كانت امتداداً لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها .

ووقع الناصر سنة ٣٤٩ / ٩٦٠ م مريضاً وظل المرض يلازمه حتى توفي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني . (١)

الحكم الثاني

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمراراً لخلافة أبيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على نفس المناحي ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال .

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفاندال) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للأدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها .

ولعل أهم الانجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرماً بالعلم ، شغوفاً بجمع الكتب ، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع أن يكوّن مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواء كان ذلك من ناحية الكم أو النوع ، وجاء إلى بلاطه عدد من علماء المشارقة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من أبرز علماء المشارقة

---

١ ـ أخبار مجموعة : ١٥٣ ـ ١٦٥ . البيان المغرب : ٢/٢٣٤ ـ ٣٤٧ . العذري : ٩ ـ ١٥ ، ٣٩ ـ ٥٤ ، ٦٧ ـ ٨٦ ـ ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٢ ـ ١٢٤ ، ١٧٥ . البكري : ٧٢ . ابن الأبار : ١/١٩٧ ـ ٢٠٠ . جذوة المقتبس : ١٣ . نفح الطيب : ١/٣٣٠ ـ ٣٥٨ . أرسلان : ١٦٨ ـ ١٨٢ . مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٣٢١ ـ ٣٤٤ .
The Moors in spain : 107–126. A History of Islamic spain : 39–46.

القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقبل والمتميز عن الفكر المشرقي بدأ يترعرع زمن الحكم ، ونمت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل أهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي أقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات .

وكانت أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاع شأنه .

كما ازدادت أيام الحكم أهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوتها ، لكن أحداثاً كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثير مفاجىء ومحول على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي (١) .

هشام الثاني والاستبداد العامري

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض ألم به وأقعده مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه أثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الأساس بنى خططه في حال وفاة الحكم .

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصيانه وكان هؤلاء صقالبة الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من أبناء جنسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون

---

١ – العذري : ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ . ابن حيان : ١٩ – ٢٤٣ . جذوة المقتبس : ١٣ – ١٧ . البيان المغرب : ٣٤٨/٢ – ٣٧٦ . الحلة السيراء : ٢٠٠/١ – ٢٠٦ . نفح الطيب : ٣٥٨/١ – ٣٧٢ . أرسلان : ١٨٢ – ١٨٥ .
The Moors in spain : 152–155. A History of Islamic spain : 46–48.

قياداته ، وكان أبرز صقالبة القصر يعرفان بفائق وجؤذر ، وأخفى جؤذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وأرادا تولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، أخي الحكم ، حيث كان شاباً يستطيع أن يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبياً في الحادية عشرة من عمره ، وخطط جؤذر وفائق لقتل المصحفي واعلان خلافة المغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده .

وعندما علم المصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن أبي عامر ، وأرسل المصحفي ابن أبي عامر مع قوة من الجند إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خنقاً ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة ، وبقي المصحفي سيد الأندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالبة القصر وأثرهم ، وساعده في ذلك ابن أبي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالبة بالبطش وبالتآمر معاً « ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل إلى تقلد جيش المماكة » فحقق ما صبا له ، وأخذ يرقى في مصاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية وتفرد بسيادة الأندلس ، ولعله من المفيد الآن التعرف إلى بداية حياة ابن أبي عامر وأمره ، ثم نحكي بعد ذلك ما حدث بينه وبين المصحفي وسواه .

انحدر محمد بن أبي عامر من أسرة عربية شارك جدها في أعمال الفتوح الأولى للأندلس ، وكانت هذه الأسرة تقطن في ممتلكاتها في منطقة الجزيرة ، وجاء محمد إلى قرطبة لمتابعة دراسته خاصة في ميدان الفقه والحديث والأدب ذلك أنه أراد أن يكون قاضياً .

وفي قرطبة التحق ابن أبي عامر سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م بخدمة السيدة صبح البشكنشية ، زوج الحكم وأم أولاده عبد الرحمن وهشام « فكانت أقوى أسبابه في تنقيل الملك عما قليل ، فانه استمال هذه المرأة بحسن الخدمة ، وموافقة المسرة وسعة البذل في باب الاتحاف والمهاداة ، حتى استهواها وغلب على قلبها » .

وسلمته صبح ادارة شؤون ابنها عبد الرحمن ، « فلما مات عبد الرحمن بقي في خدمة أمه السيدة ، وكانت ولدت هشام بن الحكم ، فصرف ابن أبي عامر لوكالته » .

وأثناء شغل ابن أبي عامر لهذه الوظيفة تسلم عدداً من المهام المدنية والعسكرية فكان أن قام بما أوكل إليه أحسن قيام ،وقد مرّ بنانبأ الدور الذي شغله بعيد وفاة الخليفة الحكم الثاني .

وقاد ابن أبي عامر عقب وفاة الحكم عدداً من الحملات العسكرية فوفق بها ، فأصبح له مكانته العسكرية ، وصار له مؤيدوه من بين العسكريين ، وبعد تحصيله لذلك بدأ يخطو نحو هدفه التالي ، وهو إزالة المصحفي واحتلال مكانه .

وفتش ابن أبي عامر عن حلفاء يستعين بهم للاطاحة بالمصحفي ، فوجد أمامه القائد غالب ، الذي كان معتصماً في الثغر الأدنى منذ وفاة الحكم ، ذلك أنه كان غير راض عما جرى ويجري في قرطبة ، وكان استبداد المصحفي بالأمور من أثقل الأشياء عليه وأكثرها اثارة له ، ويبدو أن المصحفي كان يدرك هذا كما صار على بينة بمطامح ابن أبي عامر وخطر ذلك على مركزه ، وسعى المصحفي إلى صنع محالفة مع القائد غالب عن طريق زواج دبلوماسي ، لكن ابن أبي عامر المؤيد بأم الخليفة مع نساء القصر استطاع أن يحول بين المصحفي وبين المصالحة مع غالب ، وقام هو بخطبة ابنة غالب والزواج منها ، وهكذا ازداد مركز ابن أبي عامر قوة ، فأخذ يجرد المصحفي وأعوانه من أعمالهم ، وتم له أخيراً سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م صرف المصحفي عن عمله ثم ايداعه وآله السجن .

وانفرد بعد هذا ابن أبي عامر بادارة الأندلس ، وأخذ بتمتين وضعه ، فتقرب من علماء الدين ، وتظاهر بالتقوى ، وأعلن الحرب على المعتزلة ، ثم أخذ بالعمل على تجريد الخليفة من جميع صلاحياته للحكم عليه والاستبداد به ، وفي سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م أمر ببناء قصر لنفسه دعاه بالزاهرة ، وفي سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨١ م انتقل ابن أبي عامر إلى الزاهرة ونقل معه رجال الدولة ودواوين

الادارة ، مزيلا بذلك كل ما كان لمدينة الزهراء وقصر قرطبة من دور وأهمية، وأشاع ابن أبي عامر أن الخليفة فوض إليه النظر في أمر الملك وتخلى له عنه لعبادة ربه».

وتابع ابن أبي عامر عمله من أجل الانفراد بسلطان الأندلس ، فجلب من المغرب جنداً قوى بهم مركزه حتى استطاع التخلص من غالب القائد ، وعندما تم هذا في سنة ٣٧١ / ٩٨٢ م تسمى بالمنصور وأخذ الخطباء يذكرون اسمه ويدعون له مع الخليفة ، كما ظهر اسمه على النقود إلى جانب اسم الخليفة .

ويوصف حكم المنصور بن أبي عامر بأنه كان فترة ذات نشاط عسكري كبير ، وقد مكنت حملاته من حفظ حدود الأندلس مع سيطرة قرطبة على الممالك المسيحيه في ليون وكاستل وغيرها ، هذا ولم يقتصر نشاط المنصور على شبه الجزيرة الايبيرية ، بل نجده ينشط في شمال أفريقية فيحتل أجزاء من المغرب

وظل المنصور سيداً للأندلس حتى توفي سنة ١٠٠٢م فخلفه في منصبه ابنه عبد الملك ، وكان عبد الملك هذا مثل أبيه من حيث البراعة السياسية والمقدرة الادارية والعبقرية العسكرية ، وحكم عبد الملك لمدة سبع سنوات ، وعندما مات خلفه أخوه عبد الرحمن ، وبعد فترة من تسلمه السلطة قام عبد الرحمن هذا باجبار الخليفة هشام الثاني بالتنازل له عن الخلافة ، ولم يتمتع عبد الرحمن بمنصب الخلافة كما لم يتمتع بالبقاء في منصب حكمه طويلا ، ذلك أن ما قام به دعا إلى الثورة ضده ، واشتعلت الثورات في كل مكان من الأندلس ، فزالت الخلافة الأموية فعلياً ، وفقدت بلاد الأندلس وحدتها السياسية ، وبدأت معالم الحضارة فيها بالانحدار ، وهكذا أتيحت الفرصة أمام الممالك النصرانية للاستقلال والشروع في حرب الاسترداد ، كما أن أملاك قرطبة في المغرب نالت الاستقلال ، وفي الوقت الذي غرق فيه الأندلس بالحروب والفتن الداخلية ، شهد المغرب بعض التحركات الجديدة التي أدت إلى قيام دول فيه ، قامت بالتدخل في شؤون الاندلس واحتلاله والحاقه بأملاكها(١) .

---

١ – العذري : ١٥ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٠٦ – ١٠٧ ، ١٢١ – ١٢٣ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٦٩ . جذوة المقتبس : ١٧ – ٢٨ . البيان المغرب : ٣٧٧/٢ – ٤٤٥ . المعجب : ٢٧ – ٤١ . نفح الطيب : ٣٧٢/١ – ٤٠٢ . أرسلان : ١٨٥ – ٢٠٥ .
The Moors in spain : 155–170. A History of Islamic spain : 81–86.

دول شمال افريقية

الدولة الادريسية

أصبحت الولاية الأفريقية في العصر العباسي كما رأينا ملجأ الهاربين من الدولة والناقمين عليها ، وذلك لبعدها عن مركز السلطة ، ولجأت إليها أولا المعارضة الأموية ثم المعارضة الخارجية والعلوية ، فبينما اتجهت الأولى بشخص عبد الرحمن الداخل عبر المضيق إلى الأندلس عاملة على تأسيس ملك خاص ، معتمدة في انجاحها على استغلال تناحر الفئات العربية المختلفة على الحكم ، نشط العلويون والخوارج في أوساط البربر الذين كانوا ناقمين بدورهم على السلطة ونزاعين إلى الاستقلال ، وهنا ينبغي ان نشير إلى أن معارضة البربر حينئذ كانت تتم في اطار الاسلام وتستهدف بصورة مباشرة الثورة على استبداد الحكام وفداحة الضرائب ، وتتجلى هذه الصورة في انتفاضة البربر على المنصور وقتلهم عامله على القيروان عمر بن حفص ، وسيطرتهم على المدينة .

ورغم استرداد العباسيين مدينة القيروان وانزالهم الهزيمة بالبربر ، إلا أن سيادة العباسيين لم تكن شاملة في الولاية الأفريقية ، فما لبث خوارج البربر من الأباضية أن استقلوا بولاية (تاهرت) في وسط المغرب بزعامة عبد الرحمن بن رستم ، وأقاموا ما عرف بالدولة الأباضية أو الرستمية نسبة إلى مؤسسها .

وبالنسبة لدولة الأدارسة موضوعنا الآن فان تأسيسها قد ارتبطت بأحد الثوار العلويين الذين اشتركوا في موقعة (فخ) وهو ادريس بن عبدالله ، وقد اختار ادريس المغرب لبعده عن السلطة المركزية وجعله مركزاً لنشاطه السياسي ، وفي

المغرب انتهى به المطاف إلى وليلة في أقصى المغرب حيث صادف مناخاً ملائماً لدعوته هناك ذلك أن تلك كانت تعجّ بالناقمين على الحكم العباسي .

أخذت القبائل تتوافد على ادريس معلنة تأييدها له وكان في مقدمتها قبيلة أوربه التي كانت وقتذاك من أعظم قبائل البربر في المغرب الأقصى ، وما لبث ادريس أن قام بانشاء جيش من هذه القبائل تمكن بواسطته من فوض سيطرته على هذه البلاد واخضاع القبائل المعادية له ، لكن أخبار ادريس ما لبثت أن وصلت إلى مسامع الخليفة الرشيد ، فصمم على التخلص منه بأية وسيلة ، فدبرّ له مؤامرة أودت بحياته كما سبق أن مرّ . وكان هذا سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م .

غير أن مقتل ادريس لم يحقق آمال الرشيد في الحؤول دون قيام الدولة العلوية في المغرب ، ذلك أن البربر كانوا مجمعين على الاستمرار في حركتهم الاستقلالية ، فأوكلوا أمرهم إلى خادم ادريس الأول وتابعه الأمين المدعو راشد ليقوم بالحكم نيابة عن الصبي الذي تركه ادريس ، والذي سمي بهذا الاسم أيضاً حتى إذا شب وتسلم زمام الحكم التفحوله العرب والبربر على السواء ، وقوي شأن الدولة الادريسية في عهده واتخذ لها عاصمة جديدة هي مدينة (فاس) التي نمت فيما بعد وأصبحت من أهم مراكز الثقافة الاسلامية . وبذلك اعتبر ادريس الثاني المؤسس الحقيقي للدولة الادريسية .

وهكذا نشأت دولة علوية في أقاصي المغرب ، فكانت أول محاولة ناجحة قامت بها المعارضة الشيعية للوصول إلى السلطة ، وقد عجزت الخلافة العباسية عن القيام بالقضاء على هذه الدولة ومنيت المحاولات التي قام بها عاملها على القيروان ابراهيم بن الأغلب ، للايقاع بين قبائل البربر وأبعادهم عن ادريس بالاخفاق الذريع ، واضطر ابن الاغلب في نهاية الأمر إلى الرضوخ للأمر الواقع والتعايش مع جيرانه الأدارسة .

وقد ظلت الدولة الادريسية مزدهرة ، تمارس بنشاط دورها السياسي والحضاري في بلاد المغرب حتى أصابها الانحلال ، حين تعاقب عليها في أواخر عهدها عدد من الأمراء الضعاف الذين كانت تعوزهم قوة الشخصية والقدرة

على تحمل المسؤولية ، مما أدى إلى انهيار الحكم في الداخل واشتداد الأخطار عليه من الخارج لا سيما من جانب الفاطميين الذين تمكنوا أخيراً بزعامة عبيدالله المهدي من دخول فاس والقضاء على الحكم الادريسي بعد أن سيطر في هذه النواحي نحو قرنين من الزمن(١) .

الدولة الاغلبية

كان قيام هذه الدولة نتيجة مباشرة لنشاط العلويين والخوارج في افريقية ، فبعد مقتل عامل القيروان عمرو بن حفص على يد الخوارج كادت ثورات هؤلاء أن تطيح نهائياً بالحكم العباسي في هذه البلاد لو لم يسارع المنصور بارسال حملة عسكرية ضخمة بقيادة يزيد بن حاتم ، فتمكن من إعادة الهدوء واقرار الأمن لبعض الوقت في هذه الولاية ، إلا أن خطر الخوارج عاد بصورة أشد في عهد الخليفة الرشيد ، وبدا واضحاً أن المغرب يسير بكامله في اتجاه الاستقلال ، وعلى ذلك فقد وجد الخليفة ان مصلحة الدولة تقتضي بأن يبحث عن شخصية قوية تتولى أمر المغرب وتحافظ على ارتباطه بالسلطة المركزية ولو من الناحية الاسمية ، فكان أن وقع اختياره على ابراهيم بن الأغاب .

تولى ابراهيم الحكم في القيروان سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ولم تختلف ظروف تعيينه عن غيره من الحكام الذين كانت تختارهم الدولة ، ولكنه اختلف عنهم في سياسته شبه المستقلة التي مارسها ، ولذلك اعتبرت ولايته ضمن الحركات الاستقلالية التي قامت في الدولة العباسية ، وكان كل ما يربطه بالخلافة هو تأدية ما عليه من الخراج إلى بيت المال ، والمحافظة على الاجراءات الرسمية المتعلقة بالخليفة ، أما عدا ذلك فكانت دولة الأغالبة مستقلة استقلالا تاماً .

وهكذا قامت هذه الدولة كرد فعل مباشر من جانب العباسيين على نشاط

---

١ – الرقيق : ٢٢٥ – ٢٢٦ . البيان المغرب : ١/١٠٠ – ١٠٣ . ابن خلدون : ٤/٢٣ – ٥٧ ، ٦/٤٤٧ – ٤٩٩ . الحلة السيراء : ١/٥٠ – ٥٦ . تاريخ المغرب العربي : ٤٠٦ – ٤٤٨. المغرب عبر التاريخ : ١١٤ – ١٤٥ .

الخوارج وقيام الحركة الشيعية الادريسية في المغرب . وانحصرت مهمتها بصورة أساسية في الوقوف بوجه امتداد النشاط الادريسي نحو الشرق ، في وقت كانت فيه الخلافة بأمس الحاجة لإعادة الهدوء إلى افريقية وعدم إشغال جيوشها في حرب عقيمة في هذه البلاد النائية ، ليتاح لها الانصراف إلى متابعة سياستها الحربية ضد البيزنطيين تلك السياسة التي بلغت ذروتها في عهد الرشيد .

والحقيقة أن ابن الاغلب لم يخيّب ظن الرشيد فيما ذهب إليه ، فقد كان من أنجح الولاة العباسيين وأكثرهم كفاءة ، فقد استطاع أن يدفع عن ولايته خطر الأدارسة ، ويمدّ الحكم المركزي بالعائدات المالية المرتفعة التي جاءت نتيجة سياسته الاقتصادية الناجحة . وفي نفس الوقت كان هذا الرجل لا يخفي طموحه في سبيل انشاء دولة وراثية شبه مستقله ، وانسجاماً مع هذه السياسة اتخذ ابن الأغلب لدولته عاصمة جديدة بالقرب من القيروان وأطلق عليها (العباسه) . ويبدو من اختياره هذا الاسم أنه لم يشأ قطع الصلة التي تربطه بالعباسيين .

كذلك نجد أن هذه الدولة تعدت الدور الذي رسم لها ، فلم تقتصر مهمتها على سياسة الدفاع عن هذه المنطقة ضد الأدارسة والخوارج ، وإنما كان لها جهود ضخمة على صعيد المجابهة مع البيزنطيين ، ذلك أن ابن الأغلب أولى الأسطول البحري اهتماماً بالغاً وتمكن من ايقاف الخطر البيزنطي على السواحل الأفريقية والقيام بدور هجومي على القواعد البحرية للبيزنطيين ، كان أبرز نتائج هذه السياسة سقوط جزيرتي صقلية ومالطة في أيدي الأمراء الأغالبة الذين جاءوا بعد ابن الأغلب .

وقد ظلت هذه الدولة محافظة على شخصيتها الاستقلالية ، وتوارث حكمها ابناء ابراهيم وأحفاده مع الاعتراف بالسلطان الاسمى للخليفة العباسي حتى تم سقوطها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م بعد أن اشتدت عليها ضغوط الفاطميين الذين أصبحت لهم السيادة الكاملة في شمالي افريقية .

---

١ — الرقيق : ٢٠٩ — ٢٢١ . البيان المغرب : ١/١١٦ — ١٦٠ . الحلة السيراء : ١/٩٣— ١٠١ ، ١٦٣ — ١٨٢ . تاريخ المغرب العربي: ٣٦٠ — ٣٦٦.العرب في صقلية : ٣١—٣٩.

دولة المرابطين

لقد كان القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد متميزاً عن سواه بقيام البداة في صنع أهم أحداثه سواء في أوربة أو آسية أو أفريقية ، وشهد تاريخ المغرب بعد الفتح الاسلامي حركات كثيرة ، ذات صبغ دينية وسياسية واجتماعية ، قامت بين صفوف البربر ، وقد نجم عن هذه الحركات نتائج كثيرة ، كما سببت قيام بعض الدول وزوال أخرى .

ففي غربي الصحراء الكبرى عاش عدد من القبائل البربرية بحالة تخلف حضاري وثقافي شديدة للغاية ، وكان من عادة رجال هذه القبائل التلثم الدائم لذا عرفوا بالملثمين ، ولقد قامت بين صفوف هؤلاء الملثمين حركة سببت هجرتهم إلى داخل المغرب ، ومن ثم اقامتهم لدولة المرابطين فيه ، وتذكر مصادرنا أنه في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م خرج أحد زعماء قبيلة لمتونة ، التي كانت من بين قبائل الملثمين ، وكان اسمه يحيى بن ابراهيم ، خرج لقضاء فريضة الحج ، وفي مكة أدرك مدى جهله وجهل قومه بالاسلام ، فقرر ايجاد عالم مسلم ليأخذه معه حتى يثقف قومه ويعلمهم الاسلام وقواعده ، ولقد اختار في المغرب عالماً اسمه عبدالله بن ياسين ، ذهب معه لتثقيف الملثمين ، واستطاع عبدالله بعد عمل شاق تربية عدد من الاتباع شحنهم بحماسة دينية عظيمة ، ذلك أنه بعدما حل بين الملثمين بنى لنفسه رباطاً جعله مركزاً لبث الدعوة ، لذا دعي الذين تخرجوا على يديه بالمرابطين .

وبعدما أصبح أتباع عبدالله قرابة ألف تحرك بهم فسيطر على قبائل المنطقة ، كما قهر مناطق اخرى مثل درعة وسجلماسة ، وبعد مدة عين عبدالله يحيى بن عمر اللمتوني لقيادة المرابطين ، ثم قام يحيى في سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م بالتخلي عن منصبه لأخيه أبي بكر بن عمر اللمتوني ، وتحرك أبو بكر لإخضاع المغرب كله ، وقاد أبو بكر أتباعه لسنين عديدة وخاض بهم معارك كثيرة في جنوبي وقلب المغرب . وفي أوائل سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وفي إحدى هذه المعارك قتل عبدالله بن ياسين ، فغدا أبو بكر السيد المطلق للمرابطين ، وقد جعل من بلدة

(أغمات) مركزاً له ، وعندما ضاقت عليه وعلى جنده قرر إقامة مدينة جديدة في السهل الممتد إلى شمال جبال الأطلس ، ولقد كانت هذه المدينة هي مدينة مراكش ، ويبدو أن العمل فيها قد بدأ في سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وفي هذه الفترة اضطر أبو بكر للعودة إلى داخل الصحراء بسبب مشاكل وقعت فيها ، وترك عند عودته أمور المغرب بيد ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وما أن تسلم يوسف مقاليد الأمور حتى اعتبر المغرب تابعاً له فقط ، لذلك عندما عاد أبو بكر إلى المغرب في سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م اضطر إلى تركه ليوسف بن تاشفين ، وعاد أدراجه إلى الصحراء .

وتدين دولة المرابطين في تأسيسها وامتدادها وشهرتها ليوسف بن تاشفين ذلك أنه أوصل حدودها إلى ما بعد الجزائر ، ولقد دعت شهرة يوسف وقوة جنده ودولته أهل الأندلس للاستنجاد به ضد الاسبان الذين كان يقودهم الملك ألفونسو السادس ، وعبر يوسف بقواته مضيق جبل طارق وهزم في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م الاسبان هزيمة نكراء في معركة الزلاقة ، وبعد هذه المعركة قام بالقضاء على دويلات الأندلس وضمها لدولته ، ولقد كان لهذا الحادث أثر بالغ الخطورة على حركة المرابطين ، فهذه الحركة قادت في الاساس جموعاً من البـــداة البربر المتحمسين للدين ، خرجوا من الصحراء ، ولم يكونوا قد انغمسوا بعد في مطالب الحياة وملاذها ، لكن بعد دخولهم الأندلس عاشوا حضارة عريقة ذات رفاهية ونعم كثيرة ، فكان لذلك أثر خفف من حدة الاندفاع المؤمن للمرابطين وحولهم إلى أناس آخرين ، وخير مثال على ذلك أن عليا ابن يوسف وخليفته منذ سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م اختلف كلياً عن أبيه .

ومن الأندلس نقلت الحضارة والثقافة إلى المغرب ؛ فتطورت بلدة مراكش لتصبح مدينة كبيرة ، كما أن مدينة فاس تطورت بشكل عظيم ، وفي فاس أقيمت في هذه الفترة نواة مسجد جامعة القرويين الذي كان له أثر عظيم في ثقافة المغرب وحضارته ، وكان المرابطون سنة على مذهب المالكية ، ولقد اعترفوا بحكم الخلافة العباسية ودانوا لها اسمياً .

ولقد ضعفت مع الأيام قوة المرابطين ، وتأثر مركزهم بظهور قوة جديدة في المغرب هي قوة الموحدين ، وازداد الموحدون قوة والمرابطون ضعفاً حتى قضي على دولتهم في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م وذلك على يد الموحدين ، وكان حكام دولة المرابطين بعد يوسف بن تاشفين هم :

علي بن يوسف بن تاشفين (٦٠٠ — ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ — ١١٤٢ م)

تاشفين بن علي (٥٣٧ — ٥٤٠ هـ / ١١٤٢ — ١١٤٦ م)

ابراهيم بن علي (٥٤٠ — ٥٤١ هـ / ١١٤٦ — ١١٤٧ م) (١) .

دولة الموحدين

لقد كان لتعصب دولة المرابطين للمذهب المالكي ، ثم لانحراف المرابطين عن مبادىء دعوتهم الأولى وانغماسهم زمن علي بن يوسف بن تاشفين في ملاذ الحياة والحضارة ، كان لذلك ردات فعل شديدة بين بربر المغرب ، وظهرت أبرز هذه الردات لدى رجل من قبيلة مصمودة اسمه محمد بن عبدالله بن تومرت فقد كان محمد هذا من علماء منطقته ، وكان قد قام بزيارة قرطبة ثم سافر إلى الحج ، وعاد إلى المغرب في حوالي سنة ٥١٢ هـ / ١١٢١ م ، وقد ملئت نفسه علماً وثقافة وأفكاراً جديدة ، وكان المشرق الذي عاد منه ابن تومرت يعيش عصراً جديداً ، هو عصر الاستفاقة السنية ، وأفكار الغزالي والمدرسة النظامية في بغداد ، وعندما عاد ابن تومرت إلى المغرب بدأ ينادي بالاصلاح ويعمل في سبيله ، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقد بدأ حركته هذه منذ أن وصل إلى مدينة طرابلس الغرب ، ولقي نتيجة ذلك سخطاً من السلطات وملاحقة ، فاندس بين القبائل مبشراً ، ومكوناً الاتباع والمريدين ؛ وسار حتى وصل إلى فاس ، ثم ذهب إلى مراكش فلقي علي بن يوسف بن تاشفين فاصطدم

---

١ — المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، لعبد الواحد المراكشي : ١٣٠ — ١٧٧ . ابن خلدون : ٣٧٣/٦ — ٣٨٩ . المغرب عبر التاريخ : ١٦١ — ٢٥٧ .

معه ، فاضطر لمغادرة مراكش إلى جبال الأطلس ، وهناك كوّن لنفسه جماعة تؤمن بعقائده وأفكاره ، وكانت هذه الأفكار متأثرة بأقوال الاشاعرة ، كما أنها حوت بعض أفكار الشيعة خاصة حول شخصية الامام والمهدي ، وكان له افكاره الخاصة عن الله وفكرة التوحيد ، لذلك عرفت حركته بحركة التوحيد وأتباعه بالموحدين .

وقام ابن تومرت في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م بإعلان نفسه مهدي زمانه . ذلك أنه ادعى لنفسه نسباً علوياً ، وقام بعد ذلك بإخضاع قبيلة مصمودة ، وفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م هاجم بقواته مدينة مراكش ، لكن المرابطين استطاعوا ايقاع هزيمة ساحقة في صفوف الموحدين ، ولقي المهدي ابن تومرت مصرعه بعد ذلك بقليل .

خلف ابن تومرت في زعامة الحركة أحد تلامذته البربر واسمه عبد المؤمن بن علي وكان أصله من بربر منطقة تلمسان ، وقام عبد المؤمن بالاستيلاء على منطقة جبال الأطلس وبعض مناطق الصحراء ، وعندما شعر في سنة ٥٤٠ هـ / ١١٥٤ م بالقوة والمقدرة التقى بجيش المرابطين في معركة فاصلة ، استطاع ان يحقق بها النصر ، فاستولى على أملاك المرابطين في المغرب ، وبعد هذا قام باخضاع جميع شمال أفريقية لسلطانه ، ولقد اتصل به السلطان صلاح الدين الأيوبي والتمس مساعدته البحرية ضد الصليبيين .

وسببت حركة الموحدين وقيام دولتها نشاطاً كبيراً في المغرب وتوسعت في زمن عبد المؤمن مدينة مراكش التي اتخذها عاصمة له ، كما أنه أسس بلـــدة صغيرة دعاها رباط الفتح ، وبعد عبد المؤمن وفي زمن حكم حفيده أبو يوسف يعقوب المنصور توسعت هذه البلدة فأصبحت مدينة كبيرة ، ذلك أنه اتخذها عاصمة له ، وباتت تدعى بالرباط فقط .

وتوفي عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف ، وقد قام أبو يعقوب بتوسيع رقعة الدولة باضافة اراضي جديدة لها ، خاصة في

الاستيلاء على الأندلس ، وقد حمل أبو يعقوب مثل أبيه من قبله لقب خليفة ، لأن عبد المؤمن قد خلف الامام المهدي ابن تومرت .

ولقد امتازت الفترة الأولى من حكم الموحدين بتقدم حضاري عظيم في مجالات العمارة والثقافة ، فقد توسعت رقعة عدد من مدن الموحدين وأقيمت فيها أبنية كبيرة ما تزال آثارها وبقاياها قائمة حتى الآن ، وفي مجال الثقافة يكفي ان نذكر أن أعظم فلاسفة المغرب ابن الطفيل وابن رشد قد عاشا في ظل الموحدين ولقيا الرعاية والعناية من بلاطهم في مراكش ، ولقد عاش في بلاط الموحدين بالإضافة إلى هذين الفيلسوفين عدد كبير من الشعراء والفقهاء والأدباء والمؤرخين ، وجعل نتاج هؤلاء المغرب يعيش عصر ثقافته الذهبي ، وذلك في الوقت الذي كان فيه المشرق العربي يعاني من التمزق والانحطاط الذي حدث عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي ، ولقد كانت الثقافة التي قامت في المغرب ثقافة عربية اسلامية ، تأثرت ببعض المؤثرات المحلية وتفاعلت مع ثقافة الأندلس وحضارته .

ومثلما كان التقدم الذي حدث في المغرب سريعاً كذلك كان الانحطاط وتعود أسباب الانحطاط إلى ان طاقات الدولة لم تكن لتستطيع تحمل نفقات وأعباء تكاليف الحكم والجيش ، يضاف إلى هذا ان قبيلة مصمودة التي قامت بين صفوفها نواة حركة الموحدين حصرت في أيدي افرادها جميع أمور الحكم ، ولم تستطع ان تمتزج بالمحكومين ، ثم إن عقائد الموحدين قد فرضت على الناس فرضاً ولم تقتنع بها جماهير الدولة ، وكانت تعارضها وتنتظر الفرص للتخلص منها ، ولقد شهد عصر الموحدين عدداً من ثورات المعارضة ، وكانت هذه الثورات غير صادرة عن معارضة عقائدية فقط ، إنما صدرت عن أسباب اجتماعية واقتصادية ، فلقد حصرت ثروة الدولة في يد طبقة من الناس نالت حظاً من الثقافة العربية ، وعزلت نفسها عن الطبقات المحكومة واستغلتها ، وهكذا وجدت في عصر المرابطين فوارق اجتماعية واقتصادية هائلة ، فلقد كان أصحاب الثروة — وهم قلة — يتمتعون بالثقافة والسلطة والحضارة ورفاهة

العيش ، بينما عاش بقية الناس ، في حرمان ، وجهل ، وتعاسة واستغلال ، وتخلف ، وكان هذا التمايز الاجتماعي من أهم أسباب انهيار حكم الموحدين .

وجاء وقت خبت فيه جذوة حركة الموحدين ، حتى أن بعض خلفاء عبد المؤمن لم يكتفوا بتوقيف نشاط الحركة وعدم الاعتناء بها ، بل تعدوا ذلك إلى القيام سراً ، ثم علانية ، بنقد أفكار المهدي ابن تومرت والعمل للخروج عليها ، وحدث هذا عندما تعاقب على عرش الموحدين رجال ضعفاء ، لم يكونوا يتمتعون بقدر كاف من مواهب السياسة والادارة ، وعندما أهمل هؤلاء شؤون دولتهم ، أخذت بالانحدار والضعف ، والتمزق وبدأت بعض أطرافها تستقل عنها ، فاستقلت أسرة عرفت ببني حفص في أفريقية (تونس) كما استقلت أسرة أخرى عرفت ببني عبد الواد في تلمسان ، وحدث هذا في نفس الوقت الذي ازداد فيه الأسبان نشاطاً ضد عرب الأندلس ، ولم يستطع الموحدون الدفاع عن الأندلس فتركوها لقدرها وانسحبوا إلى شمال أفريقية ، كما ان دولة الموحدين عانت آنئذ من نشاط عدد من القبائل العربية التي جاءت إلى قلب المغرب .

وفي أواخر عصر الموحدين حاول بعض الخلفاء مثل الخليفة السعيد أبو الحسن علي بن المأمون الذي عمل لإعادة الوحدة إلى دولته ، فقاد قواته ضد تلمسان لكنه لقي مصرعه في كمين نصب له ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م وبعد هذا بسنين قليلة قامت أسرة جديدة في المغرب هي أسرة بني مرين ، فاستولت على مراكش عاصمة الموحدين وذلك في سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٦ م ، وأجبرت الموحدين على العودة إلى المكان الذي كان ابن تومرت قد بدأ حركته منه ، وفي سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ، أزيلت بقايا الموحدين من الوجود نهائياً(١) .

---

١ – نظم الجمان : ٣ – ٢٤٦ . الزركشي : ٣ – ٨٥ . المعجب في تلخيص أخبار المغرب : ١٧٨ – ٣٤٧ . ابن خلدون : ٦/٤٦٤ – ٥٥١ . المغرب عبر التاريخ : ٢٥٧ – ٣٧٣ .
The cambridge history of Islamic, 224–229. Islamic Dynasties, 30—31.

ثبت باهم المصادر والمراجع

١ – المصادر

١ – ابن الأبار (محمد بن عبد الله)
الحلة السيراء .
القاهرة ١٩٦٣

٢ – ابن الاثير الجزري (أبوالحسن علي) .
١ – الكامل في التاريخ . القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٢ – التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية . القاهرة ١٩٧٣

٣ – الأربلي (عبد الرحمن سنبط قنيتو)
خلاصة الذهب المسبوك .
بغداد – مكتبة المثنى

٤ – الأزدي (أبو زكريا)
تاريخ الموصل
القاهرة ١٩٦٧

٥ – الازدي (محمد بن عبدالله)
فتوح الشام .
القاهرة ١٩٧٠

٦ – الأزرقي (ابو الوليد محمد بن عبدالله)
كتاب اخبار مكة
مكتبة خياط – بيروت

٧ – ابن اسحق (محمد)
سيرة ابن اسحق برواية يونس ابن بكير .
(نسخة مصورة في مكتبتي)

٨ – الأشعري (علي بن اسماعيل)
مقالات الاسلاميين
القاهرة ١٩٥٠

٩ – الاصطخري
المسالك والممالك
ليدن ١٩٢٧

١٠ – الاصفهاني (حمزة بن الحسن)
تاريخ سني ملوك الارض والانبياء – بيروت ١٩٦١

١١ – الاصفهاني (ابو الفرج)
١ – الأغاني – طبع دار الكتب المصرية .

٢ ـ مقاتل الطالبيين
القاهرة ١٩٤٩

١٢ ـ الاصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب)
تاريخ دولة آل سلجوق ـ هذبه الفتح البنداري. القاهرة ١٩٠٠

١٣ ـ الاصفهاني (ابو نعيم أحمد بن عبدالله)
دلائل النبوة. حيدر أباد: ١٩٥٠

١٤ ـ ابن الاعثم الكوفي (أحمد)
كتاب الفتوح (نسخة مصورة في مكتبتي).

١٥ ـ ابن أنس (مالك)
الموطأ ـ بيروت : ١٩٧١

١٦ ـ الانطاكي (يحي بن سعيد)
بيروت : ١٩٠٩
تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي.

١٧ ـ ابن أيبك الدواداري (عبدالله)
الدرة المعنية في أخبار الدولة الفاطمية . القاهرة : ١٩٦١

١٨ ـ البخاري (أبو عبدالله محمد بن اسماعيل)
صحيح البخاري .
دار الفكر : بيروت

١٩ ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة .
القاهرة : ١٩٥٥

٢٠ ـ البغدادي (الخطيب أحمد بن علي) تاريخ بغداد .
بيروت دار الكتاب العربي

٢١ ـ البغدادي (عبد القاهر)
الفرق بين الفرق .
القاهرة : ١٣٢٨ ه

٢٢ ـ ابن بكا ـ (الزبير)
جمهرة نسب قريش .
القاهرة ـ دار العروبة

٢٣ ـ البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز) معجم ما استعجم .
القاهرة : ١٩٦٥

٢٤ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)
ا ـ أنساب الأشراف . طبع منه المجلدان الرابع والخامس ـ
القدس : ١٩٣٨ ـ ١٩٧٠
المجلد الأول ـ القاهرة: ١٩٥٩
المجلد الثاني ـ بيروت: ١٩٧٣
نسخ مخطوطة مصورة في مكتبتي
ب ـ فتوح البلدان .
القاهرة : ١٩٣٢

٢٥ ـ البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل) البدء والتاريخ .
باريس : ١٩١٦

٢٦ ـ البلوي (أبو محمد عبدالله بن محمد)
سيرة أحمد بن طولون
دمشق : ١٣٥٨ ه

٢٧ – البنداري (الفتح بن علي)
سنا البرق الشامي .

٢٧ – البنداري (الفتح بن علي)
سنا البرق الشامي .
بيروت : ١٩٧١

٢٨ – البياسي (محمد)الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام .
(نسخة مصورة في مكتبتي)

٢٩ – البيروني (أبو الريحان)
الآثار الباقية من القرون الخالية
ليبزج : ١٩٢٣

٣٠ – البيهقي (أبو الفضل)
تاريخ البيهقي – صحائف مسعودي – ألفه بالفارسية – الترجمة العربية .
القاهرة : بدون تاريخ

٣١ – التجاني (عبدالله بن محمد)
رحلة التجاني .
تونس : ١٩٥٨

٣٢ – ابن تغري بردي (أبوالمحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
القاهرة : ١٩٢٩

٣٣ – التوحيدي (أبو حيان)
رواية السقيفة في المقابسات .
القاهرة : ١٩٢٩

٣٤ – الثعالبي (عبد الملك بن محمد)
لطائف المعارف – القاهرة
دار احياء الكتب العربية .

٣٥ – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
١ – البيان والتبين .
القاهرة : ١٣١١ هـ
٢ – التاج في أخلاق الملوك .
القاهرة : ١٣٢٢ هـ
٣ – الحيوان .
القاهرة : ١٣٥٧ هـ
٤ – العثمانية .
القاهرة : بدون تاريخ
٥ – مجموعة من رسائل الجاحظ
القاهرة : ١٣٦٥ هـ

٣٦ – الجرهمي (عبيد بن شريه)
أخبار عبيد .
حيدر أباد : ١٣٤٧ هـ

٣٧ – الجهشياري (ابن عبدوس)
١ – الوزراء والكتاب .
القاهرة : ١٩٣٨

٢ – نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب جمعها وعلق عليها ميخائيل عواد .
بيروت– دار الكتاب اللبناني

٣٨ – ابن الجوزي (عبد الرحمن)
١ – تاريخ عمر بن الخطاب
القاهرة – ؟

٢ ــ مناقب عمر بن عبد العزيز
ليبزج : ١٨٩٩ م
٣ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . حيدر أباد : ١٣٥٩هـ

٣٩ ــ ابن حبيب (محمد)
كتاب المحبر .
حيدر أباد : ١٩٤٢

٤٠ ــ ابن حزم الأندلسي (محمد ابن علي)
١ ــ جمهرة أنساب العرب .
القاهرة : ١٩٦٢
٢ ــ كتاب الفصل في الملل والنحل وبهامشه كتاب الملل والنحل للشهرستاني .
بغداد ــ مكتبة المثنى
٣ ــ المحلى . القاهرة

٤١ ــ الحسيني (أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي) .
أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) .
لاهور : ١٩٣٣

٤٢ ــ الحلي (الحسن بن يوسف)
الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي . ــ النجف : ١٩٥٣

٤٣ ــ الحمادي (محمد بن مالك) .
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة . القاهرة : ١٩٣٩

٤٤ ــ الحموي (محمد)
التاريخ المنصوري .
موسكو : ١٩٦٠

٤٥ ــ الحموي (ياقوت بن عبدالله)
١ ــ ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) .
القاهرة : ١٩٠٧ــ١٩٢٧
٢ ــ معجم البلدان .
بيروت : ١٩٦٨

٤٦ ــ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)
كتاب صورة الأرض .
بيروت ــ دار مكتبة الحياة

٤٧ ــ الحميدي (محمد بن فتوح)
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس .
القاهرة : ١٩٥٣

٤٨ ــ ابن حيان (أبو مروان)
المقتبس في أخبار الأندلس
١ ــ بيروت : ١٩٦٥ (قطعة منه)
٢ ــ القاهرة : ١٩٧١ (قطعة منه)

٤٩ ــ الخزرجي (علي بن الحسن) .
العسجد المسبوك .
مخطوطة الحرم المكي

٥٠ ــ ابن خزيمة (محمد بن اسحق)
الصحيح .
بيروت ــ المكتب الاسلامي

٥١ ــ ابن الخطيب (لسان الدين)
الاحاطة في أخبار غرناطه .
القاهرة : ١٩٠١

٥٢ ــ ابن خلدون (عبد الرحمن)
العبر وديوان المبتدا والخبر .
بيروت : ١٩٥٨

٥٣ ــ ابن خلكان (أحمد بن محمد)
وفيات الأعيان .
القاهرة : ١٣١٠

٥٤ ــ خليفة (حاجي)
كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون .
ليبزج : ١٨٥٨

٥٥ ــ ابن خياط (خليفة)
١ ــ تاريخ خليفة بن خياط .
دمشق: ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨
٢ ــ طبقات خليفة بن خياط .
دمشق: ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧

٥٦ ــ أبو داود (سليمان بن الأشعث)
السنن . بيروت ــ دار الفكر

٥٧ ــ دحلان (أحمد بن زيني)
الفتوحات الاسلامية .
القاهرة : ١٣٥٤ هـ

٥٨ ــ الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود) الأخبار الطوال .
القاهرة : ١٩٦٠

٥٩ ــ الذهبي (محمد بن أحمد)
١ ــ تاريخ الاسلام .
نسخة مصورة في مكتبتي تشمل الأخبار فقط .
٢ ــ دول الاسلام .
حيدر أباد : ١٩١٩ .

٦٠ ــ الرازي (أحمد بن عبدالله) .
تاريخ مدينة صنعاء .
دمشق : ١٩٧٤

٦١ ــ الراوندي (محمد بن علي بن سليمان)
راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ــ ألفه بالفارسية ــ الترجمة العربية . القاهرة : ١٩٦٠

٦٢ ــ الرقيق القيرواني (ابراهيم بن القاسم) تاريخ افريقية والمغرب)
تونس : ١٩٦٨

٦٣ ــ الزركشي (محمد بن ابراهيم)
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس : ١٩٦٦

٦٤ ــ سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزا أوغلي)

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان
١ ـ نسخ مصورة تضم حوادث من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ هـ
في مكتبتي .
٢ ـ الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة . أنقره : ١٩٦٨
٣ ـ مجلدان لحوادث ما بعد ٥٠٠ هـ ـ حيدر أباد .

٦٥ ـ ستة من علماء الأندلس .
النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة . القاهرة : ١٩٧٠

٦٦ ـ ابن سعد (محمد بن منيع)
كتاب الطبقات .
بيروت : ١٩٥٨

٦٧ ـ ابن سلام (أبو عبيد القاسم)
كتاب الأموال . القاهرة ـ ؟

٦٨ ـ السمهودي (أبو الحسن بن عبدالله) .
كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . القاهرة : ١٣٢٦ .

٦٩ ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)
١ ـ تاريخ الخلفاء .
القاهرة : ١٩٦٤
٢ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة .
القاهرة : ١٣٢٧ هـ

٧٠ ـ الشابشتي .
كتاب الديارات .
بغداد : ١٩٥١

٧١ ـ ابن أبي شبه (عمر)
تاريخ المدينة .
نسخة مصورة في مكتبتي

٧٢ ـ الصابىء (ثابت بن سنان مع ابن العديم والمقريزي)
تاريخ أخبار القرامطة ـ جمع وتحقيق سهيل زكار
بيروت : ١٩٧١

٧٣ ـ الصابىء (هلال بن المحسّن)
١ ـ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . القاهرة : ١٩٥٨
٢ ـ رسوم دار الخلافة .
بغداد : ١٩٦٤

٧٤ ـ الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى)
كتاب الأوراق .
القاهرة : ١٩٣٥

٧٥ ـ الصيرفي (علي بن منجب)
الإشارة إلى من نال الوزارة .
القاهرة : ١٩٢٣

٧٦ ـ ابن طباطبا (المعروف بابن الطقطقي) الفخري في الآداب السلطانية . بيروت : ١٩٦٦

٧٧ – الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك .
القاهرة : طبع دار المعارف

٧٨ – ابن طولون (محمد)
الأئمة الاثنا عشرية
بيروت : ١٩٥٨

٧٩ – ابن طيفور (أحمد بن طاهر)
كتاب بغداد .
القاهرة : ١٩٤٩

٨٠ – العباسي العلوي (علي بن محمد)
سيرة الهادي إلى الحق يحيى
ابن الحسين. بيروت : ١٩٧٢

٨١ – ابن عبد ربه .
العقد الفريد .
تحقيق سعيد العريان –القاهرة

٨٢ – ابن عبد الحكم (أبو القاسم
عبد الرحمن)
فتوح مصر وأخبارها .
ليدن : ١٩٢٠

٨٣ – ابن عبد الحكم (عبد الله)
سيرة عمر بن عبد العزيز .
دمشق : ١٩٦٤

٨٤ – ابن العديم (كمال الدين عمر
ابن أحمد)
١ –بغية الطلب في تاريخ حلب
نسخة مصورة في مكتبتي .
٢ – زبدة الحلب من تاريخ
حلب .
دمشق : ١٩٥٨ – ١٩٦٨

٨٥ – ابن العبري (غريغوريوس)
تاريخ مختصر الدول .
بيروت المطبعة الكاثوليكية
(من أجل تاريخه الكبير انظر
المصادر غير العربية)

٨٦ – أبو عبيد البكري .
جغرافية الأندلس وأوربة من
كتاب المسالك والممالك .
بيروت : ١٩٦٨

٨٧ – ابن العربي (العواصم من
القواصم)
قطعة منه . القاهرة : ١٣٧١ هـ
(نسخة مصورة في مكتبتي)

٨٩ – العذري (أحمد بن عمر بن
أنس)
نصوص عن الأندلس من كتاب
ترصيع الأخبار
مدريد : ١٩٦٥

٩٠ – ابن عذاري المراكشي
البيان المغرب في أخبار المغرب
بيروت – دار صادر

٩١ – العروضي (النظامي)
جهار مقاله. القاهرة: ١٩٤٩

٩٢ ــ ابن عساكر (علي بن الحسن)
١ ــ تاريخ مدينة دمشق.
مخطوطات ومصورات
المكتبة الظاهرية ــ بدمشق
٢ ــ المجلد الأول ونصف الثاني
دمشق : ١٩٥١
٣ ــ المجلد العاشر . دمشق :
١٩٦٣.

٩٣ ــ الغطيمي (محمد بن علي)
تاريخ الغطيمي .
نسخة مصورة في مكتبتي

٩٤ ــ ابن العميد (جرجس)
تاريخ المسلمين .
ليدن : ١٦٢٥

٩٥ ــ العيني (البدر محمد بن أحمد)
عقد الجمان في تاريخ الزمان .
مكتبة بيازيد رقم ٢٣١٧

٩٦ ــ الغزّالي (أبو حامد)
١ ــ فيصل التفرقة بين الاسلام
والزندقة .
القاهرة : ١٩٦١
٢ ــ فضائح الباطنية .
القاهرة : ١٩٦٤
٣ ــ قواصم الباطنية .
استانبول : ١٩٥٤

٥ ــ التبر المسبوك في نصيحة
الملوك .
القاهرة : ١٩٦٨

٩٧ ــ الفارقي (ابن الأزرق)
تاريخ الفارقي .
القاهرة : ١٩٥٩

٩٨ ــ أبو الفداء (اسماعيل بن محمد
ابن عمر)
١ ــ تقويم البلدان .
باريس : ١٨٤٠
٢ ــ المختصر في أخبار البشر .
استانبول : ١٨٦٩

٩٩ ــ ابن قاضي شهبه (بدر الدين)
الكواكب الدرية في السيرة
النورية .
بيروت : ١٩٧١

١٠٠ ــ القاضي عياض
تراجم أغلبية مستخرجة
من مدارك القاضي عياض .
تونس : ١٩٦٨

١٠١ ــ ابن قتيبة(أبو محمد عبدالله بن
مسلم)
١ ــ كتاب المعارف .
القاهرة : ١٣٠٠ هـ
٢ ــ عيون الأخبار .
القاهرة : ١٩٦٣

٣ – الإمامة والسياسة (ينسب له) . القاهرة : ١٩٦٣

١٠٢ – القرشي (يحيى بنَ آدم)
كتاب الخراج . القاهرة – ؟

١٠٣ – القرشي (الداعي ادريس) .
عيون الأخبار وفنون الآثار
بيروت : ١٩٧٣

١٠٤ – ابن القطان .
جزء من كتاب نظم الجمان.
تطوان – المطبعة المهدية

١٠٥ – ابن القلانسي (حمزه)
ذيل تاريخ دمشق .
بيروت : ١٩٠٨

١٠٦ – القلقشندي (أحمد بن عبد الله)
١ – صبح الأعشى . دار الكتب المصرية
٢ – مآثر الانافة في معالم الخلافة .
الكويت : ١٩٦٤

١٠٧ – ابن القوطية القرطبي .
تاريخ افتتاح الأندلس .
بيروت. دار النشر للجامعيين

١٠٨ – القيرواني (أبو العرب محمد ابن أحمد بن تميم)
طبقات علماء إفريقية وتونس
تونس : ١٩٦٨

١٠٩ – الكاشغري (محمود بن الحسين ابن محمد)
كتاب ديوان لغات الترك .
استانبول : ١٣٣٣ ه

١١٠ – ابن كثير (اسماعيل بن عمر)
البداية والنهاية .
القاهرة : ١٩٣٢

١١١ – الكرماني (أحمد حميد الدين)
المصابيح من اثبات الامامة .
بيروت : ١٩٦٩

١١٢ – الكشي (محمد بن عمرو)
رجال الكشي .
مؤسسة الأعلمي – كربلاء

١١٣ – ابن الكلبي (محمد وابنه هشام)
١ – النسب الكبير
٢ – جمهرة أنساب العرب .
نسخة مصورة في مكتبتي
٣ – الأصنام .
القاهرة : ١٩٦٥

١١٤ – الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف)
كتاب الولاة وكتاب القضاة
بيروت : ١٩٠٨

١١٥ – الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد)

الأحكام السلطانية .
القاهرة : ١٩٦٠

١١٦ ــ المبرد (أبو العباس)
الكامل في الأدب . القاهرة

١١٧ ــ ابن محمد (القاضي النعمان)
١ ــ اختلاف أصول المذاهب
بيروت : ١٩٧٣

٢ ــ الارجوزة المختارة .
مونتريال : ١٩٧٠

٣ ــ دعائم الاسلام مع التأويل
دار المعارف ــ القاهرة

٤ ــ رسالة افتتاح الدعوة .
بيروت : ١٩٧٠

١١٨ ــ المراكشي (عبد الواحد)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب . القاهرة : ١٩٤٩

١١٩ ــ المسبحي (محمد بن عبيدالله)
أخبار مصر ...
نسخة مصورة في مكتبتي .

١٢٠ ــ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين)
١ ــ التنبيه والاشراف .
بيروت : ١٩٦٥

٢ ــ مروج الذهب .
القاهرة : ١٩٥٨

١٢١ ــ مسكويه (أحمد بن محمد)
تجارب الأمم وذيله .
القاهرة : ١٩١٤

١٢٢ ــ ابن المعمار الحنبلي (أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم)
كتاب الفتوة .
بغداد : ١٩٦٠

١٢٣ ــ المقري (أحمد بن محمد)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
القاهرة : ١٩٤٩

١٢٤ ــ المقريزي (أحمد بن علي)
١ ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا .
نسخة مصورة في مكتبتي

٢ ــ المقفى ــ مجلد باريس ــ مجلدات ليدن ــ مجلدبرتوياث
نسخة مصورة في مكتبتي

٣ ــ الخطط .
القاهرة : ١٩٠٦ــ١٩٠٨

١٢٥ ــ ابن المقفع (ساويرس)
تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية
القاهرة : ١٩٥٩

١٢٦ ــ الملطي (محمد بن أحمد)
التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع .
بغداد : ١٩٦٨

١٢٧ — ابن منبه (وهب)
كتاب التيجان في ملوك حمير
حيدر أباد : ١٣٤٧ هـ

١٢٨ — المنقري (نصر بن مزاحم)
وقعة صفين .
القاهرة : ١٣٦٥ هـ

١٢٩ — المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى)
سيرة المؤيد في الدين راعي الدعاة .
القاهرة : ١٩٤٩

١٣٠ — مؤلف مجهول
أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده .
بيروت : ١٩٧١

١٣١ — مؤلف مجهول (من القرن الحادي عشر م)
تاريخ الخلفاء .
موسكو : ١٩٦٦

١٣٢ — مؤلف مجهول
العيون والحدائق في أخبار الحقائق .
ليدن : ١٨٦٩
دمشق : ١٩٧٢ — ١٩٧٤.

١٣٣ — مؤلف مجهول
أخبار مجموعة في فتح الأندلس
مدريد : ١٨٦٧

١٣٤ — الميداني (أحمد بن محمد بن أحمد)
مجمع الأمثال .
القاهرة : ١٩٥٩

١٣٥ — ابن ميسر (محمد بن علي)
أخبار مصر .
القاهرة : ١٩١٩

١٣٦ — الناشيء الأكبر —
مسائل الامامة .
بيروت : ١٩٧١

١٣٧ — النديم (محمد بن أبي يعقوب)
كتاب الفهرست .
طهران : ١٩٧١

١٣٨ — الفرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر)
تاريخ بخارى (ترجمة عربية)
القاهرة : ١٩٦٥

١٣٩ — النوبختي (الحسن بن موسى)
كتاب فرق الشيعة .
استانبول : ١٩٣١

١٤٠ — ابن هشام (أبو محمد عبد الملك)

كتاب السيرة النبوية .
القاهرة : ١٩٥٥

١٤١ ــ الهمذاني (القاضي عبدالجبار)
تثبيت دلائل النبوة .
بيروت : ١٩٦٦

١٤٢ ــ ابن أبي الهيجاء
تاريخ ابن أبي الهيجاء .
المكتبة الأحمدية بتونس رقم ٩٥١٤

١٤٣ ــ ابن واصل الحموي (محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب .
القاهرة : ١٩٥٣

١٤٤ ــ الواقدي (محمد بن محمد)
كتاب المغازي .
اكسفورد

١٤٥ ــ ابن الوردي (عمر)
تتمة المختصر في أخبار البشر
القاهرة : ١٨٦٨

١٤٦ ــ اليافعي (محمد بن عبدالله)
مرآة الجنان وعبرة اليقظان.
حيدر أباد : ١٩١٩

١٤٧ ــ اليامي (محمد بن حاتم)
كتاب السمط الغالي الثمن.
بيروت : ١٩٧٤

١٤٨ ــ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح)
تاريخ اليعقوبي .
بيروت : ١٩٦٠

١٤٩ ــ ابو يوسف القاضي (يعقوب)
كتاب الخراج .
القاهرة ــ

٢ – المراجع

١ – الأحمدي (علي بن حسينعلي)
مكاتيب الرسول .
بيروت – دار المهاجر

٢ – أرسلان (شكيب)
تاريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسره وايطاليا وجزائر البحر المتوسط .
القاهرة – مكتبة البابي

٣ – آرنولد (توماس)
١ – الخلافة .
دمشق – دار اليقظة
٢ – الدعوة إلى الإسلام .
القاهرة : ١٩٥٧

٤ – الأفغاني (سعيد)
١ – أسواق العرب .
دمشق : ١٩٣٧
٢ – عائشة والسياسة .
بيروت : ١٩٧١

٥ – أمير (علي)
مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي (ترجمة عربية)
القاهرة : ١٩٣٨

٦ – أمين (حسين)
تاريخ العراق في العصر السلجوقي .
بغداد : ١٩٦٥

٧ – أومان
الامبراطورية البيزنطية (ترجمة عربية)
القاهرة : ١٩٥٣

٨ – الباز العريني (السيد)
الدولة البيزنطية
القاهرة : ١٩٦٥

٩ – الباشا (حسن)
الألقاب الاسلامية .
القاهرة –

١٠ – باشميل (محمد أحمد)
العرب في الشام قبل الاسلام .
بيروت : ١٩٧٣

١١ – بتلر
فتح العرب لمصر (ترجمة عربية)
القاهرة : ١٩٣٣

١٢ ــ بروكلمان (كارل)
تاريخ الشعوب الاسلامية.
(ترجمة عربية)
بيروت : ١٩٤٨

١٣ ــ تيمور (أحمد)
الرتب والألقاب المصرية .
القاهرة ــ دار الكتاب العربي

١٤ ــ الجارم (محمد نعمان)
اديان العرب في الجاهلية .
القاهرة ١٩٢٣

١٥ ــ جب (هاملتون)
دراسات في حضارة الاسلام .
ترجمة : احسان عباس ومحمد نجم ومحمود زايد .
بيروت : ١٩٦٤

١٦ ــ جوزي (بندلي)
من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام .
بيروت : دار الروائع

١٧ ــ حتي (فيليب)
تاريخ العرب ــ بيروت دار الكشاف .

*٨ ــ حركات (ابراهيم)
المغرب عبر التاريخ .
الدار البيضاء : ١٩٦٥

١٩ ــ حسن (حسن ابراهيم)
١ ــ تاريخ الاسلام السياسي
القاهرة : ١٩٥٩
٢ ــ النظم الاسلامية .
القاهرة : ١٩٦٢
٣ ــ المعز لدين الله .
القاهرة : ١٩٦٤

٢٠ ــ حسن (علي ابراهيم)
تاريخ جوهر الصقلي.
القاهرة ــ مكتبة النهضة

٢١ ــ حميد الله (محمد)
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية .
بيروت : دار الارشاد

٢٢ ــ الخربوطلي (علي حسني)
تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي .
القاهرة ــ دار المعارف

٢٣ ــ الخشاب (يحيى)
كتاب تنسر .
القاهرة : ١٩٥٤

٢٤ ــ خطاب (محمود شيث)
قادة الفتح الاسلامي .
بيروت : ١٩٦٦

٢٥ – الخطيب (عبد الكريم)
الخلافة والامامة .
القاهرة : ١٩٦٣

٢٦ – الخليفة (عبدالله بن خالد)
البحرين عبر التاريخ .
بيروت : ١٩٦٩

٢٧ – خليل (خليل)
مضمون الاسطورة في الفكر العربي
بيروت : ١٩٧٣

٢٨ – خليل (عماد الدين)
١ – معالم الانقلاب الاسلامي
بيروت
٢ – عماد الدين زنكي .
بيروت

٢٩ – الدوري (عبد العزيز)
١ – العصر العباسي الأول – بغداد
٢ – دراسات في العصور العباسية المتأخرة – بغداد
٣ – مقدمة في تاريخ صدر الاسلام – بيروت
٤ – الجذور التاريخية للشعوبية.
بيروت – دار الطليعة

٣٠ – دوزي .
تاريخ مسلمي اسبانيا
القاهرة : ١٩٦٣

٣١ – ديسو
العرب في سورية قبل الاسلام.
القاهرة : ١٩٥٩

٣٢ – ردولف (فلهلم)
صلة القرآن باليهودية والمسيحية
بيروت : ١٩٧٤

٣٣ – الريس (ضياء الدين)
الخراج في الدولة الاسلامية .
القاهرة : ١٩٥٧

٣٤ – الزركلي (خير الدين)
الاعلام – الطبعة الثانية – القاهرة

٣٥ – زكار (سهيل)
١ – مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .
دمشق : ١٩٧٣
٢ – التأريخ عند العرب .
دمشق : ١٩٧٤

٣٦ – سالم (السيد عبد العزيز)
١ – طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي .
الاسكندرية : ١٩٦٧

٢ ـ تاريخ الدولة العربية .
بيروت : ١٩٧١

٣٧ ـ السامر (فيصل)
الدولة الحمدانية في الموصل .
بغداد : ١٩٧٠

٣٨ ـ السامرائي (حسام قوام) .
المؤسسات الادارية في الدولة العباسية .
دمشق : ١٩٧١

٣٩ ـ سرور (محمد جمال الدين)
١ ـ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق .
القاهرة : ١٩٦٤

٢ ـ قيام الدولة العربية الاسلامية
القاهرة : ١٩٥٦

٣ ـ الحياة السياسية في الدولة العربية خلال القرنين الأول والثاني.
القاهرة : ١٩٦٠

٤٠ ـ الشريق (أحمد ابراهيم)
١ ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول .
القاهرة : ١٩٦٧

٢ ـ الدولة الاسلامية الأولى
القاهرة : ١٩٦٥

٣ ـ دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الاول والثاني .

٤١ ـ شمس الدين (محمد مهدي)
أنصار الحسين .
بيروت : ١٩٧٥

٤٢ ـ صالح (أحمد عباس)
اليمين واليسار في الاسلام .
بيروت : ١٩٧٠

٤٣ ـ الصالح (صبحي)
النظم الاسلامية .
بيروت ـ دار العلم للملايين

٤٤ ـ عاقل (نبيه)
١ ـ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول .
دمشق : ١٩٧٢

٢ ـ تاريخ خلفاء بني أميه .
دمشق : ١٩٧٣

٤٥ ـ العبادي (أحمد مختار)
تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس .
بيروت : ١٩٦٩

٤٦ – عباس (احسان)
١ – العرب في صقليه .
القاهرة : ١٩٥٩
٢ – عهد اردشير .
بيروت دار صادر

٤٧ – عبد الحميد (مسعد زغلول)
تاريخ المغرب العربي .
القاهرة : ١٩٦٥

٤٨ – العزيز (حسين قاسم)
البابكية – بيروت

٤٩ – علي (جواد)
تاريخ العرب قبل الاسلام .
بغداد : ١٩٥٠ .

٥٠ – العلي (صالح)
١ – محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام .
بغداد : ١٩٥٩
٢ – التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة .
بيروت – دار الطليعة
٣ – تنظيمات الرسول الادارية في المدينة .
في مجلة المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٦٩

٥١ – عليان (محمد عبد الفتاح)
قرامطة العراق –
القاهرة : ١٩٧٠

٥٢ – عمر فاروق .
١ – طبيعة الدعوة العباسية .
بيروت – دار الارشاد
٢ – العباسيون الأوائل (١)
بيروت – دار الارشاد
٣ – العباسيون الأوائل (٢)
دمشق – دار الفكر

٥٣ – عنان (محمد عبدالله)
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .
القاهرة : ١٩٥٩

٥٤ – غالب (مصطفى)
تاريخ الدعوة الاسماعيلية .
دار اليقظة – دمشق

٥٥ – غرايبة (عبد الكريم)
العرب والاتراك .
دمشق : ١٩٦١

٥٦ – غلوب (جون باجوت)
الفتوحات العربية الكبرى .
مكتبة المثنى – بغداد

٥٧ ــ فازيليق .
العرب والروم .
القاهرة : دار الفكر العربي

٥٨ ــ فلهوزن (يوليوس)
١ ــ الدولة العربية .
القاهرة : ١٩٥٨

٢ ــ الخوارج والشيعة .
القاهرة : ١٩٥٨

٥٩ ــ فلوتن (خان)
السيادة العربيــة والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية.
القاهرة : ١٩٦٥

٦٠ ــ القاسمي (ظافر)
نظام الحكم في الشريعة والتاريخ
بيروت : ١٩٧٤

٦١ ــ قدورة (زاهية)
١ ــ عائشة .
بيروت ــ

٢ ــ الشعوبيةوأثرها الاجتماعي والسياسي .
بيروت ــ دار الكتاب اللبناني

٦٢ ــ آل كاشف الغطاء (محمدالحسين)
أصل الشيعة وأصولها .
مكتبة العرفان ــ بيروت

٦٣ ــ كانار (موريس)
نخب تاريخية وادبية جامعة لاخبار الامير سيف الدولة الحمداني .
الجزائر : ١٩٣٠

٦٤ ــ كاهين (كلود)
تاريــخ العرب والشعوب الاسلامية .
بيروت : ١٩٧٢

٦٥ ــ كمال (أحمد عادل)
فتوح الشرق بعد القادسية .
بيروت : دار الفكر .

٦٦ ــ لويس (برنارد)
١ ــ اصول الاسماعيلية .
بغداد : ١٩٤٧

٢ ــ الدعوة الاسماعيليةالجديدة
بيروت : ١٩٧١

٦٧ ــ ماجد (عبدالمنعم)
١ ــ التاريخ السياسي للدولة العربية .
القاهرة : ١٩٦٠

٢ ــ الحاكم بأمر الله .
القاهرة : ١٩٥٩

٦٨ – متز (آدم)
الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري .
القاهرة : ١٩٤٧

٦٩ – مصطفى (شاكر)
دولة بني العباس .
الكويت

٧٠ – المعاضيدي (خاشع)
دولة بني عقيل في الموصل .
بغداد : ١٩٦٨

٧١ – المنجد (صلاح)
معجم بني أمية .
بيروت . ١٩٧٠

٧٢ – مؤنس (حسين)
١ - فتح العرب للمغرب .
القاهرة : ١٩٤٨

٢ – فجر الاندلس .
القاهرة

٧٣ - ناجي (عبدالجبار)
الامارة المزيدية .
البصرة : ١٩٧٠

٧٤ – نيلسن (ديتلف ورفاقه)
التاريخ العربي القديم .
القاهرة : ١٩٥٨

1 – Anonymous Geographer
Hudud Al-Alam, English Translation
London 1937

2 – Atiya (Aziz)
The crusade,Historiography and Bibliography
Oxford 1962

3 – Belyaer (E.A.)
Arabs, Islam and the Arab Caliphate
Jerusalem 1969

4 – Bar Hebreaue (Abu'l-Faraj son of Aron)
Hisory of the wold English translation by Ernest A. wallis Budge
Oxford 1932

5 – Barhold (w.)
A – Four studies on the History of central Asia, English Tanslation
Leiden 1962
B – Turkestan down to the Mongol invasion, English translation
London 1968

6 – Bosworth (clifford Edmend)
A – The Ghaznavid.
Edinburgh 1963
B – The Islamic Dynasties
Edinburgh 1967

7 – Cahen (Claude)
A – Mouvements populaire et Atuonomisme urbains dans L'Asie Muslmane du Moyen Age I, Arabica vol. v. .
Paris 1958
B – pre Ottoman Turkey (Eng. trans.)
London 1969

8 – Cohn (Norman)
The pursuit of the Millenium
London 1970

9 – The cambridge History of Iran vol. v.
Cambridge 1968

10 – Cambridge History of Islam
Cambridge 1970

11 – Cambridge Medieval History, vol. IV, Ed. Joan M. Hussey
Cambridge 1966 – 67

12 – Dunlop (D.M.)
The History of the Jewish Khazars.
New York 1967

13– Elisseef (Nikitce) Nur-Ad-Din
Damas 1967

14 – Encyclopedia of Islam, New Eden
London 1960

15 – Gabrieli (Francesca)
A – Muhammad and the Conquests of Islam
London 1968
B – Ashort History of the Arabe
London 1965

16 – Gibb (H.A.R)
Mohammedanism.
Oxford 1969

17 – El-Hajji (Abdul-Rahman)
Andalusian Diplomatic Relations with western Europe, During the umayyad period
Beirut 1970

18 – KABIR (Mafizullah)
The Buwayhid Dynasty of Baghdad
Calcuta 1964

19 – Lambton (A.K.S)
Land-lord and peasantin persia
Oxford 1969

20 – Lane - poole (stanley)
The Moors in spain
Beirut 1967

21 – Lewis (Bernard)
A – The Arab in History
London 1968
B – Race an color in Islam
London 1971

22 – Mcweill (w) and sedlar (j)
The classical Medi-terranean world
London 1969

23 – Nizam Al-Mulk
The Book of Government
English translation by Herbert Drabe
London 1960

24 – Omar (F.)
The Abbasid caliphate
Baghdad 1969

25 – Ostrayosky (D.)
History of the Byzantine state, Engl. trans. J. Hussey
Oxford 1968

26 – Partington (J.R)
A History of Greek Fire and Gunpouder
Cambridge, 1960

27 – Pearson (J.D)
Index Islamicus
Cambridge 1961, 1962, 1967.

28 – Psellus (Michael)
Fourteen Byzantine Rulers
(Eng. trans. Penguin Ed.
London 1966)

29 – Rice (Tamara Tabot)
The Saljaks
London 1968

30 – Rosenthal (E.I.J.)
Political Thought in Medieval Islam
Cambridge 1962

31 – Rosenthal (F.)
A History of the Muslim Histography
Leiden 1968

32 – Segal (J.B.)
Edessa, the blessed city
Oxford 1970

33 – Shaban (M.A.)
The Abbasid Revolution
Cambridge 1970

34 – SEVIM (Ali)
Suriye selcuklulari
Ankara 1965

35 – The song of Roland
London 1963

36 – Le Strange (Guy)

1 – The Land of the Eastern Calipthae
London 1966

2 – Palestine Under the Muslim.
Beirut 1965

37 – Vasiliev (A.)
History of the Byzantine Empire.
Wisconsin 1964

38 – Watt (M.)

1 – Muhammad Prophet and Statesman
Oxford 1961

2 – A Hisory of Islamic Spain
Edinburgh.

39 – Widengren (Geo)
Mani and manichaeism
London 1965

40 – ZAKKAR (suhayl)
The Emirate of Aleppo, 1004–1094
Beirut 1971

41 – Zaehneav (R.C)
The Dawn and twilight of Zoroastrianism
London 1961

الفهرست

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة